الجمهورية الجزائرية الدّيمقراطية الشعبية

وزارة التّعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أحمد بن يحي الونشريسي ـ تيسمسيلت

كليّة الآداب واللغات

قسم اللّغة والأدب العربي

مخبر التّوطين: مخبر الدّراسات الأدبيّة والنّقدية المعاصرة

أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الدّكتوراه (ل م د) مشروع دراسات لغوية

تخصّص: صوتيات عربيّة موسومة بـ:

جهود البلاغيّين في الوقوف على الظّواهر الصّوتية في القرآن الكريم

إعداد الطالب: بوشيبة حبيب

إشراف:د بولعشار مرسلي

أعضاء لجنة المناقشة

الاسم واللّقب	الرّتبة	الصّفة	الجامعة
أ.د بن فريحة الجيلالي	أستاذ التّعليم العالي	رئيسا	جامعة الونشريسي– تيسمسيلت–
د. بولعشار مرسلي	أستاذ محاضر–أ–	مقرّرا	جامعة الونشريسي– تيسمسيلت–
د. بوهنوش فاطمة	أستاذ محاضر–أ–	ممتحنا	جامعة ابن خلدون – تيارت–
د.بن شيحة نصيرة	أستاذ محاضر–أ–	ممتحنا	جامعة أحمد زبانة– غليزان–
أ.د غربي بكّاي	أستاذ التّعليم العالي	ممتحنا	جامعة الونشريسي– تيسمسيلت–
أ.د مرسلي مسعودة	أستاذ التّعليم العالي	ممتحنا	جامعة الونشريسي– تيسمسيلت–

السّنة الجامعية:

1441هـ/1442هـ–2020م/2021م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

- ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾

الإسراء، الآية:88.

- يقول العماد الأصفهاني: "إنّي رأيتُ أنّه ما كَتَبَ أحَدُهُم في يَومِهِ كِتاباً إلا قالَ في غَدِهِ: لو غُيِّرَ هذا لَكانَ أَحسن ولَو زُيِّدَ ذاكَ لَكانَ يُستَحسن، ولَو قُدِّمَ هذا لكانَ أفضل، ولو تُرِكَ ذاكَ لَكانَ أجمل، وهذا مِن أعظَمِ العِبر، وهو دَليلٌ على استيلاءِ النّقْصِ على جُمْلَةِ البَشر".

القاضي الفاضل عبد الرّحيم البيبساني (596هـ)

- يقول الجاحظ: "إن الحكماء قد أجمعت أن من أخذ بالحزم وقدم الحذر، فجاءت المقادير بخلاف ما قدر، كان عندهم أحمد رأياً وأوجب عذراً، ممن عمل بالتفريط وإن اتفقت له الأمور على ما أراد".

الجاحظ، الرّسائل، تح:عبد السّلام محمّد هارون، دار الجيل، بيروت ، ط01، (1991م)، المجلّد الأوّل، ج01، ص: 121

- يقول ابن جنّي: "إنّ كثيرا من هذه اللّغة وجدته مضاهيا بأجراس حروفه أصوات الأفعال التي عبّر بها عنها".

ابن جنّي، الخصائص، تح: مُحَمَّد علي النجار، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ج01، ص: 65.

إهداء

- إلى وطني الحبيب المفدّى وأرواح الشّهداء الأبرار.
- إلى الوالدين الكريمين حفظهما الله وجميع إخوتي الأحبّاء وكلّ عائلة بوشيبة.
- إلى شريكة حياتي، وأولادي: إيمان ومريم ومحمّد مصطفى.
- إلى كلّ أصدقائي الأوفياء، وكلّ من يكنّ لي في قلبه حبّا.
- إلى كلّ من حملتهم الذّاكرة وعجزت عن حملهم المذكّرة.
- إلى من اتّسعت لذكرهم الصّدور وضاقت لذكرهم السّطور.
- إلى كلّ من كانت له بصمة في هذا البحث ومدّ لي يد العون وشدّ على أزري.

أهدي هذا الجهد المتواضع

شكر وعرفان

أوّل شكر لمن برأ النّسمة وعلّم بالقلم فعلّم الإنسان مالم يعلم، فلك الحمد والشّكر – يارب– حمدا وشكرا لا حدّ لمنتهاه، حمدا وشكرا يليق بجلال وجهك وعظيم سلطانك، ثمّ أتقدّم بأسمى تحيّات الشّكر والعرفان للأستاذ المشرف الدّكتور: بولعشار مرسلي، الذي ما فتئ بين الحين والآخر يوجّه عملي، ويرشدني بنصائحه وتوجيهاته، فضلا عن دعمه بمؤلّفات مكتبته، كما أشيد ببصمات الأستاذ الدّكتور: بن فريحة الجيلالي –رئيس مشروع الصّوتيات – الذي كانت له اليد الطّولى في حسن التّوجيه والإرشاد، كما أنوّه أيضا بجهود الأساتذة الأفاضل الدّكاترة: تركي محمّد ويونسي محمّد وجمال الدّين عبد الهادي، اللّذين رافقوا هذا البحث منذ أن كان فكرة إلى أن استوى على ماهو عليه الآن، فالشّكر موصول والعرفان ممدود لكلّ من ساهم في إنجاح هذا البحث ولو بنيّة حسنة، إذ بفضل باسقات معرفتهم وحسن تصويباتهم استوى هذا البحث على سوقه واتلأبّ أمره وصار على ماهو عليه الآن.

مقدّمة

الحمد لله الذي رفع أهل العلم بفضله ووضع من سواهم بعدله لا يعترض عليه ذو عقل بعقله ونصلي ونسلم على خير البرية سيدنا مُحَّد وعلى آله وصحبه

ممّا لا شكّ فيه أنّ العرب كانوا أمّة يتّسم لسانها بأعلى درجات الفصاحة والبلاغة والبيان، تجلّى ذلك في شعرهم وخطبهم، وظهر في مباراتهم وسجالاتهم، فحفل التّاريخ بعبق شعرهم وسحر بيانهم، وممّا زاد من بهاء لغتهم بصماتهم الصّوتية التي تُلمح في قوافيهم وإيقاع بحورهم الشّعرية، ممّا جعل مشيئة الله تسوق إليهم كتابا يتعضّد به لسانهم، ويتلئبّ عليه منطقهم، ولم تزل هذه الإوالية الأجناسية -الشّعر - خصوصا بمميزاتها الصّوتية مهيمنة بطرحها الإيقاعي عليهم، إلى أن نزل القرآن الكريم بإيقاعه المتميّز، وبلاغته اللاّمتناهية ليفتح بابا جديدا من أبواب البلاغة.

وقد شهد الدّرس الصّوتي العربي اهتماما منذ أن تأسّس على يد "الخليل بن أحمد الفراهيدي"(175هـ)، فقد تجلّى هذا الإشعاع البحثي الخليلي في أعماله وأطروحاته الصّوتية، ليتلقّف في ما بعد النّحاة هذا الزّخم المعرفي المتمثّل في البحوث الصّوتية التي أرسى دعائمها "الخليل"، فمنحوها عناية فائقة تهدف إلى استكشاف البنية الجوهرية لهذا النظام الصّوتي في اللّسان العربي في أحضان النّصّ القرآني.

وممّا يجب التّنبيه عليه أنّ البذور الجنينية للبحث الصّوتي العربي تأسّست تحت ظلّ راية القرآن الكريم، الذي ظهر بإعجازه على صعيد المستويات اللّغوية صوتا وصرفا وتركيبا، ممّا جعل هذا الرّافد المرجعي-القرآن الكريم- يتملّك نواصي الباحثين ويوعزهم إلى التوغل في معرفة كنه أسراره الإعجازية، فكان النّحاة أوّل من اقتحم ميدان البحث في الدّراسة الصّوتية، إذ انبثقت هذه الدّراسة مع "الخليل بن أحمد الفراهيدي " الذي تُعدّ أطروحاته مُرتكزًا لدى النّحويين بعده ، ثمّ احتضن هذه الدّراسة بروح الوثوقية "سيبويه"(180هـ)، ثمّ "ابن جنّي"(392هـ) و"المبرّد"(286هـ) وغيرهم من النّحويين.

وبناء على هذا الطّرح يمكن القول بأنّ مرتكزات النّحاة كانت أداة إجرائية وشرارة لتوثب البحث والتقفي عن الملامح الإعجازية في القرآن الكريم، ممّا نتج عن هذا التّقفّي التّأسيس لمخارج الحروف وصفاتها، على غرار الصّفات الضّدّية كالجهر والهمس والاستعلاء والاستفال والإطباق والانفتاح والشّدة والرّخاوة والإذلاق والإصمات، وكذلك الصّفات المنفردة كالاستطالة والتّكرار والتّفشّي وغيرها من الصّفات، ثم الوقوف بعد ذلك على الظّواهر الصّوتية المختلفة كالإقلاب والإدغام والإمالة والوقف والابتداء.

وبما أنّ القرآن الكريم بحر إعجازي لاساحل له، فإنّ هذا الصّرح الإعجازي يستجدي الزّيادة في التّنقيب عن درره ، واستخراج لآلئه، وسبر أغواره، ممّا أثار حفيظة البلاغيين لولوج البحث في هذا الزخم المعرفي للوقوف على الفاعليّة الصّوتية في القرآن الكريم من وجهة نظرهم حيث انصبّت جهودهم في الكشف عن أسباب الانسجام والاتّساق في أسلوبه ، وهيمنة الإيقاع الموسيقي المتميّز الذي يسهم في بناء نسقي عجيب، سواء في الكلمة المفردة أو الجملة القرآنية، أو السورة بأجمعها، مما يجعل هذا الأسلوب القرآني ينفذ إلى القلب فينفخ فيه مادة الحياة.

ومن الأهداف الرّئيسة التي دفعتنا لخوض غمار هذا البحث نقص تقفّي الدّراسات الصّوتية لدى البلاغيين مقارنة بالنّحاة، مع الوقوف على تلك اللّمسات البلاغية التي أضافها المتأخّرون سواء المفسّرون أو علماء اللّغة.

ولذلك نجد أنفسنا أمام مجموعة من **الدوافع والأسباب** البحثية والمتمثّلة في:

* الوقوف على أهمية الإعجاز القرآني الذي تتبدّى منه عظمة الكتاب الرباني.
* البحث عن المفارقة التي اتسمت بها البلاغة القرآنية التي أعجزت أساطين الفصاحة والبلاغة من نوابغ العرب وفصحائهم.
* تلمّس الملامح الأسلوبيّة والبلاغيّة المفضية للولوج لعتبة أسرار الإعجاز القرآني.
* فاعلية المكون الصوتي كقاعدة أولية في الإعجاز القرآني .

* الإسهام في جهود الكشف عن الإعجاز القرآني لدى البلاغيين.

* البحث عن ميزة وأثر المادة البلاغية في التكشف عن الإعجاز القرآني.

* الوقوف على روعة الحس الجمالي والتّذوّق البياني النّاتج عن سرّ الظّواهر الصّوتية في القرآن.

وعليه كان اختيارنا لعنوان البحث كالتّالي: **جهود البلاغيّين في الوقوف على الظّواهر الصّوتية في القرآن الكريم** وذلك حتّى يتسنّى لنا الإجابة عن الإشكاليات الآتية:

1 -ما هي بواعث علماء البلاغة في خوض غمار البحث في أسرار الإعجاز القرآني؟

2 إلى أين وصلت جهود البلاغيين في ربط الدرس البلاغي بالإعجاز القرآني؟

3 ماهي أهم الإضافات التي توصلوا إليها في إثراء درس الإعجاز القرآني من حيث الجانب الصّوتي؟

من هنا تبلورت إشكالية البحث متمثّلة في الوقوف على جهود البلاغيين في معرفة أسرار الإعجاز القرآني من خلال الخوض في غمار الظواهر الصوتية في القرآن الكريم ، ليتجلى لنا من خلال ذلك مدى فاعليّتهم على غرار النّحاة والقرّاء والمجوّدين في إثراء الدرس اللغوي العربي استنادا على القرآن الكريم.

ومن باب الأمانة العلمية فإنّ هناك بعض المؤلّفات الحديثة والرّسائل الجامعية التي تناولت الظّاهرة الصّوتية في القرآن، والتي اتّخذنا بعضها مرجعًا على غرار:

أ/ مُحَمَّد إبراهيم شادي، البلاغة الصّوتية في القرآن الكريم.

ب/ أحمد البايبي، القضايا التّطريزية في القراءات القرآنية(دراسة لسانية في الصّواتة الإيقاعية).

ج/ عدنان مُحَمَّد زرزور، علوم القرآن وإعجازه وتاريخ توثيقه.

د/ راضية بن عربية، الظواهر الصوتية في قراءة الإمام نافع-سورة التوبة أنموذجا-دراسة صوتية ووظيفية وتطبيقية، أطروحة دكتوراه.

هـ/أمينة إبري، دلالة الظّواهر الصّوتية عند القرّاء، دراسة وصفية وظيفية لكتاب معاني القرآن للكسائي، أطروحة دكتوراه.

أمّا المنهج المتّبع في البحث فقد اعتمدنا على الوصفي والتّحليلي والأسلوبي لأنّهم الأنسب من حيث توصيف الظّواهر الصّوتية وتحليل اللّمسات الصّوتية والبلاغية، ممّا جعل هذا البحث يأتي مقسّما إلى: مدخل وثلاثة فصول.

بالنّسبة للمدخل جاء موسوما ب: **مظاهر بلاغة اللّسان العربي قبل نزول القرآن:**

استشرفنا فيه ووقفنا على أصالة اللسان العربي قبل نزول القرآن الكريم، و أشرنا إلى ملامح البلاغة ومعاييرها في التّراث العربي قبل نزول القرآن، متمثّلة في الخطابة ولا سيما الشّعر، الذي كان سويداء القلب لديهم، فلم تكن تخل و قبيلة من القبائل العربية إلا ولديه ا شاعر يتكلّم بلسانهم ويذود عن حياضهم؛ كما تعرّضنا إلى الجانب الصّوتي الذي اصطبغت به الخطابة والشّعر عندهم.

الفصل الأوّل : **المعنون بـ:الظّاهرة الصّوتية في القرآن الكريم من المعيار النّحوي إلى الانزياح البلاغي**، وتضمّن ثلاثة مباحث تضمّن الأوّل منها ملامح إعجاز بلاغة القرآن الكريم في صدر الإسلام، ووقفنا فيه على سورتي (النّجم وفصّلت) كنموذجين تضمّنا البلاغة الصّوتية في القرآن الكريم؛ أمّا المبحث الثّاني فخصّصناه لجهود النّحاة في الوقوف على الظّواهر الصّوتية في القرآن الكريم كالإدغام والقطع والاستئناف؛ ثمّ تناولنا في المبحث الثّالث إرهاصات الدّرس الصّوتي عند البلاغيين.

الفصل الثّاني: **المعنون بـ: الظّواهر الصّوتية عند البلاغيين القدامى** ، واحتوى ثلاثة مباحث تضمّن الأوّل منها ظاهرة الفصاحة عند البلاغيين التراثيين؛ أمّا الثّاني فخصّصناه للظّواهر الصّوتية عند البلاغيين المفسّرين؛ لنُفرِد للمبحث الثّالث الظّواهر البديعية عند البلاغيين القدامى لنرى الاهتمام الكبير الذي أولاه البلاغيّون التّراثيون لهذه الظّواهر الصّوتية.

الفصل الثّالث: **المعنون بـ: الظّواهر الصّوتية عند البلاغيين المحدثين:** وتضمّن ثلاثة مباحث أيضا حيث خصّصنا الأوّل منها للتّلوينات الصّوتية (النّبر، التّنغيم، الوقف) وأثرها البلاغي

في النّص القرآني ؛ لنفضي إلى المبحث الثّاني الموسوم ب : ظاهرة الحذف وأثرها البلاغي في النّص القرآني على غرار ما تناوله "فاضل السّامرائي" في مؤلّفاته؛ لنختم الفصل ب: المبحث الثّالث: ظاهرة الإيقاع وأثرها البلاغي في النّص القرآني لنلمس تلك البصمات الصّوتية والبلاغيّة التي تجلّت في كتب العلماء المعاصرين وبحوثهم.

ارتهنّا في بحثنا هذا على مجموعة من المصادر والمراجع أهمّها: البيان والتّبيين ل"لجاحظ"(255ه)، الخصائص ل "ابن جنّي "(392ه) لاهتمامه بالفونولوجيا، وكذلك التّفاسير المتضمّنة للمباحث والرّؤى الصّوتية على غرار: روح المعاني ل "لألوسي"(1270ه)، والكشّاف ل "لزّمخشري"(538ه)، والإتقان ل "السّيوطي"(911ه)، والبحر المحيط "للواحدي"(745ه)، وكذلك الجواهر الحسان ل "لثّعالبي"(875ه)، فضلا عن بعض كتب علوم القرآن والقراءات، وخاصّة البرهان ل"لزّركشي"(794ه) وغيرها من نفائس المصادر.

أمّا بالنّسبة للمراجع فقد استندنا لاستعمال بعضها خاصّة في الفصل الثّالث المتعلّق بلمسات المحدثين البلاغية، حيث اعتمدنا على إضافات "سيّد قطب" من خلال تفسيره في ظلال القرآن وكتابه التّصوير الفنّي في القرآن، وإضافات "الطّاهر بن عاشور" في تفسيره التّحرير والتّنوير وكذلك جهود "عائشة بنت الشّاطئ" من خلال تفسيرها، و "مُحَمَّد مُحَمَّد أبو موسى" ولمساته البلاغية، وكذلك كتاب القضايا التّطريزية في القراءات القرآنية – دراسة لسانية في الصّواتة الإيقاعية ل"أحمد البايبي"، إضافة لجهود "مبارك حنون" و "سعيد بنكرّاد" ، "أحمد مختار عمر"و"عبد الله درّاز " و "صالح فاضل السّامرّائي "وغيرهم؛ ورسائل جامعية ومجلاّت ومقالات علمية.

اعترضت سبيل هذا البحث جملة من الصّعوبات والعوائق كان أهمّها:

- صعوبة تحديد البلاغيين القدامى والمحدثين.

- صعوبة حصر الظّواهر الصّوتية لدى البلاغيين للتّواشج الشّديد لهذا البحث مع ماذهب إليه النّحاة والقرّاء والمجوّدون في تقفّيهم للظّاهرة الصّوتية في القرآن الكريم، ممّا جعل البحث لا ينفكّ عن التّعرّض لجهودهم أيضا.

وفي الأخير ذيّلنا البحث بخاتمة أجملنا فيها أهم النتائج المتوصّل إليها ، راجين أن ينال إعجاب الباحثين.

ولا يسعنا بعد إكمال هذا البحث المتواضع إلاّ أن نجدّد الإشادة بدور الأستاذ المشرف "بولعشار مرسلي" لما بذله من جهد وإعانة طوال سيرورة هذا البحث إلى أن صار وآل إلى ما هو عليه الآن، فقد كانت نصائحه وتوجيهاته لنا سراجا ينير دروب البحث ويعين على الغور في أعماقه، كما لا يفوتنا أن نسديَ الشّكر لثلّة من الأساتذة الأفاضل كانت لهم بصمات وفضل في إرساء هذا البحث على هذه الشّاكلة، كما أنّ الشّكر موصول لأساتذتنا أعضاء لجنة المناقشة على قبولهم مناقشة هذا البحث وإثرائه بأفكارهم القيّمة وتوجيهاتهم الرّصينة، وقد تجشّموا عناء السّفر والقراءة، فلهم منّا أسمى معاني الاحترام والتّقدير.

ويبقى من طبيعة الإنسان النّقص والخطأ والنّسيان، فإن وفّقنا في بحثنا هذا فمن الله الذي أمدّنا بالصّبر وطول النّفس، وبثّ فينا روح التّحدّي والاصطبار، وإن أخطأنا فمن تقصيرنا، والله من وراء القصد وهو يهدي السّبيل، وهو المستعان وعليه التّكلان، والصّلاة والسّلام على سيّد ولد عدنان، النّبيّ الأمّيّ مُحَمَّد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين.

الطالب: بوشيبة حبيب

تيسمسيلت، الجزائر

07 جويلية 2021

مدخل

- عوامل نبوغ اللّسان العربي
- نماذج بلاغيّة وصوتية من التّراث العربي قبل نزول القرآن الكريم

توطئـــــة

اتّسم اللّسان العربي قبل نزول القرآن بالفصاحة والبلاغة والبيان، يظهرُ ذلك جليّا في خُطبهم وأشعارهم على وجه الخُصوص، ونظرا لأهمّية هذا الرّافد المرجعي—الشعر- الذي كان «علمَ قوم لم يكن لهم علم أصحّ منه »[1]؛ حيث اتّخذوا النّوادي لعرض هذه الأشعار ليُجيزوا ما تذوّقته نُفوسُهم، ويطرحوا أرضا مالم يرتق لمعايير جودة الكلام عندهم؛ ويُعتبر سوق عكّاظ أحد أهمّ الأسواق والنّوادي التي يرتهنُ إليها الشُّعراء لتقمُّص رداء الفصاحة والبيان والإجازة من أربابها على غِرار النّابغة الذّبياني والخنساء، ممن «يتبارون في أروع ماجادت به قرائحهم، ويُضرب لسيّدهم وأبصرهم بفنون الشّعر قبّةً من أدم ليحكم بينهم ويتخيّر أجود ما سمع ليُكتب بماء الذّهب، ويُعلّق بأركان البيت الحرام، موضع حجّهم وعبادتهم، وهذا ما سُمّي بالمعلّقات»[2].

ولما كان الشّعر عند العرب قبل الإسلام لسان حالِهم، به يُفصحون عن مكنونات نفوسهم ومُختلجات صُدورهم، فقد عُدّ هذا الأخير «الجنس الغالب في البلاغة العربية وفي المقابل ينهض على سلمية من القيم التي تؤدي الحضور الكلي للوظيفة البلاغية ومن ثم فهو المنتج للصوغ المهيمن، ولذلك فهو يسلك مسلكا كليا ولا يكاد يضارعه أو ينازعه من جهة الحضور جنس آخر؛ حيث شكّل النّموذج البدئي الذي نهضت عليه البلاغة بمجملها لكونه تأسّس على صفاء التّشكل مما مكّنه كي يصبح المبتدأ من جهة الانتظام وحظوة البقاء»[3].

ولأهمّيّة هذا العُرف اللّغوي—الشّعر—فإنّ القبائل العربيّة لم تخلُ يوما من شاعر على الأقل يتكلّم بلسانها، ويذود عن حياضها؛ فاستحال الشّعر اليوم الأداة الإجرائية التي تقوم مقام الإعلام،

---

1 – ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، تح : طه أحمد إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان)، (دط)، (2001م)، ص:34.

2 – مُحَّد حسن الطيان، كيف تغدو فصيحا، وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلامية، الكويت، ط 01، (1433هـ-2012م)، ص: 21.

3 – ناصر اسطنبول، الأجناس البلاغية-الإوالية الأجناسية في الفكر العربي القديم-، مجلة مطارحات، دار الخلدونية، مستغانم (الجزائر)، العدد: 02، السنة (2010م)، ص: 59.

وما إن ينبري الشّاعر للقول حتّى يتملّك المستمعين الذّعر من كلامه، ولا يهدأ لهم قرار حتّى يُسفر عن فحوى شعره، فإن كان مدحا وثناءً استبشروا به، وإن كان غير ذلك طفِقوا يخصفون على أنفسهم من الأوزان والنّظم ما يدرءون به عن أنفسهم وخزات الذّم والهجاء؛ وعلى حد تعبير–محمّد حسن الطيان– «الشّعر نفسه وما يتّصل به من أمر الفصاحة والبيان مكرمة من المكارم التي ينشدونها ويتغنّون بها، ويتواصون بتذوّقها ويتبارون بحفظها وصيانتها»[1].

لقد انماز اللّسان العربي متمثّلا في الشّعر بمعايير الفصاحة والبيان؛ كما تفطّن العرب لجمال سليقتهم، وأنها ذِروة سنام مجدهم وعزّهم، فكانوا بسجيّتهم وفِطرتهم يُدركون أنهم تملّكوا ناصية البلاغة والبيان، فصاروا بهذه السّجيّة يستنكفون عمّا يستثقله اللسان في النّطق وتستهجنه الأذن في السّماع، بالجنوح نحو تيسير الأداء النّطقي بواسطة الظّواهر الصّوتية كالقلب والإبدال وإدغام الحروف، والحياد عن التّجاور الصّوتي الذي يكسو النطق استثقالاً سواء في المخارج أو الصّفات، بل«إنّ واضع اللغة لماّ أراد صوغها، وترتيب أحوالِها، هجم بِفكره على جميعها، ورأى بعين تصوّره وجوه جملِها وتفاصيلِها، وعلم أنّه لا بدّ من رفضِ ما شنع تأليفه منها، نحو:هع، وقج وكق، فنفاه عن نفسه ولم يمرره بشيء من لفظه»[2]، فلم يرد في كلامهم شئ من هذا القبيل.

❖ عوامل نبوغ اللّسان العربي

تظافرت عدّة معطيات لبناء صرح اللّسان العربي، أدّت به إلى معالي التّكامل والرّقي فتعدّدت أساليب العرب في التّعبير على حسب مقتضى الحال والمقام، فأحيانا يلجأُ الخطيب أو الشّاعر إلى الطّول، وأحيانا أخرى إلى الاختصار، فضلاً عن الأساليب البلاغية المتنوّعة وخاصّة الكنايات والمجاز والحذف بهدف الإقناع، فكان المفوّه من العرب خطيبا أو شاعرا «عنايته بالكلام على حسب الحال وقدر الحفل، وكثرة الحشدِ وجلالة المقام، ثمّ لايأتي الكلام كلّه مهذبا كلّ

[1] – محمّد حسن الطيان، كيف تغدو فصيحا، ص:22.

[2] – ابن جنّي، الخصائص، تح : محمّد علي النجار، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (1372هـ–1952م)، ج01، ص: 64.

التّهذيب ومصفّى كل التّصفية، بل تجده يمزج ويشوب، ليدلّ بالنّاقص على الوافر، وبالغثّ على السّمين، ولو جعله كلّه نجرا واحدا، لبخسه بهاءه، وسلبه ماءه»[1].

كان العرب بسليقتهم يحيدون عن وحشيِّ الكلام وغريبه، وتمُجُّ طِباعهم من الكلام ماكثرت حروفه وزادت عن الثّلاثي، لاعتبار هذا الأخير- الثّلاثي- السّند التّصريفي الذي ينبني عليه تفريع الكلم في اللسان العربي، فاتّسمت وِجهة نظرهم إلى مفردات اللسان العربي «أنّ ما طال وأملّ بكثرة حروفه لا يُمكن فيه من التّصرف ما أمكن في أعدل الأصول وأخفّها وهو الثّلاثي»[2].

وممّا يوجب التّوقّف وإمعان النّظر تعامل العرب مع الحركات الإعرابية أو ما يعرف بالصّوائت: حيث إنّ التّعامل معها عندهم يجنح إلى تجنّب الثّقل في الكلام، والميل إلى الخفّة واليسر في الأداء النّطقي، بل وُجدت عوامل تؤثّر في هذه الحركات كالنّواصب ك(إنّ وأخواتها) والرّافعة ك(كان وأخواتها) ممّا مشى عليه العرف اللّغوي العربي، الذي يهدف إلى تيسير النّطق وتسهيله، فلذلك ارتأى الواضع «أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصّحيح، فـلِلتأليف بهذا القسم علقة وكيدة، لأنّ إعراب اللفظة تبعٌ لتأليفها من الكلام»[3].

وعليه يمكن القول بأنّ العرب تفطّنوا لجمال لغتهم ، وكانوا على دراية بأنّ لسانهم تحلّى بمظاهر الجمال والكمال والتّجانس، إذ تحقّق لديهم الوعي اللّغوي بأنّ «اللغة العربية كانت مبعثا أساسيا من بواعث التّفكير البلاغي عند العرب القدماء؛ فعندما نظر العربي القديم إلى لغته في مهدها الأوّل فكّر في بصيرتِه وأدرك بفطرته، وذوقه السّليم ضرورة تجنّب كل مايشين الكلام وينقص من جماله، ويحطّ من درجة بيانه»[4].

---

[1] – ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، شرح سيد أحمد صقر، دار التّراث، القاهرة، ط02، (1973م)، ص:13.

[2] – ابن جنّي، الخصائص، ج01، ص: 64.

[3] – ابن سنان الخفّاجي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، (1982م)، ص: 108.

[4] – حسين حسين أسود، ملامح من التّفكير البلاغي عند العرب في العصر الجاهلي، مجلّة التّراث العربي، مجلة فصلية محكّمة تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد:116، (1430هـ-2009م)، ص: 220.

من خلال هذا الطّرح يمكن الإشارة إلى بعضٍ من هذه العوامل التي مكّنت العربي من الفصاحة والبيان وهي:

1- عامل التّخييل: يعدّ هذا الملمح من المرتكزات التي أثرت اللّغة العربية، فقد كان العربي واسع التخييل يتّكئ على مخيّلته ويستند على لسانه لتوصيف الظواهر المختلفة والإنباء عن أفكاره فتجلّت عندهم أساليب التّشبيه والكناية والمجاز والالتفات والإطناب، الّتي يزخر بها الشّعر العربي في طيّاته وثناياه، حيث شكّلت هذه المقاربة والجمع بين الخيال والفصاحة «تجسيدا واضحا لتفكيرٍ راسخ في ذهن الإنسان العربي، وهو تفكير يميّز بين التّركيب اللّغوي الذي يضمّ بين جنباته صورة فنّية، وبين التّركيب اللّغوي العادي، ويرى أنّ التّركيب الفنّي أرقّ وأجمل وأعذب» [1].

ولعامل التّخييل في إضفاء الجمال على اللّسان العربي فضل كبير، وذلك أنّ هذه المواد استعملت لرسم معاني الشّجاعة والكرم والبطولة التي تميّز بها العرب، بل جعلوها معيارا لمظاهر الرّقيّ والامتياز والتّميّز عندهم، فكانوا يُلهمون الكلم ذا الأثر في النّفوس حتّى كأنّه وحيٌ يتنزّل عليهم، ولولا فاعليّة هذه الميزة – التّخييل – لغدا الشّعر في متناول الجميع، إذ يستطيع الشّاعر الجاهلي بمُخيّلته الوصول لتشبيه المحسوسات بغير المحسوسات، والمجهولات بالمعلومات كقول امرئ القيس: [2]

أَيَقتُلُني وَالمِشرَفِيُّ مُضاجِعي وَمَسنونَةٌ زُرقٌ كَأَنْيابِ أَغوالِ

ومن هذا المرتكز كانت مخيّلة الشّعراء العرب وسيلة لإطلاق العنان لألسنتهم يُترجمون مايجول بخواطرهم، ولم ينفكّوا عن محاكاة غيرهم في المبالغة أنّ تلك التّنزّلات والعطاءات الشّعرية مستمدّة من قوى خفيّة، أرجعوها للجنّ والشّياطين ولبعض الأمكنة كواد عبقر، وأشار القرآن إلى هذه السّمة من تفكيرهم حينما وصفوا القرآن بأنّه ضربٌ من الشّعر فقال عزّ وجلّ ردّاً

---

1 – حسين حسين أسود، ملامح من التّفكير البلاغي عند العرب في العصر الجاهلي، ص: 224.

2 – ديوان امرئ القيس، تح: مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت(لبنان)، ط05، ص: 125

عليهم:﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾[1]؛ أي لا يستطيعون الإتيان بمثله رغم أنّه مُنزّلٌ بلسانهم ولغتهم.

تطرّق ابن سينا إلى التّخييل الذي كان يهتم إليه الشّعراء أثناء شِعرهم، حيث رأى بأنّه ناجم عن حالة من الانفعال والشّعور تتملّك الشّاعر وتولّدُ فيه ملكة القول انطلاقا من حاسّة البصرالمترجمة للمواقف التي تتمثّل أمامه على اختلاف أنواعها، فيتخيّر البحر، وتنتظم القوافي ويسرح الخيال وينطلق عنان اللسان، فالشّعر عنده «انفعال من تعجب أو تعظيم أو تهوين أو تصغير أو نشاط، من غير أن يكون الغرض بالقول إيقاع اعتقاده البتة»[2]، ونظرا لتفاعل هذه العوامل من تخييل وانفعال ينبسط الشّاعر في الوصف أو المدح أو الهجاء بغية التّاثير في المتلقّي «وبذلك يكون الشّعر كلاما أساسه التّخييل وغرضه إثارة المتلقّي وتحريك انفعالاته، وهنا تظهر عبقريّة الشّاعر في جعل المتلقّي ينجذب إلى مايريده وينفر عمّا يكره».[3]

عطفا على ما قيل يكتنف تلك العبقريّة العربية الصّفاء العقلي والذّهني ، الذي تتّكئ على عنصر الخيال والتّخييل ، وتتّخذ منه مطيّةً لبلوغ أعلى مراتب الفصاحة والبيان والتّصوير ؛ فالعقل العربي آنذاك اتّسم بالحذاقة وقوّة الاستحضار، فغدا الخيال أداةً إجرائية يجنح إليها العقل أثناء الإنتاج، كما تعمل قوّة الم خيّلة على ضبط تماهيات العقل؛ إذ«من بين خواص الخيال أنه ضروري لتضبط به المعارف العقلية، فلا تضطرب ولا تتزلزل ولا تنتشر انتشارا يخرج عن الضبط، فنعم المعين المثالات الخيالية للمعارف العقلية»[4].

---

1 – سورة الشّعراء، الآية: 210،211.

2 –ابن سينا،كتاب المجموع أو الحكمة العروضية في كتاب معاني الشعر، تح: مُحَمَّد سليم سالم، مركز تحقيق التراث ونشره، القاهرة، (1969م)، ص: 15.

3 – رشيدة كلاع، الخيال والتّخييل عند حازم القرطاجنّي بين النّظرية والتّطبيق، رسالة ماجستير، إشراف:د. العلمي لراوي، جامعة منتوري، قسنطينة، السّنة: (2004م–2005م)، ص: 09.

4 – الغزالي، مشكاة الأنوار، تح أبو العلا عفيفي، الدار القومية،(1964م)، (د ط)، ص:34 .

2- عامل البيئة: تعتبر البيئة الصّحراوية من أهمّ العوامل التي أثّرت في الثّقافة العربية فشُحّ الموارد وقساوة الطّبيعة ،كانت كثيرا ماتحفّز الشّعراء والخطباء ليترنّموا مدح ا أو هجاء أوفخر ا... وغيرها من ضروب الشّعر التي تحاكي شظف عيشهم، ورغم قساوة البيئة حرارة وجفافا، إلا أنّ الشّعراء الجاهليين استطاعوا استثمار مايحيط بهم من خيل ونوقٍ وأنهارٍ وليل بهيمٍ ونخلٍ باسقات وجريان الماء في جداوله، وغيرها من الموارد الطّبيعية ، واتّخذوها مرجعاً يستمدّون منه العون في أشعارهم ويلتمسونها لشحذ هممهم وقرائحهم.

فمن عادتهم أن يقفوا على الأطلال والتّلال وأمكنة الحروب لتكون مصدر إلهام هم، ومما ورد في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة : «وقيل لكثيّر : يا أبا صخر كيف تصنع إذا عسر عليك قول الشعر؟ قال: أطوف في الرباع المخلية والرياض المعشبة، فيسهل عليّ أرصنه ويسرع إليّ أحسنه»[1]، وهذه شهادة من الشّاعر عن أثر البيئة بروافدها في الإعانة على قول الشّعر عندهم.

ولم يغب عن مخيلتهم وصف الناطق والجامد، ولا الساكن ولا المتحرك، وما يلاحظ في هذا الموضع أنْ شكّلت الطبيعة الملاذ الوحيد والأرحب للشعراء، يفصحون بوساطتها عن همومهم وأوجاعهم، وقلّة حيلتهم، وقِصر يدهم، ولا سيما أنّهم أهل الجود والكرم، والبسالة والمروءة ويعضّد هذا الطرح قول ابن قتيبة:«...إنّه لم يُستدع شاردُ الشّعر بمثل الماء الجاري، والشّرف العالي، والمكان الخَضِرِ الخالي»[2].

فهذا امرؤ القيس الذي يعدّ أوّل من وقف واستوقف وبكى وأبكى -كما ترويه أمهات الكتب- يرتهن في قصائده إلى المقدّمات الطّللية ويتذكّر الأيّام الخوالي مع الغواني كقوله:[3]

أَلا عِم صَبَاحاً أيُّها الطَّلَلُ البَالي وَهَل يَعِمْنَ مَنْ كَانَ في العَصْرِ الخَالِي

[1]- ابن قتيبة، الشّعر والشّعراء، تح أحمد محمّد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ط02، ، (1982م)، ج01، ص: 79.
[2] - المصدر نفسه، ص: 79.
[3] - ديوان امرئ القيس، ص: 122.

وهذا الالتحام بين الشّاعر الجاهلي والطّبيعة بلغ غاية التّجانس، حتى صار الواحد منهم يعجز عن القول إن جُرِّد عن جمال الطّبيعة ورونقها الماتع، فكان ديدن الشّاعر إذا عسُر عليه القول بالشّعر يلجأ إلى الطّبيعة يحاكيها ويستجدي عطاءها وفيوضاتها ، فالعوامل الطّبيعية من أهمّ مصادر الإبداع عند الشّاعر الجاهلي، تفجّر طاقاته البلاغية ويعبّر بها عن مكنوناته إذا ما ضاقت السّبل واستحكمت المغاليق وانسدّ الأفق، حتّى إنّنا نجد الشّاعر يخاطب هذه الطّبيعة خطاب العاقل اللّبيب كقول امرئ القيس: [1]

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ البَحْرِ أَرْخَى سُدُولَه عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الهُمُوْمِ لِيَبْتَلِي
وَلَيْلٍ كَمَوْجِ البَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ وأَرْدَفَ أَعْجَازاً وَنَاءَ بِكَلْكَلِ
ألاَ أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيْلُ ألاَ انْجَلِي بِصُبْحٍ وَمَا الإصْبَاحُ مِنكَ بِأَمْثَلِ
فَيَا لَكَ مَنْ لَيْلٍ كأنّ نُجُومَهُ بكل مُغار الفتل شُدّت بيذبل

توحي هذه الأبيات الشّعرية من امرئ القيس بمدى تأثّر الشّاعر العربي ببيئته وطبيعته، وما هذا التّوصيف إلا دلالة على هذا التّناغم والتّواشج المتبادل بين كلا الطّرفين ؛ فالطّبيعة بمظاهرها وبصماتها جعلت الشاعر يرتهن إليها لتكون مُلهمة لقريحته، وقادحة لزناد ذهنه، ممّا يتولد عنه الإبداع في فنّ الشّعر، ومن فرط تواصل الشّاعر العربي بالطّبيعة شبّه حياته الخاصّة بجمالها، وعلّق كل حركاته وسكناته بها، فكان من عمله أن «لطّف المعاني، واستوقف على الطّلول، ووصف النساء بالظباء والمها بالبيض، وشبّه الخيل بالعقبان والعصى»[2]، وهذا حتّى يتسنّى له الوصول إلى ذهن المتلقّي عن طريق المقاربة التّصويريّة للطّبيعة.

احتلّت النّاقة النّصيب الأوفر في الوصف، حتى صار لجلّ الشّعراء الجاهليين شعر ا حول هذا المخلوق الذي عُدّ جزءا لا يتجزّأ من حياتهم، ولا سيما أنّ النّاقة عند العرب غدت نِعم

[1] – ديوان امرئ القيس، ص: 117.

[2] – ابن رشيق، العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، تح محمّد محي الدّين عبد الحميد، دار الجيل ، بيروت(لبنان)، ط05، (1401هـ-1981م)، ج01، ص: 94.

الصّاحب في الحضر والسّفر، تُكابد معه المشاق، وتقضي معه شدّة السّفر في الفيافي والقفار ممّا ضمن لها تمام الحضور في أشعارهم، إذ يقول طرفة بن العبد: [1]

وإِنّي لأُمْضِي الهَمَّ عِنْدَ احْتِضَارِهِ   بِعَوْجَاءَ مِرْقَالٍ تَرُوحُ وتَغْتَدِي
أَمُــونٍ كَأَلْوَاحِ الإِرَانِ نَصَأْتُهَا   عَلَى لاحِبٍ كأنّهُ ظَهْرُ بُرْجُدِ
جَمَــالِيَّةٍ وَجْنَـاءَ تَـرْدِ كأنّها   سَفَنَّجَةٌ تَبْرِي لأزْعَرَ أَرْبَــدِ

صارت الطّبيعة عاملا مهمّا في تحقيق عوامل فصاحة الشاعر العربي وصرامة لسانه وعاملا من عوامل نبوغه، فكلّما ازدادت المؤثّرات الطّبيعية انعكست على الشّاعر بقوة الفصاحة والبيان واستقامة اللسان، فهو–الشّاعر– يُعايش الطبيعة بمظاهرها المختلفة فى تألقاته الشعرية، سواء ما تُقلّه الأرض من إبلٍ وخيل وأودية وأشجار ونخيل، أوما تُضلّه السّماء من كواكب ونجوم ورياح وسحاب، حيث يستغلّ الشّاعر اللوذعي هذه العوامل فيحاكيها، وبلمسات بيانية يتناولها ويقدّمها في حلّة أدبية مزركشة بأفانين وأساليب البلاغة والبيان، «فلا يخفى أنّ فصاحة العربي هي عمل من أعمال الطّبيعة المحيطة به، فإن كانت خالصة وإلا كثُر في لسانه الابتذال والتّنافر»[2].

ومن العوامل البيئية التي تركت أثرا كبيرا في نبوغ اللسان العربي عامل الجوار، فالقبائل العربية التي كانت بعيدة كلّ البعد عن الأعاجم ومن لا تُرضى عربيّته تميّز لسانها بالسّلامة والفصاحة بخلاف القبائل القريبة من الناطقين بغير اللسان العربي، فالمجاورة والملاصقة لغير العرب تقتضي المحاكاة للأعاجم في النطق، والسّهولة في التّلقّي، بحكم التّعاملات التّجارية، والمبادلات الكلاميّة والمخالطة، فالذين«كانوا يسكنون الرّيف من العرب، ويضربون على حدود الأعاجم، كانت ترقّ

[1] – ديوان طرفة بن العبد، شرح وتقديم مهدي مُحَّد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط03، (2002)، ص:20.
[2] – مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، تح عبد الله المنشاوي والمهدي البحيري، مكتبة الإيمان، المنصورة، د ط، مصر، ج01، ص: 111.

طباعهم، وتلين ألفاظهم، ويكثر الدّخيل فيها، ومن ثمّ لا يكون لهم جفاء الخلّص وقوّة ملكاتهم»[1].

ولذلك من سكن من العرب في بلاد العجم بعيدا عن شظف العيش وقساوة الطّبيعة رقّت عباراته، وسهُل أسلوبه، وصار سهل المنال والتّقليد والمحاكاة، و فقد بريق الأسلوب وجزالة العبارات وصفاء الكلمات ورونق التّأليف، وتنزّه عن معايير الفصاحة والتّأثير، مثلما وقع للشّاعر عدي بن زيد العبادي الذي نشأ وترعرع في إيوان كسرى، فوُصف شعره بالسّهولة والبساطة بخلاف ما أُلف من ضروب الشعر الجاهلي ومميّزاته[2].

ظلّ هاجس محافظة العرب على لسانهم يدفع بالقبائل العربيّة التي انماز لسانها بالسّليقة والبيان، ممّا جعلهم يدفعون بأبنائهم منذ ولادتهم إلى القبائل الموغلة في البداوة بُغية المحافظة على هذا اللسان العربي المبين، فصار لذلك أهل مكّة يدفعون بأبنائهم خارج حدودها نحو البوادي البعيدة عن الاختلاط بالوافدين، ولا سيما أنّ مكّة كانت قِبلة العرب، إليها يقصدون ويحجّون ويعتمرون، ممّا أكسب لسان قريش طمأنينة القرار والرّيادة لمختلف القبائل العربية.

صار اللسان القرشي معيارا للإبلاغ والبيان، ممّا صيّر الفصاحة تقاس بمعيار القرب والبعد عن قبيلة قريش، حيث اعتبر النّقاد أنّ«أفصح القبائل الذين هم مادّة اللغة فيما نصّ عليه الرّواة: قيس، وتميم، وأسد، والعجز من هوازن الذين يقال لهم عليا هوازن، وهم خمس قبائل أو أربع منها: سعد بن بكر، وجُشم بن بكر، ونصر بن معاوية، وثقيف »[3]، وهي قبائل قريبة من قريش وحدودها.

3- التنقيح والتّهذيب: إنّ التّمعّن في شعر العرب وخطبهم ينبئ عن الامتدادات التّاريخية للوعي الأسلوبي المهيمن على التّراث العربي، وبما أنّ أن العرب أهل فصاحة وبلاغة فإنّهم تملكوا

[1] - مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، ص: 215.
[2] - ينظر: المرجع نفسه، ج01، ص: 215.
[3] - المرجع نفسه، ص: 112.

أدوات التأثير والإقناع، ولاسيّما في تنميق الكلام وتهذيبه وتنقيحه، ورصفُ الكلام ديدنهم وعادتهم فبوادر ظهور الوعي الأسلوبي عند العرب قديمة قدم لسانهم، ويتجلى ذلك في أشعارهم وخطبهم ومساجلاتهم، فقد جادت قرائحهم وشمخت في تمييز جيد الكلام من رديئه، ونادره من بارده بُغية تصفيته وتهذيبه وتحسين أوصافه، ليتمّ إخراج الكلام في حلّة مزركشة بالبلاغة، متجانسة تستهوي إقناع المستمع واستمالته وتستجدي مكامن التّاثير فيه.

ولصيانة العمليّة الإبداعية لدى الشّعراء للمُحافظة على الصّوغ المهيمن المتمثّل في الشّعر اتّخذوا التّهذيب والتّنقيح مطيّة لا غنى عنها في ضبط الأوزان والقوافي والرّوي، ممّا دأب عليه الأوائل في رصفهم ووضعهم للكلام، ولا مناص للمتأخّرين من اقتفاء آثارهم، حيث أشار لعمليّة التّنقيح والتّهذيب امرؤ القيس، ونوّه بصعوبتها ودقّتها بقوله: [1]

أَذُودُ القَـوافِيَ عَنّي ذيَادَا ذيَاد غُلامٍ جَرِيءٍ جَوادا

فَلَمَّـا كَثرْنَ وعَنَّيْنَهُ تَخَيَّرَ مِنْهُنَّ شَتَى جِيَـادَا

فَأعْزِلُ مَرْجَانَهَا جَانِباً وآخُذُ مِنْ دُرِّها المسْتَجَادَ ا

استحسن العرب من الكلام ماكان خاليا من الحشو والإطناب ووحشيّ الكلام وغريبه وميله إلى اليسر والسّهولة، وهذا ملمح من ملامح الوعي الأسلوبي في اللّسان العربي، إذ يرى أبوهلال العسكري بأنّ معايير البناء اللّغوي التي تحلّى بها الأسلوب في عصر ماقبل الإسلام كانت ترى أنّ «الكلام–أيدك الله– يحسن بسلاسته وسهولته ونصاعته وتحسين لفظه وإصابة معناه وجودة مقاطعه ولين معاطفه واستواء تقاسيمه وتعادل أطرافه، وتشبّه أعجازه بهواديه، وموافقة مآخيره لمبادئه مع قلة ضروراته بل عدمها أصلا، حتى لا يكون لها في الألفاظ أثر»[2].

[1] – ديوان امرئ القيس، ص: 56.

[2] – أبو هلال العسكري، الصناعتين، تح علي محمّد البجاوي ومحمّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العلميّة، القاهرة (مصر)، ط01، (1371هـ–1952 م)، ص: 55.

ولمّا كان الشّعر هو العرف اللغوي المهيمن على الحاضرة العربيّة، فإنّهم يشنّعون من زلّ به اللسان في تلبيس الألفاظ لدلالة المعاني، ويذكر أنّ حسّان بن ثابت عرض شعره على مجلس النّابغة قائلا: [1]

لَنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلمَعنَ بِالضُحى وَأَسيافُنا يَقطُرنَ مِن نَجدَةٍ دَما

ولَدْنا بني العَنقـاءِ وابْنَيْ مُـــحرّقٍ فأكرِم بنا خالاً وأكرِمْ بنا ابْنَما

فعوتب حسّان بن ثابت و نُقد نقدا شديدا من قِبَل النّابغة على ضعف أسلوبه و تراكيبه وعدم الاستئناس بالألفاظ المعبّرة عن مقتضى الحال، وعُدوله عن معايير الفصاحة والبلاغة والبيان واعترض عليه النّابغة في كيفية توظيف الألفاظ التي لم تقارب المعنى، وعاب عليه افتخاره بولدِه دون من وَلدَه، وقوله: الجفنات بدل الجفان، فكأنّه –حسّان – قلّل العدد الذي يفهم منه السّامع قِصر اليد بخلاف م ا دأب عليه العرب من الكرم، وعاب عليه قوله: يلمعن في الضحى ، وارتأى أنّه لوقال بالدّجى لكان أبلغ في المديح، لأن الضيف بالليل أكثر طروقا ، واستدرك عليه قوله: يقطرن من نجدة دمًا، ورأى بأنّ الأفصح أن يقول: يجرين، لأنّ يقطرن دلّت على قلة القتل[2].

وممّا عُرف به شعراء العرب أيضا (الحوليات)، وهي القصائد التي يعكفون فى نظمه ا ردحا من الزمن، يعملون على تهذيبها وتنقيح ها أزمنة طويلة لتخليصها من عيوب الكلام وشوائبه، ويتوخّون إسداء الرّوعة البيانية على أسلوبها، فزهير بن أبي سلمى اشتهر بهذا التنقيح والتهذيب لقصائده، حتّى قيل إنّه يُنظّم القصيدة فى أربعة أشهر ويهذّبها وينقّحها فى أربعة أشهر ويعرضها على علماء قومه أربعة أشهر ليخرجها في حلّة مزركشة بأنواع الأساليب البلاغية، متلاحمة الأجزاء ومتكاملة الأطراف، حتّى يأخذ هذا المولود اللغوي الجديد بمجامع القلب ووجدانه.

[1] – ديوان زهير بن أبي سلمى، تح علي امهنّا، دار الكتب العلميّة، بيروت (لبنان)، ط03، (1441هـ-1994م)، ص: 219.

[2] – ينظر: الأصفهاني، الأغاني، تح إحسان عبّاس وآخرون، دار صادر، بيروت(لبنان)، ط03، (2008م)، ج09، ص: 252.

لهذه الأسباب نال شعره حظوة القبول لدى السّامعين لحسن أسلوبه وصياغته للعبارات، ممّا يجعل شعره متّسما بصفاء التّعبير وجودة السّبك، بل إنّ المتفحّص في صنعته وأسلوبه وألفاظه يجدها«متوهّجة، وما ذلك إلا من دقّة التّعبير وصقله، إلى أبعد غاية وصل إليها شاعر جاهلي»[1]، ممّا أثار حفيظة أبو تمّام فأشار إلى هذا التهذيب وأوقاته التي يعشقها الشّعراء في رصف كلامهم وتنميقه خاصّة جوف الليل ووقت السّحر بقوله: [2]

خُذْهَا ابْنَةَ الفِكْرِ المهَذَّبِ في الدُّجَى وَاللَّيلُ أسودُ رُقْعَةَ الجِلبَـابِ

والمقصود من قوله هذا أن النّاظم إذا أراد أن ينظم شعرا فعليه أن يتوخّى جوف الليل وتنفّس الصّبح، وذلك لأنّه أحرى في تلقّف الألفاظ واصطياد العبارات، نتيجة لميزة ذلك الوقت بالصّفاء الذّهني واجتماع الفكر لهدوء الأصوات وسكون الحركات.

رغم اتّسام إجرائية التّنقيح والتّهذيب لدى الشّعراء بالعسر، إلاّ أنّه لا مناص منها لديهم بهدف تخليص الكلام من الشّوائب التي تشوبه وتعتريه، من استبدال الألفاظ والبحث عن المناسب منها الخادم للموضوع بإيحاءاته ووقعه، وتخيّر القوافي والرّوي، فضلا عن الوزن والإيقاع، مع مراودة السّهولة واليسر حتّى يكون الشّعر أشدّ قبولا وتسليما عند السّامع، ولذلك دأبوا أثناء العمليّة التنقيحيّة التّهذيبية بالأخذ«من الكلام ما سهل، ومن القصد ما عدل، ومن المعنى ما كان واضحا جليّا يُعرف بديّا، فقد قال بعض المتقدّمين: شرّ الشّعر ماسئل عن معناه»[3].

❖ نماذج بلاغيّة وصوتية من التّراث العربي قبل نزول القرآن الكريم

وبالنّظر إلى ما أسلفنا الإشارة إليه من بعضٍ عوامل نبوغ اللسان العربي، والتي جعلت من اللغة العربية لسانا يباري ويطاول غيره من اللغات الضّاربة بثقلها في عمق التّاريخ، فإنّ العصر الجاهلي أو عصر ماقبل نزول القرآن تميّز أهله بحدّة الذكاء، وفصاحة القول، وجزالة الألفاظ

[1] -شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي–العصر الجاهلي–، دار المعارف، مصر، ط11، (1960م)، ص: 328.
[2] -ينظر: ديوان أبي تمّام، تفسير الألفاظ لمحي الدّين الخيّاط، طبعة نظارة المعارف الجليلة، (دط)، ص: 21.
[3] – ابن رشيق، العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، ص: 201.

وسرعة البديهة، وقوّة القريحة، وهذا ما انعكس بلاغة في أشعارهم ونثرهم وخُطبهم ، على غرار خطبة(*) قس بن ساعدة وشعراء المعلّقات.

1- خطبة قس بن ساعدة : تعتبر هذه الخطبة من أجود ما قيل ووصل إلينا من خطب العرب، لما تميّزت به من براعة الاستهلال وجودة القول وحسن انتقاء الألفاظ، فكان للعامل الصّوتي الدّور المحوري في هذه الخطبة، حيث أدّى الإيقاع الموسيقي مؤدّاه للتّعبير عمّا يجيش بصدر الخطيب، من أسى وتضجّر على أمّة استنكفت عن عبادة الله إلى عبادة الأوثان والأحجار، والتي استهلّها بذكر الموت والحياة، والتّذكير بعظمة الله ونعمه[1].

تجلّى عامل الصّوت متمثّلا في السّجع والإيقاع، والمراوحة بين الأصوات المهموسة والمجهورة، وهذا ما حقّق تمام حضور البلاغة الصّوتية في خطبة قس بن ساعدة، حيث تركت المقاطع الممدودة والمفتوحة في خطبته نحو: ... **اسمعوا وعُوا، فانتفعوا، مات، ومَن مات فات، آتٍ** وقوله أيضا: **فإنّ في السماء لخَبَرا، وإن في الأرض لعبَرا، مِهادٌ موضوع، وسَقْفٌ مرفوع، ونجوم تَمُور**

(*)-نصّ خطبة قسّ بن ساعدة الإياذي: أيّها الناس اسمعوا وعُوا، فإذا وعيتُم فانتفعوا، إنه مَن عاشَ مات، ومَن مات فات، وكلُّ ما هو آتٍ آت. أمّا بعد: فإنّ في السماء لخَبَرا، وإن في الأرض لعبَرا، مِهادٌ موضوع، وسَقْفٌ مرفوع، ونجوم تَمُور، وبِحارٌ لا تَغُور، وليل داج، وسماء ذات أبراج، أقسم بالله قُسٌّ قَسَمًا حتْما، لا كاذبا فيه ولا آثِما، لئِن كان في الأرض رِضًا ليَكونَنَّ بعده سخط، وإن لله ـ عزت قدرته ـ دينا هو أحبُّ إليه مِنْ دينكم الذي أنتم عليه، وقد أتاكم أوانه، ولحقتكم مدته، ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أَرَضُوا بالمقِام فأقاموا، أَمْ تُرِكوا فناموا؟ ثم أنشد:

في الذاهِبِينَ مِنَ الأوَّلِيـ　　نَ مِنَ القُرونِ لنا بصائِرْ
لما رأيتُ مَـــــوارِدًا　　للموتِ ليس لها مَصَادِرْ
ورأيتُ قومِيَ نحوَها　　يَسْعى الأصَاغِرُ والأكابِرْ
لا يَرجع الماضي إليَّ　　ولا منَ الباقين غابـــــرْ
أيقَنْتُ أنّي لا محا　　لَةَ حيثُ صار القومُ صائِرْ

ينظر: الجاحظ، البيان والتّبيين، ج01، ص: 309.

[1] - ينظر: الجاحظ، البيان والتّبيين، تح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ط07، (1418هـ-1998م)، ج01، ص: 308، 309.

وبِحارٌ لا تَغُور، وليل داج، وسماء ذات أبراج، أثرا جليّا لحرف الرّاء يعكس شجاه وتضجّره وخوفه على مستمعيه الذين أوغلوا في الشّرك وحادوا عن معالم الحنيفيّة السّمحاء[1].

أمّا بالنّسبة للألفاظ المستعملة فكانت موحية ذات دلالات عميقة، تخاطب النّفوس العاتية المتمرّدة، وتقرع القلوب الصّلبة على غرار قوله: مِهادٌ موضوع، وسَقْفٌ مرفوع، ونجوم تَمُور، وبِحارٌ لا تَغُور، وليل داج، وسماء ذات أبراج، وهذا التّوظيف لهذه الكلمات العميقة يعمل على حمل النّاس للرّجوع إلى جادّة الصّواب ، كما نلمس الهندسة الصّوتية في قافية الأبيات، إذ يعمل رنين حرف الرّاء أيضا في الألفاظ: بصائرْ، مَصَادِرْ، والأكابِرْ، غابِرْ، صائِرْ، اهتزازات تحاكي ذلك الاضطراب الدّيني السّائد في مجتمعهم[2].

كما تبدّى المستوى التركيبي متمثلا في الخبر والإنشاء، وتوظيف المحسنات البديعية والصّور البيانية من طباق نحو: أحياء وأموات، وجمع وشتات ، وكذلك المقابلة كقوله: «هو الله الواحد المعبود ليس والد ولا مولود »، وهذه الصّور البيانية والمحسّنات البديعية تزداد جمالا واتّساقا بفاعليّة أداء السّجع الذي يُكسبها تناغما صوتيا وتراتبيّة أسلوبيّة تتأتّى منها الدّلالة العامّة لبناء الخطبة التي تهدف إلى حمل المتلقّين على العودة إلى رشدهم والإنابة إلى ربّهم.

وإن كانت هذه الخطبة التي أشرنا إلى بعضٍ من ملامحها الأسلوبيّة في عجالة، إلا أنّ الشّعر كان سُويداء القلب في المجتمع العربي آنذاك، ولم يستطع منازعته ولا مضارعته في حضوره أيّ لون من ألوان الأجناس الأدبيّة الأخرى، فتمايزت فنونه عندهم وتعددت تحكمها في ذلك الأغراض المختلفة كالهجاء، والمدح، والفخر، والرثاء، والغزل، والوصف، والحكمة والموعظة، والاعتذار وغيرها.

---

[1] - ينظر: مُحَمَّد فتوح احمد، ظاهرة الإيقاع في الخطاب الشعري، مجلة البيان–الكويت، العدد: 288، السّنة: (1990م)، ص: 59.

[2] - ينظر: المرجع نفسه، ص: 59.

وبما أنّ العرب لغتهم شاعرة فقد تملّكوا أدوات التّأثير والإقناع البلاغية فيه من أجل إنجاح العمليّة الإبلاغيّة التّأثيريّة ، فجنحوا إلى وضع معايير الفصاحة في تأليف الكلمة المفردة والكلام عموما، وابتعدوا عن ما يُستثقل في أذن السّامع من سماجة الألفاظ وتنافر الكلمة إلا ما شذّ فضلا عن سلاسة الأسلوب وعذوبته، وخلوّ الكلام من وحشي الألفاظ وغريبها.

كان شأن العرب في بناء الكلام «اطراح الأبنية التي يصعب النّطق بها لضرب من التّقارب في الحروف، فلا يكاد يجئ في كلام العرب ثلاثة أحرف من جنس واحد في كلمة واحدة لحزونة ذلك على ألسنتهم وثقله، وقد روي عن "الخليل بن أحمد الفراهيدي" قال: سمعنا كلمة شنعاء وهي: الهعخع، وأنكرنا تأليفها»[1]، ومردّ الشّناعة لدى "الخليل" أنّ دأب العرب في النّطق الميل إلى الخفّة والسّرعة لتيسير الأداء النّطقي، وهذه الكلمة مستثقلة على المتلقّي كونها كلّها حروف حلقيّة ذات مخرجٍ واحد.

ولتحقيق السّرعة في النّطق وتجنّب النّقد استحسن العرب حسن التّجاور الصّوتي وأثره الرّنّان في النّطق والسّمع، فالكثير من الحروف العربيّة لا يُستحسن تجاورها، لصعوبة نطقها وعسر تلقّيها، وممّا أُثرعنهم من خلال تُراثهم أنّ «القاف والكاف والجيم فلم تتجاور في كلامهم البتّة، لم يأت عنهم قج ولا جق، ولا كج ولا جك، ولا قك ولا كق »[2] ، ممّا جعل هذا الوضع اللغوي من المرتكزات العاملة على تفعيل سهولة النطق على اللسان وجمال الوقع على الآذان.

2- **عنترة بن شدّاد** :كان للمواقف المتعدّدة التي تعتري شعراء الجاهليّة سببا في ترسيخ قدمهم للإفصاح عن مختلجات صدورهم ، والإعراب عن مواقفهم والذّب عن أنفسهم أو قبيلتهم، بكلّ ما أوتوا من بلاغة، ولو أنّهم عبيدٌ وُضعاء؛ فهذا عنترة بن شدّاد لم يكن بادئ أمره إلا التّمثّل ببيت أو بيتين من الشّعر، فما إن عوتب وانتُقص لسواده ودمامته ورقّه كونه مملوكا [3] حتّى تحوّل

---

[1] - ابن سنان الخفّاجي، سر الفصاحة، ص:57.

[2] - المصدر نفسه، ص: 57.

[3] - الأعلم الشّنتمري، أشعر الشّعراء السّتّة الجاهليّين، تح محمّد عبد المنعم خفّاجي، مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي، مصر، ط03، (1382هـ-1963م)، ج02، ص: 107.

هذا العبد الوضيع إلى شاعرٍ مكتسحٍ بشعره قبّة الفصاحة والبلاغة والبيان، بمعلّقة تمتاز بعذوبة الأسلوب، وسهولة اللّفظ مع جزالته، ورقّة المعنى ودقّته، تُنبئ عمّا يجوس بداخله من كبتٍ وعذابٍ نفسي مطلعها: [1]

هلْ غادرَ الشُّعــراءُ منْ متردَّمِ أم هلْ عرفتَ الدارَ بعدَ توهّمِ

أَعْيَاكَ رَسْمُ الدَّارِ لَمْ يَتَكَلَّمِ حَتَّى تَكَلَّمَ كَالأَصَمِّ الأَعْجَمِ

يَا دَارَ عَبْلَـةَ بِالجَــواءِ تَكَلَّمِي وَعِمِّي صَباحاً دَارَ عبْلَةَ واسلَمِي

كما عُرف عن هذا الشّاعر تميّزه بجودة النّظم في مختلف الأغراض الشّعريّة ، فقال عن مكارم الأخلاق ومحاسنها: [2]

ولقد أبيتُ على الطَّوى وأظلهُ حتى أنال به كريمَ المأكلِ

جاءت ألفاظ الشّاعر معبّرة عن عزّة النّفس وشُموخ الرّوح والأنفة التي تمنعه عن المسألة وتدفعه لحفظ ماء وجهه، رغم استعباده واستبعاده من قِبل أهله وعشيرته، كما أُثر عنه على غِرار أقرانه من الشّعراء جودة كلام وقوّة سبك واستحضار، فقد استطاع أن يجمع بين الغزل والشّجاعة والبأس في آن واحد بقوله: [3]

ولقدْذَكَرتُكِ والرّماحُ نَواهِل مِنّي وبِيضُ الهِند تَقطُر مِن دَمي

فَوَدَدتُ تَقبيلَ السُيــوفِ لأَنَّها لَمَعَت كَبارِقِ ثَغرِكِ المتَبَسِّم

تُبيّن هذه الأبيات مدى القوّة الذّهنية التي اتّصف بها الشّاعر حتّى تمكّن من هذا الوصف الرّائع بفصاحةٍ متناهيةٍ في البيان في خِضمّ حرب مستعرة، حمي وطيسها واشتعلت نارها، فهو يبرهن خالص حبّه ووفائه لمحبوبته عبلة؛ فدلّ هذا السّبك والاستحضار للمؤكّدات (قد ولقد) في تلك الظروف الملتبسة بالصّعاب والأهوال على بلاغته وفصاحته.

[1] – ديوان عنترة بن شدّاد، مطبعة الآداب، بيروت (لبنان)، ط04، (1893م)، ص: 80.

[2] – المرجع نفسه، ص: 68.

[3] – المرجع نفسه، ص: 84.

3- امرؤ القيس بن حجر : يعدّ امرؤ القيس ممّن تملّك ناصية الفصاحة والبيان في العصر الجاهلي، حيث يُنسب له تطوير الشّعر وأسبقيّته إليه، إذ يعتبر بمعيّة المهلهل بن ربيعة«أوّل من نهج سبيله، وسهّل الطّريق إليه »[1]؛ ونظرا لما اتّسم به شعر امرئ القيس من الجودة لتميّزه بقوّة البيان ورصف الكلام وانتقاء الألفاظ وتحبير الأسلوب، ممّا جعل شعره يجوب المشارق والمغارب، ويكون معيارا لجودة الشّعر من عدمه ، وذلك لخواص ومزايا انفرد بها مكنته من التّربع على قمة الفصاحة والبيان، حيث عُرف امرؤ القيس بأنّه ذو «عقل بياني كبير ، من العقول المفردة التي خلقت خلقها في هذه اللغة، فوضع في بيانها أوضاعا كان هو مبتدعها والسّابق إليها، ونهج لمن بعده طريقتها في الاحتذاء عليها، والزيادة فيها والتّوليد منها»[2]، وهذا مالم يؤثر عن غيره.

ونظرا لهذه الأسباب انماز شعره بالفصاحة وحظي بكمال القبول والتّلقّي ، فكان لمعلّقة امرئ القيس وما انضوت عليه من النّضج اللغوي ومعايير البلاغة وحسن الطّلاوة وقوّة التّأثير الدّلالة الكبرى على ميزة هذا الشّاعر وفصاحته ومدى تحكّمه في آلة البلاغة والبيان؛ فقد«سبق العرب إلى أشياء ابتدعها استحسنها العرب واتّبعه فيها الشعراء، منها استيقافه صحبه، والبكاء في الدّيار ورقّة النّسيب، وقرب المأ خذ وشبّه النّساء بالضّباء والبيض، والخيل بالعقبان والعصيّ، وقيّد الأوابد وأجاد في التّشبيه»[3].

ومن معالم فصاحة امرئ القيس إتيانه بما لم يألفه الأوائل كتوظيفه مشابهة شيئين بشيئين حيث شبّه الطّريّ من قلوب الطّير بالعنّاب، واليابس منها با لحشف البالي في قوله[4]:

كأنّ قُلوبَ الطَيرِ رَطباً وَيابِساً لَدى وَكرِها العُنّابُ وَالحَشَفُ البالي

---

[1] -الجاخظ، الحيوان، تح عبد السّلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط02، (1384هـ-1965م)، ج02، ص: 74.

[2] -سمك مُحَمَّد صالح، أمير الشعراء في العصر القديم، امرؤ القيس، دار نهضة مصر للطبع والنشر،القاهرة، (دط)، ص: 11.

[3] - ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، ص: 42 .

[4] - ديوان امرؤ القيس، ص: 129.

كما كان شاعرا واسع الأفق في انتقاء الألفاظ ذات الدّلالة العميقة والإيحاءات القويّة المعبّرة عن المواقف حتّى تصير كأنّها رأي العين كقوله: [1]

وقد أَغْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وُكَنَاتِهَا بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأوَابِدِ هَيْكَلِ

فالشّاعر جنح في قوله: قَيْدِ الأوَابِدِ إلى استعمال لفظة قيد واستحسنها بخلاف غيرها من الكلمات نحو مانع الأوابد، وهذا الانتقاء لهذه الكلمة في التّوظيف «أبلغ من- مانع الأوابد عن جريها-والأصل في ذلك ما أفاده التّشبيه في الاستعارة من البيان إليه»[2].

وممّا يلفت الانتباه أنّ امرئ القيس قرع باب الظّواهر الصّوتية بظاهرة الإدغام في معلّقته ممّا أضفى عليها تجانسا في التّركيب، وإيقاعا وجرسا في السّمع، وسلاسة في النّطق، وإيضاحا للدّلالة، ممّا ينمّ عن قبضة محكمة من الشّاعر في حسن تصرّفه في الكلام، حيث جنح إلى تبيان ما عليه فرسه من قوّة المراس، عن طريق الجمع بين الصّفات المتضادّة الإقبال والإدبار والكرّ والفرّ عن طريق الإدغام بقوله: [3]

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعــــــاً كَجُلْمُوْدِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ

كَمَيْتٍ يَزِلُّ اللَّبْدُ عَنْ حَالِ مَتْنِهِ كَمَــــــا زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بِالمُتَنَــزَّلِ

فتوالي الرّاءات المدغمة في قوله: مِكَرٍّ مِفَرٍّ هي للتّعبير عن استمراريّة الرّكض وكثرته والمبالغة فيه، وغرض الشّاعر من هذا الإدغام التّمثيل لما هي عليه فرسه من قوّة وسرعة، وكثرة الحركة تُحاكيها الرّاء لما لها من صفات الاضطراب وسرعة الحركة في الفم، وقوّة الاهتزاز عند النّطق ولذلك حرف الرّاء«من أبرز صفاتها الرّبربة أي التّحريك، وسطح اللّسان شديد الاهتزاز عند النّطق بها»[4]، وهذا ما يحاكي تلك الجلبة التي يحدثها الفرس في كرّه وفرّه.

1 - ديوان امرؤ القيس، ص: 118.

2 - ابن سنان الخفّاجي، سر الفصاحة، ص: 119

3 - ديوان امرؤ القيس، ص: 119.

4 - أحمد زرقة، أسرار الحروف، دار الحصاد للنّشر والتّوزيع، دمشق (سوريا)، ط01، (1993م)، ص:127.

وأمّا تشبيه الفرس بالصّخرة المتدنّية من الأعالي بإدغام الطّاء في الطّاء في قوله (حطّه) هو من قبيل التّعبير عن المبالغة في قوّة وسرعة هذا الفرس واندفاعها، حتّى كأنّها صخرة مُلقاةٌ من الأعالي نحو الأسفل.

ومن ملامح الفصاحة وقوة التّمثيل والتّصوير أنّ الشّاعر استطاع أن يجعل من الصّفات المتضادّة «الكرّ والفرّ والإقبال والإدبار مجتمعةً في قوله لا في فعله لأنّ فيها تضادا، ثمّ شبّهه في سرعة مرّه وصلابة خلقه بحجرٍ ألقاه السّيل من مكانٍ عالٍ إلى حضيض »[1]، وهذا الارتهان للحروف لمقاربة المعنى والدّلالة على الأحداث هو من سمت العرب وصنيعهم في حديثهم في باب مقابلة الألفاظ بما يشاكل الأصوات، وقد وصفه ابن جنّي بأنه باب«عظيم واسع ونهج متلئب عند عارفيه مأموم، وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر عنها فيعدلونها بها ويحتذونها عليها وذلك أكثر مما نقدّره وأضعاف ما نستشعره»[2].

وممّا جعل بعض النّقاد يتعجّبون من فصاحة امرئ القيس قصده إلى تنافر الحروف في قوله[3]:

غَدائِرُها مُستَشزِراتٌ إِلى العُلا تَضِلُّ العِقاصَ في مُثَنّىً وَمُرسَلِ

فرغم ما قيل عن هذا البيت من تنافر الحروف في قوله : (مستشزرات)، وذلك للصّعوبة الواقعة أثناء النطق بالكلمة، والتي نشَأَت من اجتماع حروفٍ متقاربة في الصّفات هي: التاء والسين والشين والزاي وذلك «لتوسُّط الشين وهي مهموسة رخوة بين التاء، وهي مهموسة شديدة، والزاي وهي مجهورة»[4] ، مما يتسبّب في ثقل في النطق، واستثقال في السّمع معا، وهذا ما

[1] – الزّوزني، أبو عبد الله الحسين بن أحمد، شرح المعلّقات السّبع، تح الدّار العالميّة، (1413هـ-1992م)، (دط)، ص: 32،33.

[2] – ابن جني، الخصائص، ج02 ، ص: 157.

[3] – ديوان امرؤ القيس، ص: 115.

[4] – السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تح جاد المولى بك وآخرون، مكتبة دار التراث، القاهرة (مصر)، ط03، ج01، ص: 185.

تعمل البلاغة على الحياد عنه؛ إلا أنّ هذا الشّاعر الفذّ ونظرا لما تملّكه من خصائص أسلوبيّة وفنون التّصرّف في الكلام سمقت به إلى أعلى درجات البلاغة والبيان.

ووفقا لهذا التّعامل مع الصّوت نلاحظ أنّ الشّاعر يُفاوض المقام بما يُناسبه من المقال، إذ إنّ «قليلا من التّفكير يهدينا إلى أنّ هذا التّنافر لازمٌ لزوما فنّيّا مؤكّدا، لأنّه ينطبق على الصّورة التي يريد الشّاعرُ أن يرسُمها لهذه الخصلات الكثيرة الكثيفة الثّقيلة التي تتزاحم على رأس محبوبته وترتفع إلى أعلى، ويغيب باقي الشّعر الكثيف تحتها من مفتول انطلق من هنا وهناك »[1]، فالشّاعر استطاع ترجمة الموقف المشاهَد أمامه من صفة الشّعر وجماله وكثافته وانسيابه، وفق «إيقاع هذه الكلمة من اضطرابٍ، وفي جرسها من ثقلٍ يحكي كثافة الصّورة المؤدّاة وتموّجُها »[2]، عن طريق الأصوات المتنافرة المستثقَلة وجرس الحروف.

4- **النّابغة الذّبياني** : يعدّ النّابغة ممّن له قدم صدق في الفصاحة والبيان أيّام الجاهلية، فاشتهر بحسن التّصرّف في الكلام وانتقاء الألفاظ وجودتها، حيث وُصف الشّاعر بأنّه «كان أحسنهم ديباجة شعر، وأكثرهم رونق كلام، وأجزلهم بيتا، كأنّ شعره كلام ليس فيه تكلّف»[3].

وممّا يُحسب لهذا الشّاعر أنّه كان الملاذ الذي يحتكم إليه الشّعراء ويعرضون عليه شِعرهم فيجيز جيّده ويردّ قبيحه، على غرار ما وقع لحسّان بن ثابت في حضرته؛ ومردّ هذا الرّجوع والاحتكام إليه نابع من بلاغة شعره وجودته، فتأليفه للكلام يمتاز «ببلوغه غاية الحسن والجودة ونقاوته من العيوب، وجودة مطالع قصائده وأواخرها ، وكان البدو من أهل الحجاز يحفظون شعره ويفاخرون به لحسن ديباجته وجمال رونقه وجزالة لفظه وقلّة تكلّفه »[4]، ممّا جعل شعره يبقى

[1] – محمّد النّويهي، الشّعر الجاهلي، منهج في دراسته وتقويمه، الدّار القوميّة للطّباعة والنّشر، القاهرة، مصر، ص:44، 45.
[2] – المصدر نفسه، ص: 45.
[3] – ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، ص: 42
[4] – الأعلم الشّنتمري، أشعر الشّعراء السّتّة الجاهليّين، ج01، ص: 177.

مسبارا ومعيارا في الفصاحة والبيان ، ومن معالم فصاحة النّابغة و حسن نظمه وجودة تأليفه قوله[1]:

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لاَ تَلُمُّهُ عَلَى شَعَثٍ أَيُّ الرِّجَالِ المهذّبُ

وقد بيّن أبو هلال بأنّ هذا البيت الشّعري «ليس له نظير في كلام العرب »[2]، لما اشتمل عليه من معايير الفصاحة وحسن التّأليف الجامعة بين «العذوبة والجزالة والسّهولة والرّصانة، مع السّلاسة والنّصاعة، واشتمل على الرّونق والطّلاوة، وسلِم من ضعف التّأليف، وبعُد عن سماجة التّركيب»[3].

ومن معالم الفصاحة في شعر النّابغة حضور المستوى الصّوتي في نظمه، حيث كان يوظّف الشّعر وفق ما يقتضيه مقام الحديث من اعتذار، أو مدحٍ، أو هجاء، وغيرها من أغراض الشّعر؛ ولو تأمّلنا ما قاله بسبب الحرب التي نشبت بين الغساسنة ملوك الشام وبني عمومته ذبيان التي ينتسب لها، والتي مُنيت فيها بهزيمة نكراء، قُتل فيها الرجال وسُبيت النساء فانبرى النابغة لمدح الغساسنة على حساب عشيرته بقصيدة نكتفي بالوقوف على مطلعها: [4]

كِليني لِهَمٍّ يا أُمَيمَــةَ ناصِبِ وَلَيـلٍ أُقاسيهِ بَطـيءِ الكَـواكِبِ
تَطاوَلَ حَتّى قُلتُ لَيسَ بِمُنقَضٍ وَلَيسَ الَّذي يَرعَــى النُجومَ بِآئِبِ
وَصَدرٍ أَراحَ اللَيلُ عازِبُ هَـمِّهِ تضاعَفَ فيهِ الحُزنُ مِن كُلِّ جانِبِ

حيث نرى الشّاعر بفصاحته حشد من الألفاظ أرصنها وأبلغها ممّا يقتضيه مقام المدح على غرار(ناصب، النّجوم، الكواكب،عازب) حيث اتسمت هذه الألفاظ بكمال الفصاحة وحسن التّوظيف والاستعمال، ممّا يعكس جودة السّبك من قِبل النّابغة، وحسن رصفه للألفاظ وترتيبها.

1 – ينظر: ديوان النّابغة الذّبياني، تح عبّاس عبد السّاتر، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط03، (1996م)، ص: 28.
2 – أبو هلال العسكري، الصّناعتين، ص:57.
3 – المصدر نفسه، ص:57.
4 –ينظر: ديوان النّابغة الذّبياني، ص: 29.

ومثلما عُرف النّابغة بحسن انتقاء الألفاظ، عُرف بحسن الانتقاء للأصوات مع حسن الإيقاع، حيث عدل إلى الحروف اللّينة في قصيدته هذه، للوقوف على مدى الحالة النّفسية التي يعانيها جرّاء معاناته النّفسيّة، ولا ريب أنّ «الشّاعر يستغلّ الطاقة الكامنة في أصوات اللّين فيوظّفها بكثافة في المطالع الطّللية، ليجعل المدّة التي يستغرقها البيت أطول من المدّة التي يستغرقها نظيره، الذي تقلّ فيه أصوات اللّين، إنّها وسيلة لغويّة تمكّنه من إطالة مدّة استحضار ذكرياته في هاتيك الدّيار البوالي، والتّلذّذ بتذكّر ذلك الماضي والأيّام الخوالي»[1]، عن طريق المدود المتوالية التي تعكس تلك الآلام والأحاسيس الرّهيبة التي تجوس بداخله.

ووفقا لهذه الرّؤية الصّوتية يمكن القول: إنّ العرب الجاهليّين فضلا عن تملّكهم أدوات التّأثير البلاغية من انتقاء الألفاظ، وحسن التّركيب والاستئناس بالكلمات الدّالة المعبّرة المفضية إلى الأذهان، فإنّهم كانوا على دراية بفاعليّة التّأثير الصّوتي في أشعارهم النّاجم عن التّصريع والأوزان والقافية والرّوي، وغيرها من مكوّنات الكلام، ولذلك يعمدون إلى تجزيء «الألحان الموزونة على الأشعار الموزونة، فتضع موزوناً على موزونٍ»[2]، وهذا من أسرار التّأثير الصّوتي لديهم.

5- **الأعشى الكبير**: هو ميمون بن قيس عُرف بلقب الأعشى الكبير لضعف بصره، ولُقّب أيضا بصنّاجة العرب لجودة شعره ، وهو ممّن أحكم قبضته من شعراء العصر الجاهلي على عمود الفصاحة ، وتميّز بجزالة أسلوبه وتصرّفه في استخدام الحروف والألفاظ ، كما عُرف عنه بأنّه«من أرقّ الشّعراء وأحلاهم موسيقية »[3]، وقد عدّه صاحب طبقات فحول الشّعراء في الطّبقة الأولى، بل ذكر بأنّه نازع حتى امرئ القيس في إمامة الشّعر[4]، وكانت القبائل العربيّة تخشى صرامة لسانه لتسلّطه، فقد عمدت قريش جاهدة لصرفه عن لُقيا النّبي صلّى الله عليه وسلّم مخافة أن

---

1 - محمّد بن يحي، خصائص الأسلوب في شعر النّابغة الذّبياني، رسالة دكتوراه، إشراف:د محمّد خان، جامعة محمّد خيضر، بسكرة، (1436هـ-2015م)، ص: 122، 123.

2 - الجاحظ، البيان والتّبيين، ج01، ص: 385.

3 - محمّد النّويهي، الشّعر الجاهلي، ج01، ص: 48.

4 - يُنظر: ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، ص: 42.

يؤمن به، فيكون سوط عذابٍ بلسانه وفصاحته عليهم [1]، وبطبيعة الحال هذا يدل على مدى تمكّن الشاعر من نظم الكلام وإتقانه صياغته للشعر.

وممّا أجاد فيه وتميّز بنظمه وصفُ الطّبيعة إذ يقولُ: [2]

مـا رَوْضَةٌ مِـنْ رِياضِ الحَزْمِ مُعشبةٌ خَضراءُ جَادَ عَلَيهَا مُسْبِلٌ هَطِلُ

يُضَاحكُ الشَّمسَ مِنهَا كَوكَبٌ شَرِقٌ مُـؤَزَّرٌ بِعَمِيمِ النَّبْتِ مُكْتَهِلُ

يَوْماً بِأَطْيَبَ مِنْهَا نَشْـــرَ رَائِحَـةٍ وَلاَ بِأَحسَنَ مِنهَا إِذْ دَنَا الأُصُلُ

حتّى إنّ ابن قتيبة وصف ماقاله الأعشى في وصفهالطّبيعة ورونقها وجمالها بهذه الأبيات الشّعرية بأنّه أجود ما قيل في الوصف[3].

ومن أجود شعر الأعشى وصفه لنفسه وأصحابه أثناء وحين نشوتهم وسُكرهم بقوله: [4]

وَقد غَدَوْتُ إِلَى الحَانُوتِ يَتْبَعُنِي شَاوٍ مِشَلٌّ شَلُولٌ شُلْشُلٌ شَوِلُ

فِي فِتْيَةٍ كَسُيُوفِ الْهِنْدِ قد عَلِمُوا أَنْ لَيْسَ يَدْفَعُ عَنْ ذِي الحِيلَةِ الحِيَلُ

نَازَعْتُهُمْ قُضُبَ الرَّيْحَانِ مُتَّكِئًا وَقَهْوَةً مُزَّةً رَاوُوقُهَا خَضِلُ

فمن المؤاخذات التي أُخذت على الأعشى الجو اللغوي المشحون بصوت الشّين في قوله: (شَاوٍ مِشَلٌّ شَلُولٌ شُلْشُلٌ شَوِلُ)، حيث رأى بعض النّقاد هذه الشّنشنة عبثاً من الشّاعر لأنّها تصبّ كلّها في شئ واحدٍ وهو وصف تلك النّشوة التي عاشها الأعشى برفقة هؤلاء الشّباب المغمورين.

ولكن المتأمّل في شعره وبالوقوف على الجوّ العام للقصيدة، يُدرك تلك الحالة النّفسيّة التي تملّكت الشّاعر من المرح اللاّمتناهي الذي جعله في حالة نفسيّة تستجدي تكرارا يحمل في ثناياه دلالات شعورية مميّزة تفرضها طبيعة السّياق والموقف المعاش من الشّاعر ورفقته المنتشين بالخمرة إنّه

[1] – يُنظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي(العصر الجاهلي)، ص: 337.

[2] – ديوان الأعشى، (د تح)، (دط)، (دتا)، ص:57.

[3] –ابن قتيبة، الشّعر والشّعراء، ج01، ص: 266.

[4] – ديوان الأعشى، ص:59.

مقام لا يترجمه إلا طبيعة الألفاظ وجرس الحروف، والأعشى من خلال شنشنته هذه يصبو إلى ترجمة الأفعال إلى أقوال، والشّاعر بفصاحته يتجاوز قوانين الكلام بخلاف غيره، وما من «شئ يُضطرّون إليه إلا وهم يُحاولون به وجها»[1] من وجوه التّعبير عن مُرادهم.

فمن معالم فصاحة الشّاعر أنّه استطاع رصّ الكلمات الخمس المتجانسة وشَحَنها بالشّينات، وقَرنَها بحسن الإيقاع وتجانُس الأصوات، حتّى يجعل السّامع يرى شخصهم ويسمع مُنادمتهم، فكأنّ الألفاظ استوسقت له للدّلالة على المعنى، عن طريق توظيف صوت الشّين المتّسم بالتّفشّي وانتشاره في الشطر الثاني، تحاكي انتشار المرح وتفشّيه بين الثّلّة المتنادمين بصفة الحرف المهيمن على الشّطر الثّاني من البيت.

يتميّز حرف الشّين بصفات التفشِّي والصّفير والاستطالة التي تُحاكي خفّتهم ونشوتهم وطول منادمتهم، إذ إنّ«ترتيب الحروف على هذه الصّورة في الشّطر الثّاني لم يأت مصادفة كما هو واضح، إذ إنّ الصّنعة بادية ظاهرة، وما كان ذلك إلا لأنّ الشّاعر يطلب الأثر ويتوخّاه عبر إنتاجه للبيت، شعوريا أو لاشعوريا»[2]، وهذا من أعظم أبواب الفصاحة والبلاغة وهي القدرة على مقابلة الألفاظ بما يُشاكِل أصواتها من الأحداث[3].

يمكن القول بأنّ شعر الأعشى انماز بمعايير الجمال لحسن ترتيبه وجودة نسجه من «رونق الحسن وطلاوة الأسلوب والبراعة في وصف الخمر والإجادة مع الطّول، ولقوّة طبعه وجودة شعره سُمّي صنّاجة العرب، حتّى ليُخيّل إليك إذا أنشدت شعره أنّ آخر ينشدُه معك، ولجلالة شعر الأعشى وأثره بين العرب كان يرفع الوضيع الخامل ويضع الخامل الشّريف»[4].

[1] –سيبويه، الكتاب، تح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة (مصر)، ط03، (1408هـ–1988م)، ج01، ص: 32.

[2] – منذر العيّاشي، الأسلوبيّة وتحليل الخطاب، طبعة مركز الإنماء الحضاري، حلب(سوريا)، ط01، (2002م)، ص: 46.

[3] – يُنظر: ابن جنّي، الخصائص، ج02، ص: 157–168.

[4] – الأعلم الشّنتمري، أشعر الشّعراء السّتّة الجاهليّين،ج02 ، ص: 258.

وعوداً على بدءٍ ، فإنّنا لن نستطيع سبر أغوار الفصاحة وتتبّعها لدى العرب القدماء برمّتهم، فقد كان بعضهم يموج في بعضٍ بقوّة الفصاحة وجودة البيان، وما هؤلاء النّوابغ الذين أشرنا إليهم إلا نزر قليل من أمّة تملّكت ناصية البلاغة والبيان، على غرار زهير بن أبي سلمى وتأبّط شرا، طرفة بن العبد، عمرو بن كلثوم، والمهلهل بن ربيعة، والشّنفرى في قوله:[1]

أُطِيلُ مِطالَ الجـــوعِ حتى أُمِيتهُ وأضربُ عنه القَلْبَ صَفْحاً، فيذهَلُ
ولولا اجتناب العارلم يُلْفَ مَشربٌ يُعـــاش بـــه، إلا لديّ ومأكلُ
ولكنَّ نفساً مُـــــــرةً مـا تقيمُني على الضّيْمِ، إلاّ رَيْثَمَـــا أَتَحَـــوَّلُ

حيث صنّف أبو هلال العسكري(ت 395هـ) هذه الأبيات الشّعرية للشّنفرى في أعلى مقامات الفصاحة والبيان[2].

وقفنا عند ركاب هؤلاء الشّعراء لجلالة شعرهم وعظيم قدرهم لدى النّقاد ، فقد جُعل شعرهم في أعلى الطّبقات، و وضع قائلوه في الطّبقة الأولى والدّرجة الأسمى، حتّى قال فيهم أبو هلال العسكري: «كان امرؤالقيس أشعر النّاس إذا ركب، والنّابغة إذا رهب، وحسّان إذا رغب والأعشى إذا طرب»[3].

ولا ريب أنّ الشّموليّة التي اتّصف بها اللسان العربي حيّرت الكثير من الدّارسين والنّقاد وذلك لأنّه شمخ دون سابق إنذار ولا مقدّمات تُذكر، بخلاف لغات الأمم المهيمنة آنذاك وما يحتنكها من تعليم وتأسيس وتأصيل، ولذلك عُدّ اللسان العربي «من أغرب ما وقع في تاريخ البشر وصعب حل سره انتشار اللغة العربية، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادئ ذي بدء، فنشأت فجأة في غاية الكمال سلسة أي سلاسة، غنيّة أيّ غنى، كاملة بحيث لم يدخل عليها إلى يومنا هذا أيّ تعديل مهم، فليس لها أي طفولة ولا شيخوخة، فظهرت لأول أمرها مستحكمة ... ومن

[1] – ديوان الشّنفرى، تح إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط 02، (1417هـ-1996م)، ص: 62،63.

[2] – أبو هلال العسكري، الصّناعتين، ص: 56.

[3] – المصدر نفسه، ص: 23.

أغرب المدهشات أن تثبت تلك اللغة القومية وتصل إلى درجة الكمال وسط الصّحاري عند أمة من الرّحل، تلك اللغة فاقت أخواتها لكثرة مفرداتها ودقّة معانيها وحسن نظام معانيها»[1].

ولم يزل هذا العرف اللغوي بإواليته الأجناسية سائدا ومهيمنا، لايشوبه تغيير أو تحريف إلى غاية بزوغ فجر الإسلام ونزول القرآن الكريم بلسانه، فتعضّد هذا السّند واشتد عوده واستوى على سوقه وبلغ أوُجّ نبوغه واتلأبّ أمره، حتّى غدا أطول معمّر لغوي على وجه البسيطة لمدة تحاكى سبعة عشر قرنا، فصار اللسان العربي كالمتضمّن للقران، وصار القرآن كالمحلّي لهذا اللسان.

[1] -أنور الجندي بتصرّف، اللغة العربية بين حماتها وخصومها، مطبعة الرّسالة، بيروت(لبنان)، ص: 03.

الفصل الأوّل

الظّاهرة الصّوتية في القرآن الكريم من المعيار النّحوي إلى الانزياح البلاغي

- المبحث الأول: ملامح إعجاز بلاغة القرآن الكريم في صدر الإسلام
- المبحث الثّاني: جهود النّحاة في الوقوف على الظّواهر الصّوتية في القرآن الكريم
- المبحث الثّالث: إرهاصات الدّرس الصّوتي عند البلاغيين

توطئـــة

لقد تبيّن لنا في ما سلف أنّ العرب كانت أمّةً فصيحةً، أذعنت لهم التّراتبية التّصاعديّة في نظم الكلام صوتا وكلمة وتركيبا، واستطاعوا بناء صرح شامخ ببلاغتهم ونظمهم؛ وإنّ الشّعر كان اللغة المعبّرة والجسر الممدود للتّواصل في زمانهم، تلك الملكة التي عرّف "ابن جنّي" اللغة بقوله: «أمّا حدّها فإنّها أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم»[1].

المبحث الأول: ملامح إعجاز بلاغة القرآن الكريم في صدر الإسلام

كان نزول القرآن الكريم منعطفا في السّيرورة اللّغوية للعرب، فقد وقعوا في أمرٍ مريجٍ عند بزوغ فجر جديد، آذن بظهور لغتهم في ثوبٍ جديد ، هو كلامٌ بلسانهم، وعلى طريقة نسجهم ونظمهم أرّقهم وهم السّادة في رصف الكلام، وكان لهم المنتهى في ضبط الأفهام، إنّهم أمّة «بلغوا في ذلك الحين من الفصاحة والبيان غاية كبيرة، واستقامت تعابيرهم إفرادا وتركيبا، وتمّت لهم أدوات الفصاحة على ما يقضي به قانون الارتقاء والنّشوء في بيئتهم، ويدلّ على نضج بيانهم أدب المعلّقات »[2]التي كانت ذروة سنام بلاغتهم.

1 – تحدّي بلاغة القرآن لفصحاء العرب

رغم الزّخم اللّغوي الذي حقّقه العرب في العصر الجاهلي بتراثهم شعرا ونثرا، وبوّأهم مكانة مرموقةً مكّنتهم بأن يكونوا أرباب الفصاحة والبلاغة والبيان، حيث أشاد القرآن الكريم بهذه الميزة لهم وأشار إليها في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[3]؛ فهذه شهادة تقرّ مدى بلاغتهم وجودة بيانهم، إلاّ أنّ الخطاب القرآني بفصاحته وبلاغته أرّق أساطين الفصاحة بمكّة وهم مجد لسان العرب وذروة النّبوغ فزعزع كيانهم، وتحدّاهم بأن يأتوا بسورة مثله بعدما اتّهموا النّبيّ عليه السّلام بافتراء القرآن ؛ حيث

---

[1] – ابن جنّي، الخصائص، ج01، ص: 33.

[2] – نعيم الحمصي، فكرة إعجاز القرآن من البعثة النّبوية إلى عصرنا الحاضر، طبعة مؤسسة الرّسالة، سوريا، ط 02، (1440هـ-1980م)، ص: 13.

[3] – سورة الزّخرف، الآية: 58.

وصف القرآن توالي عجزهم ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيرا، فقد طلب منهم أن يأتوا بعشر سورٍ على شاكلة الأسلوب القرآني فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1]، وبعد بُرهةٍ من الزّمن وظهور العجز عن الإتيان بعشر سورٍ شبيهة ببلاغة القرآن، التمس منهم الإتيان بعُشر الطّلب الأوّل فقط ، وهو سورةٌ واحدة تُحاكي بلاغة القرآن وفصاحته فقال: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[2].

لقد كان سادة الفصاحة من أهل مكّة "أبو سُفيان " و "أبو جهل " و "الأخنس بن شُريق" يأخذون أماكنهم قريبا من بيت رسول الله حين يعسعس الليل، فيسترقون السّمع أثناء تلاوته عليه السّلام، وما يتفرّقون إلا ببزوغ فجر يوم جديد، فيرجع بعضهم إلى بعض القول أنّ ما سمعوه ليس بالشّعر ولا بالنّثر، وليس بالكهانة والسّحر، ممّا جعلهم يتلاومون ويتّخذون قراراً بعدم العودة لصنيعهم باستغشاء ثيابهم وصمّ آذانهم ، واستدبار تلاوة المصطفى عليه السّلام، وإلا تسبّبوا في هداية غيرهم وفتح أفق الإيمان به، وهم منذ بزوغ فجره ينهون عنه وينئون عنه[3].

إنّ الإذعان من أرباب البيان هؤلاء واجتماعهم سراً وعودتهم لاختلاس السّمع بعد تعاهدهم بعدم الرّجوع، خير شاهدٍ منهم بأنّهم أمام صرح لغوي شامخٍ وبيانٍ بلاغي صارخ، يحتوي إيقاعا يستهوي القلوب، وألفاظا تقرع الضّمائر، وسبكا يأخذ الألباب، إنّها بلاغة جديدة متّصفة بسمات «الجمال الصّوتي، والتناسق الفني، والإيقاع الموسيقي، هو أول شيء أحسّته الأذن العربية يوم نزل القرآن وتلاه الرسول، ﷺ، ولم تكن من قبل عهدت مثله من منثور الكلام ومنظومه، خيّل إليهم أول الأمر أنه شعر، لأنهم أدركوا في إيقاعه وترجيعه لذّة، وأخذتهم من لذة هذا الإيقاع هزّة، لم يعفوا قريبا

---

1 – سورة هود، الآية: 13.

2 – سورة يونس، الآية: 38.

3 – ينظر: البيهقي، دلائل النّبوّة، تح عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلميّة، بيروت (لبنان)، ط01، (1408هـ-1988م)، ج02، ص: 206، 207.

منها إلا في الشعر، ولكن سرعان ما عادوا إلى تخطئة أنفسهم في ما ظنوه شعراً لأنّ ما سمعوه لا يخضع لقوانين الشّعر ولا لأسس النّظم[1].

وأمام عجز رؤوس البلاغة والبيان عن الإتيان بحديث شبيهٍ بالقرآن تحدّاهم القرآن بعجزهم التّام عن مقاربة أسلوبه وتقليده بقوله: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[2]، رغم أنّهم كانوا لايُجارَوْن في قوّة فصاحتهم، فصار هذا التّحدّي من القرآن الكريم«دعوة تدلّ في وضوحٍ على ما أوتوه من اللّسن والفصاحة والقدرة على حوك الكلام، كما تدلّ على بصرهم بتمييز أقدار الألفاظ والمعاني وتبيّن ما يجري فيها من جودة الإفهام وبلاغة التّعبير»[3].

إزاء هذا التّحدّي القرآني العظيم وجد فصحاء العرب أنفسهم أمام واقع لغوي جديدٍ منتظم في خرزات متراصّة، يحكي جودةً في السّبك ومتتالية لا متناهية في البلاغة، كلامٌ منظوم موزون، لم يُعلّق على أستار الكعبة، ولم يخضع لتنقيح وتهذيب، ولم يكن المتلفّظ به ذا دِراية بالشّعر ونظم الكلام، فطفقوا يصفون القرآن الكريم بصفات يشوبها الاضطراب ولا تثبت على قرار، فأحيانا يقولون بأن هذا القرآن شعر، ثم يعدِلُون إلى القول بأنه كهانة، ثم يُجمعون رأيهم على أنه سحر يؤثر.

يعود هذا التّخبّط في الاجتماع على رأي واحد وعدم الثّبوت منهم على موقف موحّد أمام النّاس لمجابهة لأنّ هذ القرآن اتّسم بأعلى رتبةٍ في البلاغة والبيان ، فعجزوا عن فهم سرّ بلاغته ، التي لا يصلح بحال من الأحوال أن تكون من إنتاج البشر، إذ كان رصفهم للكلام والمنظوم من الشّعر يأخذ منهم أشهرا عديدة وأيّاما مديدة، إنّه عهد لغوي جديد يتمثّل في نسيج لغويّ مسبوك ينفذ إلى القلب فينفخ فيه مادّة الحياة، ولو كان المستمع من غير المؤمنين ، «فالقرآن قد تحدّى العرب بيانيا من جهة

[1] – بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت(لبنان)، ط4، (1980م)، ص: 186.

[2] – سورة الإسراء، الآية: 88.

[3] – شوقي ضيف، البلاغة تطوّر وتاريخ، دار المعارف، القاهرة(مصر)، ط09، ص:09.

فصاحته وبلاغته، فآيات التّحدّي التي قد عرّجنا عليها كانت قد استفزّت أصحاب البيان في زمن نزولها وتحدّتهم بأن يأتوا بسور تشاكل جمال الخطاب القرآني[1].

2- نماذج من إعجاز بلاغة القرآن لأهل مكّة

تتجلّى البلاغة القرآنية وقوّة تأثيرها على المشركين في القرآن الكريم كلّه، إلاّ أنّنا سنقف على سورتي النّجم و فصّلت كنموذجين تأثيريّين، والسّبب يكمن في أنّنا نرى في سورة النّجم تلك القوّة اللغوية المهيمنة بوقعها وإيقاعها، ونغمها المتميّز الذي يأسر القلوب، فهي التي لم يتمالك فصحاء مكّة أنفسهم من شدّة تأثيرها حتّى خرّوا لبلاغتها ساجدين، أمّا سورة فصّلت فهي تكشف عن الحوار الذي دار بين النّبيّ عليه السّلام وأحد عرب مكّة المعروفين ببلاغتهم وقوّة بيانهم وهو عتبة بن ربيعة، حيث نلمح مدى تأثير بلاغة القرآن الكريم فيه، حتّى رجع إلى قومه وكاد أن يُشهر إسلامه في حضرتهم.

أ/سورة النّجم: إنّ مطلع سورة النّجم الذي ألهب مكامن التّلقّي اللغوي لدى المشركين وجعلهم يخرّون سجّدا سجودا لا إراديا بسجود النّبي عليه السّلام في نهاية سورة النجم طوعا لا كرها[2]، بعد أن سلبهم –القرآن– غطرستهم وتكبّرهم، نجم عن أسلوب الخطاب القرآني الذي يأخذ بمجامع القلب عبر تلذّذ الأذن، ويخاطب الوجدان بصدقٍ عكس ما كان عليه نظم الشّاعر لديهم، الذي قد يشوبه الكذب ويعتريه الطّمع من أجل دنيا يصيبها أو عطاءات يستجديها.

نجم السّجود اللاّ إرادي عن معايشة المشركين لحظات تملّكتها ناصية البلاغة القرآنية ؛ منطلقها من المستوى الصّوتي متمثّلا في توالي الإيقاع واستمراريّته كسمةٍ لإيقاع فواصل الآيات القرآنية، فضلا عن وقع السّجع وما يتركه في النّفس من أثرٍ جليّ يجعل المتلقّين يُنغضون رؤوسهم

---

1 – بولعشار مرسلي، الإعجاز البياني في الطّراز، رسالة ماجستير، إشراف: أد عشراتي سليمان، جامعة وهران، السّنة(2007م)، ص: 121، 122.

2– ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تح عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط 01، (2006م)، ج20، ص: 06 .

لحسن الإيقاع وجرس الأصوات، ولا سيما أنّ الموقف الذي تلا فيه النّبيّ عليه السّلام هذه الآيات القرآنية، كان إثر عودته الميمونة من الرّحلة العلويّة المتمثّلة في المعراج، فكان مطلع السّورة يحاكي بتجانس أصواته وأثر إيقاعها جلالة الموقف وعظمة الرّحلة المفعمة بالفيوضات الرّوحانية والتّجلّيات الرّبانيّة، حيث «جاءت الآيات تبعا لهذا العلوّ، قطعة من الموسيقى، ينبثق منها هذا النّور المنغّم المتموّج، المتلألئ، الذي يضجّ بالبهاء والصّفاء والعظمة، إنّه النّغم السّاري في البناء التّعبيري اللّفظي وفي تراكيب الجمل والعبارات كما يسري في إيقاع فواصلها الموزونة المقفّاة»[1].

بدا ثبوت الإيقاع وهيمنته ظاهرا جليّا متمثّلا في الفواصل القرآنية [*]، التي تهدف إلى الحفاظ على تماسك الوحدة الذّهنية للمتلقّي، حتّى لايشرد عن القوّة التّصويرية التي يرمي الجانب الصّوتي ترسيخها في ذات المتلقّي بنسقٍ إعجازي تتألّف«كلماته من حروفٍ لو سقط واحدٌ منها أو أُبدل بغيره، أو أُقحم معه حرفٌ آخر لكان ذلك خللا بيّنا، أو ضُعفا ظاهرا في نسق الوزن وجرس النّغمة، وفي حسّ السّمع وذوق اللسان، وفي انسجام العبارة وبراعة المخرج وتساند الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض»[2]، ممّا يشدّ اهتمام المتلقّي ويحتويه.

نلاحظ تساوي وتقارب كلمات الآيات من حيث العدد، فهي تتراوح في أغلبها من ثلاث إلى أربع كلمات تتساوق وتتناغم فيما بينها مُشكّلة جوا موسيقيا يجعل المتلقّي يستكين لها نحو قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ *

---

1 – محمّد قطب عبد العال، من جماليات التّصوير في القرآن، مطبعة رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرّمة، السّنة 13، (1415هـ)، العدد: 147، ص: 72.

*) سنقف على تعريف وخصائص هذه الظّاهرة في الفصل الثّاني: 142– 156.

2 – مصطفى صادق الرّافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة ، دار الكتاب العربي، بيروت (لبنان)، ط09، (1393هـ–1973م)، ص: 217.

وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ* مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾[1]، حيث نلمح ترسّخ الإيقاع عن طريق هذه الفواصل والقصد إليه جليا في سورة النّجم، ممّا كان يستهوي العرب فيصبُون إليه في أشعارهم، فقد كان للرّويّ والقافية والوزن في الشّعر، والسّجع في الخطب بالغ الأثر في نفوسهم.

تجلّى أثر الفاصلة القرآنية كمظهر من مظاهر الجمال في الأداء الصّوتي، أسدى على السّورة روعة بيانية تعمل على إكسابها في مجملها ذوقا بلاغيا يبيّن مدى سموّ النّص القرآني وتميّزه، فالفاصلة القرآنية باعتبارها خاصّية من خصائص القرآن الكريم فقط، فإنّنا نجد «لكل آية مقطع تنتهي به هو الفاصلة، وليست هذه الفاصلة قافية شعر ولا حرف سجع وإنما هي شاهد قرآني لا يوجد إلا فيه، ولا يعتدل في كلام غيره»[2].

إنّ ممّا تتركه الفاصلة القرآنية تلك البصمة التي تحتوي المتلقّي بغية استمالته وجدانيا، لما في حسن الإيقاع من تأثير، فهي بمثابة القافية في الشعر، والسّجع في النثر، إلا أنّها تنماز عنهما بأنّها متعلّقة بفواصل رؤوس الآيات؛ فالغاية منها العمل على تثبيت النّغم الموسيقي الواحد، حتّى يترسّخ الإيقاع الذي يهدف للمحافظة على المعنى الواحد، ممّا يجعل المتلقّي «يسمع ضربا خالصا من الموسيقى اللّغويّة في انسجامه واطّراد نسقه واتّزانه على أجزاء النّفس مقطعا مقطعا، ونبرة نبرة، كأنّها توقّعه توقيعا ولا تتلوه تلاوةً»[3].

يلاحظ المتفحّص في سورة النّجم أنّ الأسلوب القرآني يحافظ على الإيقاع ويضمن كينونته وبقائه، فلكلّ كلمة قرآنية بالغ الأثر في الآية، وللفواصل الأهمّيّة القصوى في المحافظة على الجوّ الموسيقي للآية أو السّورة ككل، فالمتأمّل في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ

---

1 - سورة النّجم، الآية:01-17.

2 - مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، دار مسلم، الرياض، ط2، (1416هـ-1996م)، ص: 142.

3 - مصطفى صادق الرّافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، ص: 212، 213.

الْأُخْرَى* أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾(1) يلحظ لو أنّه حذفت لفظة الثّالثة أو الأخرى لتصدّع النّسق الموسيقي، ولاكفهرّ الجوّ العام للإيقاع واختلّ توازنه، وما يمكن قوله عن الميزة التي انماز بها الإيقاع الموسيقي للقرآن أنّه«قد تحرّر من كل قيدٍ يقيّد المعنى، أو يحدّ من النّظام الصّوتي، ممّا أدّى إلى حريّة التّعبير وامتلاك آفاقٍ رحبةٍ من التّآلف والتّلازم والانسجام»(2).

وقد ذهب "الخليل بن أحمد الفراهيدي " إلى أنّ السّر في توظيف لفظة الأخرى هو من أسلوب القرآن ومزاياه، وأشار إلى موضعٍ آخر شبيهٍ بموضع سورة النّجم استعملت فيه نفس اللفظة-الأخرى- في سورة طه في قوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾(3)، وبيّن أنّ ورود هذه اللفظة هو من أجل موافقة رؤوس الآيات القرآنية(4).

وكذلك الشّأن لو استغنينا عن اللفظة إذاً فسوف ينكسر الوزن ويختلّ الإيقاع، وهذا من مزايا وخصائص القرآن الكريم «أن تأتي اللفظة لتؤدّي معنى السّياق، وتؤدّي تناسبا في الإيقاع، دون أن يطغى هذا على ذاك، أو أن يخضع النّظم للضّرورات»(5).

كان لهذا التّآلف في أصوات القرآن أسمى التّجلّيات الانعكاسيّة على ألفاظ القرآن، وذلك لأنّ«الصّوت اللغوي هو العنصر الذي يدخل في تركيب الكلمة وبنائها(structure)، وباختلاف تركيب الأصوات تتنوّع الكلمات وتختلف معانيها »(6)، ممّا يجعل المستوى الصّرفي متمثّلا في جودة اللّفظة وحسن انتقائها تمام الفاعليّة في ترسيم معالم بلاغة القرآن، حتّى يتمكّن الأسلوب القرآني من استمالة المتلقّي واحتوائه، لأنّ آيات القرآن تتكوّن مع «مايلائمها من ألفاظ اللغة، بحيث لا تندّ لفظة ولا تتخلّف كلمةٌ؛ ثمّ استعمال أمسِّها رحما بالمعنى، وأفصحها في الدّلالة عليه، وأبلغها في التّصوير

1 – سورة النّجم، الآية: 19-22.

2 – محمّد قطب عبد العال، من جماليات التّصوير في القرآن، ص: 51.

3 – سورة طه، الآية: 18.

4 –ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج20 ، ص:37.

5 – سيّد قطب، التّصوير الفنّي للقرآن، دار الشروق القاهرة (مصر) ، ط17، (1425هـ-2004م).ص: 104.

6 – صباح دالي، البنية اللغوية في سورة الكهف –دراسة لسانية تطبيقية-، أطروحة دكتوراه، إشراف:أ د عبد الحليم بن عيسى، جامعة أحمد بن بلّة، وهران (الجزائر)، السّنة: (2013-2014)، ص: 27.

وأحسنها في النّسق، وأبدعها سناء، وأكثرها غناء، وأصفاها رونقا وماءً»[1]، ولقد انمازت سورة النّجم على غرار سور القرآن بتوافر المفردة المناسبة لسياق الكلام المؤدّية إلى الانسجام والتّناسق النّصّي ذات الدّلالة الإيحائية والذّوق الرّفيع، بحيث لو استبدلت اللفظة بغيرها لانتفى التّجانس وتبدّد المعنى«فألفـــاظ القرآن هي لبّ كلام العرب وزبدته وواسطته وكرائمه»[2].

وممّا يجب الإشارة إليه اتّسام الأصوات المكوّنة لألفاظ سورة النّجم في جلّها بالجهر، ولعلّ هذه الميزة في هذه السّورة هي الأنسب في قرع أفئدة المتلقّين ذوي القلوب الصّماء، وبما أنّ مقابلة الأصوات بما يُشاكلها من الدّلالات سمت العرب وديدنهم، فقد جاء القرآن في عدّة مواضع على هذا النّسق، على نحو ما أشار إليه "ابن جنّي" في تعرضه لسمت العرب في حديثهم ، وطريقة مقابلة الألفاظ بما يشاكل الأصوات ويصف هذه البصمة بأنها باب«عظيم واسع ونهج متلئب عند عارفيه مأموم، وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر عنها، فيعدلونها بها ويحتذونها عليها وذلك أكثر مما نقدره وأضعاف ما نستشعره»[3].

وعليه نجد عند تناولنا لسورة النّجم المستوى الصّرفي متمثّلا في ألفاظ السّورة له خصوصية فنّية، فألفاظ السّورة مشتمل على الدّلالة الإيحائية لهذه الألفاظ، وهي ناجمة عن الأصوات المجهورة التي تنمّ عن الإشارة إلى جوّ مكهرب بهيمنة خصيصة الحروف المجهورة وفضائها الدّلالي، الذي يحاكي علاقة المدّ والجزر التي كانت بين النّبي عليه السّلام وغلاة المشركين، ممّا جعل الأصوات المجهورة في السّورة تنبئ عن هذه الأخلاق الفظّة الغليظة التي كان عليها المشركون.

كما نلاحظ هيمنة الحروف المجهورة على التّوزيع الصّوتي عموما في الآيات وتحافظ على جوّها الموسيقي المتميّز، إذ من خلال بعض الدّراسات تبيّن أنّها تمثّل دائما حوالي أربعة أخماس الكلام [4]

---

1 – مصطفى صادق الرّافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، ص: 226.

2 – الرّاغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تح مركز الدّراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز، مطبعة مكتبة نزار مصطفى الباز، مصر، (دط)،ج01، ص: 04.

3– ابن جني، الخصائص، ج02، ص: 157.

4 – يُنظر: إبراهيم أنيس، الأصوات اللّغوية، مطبعة نهضة مصر، مصر، (دط)، ص: 23.

وقد تجلّى ذلك في سورة النّجم من خلال عملية إحصائية من قِبلِ بعض الدّارسين [1] لسورة النّجم حيث توصّلوا إلى أنّ الأصوات المجهورة أكثر من المهموسة كما هو في البيان التّالي:

	عدد التّواتر	النّسبة المئوية
الأصوات المجهورة	606	%67.55
الأصوات المهموسة	278	%32.45
المجموع	884	%100

تتبدّى بعض الألفاظ التي تنبئ عن ضبابية الموقف بين النّبي عليه السّلام والمشركين على غرار كلمة ضيزى في قوله تعالى:﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ [2]، حيث اتّسمت هذه المفردة بالثّقل النّاجم عن عدم التّناسب في حروفها، الذي يُحاكي تجبّر المشركين المعاندين وشططهم ، وشغبهم على رسول الله عليه السّلام، فهم لم يلتزموا حدود كفرهم وتكذيبهم فحسب، بل إنّهم تجاوزوه إلى أبعد الحدود من الصّدّ والعذاب والتّنكيل بالمؤمنين، ورصد كل من حاول الاقتراب من نور الإسلام، فكانت هذه اللّفظة إخبارا عن غطرستهم كأنّها «وسمٌ لهم بالجور زيادةً على الكفر، لأنّ التّفكير في الجور كفعله في تخيّلات الإنسان ومعتقداته عنوان على أفكاره وتصرّفاته»[3]التي يضمرها.

ب- سورة فصّلت: من المواقف التي تسفرُ عن مدى تأثير بلاغة القرآن في المشركين ما وقع ل**"عتبة بن ربيعة"** في حواره مع الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، فقد أقبل الرّجل وهو الذّروة في الإلمام بأسرار وبواطن الكلام من الشّعر والنّثر ، وتمقة السّحر وسجع الكهان بحكم التّجارة والأسفار، على الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بإيعازٍ من قومه، يُفاوضه ويُحاوره ويُغريه بكثرة المال وجمال النّساء وتمليك السّلطان إن كان طالب دنيا، وباستقطاب أجود الأطبّاء إن كان ما أصابه سحرا أو مرضا وعلّة[4] إلاّ أنّه عاد القهقرى لمّا تلا عليه النّبيّ عليه السّلام فاتحة سورة فصّلت.

---

[1] – عيسى متّقي زاده وكاوي خضرى، دلالة الأصوات في القرآن –سورة النّجم والقمر نموذجا–، مجلّة آفاق الحضارة الإسلاميّة، أكاديميّة العلوم الإنسانيّة والدّراسات الثّقافية، العدد: 02، السّنة: 15 (1434هـ)، ص: 101.

[2] – سورة النّجم، الآية: 22.

[3] – طاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس (1984م)، ج27، ص: 107.

[4] – يُنظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج18، ص: 390.

ممّا يجب الإشارة إليه هو أنّ سورة فصّلت من السّور المبتدأة بالحروف المقطّعة؛ وجلّ السّور التي بُدئت بهذه الحروف المقطّعة ترمي إلى الانتصار للقرآن الكريم وبلاغته، بل إنّ هذه الحروف المقطّعة في ذاتها صورة من صور الإعجاز اللاّمتناهي للقرآن الكريم، فكلّ سورة ابتدأت بالحروف المقطّعة لا بدّ أن يُذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه وعظمته، فمذهب الكثير من المفسّرين مثل ما أشار إليه "ابن كثير" بقوله:«إنّما ذكرت هذه الحروف في أوائل السّور التي ذكرت فيها، بيانا لإعجاز القرآن، وأنّ الخلق عاجزون عن معارضته بمثله »[1]، من أتمّ الدّلالة على ما تتميّز به هذه السّور المبتدأة بهذه الحروف المقطّعة.

اشتملت هذه السّورة القرآنية على حسن المطلع وبراعة الاستهلال، لأنّ من أرقى درجات البلاغة جودة المطلع وهو «أن يتأنّق في أوّل الكلام، لأنّه أوّل ما يقرعُ السّمع، فإن كان مُحرّراً أقبل السّامع على الكلام ووعاه، وإلاّ أعرض عنه، ولو كان الباقي في نهاية الحسنِ»[2]، وأنّى لعُتبة بن ربيعة الصّمود أمام ثِقل البراعة والبلاغة القرآنيّة؟ ! فقد طفقت التّلاوة النّبويّة –ولا شكّ– بحسن التّلاوة وتناغم الأصوات وجودة السّبك وإيحاء الألفاظ وحسن الإيقاع تستهويه وتقرع أعماق قلبه وتستدعيه كي يرتقي بنفسه من براثن الجاهليّة الخسيسة إلى سُؤدد الإسلام حيث الطمأنينة والاستقرار وأفق السّير إلى الله، لولا الغشاوة على الأبصار والرّان على القلوب.

و لعلّ مردّ هذا التأثير القرآني الذي أصاب "عتبة بن ربيعة" فزعزع كيانه حتّى كاد الإسلام يأخذ بشغاف قلبه، هو استماعه لكلام انصهر في بوتقة واحدة يدحض شركهم ويدفع شُبهاتهم ؛ سورةٌ قرآنية أنزلت من قِبلِ الله عزّ وجلّ «فصّل فيها الآيات، ووضّح فيه الدّلائل على قدرته ووحدانيّته وأقام البراهين القاطعة على وجوده وعظمته، وخلقه لهذا الكون البديع الذي ينطق بجلال

---

[1] – ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تح مصطفى السّيد أحمد وآخرون، مؤسّسة قرطبة، الجيزة (مصر)، ط 01، (1421هـ-2000م)، ج01، ص: 256.

[2] – السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تح مركز الدّراسات القرآنية، (دط)، ج05، ص: 1830.

الله وعظيم سلطانه »[1] فكان التّأثّر ناجم عن تناسب الأصوات في سورة فصّلت من سهولة النطق ولذّة السّمع، وقوّة السّبك، ونصاعة الألفاظ، ومطابقتها لمقتضى الحال، وهذا ما يتأتّى منه تمام الدلالة وكمال المعنى.

تميّزت فاتحة سورة فصّلت في خطابها الذي قرع أُذن "عتبة بن ربيعة" بأسمى معايير البلاغة حتّى تحيّر في ما سمعه من الإشادة بعظمة القرآن، ووصفِ كذِبهم وتكذيبهم، وتنزيه مقام الرسول عليه السّلام، وتعظيم جناب الله عزّ وجلّ، والإشارة إلى عظيم خلقه للسّماوات والأرض، وأمرهم بالاستقامة والاستغفار، ثمّ تذكيرهم بالآخرة وإقرار الألوهيّة لله عز وجلّ التي انتهكوا حرمتها وتعدّوا على جنابها، فأنذرهم بالعذاب والبطش مثلما وقع للأمم السّالفة قبلهم، ممّا جعل هذا المتلقّي المثالي يضيع رشده تحت هذه القوّة الأسلوبية الضّاغطة والنّسقيّة البيانيّة المبدعة ليعلن أمام قومه بملء فمه:«والذي نصبها بَنِيّةً مافهمتُ شيئا ممّا قال، غير أنّه أنذركم صاعقةً مثل صاعقة عادٍ وثمودَ. قالوا: ويلك! يكلّمك الرّجل بالعربيّة ولا تدري ما قال؟! قال: لا والله، ما فهمتُ شيئا ممّا قال غير ذكر الصّاعقة»[2].

و لعلّ الشّيء الذي أدهش "عتبة" يُستبعد أن يكون قد جهل هـالألفاظ العربيّة الواردة في مطلع السّورة نحو:الكتاب، البشير، النّذير، يسمعون، وغيرها، وإنّما الذي زعزع المتلقّي هو طريقة نظم الكلام، وانتقاء الألفاظ التي «إذا اشتدّت فأمواج البحار الزّاخرة، وإذا هي لانت فأنفاس الحياة الآخرة، تذكر الدّنيا فمنها عمادها ونظامها، وتصف الآخرة فمنها جنّتها وصرامها، ومتى وعدت من كرم الله جعلت الثّغور تضحك في وجوه الغيوب، وإن أوعدت بعذاب الله جعلت الألسنة ترعد من حمّى القلوب»[3].

---

1 –كمال سلمي شحادة الكوز، سورة فصّلت –دراسة لغويّة بيانيّة–، رسالة ماجستير، إشراف د:عودة خليل أبو عودة، جامعة الشّرق الأوسط، السّنة (2010م)، ص: 24.

2 – السّيوطي، الدّر المنثور في التّفسير بالمأثور، تح عبد الله بن محسن التّركي، مكتبة ترعة الزّمر–المهندسين، القاهرة (مصر) ط01، (1424هـ–2003م)، ج13، ص: 79.

3 – مصطفى صادق الرّافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، ص: 30.

وهذا فضلا عن إيقاع متجانس جديدٍ، خاصٍ بالقرآن الكريم من قبيل الغنّة والقلقلة والإظهار والإخفاء، والإدغام بأنواعه، وكذلك الموسيقى النّاتجة عن المدود، والوقف والابتداء، والنّبر والتّنغيم والإقلاب، وما ينجرّ عن هذه الظّواهر الصّوتية من دلالات تستهوي المتلقّي فتحمله على أن يُعايش جوّ الآية كأنّه رأي العين ، ولا سيما أنّ العرب كانوا أمّة يستهويهم الطّرب واللّحن فجاءت الآيات القرآنية في جلّها مختومة بالميم والنّون السّاكنة كفواصل آيات قرآنيةٍ بهدف التّأثير ولذلك كان ديدن العرب مثلما ذكر "سيبويه" أنّهم كانوا «إذا ترنّموا فإنّهم يلحقون الألف والياء والواو ما ينوّن وما لا ينوّن، لأنّهم أرادوا مدّ الصّوت»[1]، وهذا ما يُلاحظ في تعمّد القوافي وحرف الرّوي في أشعارهم.

ومن خلال ماسبق يمكننا القول عن الأثر الذّي زعزع ذات المتلقّي إنّه يكمن في ما تملّكه الخطاب القرآني من إحكام النّسق، وحسن الاستعمال للألفاظ، وقوة الأداء والتأثير بفاعلية النّغم الموسيقي الذي طرق أعماق الوجدان والأحاسيس والفِطرة التي فطر الله النّاس عليها ، لأنّ مكمن الخطاب القرآني يصبو إلى دفع الاعوجاج وحمل المخاطبين على طريق الجادة بأسلوب مُحكم يجوس في ثنايا النفس، يهدفُ لحمل الإنسان من براثن الجهل والتخلف والكفر إلى سؤدد العلم و المعالي والإيمان، ذالك الكلام الرّبّاني الذي وصفه الوليد بن المغيرة بقوله: «والله لقد سمعتُ كلاما ماهو من كلام الإنس، ولا من كلام الجنّ، وإنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق، وإنّه ليعلو ولا يُعلى عليه، وما يقول هذا بشر»[2].

لا ريب أن الفاعلية الصّوتية في القرآن الكريم التي تجلّت في سورة فصّلت ، أكسبت السّورة انسجاما واتساقا، وإيقاعا أسهم في بناءٍ نسقي عجيب، سواءٌ في الكلمة المفردة أم الآ ية القرآنية، أم السّورة بأجمعها، مما يجعل هذ ه البلاغة القرآنية تسفر عن مدى غطرسة أولئك المخاطبين، وشدّة تعنّتهم وغلظة طِباعهم، فاحتاجت مُجابهتهم لآياتٍ «تتوافق مع المواقف وحالة المخاطبين، ويزداد

[1] - سيبويه، الكتاب، ج04، ص: 204.
[2] - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج21، ص: 377.

التّملّي لتلك اللغة المتساوقة مع المواقف، في النّظر إلى حالة الشّدّة واللين عند الشّعور بقوّة جرس الكلمات التي تهزّ النّفس في مواقف الحزم والشّدّة، وهدوء الجرس والإيقاع في حالة اللّين والهدوء»[1].

يمكننا الوقوف على بلاغة هذه السّورة من خلال الوقوف على ظاهرة الوقف والابتداء (*) كلونٍ من ألوان الظواهر الصوتية التي ما فتئت تعمل على حمل المتلقّي وحبس أنفاسه للتّطلّع إلى ما وراء الوقف، فكلّ وقف وسط الآيات أو نهايتها يجعل المتلقّي ينتظر ماسيفاجئه به الخطاب القرآني فبعد الوقف مثلا على رؤوس الآيات القرآنية في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ * وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[2].

يجعل الوقف المتلقّي يتطلّع إلى ما أصاب الأمم الغابرة من بأس الله وبطشه على غرار ما أصاب قوم عاد وثمود، ولعلّ قراءة المصطفى عليه السّلام للسّورة على "عتبة بن ربيعة" وبفاعليّة الوقف على رؤوس هذه الآيات، واستئناف القراءة من جديد هو ما أزعج "عتبة" وجعله يستعطف النّبيّ عليه السّلام ويترجّاه أن يوقف تلاوته، ويناشده الرّحم التي بينهما مخافة أن يحلّ بساحتهم منازل بساحة الأمم الخالية قبلهم (عاد وثمود)، ومخافة أن يُصيبهم مثلُ ما أصابهم، ولاسيما أنّهم-المشركين- يدركون مدى صدق محمّد عليه السّلام[3]..

تجعل ألفاظ السّورة المتلقّي يدرك خطورة العذاب الذي أصاب قوم عاد وثمود، من خلال الصّاعقة المهلكة التي نزلت بساحتهم فتركتهم خامدين، وذلك لأنّ من أسرار الإعجاز القرآني «أن

---

[1] -محمّد صالح محمّد حابش العلياني، سورة فصّلت"دراسة بيانية"، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، السّنة:(1422هـ)، إشراف حسن بن محمّد باجودة، ص174.

*) سيأتي الحديث عن هذه الظّاهرة وأهمّيتها في الفصل الثّالث عند المحدثين.

[2] - سورة فصّلت، الآيات:15 -17.

[3] - ينظر: طاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، ج24، ص: 253.

يتأنّق أسلوب القرآن في اختيار ألفاظه، ولما بين الألفاظ من فروق دقيقة في دلالتها، يستخدم كلا حيث يؤدّي معناه في دقّة فائقة، تكاد تؤمن بأنّ هذا المكان كأنّما خلقت له تلك الكلمة بعينها، وأنّ كلمة أخرى لا تستطيع توفية المعنى الذي وفّت به أختها»[1].

إنّ كلمة الصّاعقة توحي بهول العذاب الذي أحدق بالأقوام الغابرة من خلال أصداء حروفها، وقوّة وقع جرسها الغليظ في الأذن، فتجعل هذا المتلقّي يحسّ بشدّة الوعيد الذي كان الأنبياء الأوائل يوجسون منه خيفة، ولقد تتلاحى للسّامع للفظة الصّاعقة ما اشتملت عليه هذه اللفظة من الصّاد المتّسمة بصفتي التّفخيم والإطباق، والذي عرّفه بعضهم بقوله: «التّفخيم معناه ارتفاع مؤخّر اللّسان إلى أعلى قليلا في اتّجاه الطّبق اللّين، وتحرّكه إلى الخلف قليلا، في اتّجاه الحائط الخلفي للحلق ولذلّك يسمّيه بعضهم الإطباق (velarization) بالنّظر إلى الحركة العليا للّسان»[2].

توحي الأصوات المفخّمة المشبعة بالإطباق بجرس حروفها شراسة الأخذة الإلهيّة لعادٍ وثمود إنّه صوت يقرع أعماق الأذن للدّلالة على جسامة العذاب الذي نالهم وأبادهم، كما أنّه حرف مستعلي يوحي أيضا أنّ هذا العذاب لا يوقفه شئ، ومصدره من الله عز وجلّ، وهو بهذا يحاكي الصّفات التي تلبّس بها حرف الصّاد المتمثّلة في الاستعلاء والإطباق والتّفخيم.

لقد كان لهذا الصّوت –الصّاد- هيمنة لغوية أخرى في نفس سياق الآية، تُضفي على جوّ فاتحة السّورة ذلك الرّعب الذي تملّك عتبة بن ربيعة حتّى خشي حدوث صيحةٍ مالها من فواق بسبب لفظة (الصّرصر) في معرض إخبار المولى تعالى عن العذاب الذي أحدق بقوم عاد في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾[3].

---

1 – أحمد أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، نهضة مصر، القاهرة(مصر)، السّنة (2005م)، (دط)، ص: 51.

2 – أحمد عمر مختار، دراسة الصّوت اللّغوي، عالم الكتب، (1414هـ-1997م)، (دط)، ص: 326.

3 – سورة فصّلت، الآية: 16.

يجد القارئ في هذه اللفظة ما ينبئ عن البطشة الكبرى التي قطعت دابر المكذّبين من قوم عاد، وإنّها– اللفظة– من خلال اشتمالها على هاذين الصّوتين توحي بقوّة النّكال الذي لحقهم وزيادة من ألوان العذاب يُحاكيها أيضا صوت الرّاء الذي من صفاته «الرّبربة، أي التّحريك وصوت اللسان شديد الاهتزاز عند النّطق بها»[1]، ممّا يحمل السّامع على تخيّل ذلك الرّجّ والهزّ الذي كان يُجازى به المكذّبون لنبيّ الله هود، وقد أشار ابن جنّي لهذه اللّطيفة من لطائف اللّسان العربي، وبيّن بأنّ المصادر الرّباعية المضعّفة تأتي للتّكرير نحو: الزّعزعة، والقلقلة، والصّلصلة [2]، ولا شكّ أنّ الصّرصر من هذا النّوع الذي ذكره ابن جنّي.

وممّا يجب الإشارة إليه أنّ لفظة الصّرصر جاءت كالبيان والتّفسير عن طريق تكرير الرّاء والزّيادة في التّوضيح للصّاعقة المذكورة آنفا، فالمقصود من الصّرصر الإشارة إلى شدّة هبوب هذه الرّيح وسرعتها وفظاعة صوتها[3]، ممّا يجعل الخطاب القرآني يحمل المتلقّي على الشّعور بعظمة هذا العقاب الأليم؛ وهذا من تمام القوّة التّخييلية والتّصويرية الفائقة التي اتّصف بها القرآن الكريم.

أحدث القرآن الكريم بالغ الأثر في نفوس المتلقّين صدر العصر الإسلامي فتعلّقوا به، رغم أنّ دواوين العرب الشّعرية وخطبهم كانت تستهويهم بثقلها الموسيقي الإيقاعي، إلا أنّ المفارقة تتجلى بين المدونة العربية قبل الإسلام والقرآن في العملية الإبلاغية، فالمدونة الشعرية على وجه الخصوص كانت تستجدي العطاءات والفيوضات من قِبل الأغنياء، وتطبعها العصبية والحمية، بينما الخطاب القرآني فضلا عن إيقاعه المتفرّد وموسيقاه فهو يتضمن من المكنونات والأسرار ما ينير بصيرة ذوي القرائح الفذة والفهوم الثاقبة.

إنّ ما ارتهنّا إليه من التّمثيل والتّعريض لبلاغة القرآن من خلال سورتي النّجم وفصّلت خلال هذا العصر ما هو إلا ومضات ووقفات ارتأيناها، وملامح بلاغية اقتنصناها، وما هي في الحقيقة إلا

1 – أحمد زرقة، أسرار الحروف، ص: 127.

2 – ينظر: ابن جنّي، الخصائص، ج02، ص: 153.

3 –ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج18، ص: 401.

غيض من فيض، ونزر يسير من الدّرر التي تبيّن جلالة الخطاب القرآني وقوّته التّأثيرية، ولا سيما في الجانب الصّوتي منه، لأنّ القرآن الكريم معجز بلفظه ومعناه في كلّ سوره وآياته.

وما يجب التّنويه إليه أنّ هذا الجوهر المكنون ما إن تتابع نزوله وتمّ، حتّى أسرعت الأذهان المتوقّدة والهمم المشحوذة للاغتراف من منهله العذب، والوقوف على كنه أسراره وبحر إعجازه؛ وكان من بين السّبّاقين لهذا المنهل العذب الذي كثر ورّاده، النّحويون الذين كان لهم صولات وجولات في معترك الأقران المنقّبين عن سرّ إعجاز القرآن الكريم، فأرسوا بدراستهم دعائم البحث في الخطاب القرآني للقرّاء والمجوّدين والبلاغيّين.

.

المبحث الثّاني: جهود النّحاة في الوقوف على الظّواهر الصّوتية في القرآن الكريم

إنّ اتّساع رقعة العالم الإسلامي وزيادة المعتنقين لدين الإسلام من غير العرب كانت كفيلة بتشكيل الخطر على الخطاب القرآني، فبعد زمن غير بعيد عن أولئك الذين نزل القرآن بلسانهم- العرب- وكانوا لا يُضامون في فهم معانيه، ويجيدون قراءته من غير ضبط بالنّقاط أو الشّكل، تجلّت أولى ملامح العدول عن الفصاحة فظهرت غائلة اللّحن في قراءة القرآن، التي صارت أكبر خطر يهدّد النّص القرآني، ممّا كان كفيلا بظهور بوادر تنافح عن بلاغة القرآن وتضمن فصاحته.

أولى النّحاة عناية فائقة بالظوا هر الصوتية في دراساتهم، ولاسيما في القرآن الكريم، فكانت بحوثهم من أهمّ الرّوافد في الوقوف على كنه هذه الظّواهر واستخلاص أهميتها في تقويم بنية الكلمة العربية لتخليصها من تشويهها البنوي، حتّى يسهل أداؤها نطقا ويتيسّر قبولها سمعا، ومن بين أهمّ هذه الظّواهر الصّوتية الكثيرة التي وقف عليها النّحاة سنقتنص بعضا منها ممّا كان لها صدى عند البلاغيين مثل: الإبدال، الإدغام، القطع والاستئناف، الحروف المستحسنة والمستهجنة.

1- غائلة اللّحن وجهود "أبي الأسود الدّؤلي"(69هـ)

تعدّ مبادرة "أبي الأسود الدّؤلي" التي وضعها بإيعازٍ من (علي بن أبي طالبٍ) بعد ظُهور غائلة الَّلحن في اللسان العربي من المرتكزات الأولى للدّراسة الصّوتية في التّراث العربي، وذلك خوفاً من وُصوله إلى القرآن الكريم، بعد أن وقعت بعض الهنّات والزّلات أثناء نطق بعض الآيات، وقد ذُكر أنّه سمع رجلا يقرأ الآية﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾[1] بكسر لام لفظة (رَسُولُهُ) بدلاً من ضمّها، مما يؤدّي تماما إلى تغيير معنى الآية والحياد عن مرادها

إنّ هذا الخطأ في نطق الصّوائت العربيّة في النّصّ القرآني كان سببا مباشرا لدقّ ناقوس الخطر المحدق بالخطاب القرآني؛ ممّا دفع فالتمس "أبا الأسود" من أمير المؤمنين آنذاك (زياد بن أبيه)، بعد أن قصّ عليه ما سمع، أن يمكّنه من كتابة كتاب في اللغة للذّود عن حياضها والمحافظة على أسوارها.

[1] - سورة التّوبة، الآية: 03.

وعليه انبرت أولى ملامح احتضان الدّرس الصّوتي، حيث تجلّت أولى أعماله في تنقيط المصحف العثماني وفقا للهيئة الفيزيولوجية التي تظهر بها الشفتان بقوله:«إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه، فإن ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف، فإن أتبعت شيئا من ذلك غنّة، فاجعل مكان النقطة نقطتين»[1]، فكان لهذا العمل الأثر الجلي في وضع الرّوافد الأولى للمحافظة على اللسان العربي من اللّحن.

تجلّت أُولى ملامح الدّراسة الصّوتية العربية التي أرسى دعائمها"أبو الأسود الدّؤلي" مُتمظهرةً في الإشارة إلى مخارج الأصوات العربية وصفاتها، ممّا جعل الأسس التي انطلق منها تشهد عنايةً منقطعة النّظير، لتشهد بعد ذلك الدّراسة الصّوتية تشظٍّ وتوسُّعٍ عند النّحاة ثم البلاغيين، كان هدفها التقعيد والتثبيت لإرساء آلياتٍ من شأنها سبرُ أغوار الظاهرة الصوتية عند العرب؛ إلا أنَّ قدم السّبق في وضع معالم الدراسة الصوتية تعود إلى النُّحاة بالدرجة الأولى، ويُعدُّ "الخليل بن أحمد الفراهيدي" الأساس في إرساء هذه الدراسة وسبر أغوارها.

إنّ لغة القرآن الكريم لغة متميّزة محايثة في بنيتها وقواعدها لما كان مألوفا لدى العرب من الشّعر والخطابة، ما مكّنها أن تكون بثرائها الزّاخر كفيلة لولوج مخابر التقعيد و التأليف، وهذا ما جعلها تمنح القدرة العقلية والعلمية للنّحاة وتمكّنهم من مواجهة غائلة اللحن، الأمر الذي دفع بهم لصناعة المعاجم ووضع الضّوابط لتمكين المتعلم من فهم أسرار الكتاب المبين، حتى لا يتوغل الدخيل في لغته، فيحيد عن مراسم البلاغة والفصاحة القرآنية.

2- لمسات "الخليل" البلاغية في كتابه العين

أرسى "الخليل بن أحمد الفراهيدي " البذور الجنينية لهذا اللون من الدراسة بتكشُّفه عن المخارج، حين كان يهدف إلى وضع معجم للّغة العربية على غرار معاجم الحضارات الأخرى، حيث

1- السّيرفي، أخبار النّحويين البصريين، تح طه محمّد الزيتي ومحمّد عبد المنعم خفاجي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط01، (1374هـ-1955م)، ص: 12.

استهلّ ترتيبه للمخارج بأعمق تلك الحروف وأبعدها مخرجا وهو العين ، وقد جعل الخليل مخارج الحروف في:المبدأ والمخرج والحيّز والمدرج[1].

ووفقاً لثنائية العمق والبعد للمخرج تدرّج في التّرتيب إلى أن وصل إلى الحروف الشّفوية وهي (الفاء والباء والميم)، ثم الحروف الجوفية أو الهوائية وهي حروف المد(الواو والألف والياء) إذ يقول:«فأقصى الحروف كلّها العين ثم الحاء ولولا بحة في الحاء لأشبهت العين لقرب مخرجها من العين، ثم الهاء ولولا هتّةٌ في الهاء لأشبهت الحاء لقرب مخرجها من الحاء، فهذه ثلاثة أحرف من حيّز واحد بعضها أرفع من بعض، ثم الخاء والغين في حيّز واحد كلّهن حلقية، ثم القاف والكاف لهويتان والكاف أرفع، ثم الجيم والشين والضاد في حيّز واحد، ثم الصّاد والسّين والزّاي في حيّز واحد، ثم الطّاء والدّال والتّاء في حيّز واحد، ثم الظّاء والذّال والثّاء في حيّز واحد ثم الرّاء واللاّم والنّون في حيّز واحد، ثم الفاء والباء والميم في حيز واحد، ثم الألف والواو والياء في حيز واحد ،والهمزة في الهواء لم يكن لها حيز تنسب إليه»[2].

إنّ عناية "الخليل" بمخارج الحروف وحصره لها في أحياز يوحي بتفطنّه إلى أهميّة تحديد هذه الأحياز لما لها من الأهميّة أثناء النّطق [3]، فتموقع الأصوات وحسن توزيعها وتجاورها يزيد الكلام تلاؤما، والأسلوب انسجاما واتّساقا، وهذا ملمح من ملامح جودة الكلام وحسن تأليفه عند البلاغيين؛ فقد أشار "ابن سنان الخفّاجي" إلى أنّ التلاؤم الصّوتي تتحكّم فيه عدّة عوامل مختلفة منها مخارج الحروف، فبقدر تباعد المخارج يتحقق التّلاؤم والانسجام بخلاف تقاربها وتجاورها[4].

كان هدف "الخليل" وضع سياجٍ للّسان العربي بُغية تحصينه من الدَّخيل الذي يشكّل خطرا على معالم الفصاحة العربية، حيث رأى أنّ كل لفظة على«نحو الكَشَعْتج والخَضَعْثَج

---

1 - ينظر: الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تح عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت(لبنان)، ط01، (1424هـ-2003م)، ج01، ص: 57 - 64.

2- المصدر نفسه، ج01، ص: 41.

3- المصدر نفسه، ج01، ص:10.

4 - ينظر: ابن سنان، سر الفصاحة، ص: 57.

والكَشَعْطَج وأشباههنّ، فهذه مولّدات لا تجوز في كلام العرب ، لأنّه ليس فيهنّ شيئ من حروف الذّلق أو الشفويّة فلا تَقبلنّ منها شيئا، وإن أشبه لفظهم و تّأليفهم»[1].

وعليه عمدَ إلى نظام التّقليبات السّتة لمعرفة المستعمَل في العربية من المهمل، وتظهر فائدة وثمرة عمل الخليل في احتواء معجمه على أصول العربية الفصيحة الخالية من الغريب المستهجن مما كان عليه عصر "الخليل" آنذاك، وما يمكن قوله بأن بداية الدرس اللغوي مع "أبي الأسود" كانت لدفع اللحن، أمّا عمل "الخليل" ومَن جاء بعده فكان يهدف إلى تنظيم النطق ومعرفة آلياته ، فهو «في ذائقته الصّوتية هذه، قد قلّب حروف العربيّة فوضعها في منازل معيّنة، ضمن مخارج صوتية معيّنة، بحسب مدارج مقدّرة، من أقصى الحلق حتّى إطباق الشّفة في الميم، واتّضح أنّ الخليل رحمه الله قد صنّف هذه المخارج إلى عشرة أصناف»[2] .

وعلى هذا الأساس تعتبر مساهمة "الخليل" بحقٍ فاتحة التأسيس ومحور التأصيل لحقل الصّوتيات العربية التّراثية والذي تمثّل في معجم العين، وبها حاز الأسبقية المنهجية في ترتيب معجمه، وأكسبه ريادة تاريخيةً في حسن التدوين وجمال التأصيل.

وبناءً على هذا التقسيم حذا من جاء بعد "الخليل" من النُّحاة حذوه، فكان لا مناص لهم من الاستكانة إلى رؤيته، والارتهان إلى مجهوداته وأطروحاته، باستثناء بعض التفصيلات والنظرات التّجزيئية للمخارجِ، ممّا جعل عملهم تثبيتا وتقعيدا لما جاء به، بغضِّ النظر عن بعض الزيادات الثانوية كالشّواهد من القرآن والشّعر والحديث النبوي، أو عزوِ الشّواهد الخليلية إلى أصحابها.

أشاد العلماء باللّمسات البلاغية الهامّة ل "لخليل" في كتابه العين ، فقد ذكروا أنّه «كانت له ملاحظات بلاغية قيّمة أودعها سيبويه كتابه الذي يُقالُ إنّه جمع أصوله ومسائله من صنع الخليل

---

1 – الخليل، العين، ص: 38.

2 – محمّد حسين علي الصّغير، الصّوت اللغوي في القرآن، دار المؤرّخ العربي، بيروت (لبنان)، ط01، (1420هـ-2000م)، ص:41 .

نفسه»[1]، إذ إنّه أشار إلى العديد من المرتكزات البلاغية على غرار الفصاحة التي تُعدّ ركيزة أساسية في الدّرس البلاغي لما لها من تعلّق بالألفاظ والمتلفّظ معا، فقد أشار إليها في مادّة فصح بقوله: «تفصيح اللّبن: ذهاب اللّبأ عنه وكثرة محضه وذهاب رغوته، فصّح اللّبن تفصيحاً، ورجل فَصَحَ فَصُحَ فَصَاحَةً، وَأَفْصَحَ الرجُلُ القول»[2].

كما تناول "الخليل" أدقّ مسألة في البلاغة هي حسن انتقاء الأصوات وكيفية تأليفها وأثرها في جمال اللفظة وتجانسها، فقد ذهب إلى شناعة تأليف الألفاظ من بعض الحروف التي لا يُستحسن تجاورها على غرار القاف والكاف والجيم، وإلا كانت هذه اللفظة من الألفاظ المولّدة نحو: جِلْق وجوسق[3]، فهي عسيرة في النّطق وثقيلة على الأسماع.

بينما هناك من الألفاظ العربية العريقة التي تكتسي جمالا ونضرة لامثيل لها من تجاور بعض الأصوات العربية، لما لهذه الأصوات من خصائص صوتية تنماز بها على غرار العين والقاف، فإنّ خصائصهما «لا تدخلان في بناء إلاّ حسّنتاه، لأنّهما أطلق الحروف وأضخمها جرسا، فإذا اجتمعا أو أحدهما في بناء حَسُنَ البناء لنصاعتهما»[4]، وذلك لما يتمتّع به الحرفان من الصّفات المختلفة التي بوّأتهما حظوة القبول لدى الخليل، فإنّ صوت العين لنصاعته وذوقه سمّى به "الخليل" معجمه، وهو صوت حلقي، احتكاكي ورخو، كما أنّه مجهور، أمّا القاف فلهوي مجهور شديد من حروف الإطباق.

---

1 – عبد القادر حسين، أثر النّحاة في البحث البلاغي، دار غريب للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، مصر، (1998م)، ص: 55.

2 – الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، ج03، ص: 323.

3 – يُنظر: المصدر نفسه، ج01، ص: 43.

4 – المصدر نفسه، ج01، ص: 38.

3- لمسات سيبويه البلاغية في كتابه الكتاب

يُعتبر "سيبويه"(180هـ)الرافد المرجعي بعد "الخليل" في الوقوف على كنه المستوى الأول للظاهرة اللغوية العربية في مهدها، وبما أنّ "سيبويه" تلميذ "الخليل" فإنّ روح الوثوقية التي كانت تكتنفه في أستاذه، جعلته لم يزد الكثير عن عمل أستاذه في نظرته للمخارج، غير أن قام بعملية تجزيئيةٍ للأحياز الخليلية فتوصل إلى أنّها ستة عشر مخرجا؛ أمّا ما يُلمح صداه عند سيبويه فضلا عن نظرته التدقيقية في المخارج، وُلوجُه وارتقاؤه إلى إثراء الكلام عن الصِّفات المتعلقة بالأصوات، بعد أن اهتدى إلى أن الحروف العربية أصول وفروع، فبيَّن بأنَّ«أصل حروف العربية تسعة وعشرون حرفا»[1].

ثم انتقل للحديث عن الفروع وهي ما دون التسع والعشرين المذكورة فقال:«وتكون خمسة وثلاثين حرفا بحروف هنَّ فروع وأصلها من التسعة والعشرين وهي كثيرة يؤخذ بها وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار وهي:النّون الخفيفة والهمزة التي بين بين، والألف التي تمال إمالة شديدة، والشّين التي كالجيم، والصّاد التي تكون كالزّاي، وألف التفخيم يعني بلغة أهل الحجاز في قولهم الصلاة والزكاة والحياة»[2]،

جعل"سيبويه" هذه الصفات التي تثبت نطقا لا كتابة معيارا لإضفاء الجمالية في القرآن ، وهي صفات أو ألفونات تستسيغها الأذن، ويروق سمعها، ولا يَمُجُّ قارئها بخلاف المستهجنة، ولعل سيبويه كان يقوم بعملية استقراء وتنقيب من القرآن والحديث والشعر، فضلا عن الأخذ من أصول القبائل العربية التي لم يتغوّر لسانها غورا فاحشا كقريش وتميم وأسد وكنانة، الذين كان لسانهم يُعَدُّ عرفا لغويا لدى القبائل العربية الأخرى.

1- سيبويه، الكتاب، ج04، ص:431.

2- المصدر نفسه، ص:431.

بناءً على هذه المعايير اللغوية قابل "سيبويه"الصّفات المستحسنة بصفات مستقبحة وهي«الكاف التي بين الكاف والجيم، والجيم التي كالكاف، والجيم التي كالشين، والضاد الضعيفة، والصّاد التي كالسّين، والطّاء التي كالتّاء، والظّاء التي كالثّاء، والباء التي كالفاء»[1].

إنّ ماذهب إليه "سيبويه" في تكشّفه عن الحروف المستحسنة والمستقبحة هو ما يضاهي ظاهرتي الإذلاق والإصمات عند البلاغيين، فإذا كان معيار جمال الحروف المستحسنة يؤخذ به في قراءة القرآن ويُستشهد بها في الشّعر، فإنّ الحروف الذّلقية عند البلاغيين تُكسب الأسلوب رونقا والكلام طلاوة، كما تمنحها مصداقية الانتماء إلى اللسان العربي.

كما أنّنا لو نظرنا إلى الحروف المستقبحة المذكورة آنفا، وهي التي لا يُستحسن الأخذ بها في قراءة القرآن، وقد عدّها "ابن جنّي "(392هـ) من المستقبحة الممقوتة وبيّن بأنّها «فروع غير مستحسنة، لا يؤخذ بها في القرآن ولا في الشعر، ولا تكاد توجد إلا في لغة ضعيفة مرذولة، غير متقبلة»[2]، فسنجدها تضاهي الأصوات المصمتة لدى البلاغيين، إذ كلّ كلمة خالية من الحروف الذّلقية ممقوتة عند البلاغيين مستهجنة، بعيدة عن اللسان العربي الأصيل.

إنّ حروف الذّلاقة تُكسب اللفظ خِفّة في النّطق وسرعة في الأداء ، وهذا ما تصبوا إليه العرب في كلامهم، ولذلك ذهب "الخليل" إلى القول بأنّه: «إذا وردت عليك كلمة رباعية أو خماسية معراة من الحروف الذلقية أو الشفوية ولا يكون في تلك الكلمة من هذه الحروف حرف واحد أو اثنان فما فوق ذلك فاعلم أن تلك الكلمة محدثة مبتدعة ليست من كلام العرب» [3]، ولا تمتّ إلى رصيدهم اللّغوي بصلة.

وإذا أردنا أن نقف على بعض ملامح الدّراسة الصّوتية العميقة ل"سيبويه" في نظرته للمفارقة بين صفات الحروف ، والتي كان لها أثرٌ لدى البلاغيين والقرّاء معا، فإن ذلك يُستجلى على سبيل

1- سيبويه، الكتاب ، ج04، ص: 431.

2 - ابن جني ، سر صناعة الاعراب، تح حسن هنداوي، (دط)، ج01، ص:51.

3 - الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين،ج01، ص: 37.

التمثيل في الصّاد التي كالزاي ، وه ي حرفٌ من الحروف المستحسنة عنده، حيث تنبّه سيبويه لأهمية هذه الظاهرة الصّوتية السّمعية، والتي يكون نطق الناطق فيها خارجا عن حدود إرادته.

ونظرا لضبابية هذا الصّوت الذي يعترض المقومات التعريفية للصّوتين الصاد والزاي، فقد انبرى سيبويه ومَن جاء بعده لِفَضِّ مغاليق هذه الصّورة السّمعية الوسطية، والتي هي اقتناصٌ و امتزاج لصوتي الصّاد والزّاي في المخرج والصفة؛ ولم يكن "سيبويه" الوحيد المهتمّ بهذه الظاهرة الصوتية، فقد أسدى المبرد روعة وصفية لهذه الظاهرة بأنها اعتراض وتوسّطٌ وانتساب للصوتين معا بقوله: «إنه الحرف المعترض بين الزاي والصاد»[1].

لم يكن لهذه الظاهرة الصّوتية التي نقّب عنها "سيبويه" صدى عند النحاة فقط، بل إنها احتُضنت واكتست مجال الدّراسة عند القراء والمجودين، حيث أطلقوا عليها اسم الإشمام، وسمَّوها الصّاد المشَمَّة، وهي التي تشم رائحة الزاي، «فالصاد المشمةُ وهي التي بين الصّاد والزّاي فرع عن الصّاد الخالصة وعن الزاي»[2].

ولو تناولنا تقسيم "سيبويه" للحروف من وجهة نظر حداثية، فيمكن القول بأن ما ذهب إليه يُساوق ثنائية لسان/كلام، فقد جعل سيبويه حروف العربية تسعة وعشرين حرفا يوافق اللسان لأن اللسان يرتهن في دراسته إلى المكتوب والملموس، وأما المستحسن والمستَهجن عنده فكأنّه يوافق الكلام عند المحدثين، وهذا ملمح حسنٌ في تضمُّن التّراث العربي للمقاطع فوق التركيبية، والتي حظِيت بعنايةٍ فائقة في الدراسة لدى المحدثين.

وما يمكن قوله عن عمل "سيبويه" أنه شابه وساير أستاذه الخليل في الدراسة الصوتية من حيث المخارج، واستدرك ما فاته- "الخليل"- في عدم ذكره للصفات، حيث اعتمد في تقسيمه

1- المبرّد، المقتضب، تح عبد الخالق عظيمة، مطبعة دار التحرير، القاهرة،ط03، (1415هـ-1994م)،ج1، ص: 330 .

2- ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، تح محمّد علي الضّباع، دار الكتب العلمية، بيروت(لبنان)، ج01، ص: 160.

لصفات الحروف بالاتِّكاء على قوة اندفاع النفس أو ضعفه، وقَسّم صفات الحروف إلى ثلاثة أقسام هي: [1]

صفات عامة: تتمثل في الجهر والهمس، الشدة الرخاوة والتوسط.

صفات خاصة: تتمثل في الإطباق والانفتاح، اللين، المد، الاستطالة، التفشي، الصفير والغنة.

صفات مفردة: تتميز بها أصوات مفردة كالانحراف والتكرير.

4- الدّراسة الصّوتيّة عند "ابن جنّي"

تتجلى ملامح الدّراسة الصّوتية عند "ابن جنّي" وفقا للملامح التنظيرية التي أفرزتها الدراسة الصّوتية لسيبويه، حيث اكتفى ابن جني بترديد مقولات سيبويه الفيزيولوجية؛ ولعل أهمّ استثمارٍ قام به ابن جني كان انطلاقته من باب الإدغام لسيبويه، حيث أخصبت هذه البذرة التي زرعها سيبويه في با ب الإدغام، فأينعت مع ابن جني في كتابه الخصائص حيث تعرض فيه لمختلف الظواهر الفونولوجية، فكان عمله طفرة صوتية في سياق الأطروحات الصّوتية التّراثية، حيث كان يهدف إلى البحث في علاقة الأصوات بالدلالة، ويُلمح ذلك في أربعة أبواب من هذا الكتاب وهي:

أ – باب تلاقي المعاني على اختلاف الأصول والمباني.

ب – باب الاشتقاق الأكبر.

ج – باب تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني.

د – باب إمساس الألفاظ أشباه المعاني.

فعلى سبيل المثال يذكر "ابنُ جنّي" في باب مقابلة الألفاظ بما يُشاكل الأصوات ويصِفُه بأنه«باب عظيم واسع ونهج متلئب عند عارفيه مأموم، وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف

[1] – ينظر سيبويه، الكتاب، ص:434-436.

على سمت الأحداث المعبر عنها، فيعدلونها بها ويحتذونها عليها وذلك أكثر مما نقدِّره وأضعاف ما نستشعره»[1].

وعند تعرُّضه لمادة خَضَمَ وقَضَمَ، وبعملية استقرائية توصل إلى أن العرب يستعملون الخضم لأكل الرّطب، ويستعملون القضم لأكل الصّلب، ومما يشدّ الانتباه ويأخذ بالألباب اختيارُ العرب الخاء لرخاوتها وتوظيفها للدلالة الاستعمالية على حسب مقتضى الحال من أكل اللّيّن، وتوظيف القاف لصلابتها وقوّتها لتناول المادة الصّلبة، حيث توخّى "ابن جني" هذا الاستعمال عند العرب «حذواً لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث»[2].

كما يذهب "ابن جني" إلى أنّ مجرد التقارب في بعض الأصوات يكفي أحيانا للاشتراك في الدّلالة نحو النضح والنضخ في قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾[3]، وهذه الخاء في الآية الكريمة تدلّ على قوة جريان الماء وتدفّقه بخلاف النّضح الذي يكون فيه جريان الماء أقل من النّضخ؛ حيث نستشفّ الذّوق العربي الأصيل في الاتّكاء على صفات الأصوات للتّعبير عن مضامينها الأشياء وأحوالها؛ فالتعبير القرآني المستعملِ للخاء يقذف بالمستمع إلى الإحساس بشدة التدفّق والسّيلان، وبما أن الخاء أخت الحاء وقريبة منها فتقارب اللفظين لتقارب المعنيين، وكأنهم خصُّوا هذا المعنى بالخاء لأنها أقوى من الحاء وهذا المعنى أعظم في النفوس لدلالته على قدرة الخالق من توظيف النضح في الآية الكريمة.

وعليه فإن الإيحاءات الدّلالية التي انتهي إليها ابن جني في بحثه المتعلق بدلالة الأصوات يدفعنا إلى الإقرار بحسّهِ اللغوي الدقيق، وكيف أنه استطاع أن يُبَيّن لنا مدى فاعلية العرب في استغلال صفات الحروف وتوظيفها وفق مقتضى الحال، فما يتطلّبُ شدة وقُوة يرهنونه بالحروف الفخمة

1- ابن جني، الخصائص، ج02، ص: 157.
2- المصدر نفسه، ج02، ص: 158.
3- سورة الرحمن، الآية:66.

الشديدة والمستعلية المطبقة، وما يُناسب رِقَّة الحال والضُّعف أو الاضمحلال يُوظّفوا له ما يناسبه من الحروف المهموسة والضعيفة اللّينة، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على حيوية هذا اللسان الذي ينبغي أن تُسبر أغواره لما يشتمل عليه من لطائف وأسرار.

أهمّ الظّواهر الصّوتية عند النّحاة

كان للعديد من الظّواهر الصّوتية التي تطرّق إليها النّحاة صدى كبيرا عند البلاغيين، ممّا جعل ماتوصّلوا إليه مادّة دسمة ومتّكئا يستند عليه في ترسيخ وتأصيل الدّرس الصّوتي البلاغي، ممّا سيجعلنا نقف عند عتبة بعض من هذه الظّواهر الصّوتية، للتّأمّل في كيفية استغلال البلاغيين لهذه الظّواهر الصّوتية وتفعيلها في أطروحاتهم الصّوتية البلاغية، وإذا كنّا قد أشرنا إلى الحروف المستحسنة والمستقبحة عند سيبويه، فإنّنا سنقرع باب ظاهرتين صوتيتين هما ظاهرة الإدغام، وظاهرة القطع والاستئناف كملمحين من ملامح تحقيق الانسجام البلاغي عند البلاغيين.

1- ظاهرة الإدغام

تعدّ هذه الظّاهرة من الظّواهر الصّوتية الموجودة في كلام العرب قبل نزول القرآن، فقد وجدت في شعرهم ونثرهم، حيث كانوا يجنحون إليها من أجل تخفيف الكلام من ثقله البنوي، فكان «الإدغام أكثر شيوعا من الإظهار»[1]، في كلامهم، وممّا زادها ترسيخا نزول القرآن وإثباته لها في كثير من الآيات القرآنية، وهذا ما حقّق لها مُكنة الحضور لدى كلٍّ من النّحاة والمجوّدين والقراء والبلاغيّين وهذا لما لها من الأثر الحسن في انسجام الكلام عموما و الخطاب القرآني خصوصا، ونظرا لأهميّة هذه الظّاهرة سنقف عند مفهومها وأسبابها وقواعد وقوانينها من أجل استكناهها والوقوف على فاعليّتها في تحقيق الانسجام في الخطاب القرآني.

1- فاتن خليل محجازي، اللهجات العربية في القراءات القرآنية، دار النشر الدولي، الرياض، ط 2، (1434هـ،2013م) ص:195.

1-1 مفهوم ظاهرة الإدغام

لغة: جاء في لسان العرب : «دغم الغيث الأرض يدغمها وأدغمها إذا غشيها وقهرها، والدّغم: كسر الأنف إلى باطنه هشما، دغم أنفه دغماً:كسره إلى باطنه هشما ، والدّغمة والدّغم من ألوان الخيل: أن يضرب وجهه وجحافله إلى السواد مخالفا للون سائر جسده، ويكون وجهه ممّا يلي جحافله أشدّ سوادا من سائر جسده، وقدِ ادْغامَّ ؛ وفرس أدغم»[1].

اصطلاحا:عرّفه "ابن جنّي" بقوله[2]: الإدغام هو تقريب صوت من صوت، وهو في الكلام على ضربين: أحدهما أن يلتقي المثلان على الأحكام التي يكون عنها الإدغام فيدغم الأوّل في الآخر وهو على ضربين:

أ- إدغام السّاكن الأصل كطاء قطّع، وكاف سكّر.

ب- إدغام المتحرّك نحو شدد فتصبح شدّ.

تأسيسا على هذا التّعريف يمكننا القول بأنّ الإدغام ملمح صوتي وظاهرة فونولوجية غايته تقريب الأصوات من بعضها عند التّماثل، وإذابة العوائق النّطقية من طريقها عند التّواشج، حتّى تنتج الكلمة متجانسة خالية من الثّقل والتّنافر ، «فالحرفان المتقاربان مخرجا أو متفقان يكون النطق بهما ثقيلا على اللسان، وقد شبه النحويون هذا النوع من النطق الثقيل بمشي المقيد، يرفع رجلا ثم يعيدها إلى وضعها أو قريب منه، ولهذا السبب كان الإدغام تسهيلا للنطق وتخفيفا لهذا النوع من اللفظ»[3].

كان "سيبويه" أوّل من تناول هذه الظّاهرة الصّوتية في كتابه بقوله: «هذا باب الإدغام في الحرفين اللذين تضع لسانك لهما موضعا واحدا لا يزول عنه»[4]، وقد بيّن بأنّ دأب العربي في كلامه

1- ابن منظور، لسان العرب، تح علي عبد الله الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة(مصر)،(دط)، ج15، ص:1391.

2- ينظر: ابن جنّي، الخصائص، ج02، ص:139، 140.

3 - علي بلعاليه دومة أبو عمر المجاجي، المصباح المفيد في علم القراءات والتجويد، دار الأمل، تيزي وزو(الجزائر)، (د.ط) (1998م) ص:153.

4- سيبويه، الكتاب، ج04، ص:437 .

تجنّب الأمثال بغية الخفّة والمرونة في النّطق، كما أنّه تطرّق إلى الإدغام وأنواعه في بابين هما: باب التّضعيف، وباب الإدغام، والمضارعة، كما أشار وأفاد غير "سيبويه" من النّحاة إلى ظاهرة الإدغام على اختلاف في تسمياتها، «فابن جني عبّر عنها بمصطلح الإدغام الأصغر ،وابن فارس (ت 395ه) عبّر عنها بمصطلح المحاذاة و المزواجة»[1].

1-2 -أنواع الإدغام: من خلال ما أسلفنا أنّ العرب كانوا أمّة يجنحون إلى تخفيف النّطق وتعديل الكلام، فإنّ الدّارسين ألفوا أسباب الإدغام راجعة إلى المجاورة الصّوتية، وقد كان النّحاة يؤسّسون للدّرس الصّوتي العربي وهم يعلمون أنّه «إذا جاور الشيء الشيء دخل في كثير من أحكامه لأجل المجاورة»[2]، وقد أرجعوا أسباب الإدغام إلى ثلاثة هي :[3]

أ/ **التماثل**: هو أن يتّحد الحرفان ويتشابهان في كلمة واحدة نحو التّشابه في كاف"يُدْرِككُّمْ"في قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ﴾[4]،أصلها: يُدْرِكُكُم، غير أنّ الدّافع لتجنّب الثّقل في الأداء النّطقي يتطلّب إدغام الكافين، مثلما هو في كلٍّ من روايتي ورش عن نافع، وحفص عن عاصم، كما يرد في كلمتين نحو قوله تعالى: ﴿وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ﴾[5]، والغرض من هذا الإدغام طبعا هو تخفيف وتسهيل التّلاوة، وذلك بسبب الثّقل النّطقي والجهد العضلي لنطق الحرفين معا، فضلا عن الطّول الزّمني أثناء رفع اللسان مرّتين لنطق حرف واحد.

1- ماهر خضير هاشم، المشاكلة في اللغة العربية (صوتيا وصرفيا)، مجلة جامعة بابل، المجلد 18، العدد(3)، السّنة: (2010) ص:03.

2- ابن جنّي، المنصف، تح إبراهيم مصطفى، عبد الله أمين، إدارة إحياء التّراث القديم-وزارة المعارف، الإسكندرية(مصر)، ط1، (1373ه-1954م)، ج02، ص:02.

3- علي بلعاليه دومة أبو عمر المجاجي، المصباح المفيد في علم القراءات والتجويد، ص:153.

4- سورة النّساء، الآية: 78.

5- سورة المائدة، الآية: 61.

ب/التجانس: هو «أن يتفق الحرفان مخرجا ويختلفا صفة أو يختلفا مخرجا ويتفقا صفة، كالدّال في التّاء والتاء في الطاء، وكالدّال في الجيم »[1]، فالدّال والتّاء والطاء أصوات مشتركة في مخرج واحد هو النّطع، وتختلف في الصّفة، فالدّال: من حروف القلقلة، صوت مصمت، مجهور، شديد، رخو مستفل، بينما الطّاء من حروف القلقلة مصمت، مجهور، مستعلي، شديد، مطبق، وصوت التّاء مهموس، مصمت، شديد، فنلحظ اشتراكا في كثير من الصّفات المشتركة بين هذه الأصوات النّطعية، أمّا الدال والجيم فإنّهما مختلفان مخرجا، لكنهما صوتان متفقان في الصفة كصفة القلقلة والشّدّة، والجهر، مصمتين، وهذه الصّفات ممّا مكّن من تجانس هذه الأصوات وتلاؤمها.

يشترط أيضا في المتجانسين أن لا يكون أولهما حرف حلق نحو: "فاصفح عنهم"، لثقل الأصوات الحلقية عند تجاورها، ولذلك عدل القرّاء عند التقاء حرفين حلقيين إلى سُبُل أخرى للتّخفيف من عبئها وثِقلِها لعسر توظيف آلية الإدغام في الأصوات الحلقية، كتسهيل الهمزة الثّانية عند ورش في قوله تعالى: ﴿أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾[2]، حيث عدل الخطاب القرآني إلى التّخلّص من الثّقل في لفظة (أَئِلَهٌ) بتسهيل الهمزة الثّانية للتّخفيف من حِدّة النّطق بهمزتين متتابعتين.

ج/التقارب: وشرطه في الحرفين المدغمين «أن يتقارب الحرفان مخرجا ، أو صفة، أو مخرجا وصفة معا كالدّال والسّين والشّين، وكاللاّم مع الرّاء »[3]، فإدغام المتقاربين مخرجا نحو قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ ﴾[4] فالدال و السّين متقاربتين في المخرج، لأنّ الدّال نطعية مجاورة لمخرج السّين وهو من أسلة اللسان، أمّا المتقاربين في الصّفة فكالواو والنّون من قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [5]، فسبب الإدغام هو الصِّفات المشتركة بين الحرفين، فكلاهما مجهور متوسّط مستفل

[1] – علي محمّد الضّباع، الإضاءة في بيان أصول القراءة، تح مُحَمَّد خلف الحسيني، المكتبة الأزهرية للتّراث، مصر، ط 01 (1420هـ-1999م)، ص: 13 .

[2] – سورة النّمل، الآية: 60.

[3] – علي محمّد الضّباع، الإضاءة في بيان أصول القراءة، ص: 13.

[4] – سورة المجادلة، الآية: 01.

[5] – سورة الرّعد، الآية: 34.

مرقّق، أمّا المتقاربة مخرجًا وصفة فمثل التّاء والثّاء كقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾[1]، فنلحظ عند مقارنة بين الحرفين تقاربا في مخرج التّاء النّطعي والثّاء اللثوي، كما نرى تقاربا في صفتي الحرفين حيث إنّهما يشتركان في: الهمس والاستفال، الانفتاح والإصمات.

1-3- أقسام الإدغام: ينقسم الإدغام إلى نوعين هما:

الإدغام الكبير والصّغير: عرّفهما علماء التجويد كالآتي: «الإدغام الكبير هو: ماكان المدغم والمدغم فيه متحرّكين، ويكون في المثلين والمتقاربين، والمتجانسين؛ والصّغير: ما كان المدغم ساكنا والمدغم فيه متحرّكا، ولا يكون إلا في المتقاربين والمتجانسين»[2].

1-4- تجلّيات الإدغام في الدّرس البلاغي:

ارتكازا على ما سبق يمكننا القول إنّ الإدغام ظاهرة صوتية جليلة القدر، لم يقتصر تناولها على النّحاة فقط، بل تناولها أيضا القرّاء والمجوّدون وأسهبوا في الحديث عنها في القرآن الكريم، وقسّموه إلى أنواع منها الكبير والصّغير، ومنها الإدغام بغنّة وبغير غنّة، وجعلوه في ستّة أحرف مجموعة في كلمة(يرملون)،منها حرفان بلا غنّة و هما : اللام و الراء، أما البقية فهي بغنة مجموعة في كلمة (ينمو)[3].

إن الإدغام كظاهرة صوتية كان لها تمام الحضور لدى كلّ من النّحاة والقرّاء والمجوّدين وتقبّلها البلاغيّون أيضا بقبولٍ حسنٍ واستأنسوا بها لما لها من الأهميّة في انسجام الكلام وتسهيله، وتحقيق التّلاؤم وتحقيقه، والحياد عن التّنافر الذي عدّه البلاغيّون من عيّ الكلام وممقوته، فالغاية من الإدغام

[1] - سورة القمر، الآية:23.

[2] - عبد الفتاح عبد الغني القاضي، الوافي في شرح الشاطبية، مطبعة دار السلام، مصر، ط05، (1429هـ-2008م)، ص: 43.

[3] - ينظر: سليمان بن حسين الجمزوري الشّافعي، تح سمير القاضي، دار الجنان، بيروت، لبنان، ط 01، (1407هـ-1987م) ص15، 16.

لدى القراء والمجوّدين والبلاغيين هو «التخفيف، لأن اللسان إذا لفظ بالحرف من مخرجه ثم عاد مرة أخرى إلى المخرج نفسه لينطق بحرف آخر مثله صعب عليه ذلك»[1].

ولمّا كان القرآن الكريم مُصنّفا في أعلى درجات الانسجام الصوتي، فإنّ ظاهرة الإدغام كانت لا تفارقه في جلّ آياته وسوره مُتّخذة من الأصوات المتجانسة حقلا خصبا تميّز به الخطاب القرآني، إذ إنّه يعمل على تقريب صفات الحروف من بعضها البعض، حتّى تتّسم القراءة بالسّهولة في النّطق والمرونة في الأداء مصداقا لقوله تعالى:﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [2].

نلمح من معالم تيسير القرآن الكريم شدّة انسجامه وتناسقه النّاجم عن تناسب جانبين«جانب الألفاظ وجانب المعاني، فأمّا من جانب الألفاظ فذلك بكونها في أعلى درجات فصاحة الكلمات وفصاحة التّراكيب، أي فصاحة الكلام، وانتظام مجموعها، بحيث تخفّ على الألسنة، وأمّا من جانب المعاني، فبوضوح انتزاعها من التّراكيب »[3]، ومن الآيات القرآنية الدّالّة على تمام الانسجام والتّناسق النّاجم عن ظاهرة الإدغام قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ * هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ [4].

لو فكّكنا الإدغام في هذه الآيات لاستحال على القارئ قراءة الآيات بوتيرة يسيرة لعسر التّعامل مع الحروف حين فكّ الإدغام عنها، حيث ستتوالى اللاّمات والميمات والنّونات غير المدغمة، فيغيب الانسجام والتّجانس الصّوتي أثناء قراءة القرآن، الذي يعدّ ملمحا من أعلى ملامح الخصائص الأسلوبية المميّزة للغة القرآن الكريم، فالإدغام كظاهرة صوتية يعمل على إقصاء اللبس أثناء التّلاوة ويعمل على جلاء الدّلالة عن طريق المحافظة على بناء الكلمة ونسقها، فالإدغام يعمل على «تماسك

1 – أمينة إبري، دلالة الظواهر الصوتية عند القراء– دراسة وصفية وظيفية لكتاب معاني القرآن للكسائي–، أطروحة دكتوراه إشراف: أ د سميرة رفاس، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعبّاس (الجزائر)، السنة الجامعيّ: (2016م–2017م) ، ص: 62.

2 – سورة القمر، الآية:17.

3 – طاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، ج27، ص: 188.

4 – سورة القلم، الآيات: 10–13.

الكلمة، والكلمة في موضعها من الإعجاز في تماسك الجملة، والجملة في موضعها من الإعجاز في تماسك الآية»[1]، حتّى تصير الآية منسجمة.

فضلا عمّا ذهب إليه القرّاء من أثر الإدغام في تحقيق التّجانس الصّوتي والتّلاؤم الذي يعدّ قطب الرّحى في الدّراسات البلاغية، فإنّهم أشاروا إلى القول بأنّ للإدغام دورا في الوقوف على دلالة المعنى ومشاهدتها من خلال توظيف الإدغام وفكّه، أي إنّ الخطاب القرآني أحيانا ينزع إلى الإدغام وأحيانا أخرى يعدل عنه من أجل دلالة معيّنة كقوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آَلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آَلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[2].

إنّ ورود الإدغام في لفظة (يُمِدَّكُمْ) وانتفاؤه في لفظة (يُمْدِدْكُمْ) يوحي إلى دلالات معيّنة متباينة بين اللفظتين، حيث إنّ اللفظة المدغمة الأولى تحاكي حالهم من الخوف حينما أوجسوا في أنفسهم خيفة أمام قوّة عاتية بخيلها وخيلائها، ثم انتقل إلى المشهد الثّاني المفعم بروح الوثوق في الله ووعده إن صدقوه بالتّقوى والإخلاص أن يمدّهم الله بعدد عظيم من الملائكة، فكان فكّ الإدغام والإبقاء على إظهار الدّالين من أهمّ الدّلالات المشيرة إلى معانٍ مقصودة في التّعبير القرآني، إذ يمكن القول بأنّ هناك ارتباطا لدلالة الفكّ بالإظهار والبيان، ودلالة أخرى لارتباط الإدغام بالإخفاء.

2- ظاهرة القطع والاستئناف:

تعدّ ظاهرة القطع والاستئناف من الظّواهر الصّوتية التي نقّب عنها النّحاة لما لها من الأهميّة في الوقوف على الدّلالة وتمييزها، فبالوقف والاستئناف تُستجلى الدّلالة ويزول الغموض واللّبس، كما أنّ هذه الظّاهرة تعتبر وسيلة ناجعة لتنفّس القارئ وأخذ كامل قوّته الصّوتية، كما أنّها تعدّ أداة إجرائية لتحسين التّلاوة وتجنيبها الوقوع في قبيح الأخطاء، ولهذه الأسباب تجلّت عند النّحاة، ثمّ القرّاء والبلاغيين.

1 - منّاع القطّان، مباحث في علوم القرآن، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط11، (2000م)، ص: 255.

2 - سورة آل عمران، الآيات:124، 125.

2-1-مفهوم القطع والاستئناف

القطع لغة: عرّفه "ابن منظور" بقوله: القطع إبانة بعض أجزاء الجِرم من بعض فصلا، قطعه يقطعه قطعا وقطيعة وقُطوعا،...، والقطع مصدر قطعت الحبل قطعا فانقطع ،...، قال تعالى:قطّعن أيديهنّ: أي: قطّعنها قطعا بعد قطع،...، قال تعالى:وتقطّعت بهم الأسباب أي: انقطعت أسبابهم ووُصَلهم[1].

اصطلاحا: لم تحظ هذه الظّاهرة لدى النّحاة بتعريف واضح، بل كانوا يلمّحون إلى معناه وإن لم يصرّحوا به، فلم يحدّوه بحدّ، وإنّما اكتفوا بالتّمثيل إليه وذكر صوره، وما يتعلّق بذلك من شروط وأحكام[2]، بل كانت في معرض حديثهم عن ما يضمن للقرآن السّلامة اللغوية أثناء تلاوته، لأنّ «من تمام معرفة إعراب القرآن ومعانيه وغريبه، معرفة الوقف والابتداء فيه، فينبغي للقارئ أن يعرف الوقف التّامّ والوقف الكافي الذي ليس بتام، والوقف القبيح الذي ليس بتام ولا كاف»[3].

أشار "سيبويه" إلى ظاهرة القطع والاستئناف في «باب الوقف في آخر الكلم المتحرّكة في الوصل التي لا تلحقها زيادة في الوقف »[4]، وذكرها أيضا في معرض حديثه عن البناء والسّكون بالوقف بقوله: «وأمّا الفتح والكسر والضمّ والوقف فللأسماء غير المتمكِّنة...والوقف نحو :مَنْ وكَمْ وقطْ وإذ»[5]، وذهب بعض الدّارسين إلى القول بأنّ العلماء القدماء والمحدثين يركّزون في تعريفه على قطع التّوابع والاستئناف [6].

---

1 - ينظر: لسان العرب بتصرّف، المجلّد 05، ج 40، ص: 3674.

2 - يُنظر: يوسف أحمد جاد الرّب محمّد، القطع في تراكيب العربية بين النّحو والدّلالة بتصرّف، مجلّة كلية الآداب، جامعة المنصورة (مصر) العدد: 45، أغسطس (2001م)، ج01، ص: 162.

3 - ابن الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء في كلام الله عزّ وجل، تح:أحمد مهدي، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان)، ص: 68 ،69.

4 - سيبويه، الكتاب، ج04، ص: 166.

5 - ينظر: المصدر نفسه، ج01، ص:15.

6 - هيثم جميل ربّاع، التّوسّع بالقطع في كتاب سيبويه، مقتضياته وأحكامه، رسالة ماجستير، إشراف د: هاني البطّاط، جامعة الخليل (فلسطين) ، (2014)، ص:08.

2-3-أهميّة القطع والاستئناف:

تؤول أهمية ظاهرة القطع والاستئناف لدى النّحاة إلى عدّة وجوه هي:

أ- الارتباط المطلق بالقرآن الكريم : يعد القطع والاستئناف من أوّل الملامح التي تميّز بها القرآن الكريم، وهذه الظّاهرة تعمل عن الكشف عن معانيه ومراميه، وإزالة اللّبس عن ما تقصده الآيات القرآنية، فقوله تعالى مثلا: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [1]، يجعلنا نقف بواسطة قطع الكلام عند الوقف على لفظة (قولهم)، حيث يعمل الوقف على التّوضيح التّام على أنّ تتمّة الآية (إنّ العزّة لله جميعا) ليس من كلام المشركين، بل هي مستأنفة من تمام خطاب الله تعالى، فالقطع والاستئناف في هذه الآية عمل على توضيح دلالة الآية القرآنية وإزالة اللبس والغموض عن معناها المقصود.

ب- تحقيق المعاني وإزالة اللبس: يعمل القطع والاستئناف على الوصول إلى حقيقة المعاني والتّفريق بينها وإزالة اللبس من خلال القطع في التلاوة واستئنافها، ولذلك صار من الأهمية بمكان تحقيق الوقف والاستئناف بغية «التفريق بين المعاني، فينبغي لمن قرأ القرآن أن يتفهم ما يقرأه ويشغل قلبه به ويتفقد القطع والاستئناف ويحرص على أن يُفهِم المستمعين في الصلاة وغيرها، وأن يكون وقفه عند كلام مستغن أو شبيه وأن يكون ابتداؤه حسنًا »[2]، لأنّ عدم احترام قواعد القطع والاستئناف سيغيّر المعنى، ويجعل المستمع شاردا في تقصّي معاني الذّكر الحكيم.

ج- تحسين التّلاوة : تعدّ ظاهرة القطع والاستئناف من أهم الوجوه المساعدة على حسن التّلاوة والتّرتيل التي أمر بها الله عز وجلّ أثناء تلاوة كلامه، فقد تفطّن النّحاة لهذه الميزة قديما فمنحوها رعاية واهتماما منقطع النّظير، وعلموا أنّ من حسن التّلاوة معرفة مواطن القطع والاستئناف، وقد أشار أبو جعفر النّحاس إلى هذه الأهمية في فاتحة كتابه بعد الوقوف على قوله تعالى: : ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ

[1] - سورة يونس، الآية: 65.

[2] - علي عبد الله الميموني، فضل علم الوقف والابتداء، دار القاسم، الرّياض (السّعودية)، ط01، (1424هـ-2003م)، ص: 17.

تَرْتِيلًا﴾[1] بقوله مبيّنا ماهية التّرتيل: «فمن التّبيين تفصيل الحروف والوقوف على ما تمّ معناه منها، وبهذا جاءت سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلّم، لقوله عليه السّلام: لا تختموا ذكر رحمة بعذاب، ولا ذكر عذاب برحمة»[2].

وهذا يعتبر من تمام الوقوفات الحسنة التي تعمل على تيسير الفهم لكتاب الله، فلا يحسُن بالقارئ أن يقف ويستأنف أثناء تلاوته للآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[3] في نصف الآية على اللفظة (أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي)، ويستأنفها بما بعدها (الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) لأنّ هذا من أشنع الوقوفات، وقد أشار إلى هذه الظّاهرة الجليلة **علي بن أبي طالب** بقوله : « التّرتيل تجويد الحروف ومعرفة الوقوف»[4]، فبه تُستجلى الدّلالات ويزول الغموض.

د- **العمل على المحافظة على ثنائية اللفظ والمعنى** : وذلك من خلال الوقوفات التي نجدها تجوس خلال الآيات القرآنية، فالوقف والاستئناف يعملان على المحافظة مابين المبنى والمعنى «إذ إنّ الوقف على بعض المواضع يخلّ بالمعنى ويفقد التّركيب قيمته، كما لوترك الفعل بلا فاعل والمبتدأ دون خبر، والموصوف دون صفة، والموصول دون الصّلة »[5]، فلو أنّ القارئ مثلا لم يحترم الوقوف عند بعض رؤوس الأيات القرآنية وأتمّها مستأنفا فقد يزيغ المعنى، وتخرج الآية عن مقتضاها ومرادها المقصود.

ومن نماذج هذه الوجهة قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ

[1] - سورة المزمّل، الآية:04.

[2] - أبوجعفر النّحاس، القطع والائتناف، تح عبد الرحمان بن إبراهيم المطرودي، دار عالم الكتب، الرّياض، ط 01،(1413هـ-1992م)، ص:01.

[3] - سورة النّور، الآية: 19.

[4] - السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج02، ص: 541 .

[5] - بندري الغامدي، آراء الفرّاء النّحوية في كتاب القطع والائتناف وأثرها في أحكام الوقف والابتداء، رسالة ماجستير، إشراف د: عبد الله بن محمّد المسملي، جامعة أم القرى، مكّة المكرّمة، المملكة العربيّة السّعودية السّنة (1436هـ)، ص:03.

آمَنُوا﴾[1]، فقطع القراءة والوقوف على(الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ) ، ثمّ استئناف القراءة من قوله: (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ) من أجلّ الجمع بين اللفظ والمعنى، فلو أنّ القارئ لم يتوقّف عند نهاية الأولى لصار حملة العرش منسوبا للكفار.

2-3- أنواع القطع والاستئناف:

بما أنّ الوقف يعمل على أيضاح الدّلالة في القرآن والوقوف على المعاني الصّحيحة للآيات، فقد اعتنى به النّحاة والقرّاء للتّواشج المعرفي الذي كان يتميّز به العلماء قديما من اتّسامهم بالجمع بين شتّى العلوم، فكان «لايقوم بالتمام إلاّ نحويّ عالم بالقراءات عالم بالتفسير، عالم بالقصص وتخليص بعضها من بعض، عالم باللغة التي نزل بها القرآن»[2]، فجعلو القطع والاستئناف أنواعا متعدّدة، ذكر منها أبو جعفر النّحّاس في مواطن متعدّدة من كتابه القطع والائتناف عددا منها على غرار: التّامّ الحسن، الصّالح الجيّد، والبيان والبيّن، والمفهوم والقبيح [3]، وحصرها **"**ابن الأنباري**"** في ثلاثة أنواع هي: [4] التام، الحسن، القبيح، ويمكننا الوقوف على بعض هذه الوقوفات وهي: [5]

1-الوقف التام: وهو الذي لا يتعلّق بما بعده، فيحسن الوقف عليه والابتداء بما بعده نحو الوقوف على قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[6].

2-الوقف الحسن غير التّامّ: وهو نحو الوقوف على بسم الله.

3-الوقف الحسن التّامّ: نحو الوقوف على البسملة.

---

1 - سورة غافر، الآية: 07،06.

2 - أبوجعفر النّحاس، القطع والائتناف، ص:18.

3 - ينظر:يونس علي يونس، مقدّمة في الوقف والابتداء مصطلحاته وعلاقته بالنّحو، مجلّة دراسات في اللغة العربية وآدابها العدد:04، السنة (2011م)، ص: 06.

4 - يونس علي يونس، مقدّمة في الوقف والابتداء مصطلحاته وعلاقته بالنّحو ،ص: 06.

5 - ينظر ابن الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء في كلام الله عزّ وجل، تح: محي الدّين عبد الرحمان رمضان، طبعة مجمع اللغة العربية، دمشق، سوريا، (1391هـ-1971م)،ج01، ص:475.

6 - سورة الفاتحة، الآية: 02

4- الوقف القبيح: وهو متروك عند القرّاء، وهو الذي لايُفهم منه المراد نحو الوقوف على بسم أو الحمد وقطعها عن لفظ الجلالة الله.

إن الغاية المتوخّاة من الوقوف على معرفة القطع والاستئناف التي أرسى دعائمها النّحاة كانت في جملتها تهدف للوقوف على المعنى الصّحيح للقرآن الكريم، «وأيا كانت تقسيمات الوقف التي اعتمدها علماؤنا الأُوَل، فإنّ غايتهم ما كانت تدور إلاّ في فلك المعنى القرآنيّ، وضرورة تحصيله صحيحًا خالصًا من كلّ لبس»[1]، حتّى تتساوق المباني والمعاني فيما بينها، ويتخلّص النّصّ القرآني من شوائب الشّكّ والتّحريف.

2-4- تجلّيات ظاهرة القطع والاستئناف في الدّرس البلاغي

إنّ للبحوث التي توصّل إليها النّحاة في باب القطع والاستئناف الصّدى الكبير لدى البلاغيين في إثراء درسهم البلاغي، فتجلّت في عدّة ملامح من أبحاثهم في ما يعرف بالوصل والفصل، والحذف، وقد غني القرآن الكريم بالكثير من هذه الظّواهر واحتفى بها، لما لها من الأهميّة في البلاغية في جذب المتلقّي واحتوائه عن طريق التّشويق، ويمكننا الوقوف على بعض من هذه الملامح في القرآن الكريم وهي الحذف، والوصل والفصل كالآتي:

أ/الحذف:

لغة:حذف الشيء يحذفه حذفًا، قطعه من طرفه[2].

اصطلاحا: الحذف ظاهرة لغوية عامة تشترك فيها اللغات الإنسانية، حيث يميل الناطقون إلى حذف بعض العناصر المكررة في الكلام، أو إلى حذف ما قد يمكن للسامع فهمه اعتمادًا على

1- آيات إسماعيل الصالح، الوقف وأثره في التأويل النحويّ عند أبي حيّان في البحر المحيط، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق (سوريا)، المجلد: 87، ج03، ص: 06.

2 - ابن منظور، لسان العرب، المجلّد: 02 ، ج09، ص: 810.

القرائن المصاحبة حالية كانت أو عقلية أو لفظية، كما قد يعتري الحذفُ بعضَ عناصر الكلمة الواحدة فيسقط منها مقطع أو أكثر[1].

اتّكاء على هذا التّعريف فإنّ الحذف يعدّ ملمحا من ملامح القطع والاستئناف لدى البلاغيين غايته التّنبيه وشدّ اهتمام المتلقّي ففي «قطع التّركيب أيضا من التّشويق وتوجيه الأذهان بدفع قويّ إلى المقطوع؛ لأهمية تستدعي فيه مزيدا من الانتباه »[2]، وقد بيّن "عبد القاهر الجرجاني" أن الحذف عند البلاغيين كوجه من وجوه القطع والاستئناف عند النّحاة، وأنّ هذه الأداة الإجرائية كانت تسري على ألسنتهم كمشهد من مشاهد بلاغة الكلام العربي، من أجل الإشارة إلى مقصود معيّن.

كما عُرف لديهم أنّ «من المواضع التي يطّرد فيها حذف المبتدأ القطع والاستئناف، يبدأون بذكر الرّجل، ويقدّمون بعض أمره، ثمّ يدعون الكلام الأوّل، ويستأنفون كلاما آخر، وإذا فعلوا ذلك أتوا في أكثر الأمر بخبر من غير مبتدإ » [3]، كما كان مُتداولا عند العرب، والبلاغة والإيجاز في القول ديدنهم، وقد ذكر "الجرجاني" العديد من الآيات التي تتضمّن الحذف على غرار قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [4] ،حيث أشار إلى البلاغة المتأتّية من هذا الحذف وهي هل يستوي من له علم ومن لا علم له من غير أن يقصد النص على معلوم ، فدلالة الحذف تتضمّن الإشارة إلى التّباين الجليّ بين أهل العلم والفاقدين له، فمدح العلماء وذم الجهلاء تحقّق عن طريق الحذف الذي يوحي بجلالة أهل العلم عن غيرهم.

---

[1] – طاهر سليمان حموده، ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، الدار الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية (مصر) (1998م)، ص: 04.

[2] – يوسف أحمد جاد الرّب محمّد، القطع في تراكيب العربية بين النّحو والدّلالة، ص:164.

[3] – عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح محمود محمّد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة (مصر)، ط 05، (2004م)، ص: 147.

[4] – سورة الزّمر، الآية: 09.

ب/الوصل والفصل: يُلمح أثر القطع والاستئناف أيضا عند البلاغيين في الفصل والوصل على غرار ما ذهب إليه "عبد القاهرالجرجاني" مبيّنا شأنه، ومشيرا بأنّه من أجلّ الأعمال اللغوية التي سمق بها العرب في لغتهم الشّريفة، فقد ربط الفصل والوصل بما «ينبغي أن يُصنع في الجمل من عطف بعضها على بعضٍ أو ترك العطف فيها والمجئ بها منثورة، تُستأنف واحدة منها بعد أخرى، من أسرار البلاغة، وممّا لايتأتّى لتمام الصّواب فيه إلا الأعراب الخلّص، وإلا قوم طُبعوا على البلاغة، وأوتوا فنّا من المعرفة في ذوق الكلام»[1].

استخلص "عبد القاهر الجرجاني" أهميّة قطع الكلام ووصله بالتّمعّن في كثير من كلام العرب، كما أنّه وجد الخطاب القرآني قد أعطى هذه الظّاهرة أهميّة لا يُستهان بها، لما لها من الشّأن الجليل في إظهار الدّلالة وتمييز المعاني، على غرار وقوفه على قوله تعالى: ﴿وِمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[2]، حيث أشار إلى فائدة قطع القراءة والوقوف على قوله تعالى : (وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ)ثمّ استئناف القراءة من قوله (يخادعون الله) ، من أجل الإشارة إلى أنّ المقصود من عدم استعمال الواو الواصلة هو أنّ «هذه المخادعة ليست شيئا غير قولهم: آمنّا، من غير أن يكونوا مؤمنين، فهو إذن كلام أُكّد به كلام آخر هو في معناه، وليس شيئا سواه»[3].

كما ذهب "السّيّد أحمد الهاشمي" إلى عدّ الفصل والوصل من أسباب وضوح الكلام وتمام صراحته، وأنّه من أسباب محاسن الإنشاء وحسن التّأليف فلا يكون الكلام مسبوكا إلا «بانتقاء الألفاظ الفصيحة والمفردات الحرّة الكريمة وكذا بإصابة المعاني وتنقيح العبارات مع جودة مقاطع

1 – عبد القاهر الجرجاني، المصدر السّابق، ص: 222.
2 – سورة البقرة، الآية:08،09.
3 – عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 228.

الكلام وحسن صوغه وتأليفه، وكذلك بمراعاة الفصل والوصل وهو العلم بمواضع العطف والاستئناف والاهتداء إلى كيفية إيقاف حروف العطف في مواقعها»[1].

وصفوة القول إنّ النحويين أرسوا المرتكزات التي انبنى عليها الدّرس الصّوتي العربي من مخارج الحروف وصفاتها، وتوثّبوا في قرع باب التجاور الصوتي وما ينجم عنه من ظواهر صوتية كالإدغام وتناولو القطع والاستئناف والحروف المستحسنة والمستهجنة ودلالة الأصوات على المعاني على غرار ما أثراه "ابن جني" في كتابه الخصائص، فكان عملهم متّكئا للمنقّبين بعدهم من جمهور البلاغيين والمفسرين والقراء، حيث استثمروا جهودهم في الوقوف على مكامن الإعجاز اللغوي في القرآن خاصة باب صفات الحروف، للوقوف على أسرار الفصاحة والبيان والبلاغة القرآنية التي جعلت من القرآن الكريم الرافد المرجعي لمعرفة الفصاحة في الكلام من عدمها.

[1] – السّيّد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في أدبيات وإنشاء لغة العرب، مطبعة المكتبة التّجارية الكبرى، مصر، ط 27، (1389هـ-1969م)، ج01، ص:18.

المبحث الثّالث: إرهاصات الدّرس الصّوتي عند البلاغيين

إذا كان للنّحاة قصب السّبق في التّأسيس للدّراسة الصّوتية حين تحدّثوا عن المخارج والصّفات، وتمحور عملهم في وضع سياج يصون القرآن الكريم من أخطار اللّحن والدّخيل المحدقة به بسبب توسّع بلاد الإسلام، فإنّ عمل البلاغيين تمثّل في منعرج بحثي جديد مخالف لعمل النّحاة يهدف إلى الوقوف على الفصاحة بأنواعها، سواء ما تعلّق بالكلمة المفردة أو ماتعلّق بالكلام عموما والوقوف على باب المخارج والصّفات وفق نظرة استشرافية جديدة عن طريق إعادة النّظر في آلة الكلام وإنتاجه على حدّ تعبيرهم، والتّنقيب عن ما يجعل الكلام فصيحا مهذّبا.

وتأسيسا على هذه الرّؤية، فإنّ البلاغيين عملوا على إنتاج صرح وتفكير صوتي جديد انتقلوا فيه من فصاحة الكلمة إلى فصاحة الكلام وبلاغته، وتراصّ حروفه وعذوبته، وجزالة ألفاظه ورونق أسلوبه، والعمل على الانتقال من التّنظير والتّأليف إلى التّمثيل والتّطبيق، إنّها إرهاصات جديدة توحي بميلاد عهد جديد في الدراسات الصوتية، يستند على ما توصّل إليه النّحاة ويستشرف آفاقا ومباحث صوتية جديدة، على غرار ما ذهب إليه"الجاحظ"، و"أبو طاهر البغدادي"(429هـ)، و"ابن سنان الخفاجي"، و"ضياء الدّين ابن الأثير"(637هـ)، إلى"الزّمخشري"(538هـ) و"السّكاكي" (626هـ) و"العلوي" (749هـ) وغيرهم.

وعلى هذا الأساس، أصبح الاجتهاد «في دراسة الأصوات المجردة ديدن كثير من النحاة واللغويين والمعجميّين والبلاغيّين وعلماء التّجويد في كتبهم، وإن شاع عند بعضهم ظاهرة التقليد لسابقيهم، إلا أن بعضهم كان يضيف جديدا على دراسات السابقين»[1].

---

[1]- بن فريحة الجيلالي، التّواصُل اللّغَوي في ظِلّ التّنَوّعَات الصّوتِية، أطروحة دكتوراه، إشراف:أد عرابي أحمد، جامعة عبد الحميد بن باديس ، مستغانم، (الجزائر)، السّنة (1432هـ-2011م)، ص: 24.

ذهب البلاغيون في تأسيس طرحهم الصّوتي إلى عدّة مفاهيم جديدة استحدثوها، ومرتكزات اتّخذوها تميّزوا بها عن النّحاة في تأسيس درسهم الصّوتي، ويمكننا الوقوف على هذه المفاهيم المستحدثة لدى البلاغيين وهي:

1-مفهوم الصّوت عند البلاغيين

لغة: عرّفه "ابن منظور" بقوله: «الصّوت الجرس، معروف مذكّر، وأمّا قول رويشد: [1]

يأيّها الرّاكب المزجي مطيّته سائل بني أسدٍ ماهذه الصّوت

فإنّما أنّثه لأنّه أراد به الضّوضاء والجلبة، على معنى الصّيحة، أو الاستغاثة

ويقال: صات يصوت يَصاتُ صوتا،أصات، وصوّت به، كلّه نادى »[2]، من خلال هذه التّعاريف نستخلص أنّ الصّوت لغة هو: الجرس، الصّياح، الاستعاثة، النّداء والدّعوة.

اصطلاحا:حظي تحديد مفهوم الصّوت عند البلاغيين بعناية فائقة، ويمكننا الوقوف على تعريفاتهم المتعدّدة له انطلاقا من تعريف "الجاحظ": للصّوت بقوله: «الصّوت هو آلة اللّفظ، والجوهر الذي يقوم به التّقطيع، وبه يوجد التّأليف، ولن تكون حركات اللّسان لفظا ولا كلاما موزونا ولا منثورا إلا بظهور الصّوت، ولا تكون الحروف كلاما إلا بالتّقطبع والتّأليف»[3].

وعرّفه"أبو طاهر البغدادي" بقوله الصّوت هو: «آلة اللفظ، والذي يبلغ به السّامع ما يدركه الفكر»[4].

وعرّفه "ابن سنان الخفّاجي" من منظوره بما يلي:

1- تعريف عام بقوله: «الصّوت مصدر صات الشّئ يصوّت فهو صائت، وصوّت تصويتا فهو مصوّت، وهو عام، ولا يختصّ، يقال: صوت الإنسان وصوت الحمار»[1].

---

[1] - أبو علي أحمد بن محمّد بن الحسن المرزوقي، شرح ديوان الحماسة لأبي تمّام، تح غريد الشّيخ، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان)، ط01،(1424هـ-2003م)، ج01، ص:124.

[2] - ابن منظور، لسان العرب، المجلّد04، ج27، باب الصّاد، ص:2521.

[3] - الجاحظ، البيان والتّبيين، ج01، ص:79.

[4] - أبو طاهر البغدادي، قانون البلاغة، بيروت (لبنان)، السنة (1981م)، (دط)(دت) ص: 75.

2- تعريف خاص : «الصّوت معقول لأنّه يدرك، ولا خلاف بين العقلاء في وجود ما يدرك، وهو عرض ليس بجسم، ولا صفة لجسم، والدّليل على أنّه ليس بجسم أنّه مدرك بحاسّة السّمع،والإدراك إنّما يتعلّق بأخصّ صفات الذّوات، فلو كان جسما لكانت جميع الأجسام مدركة بحاسّة السّمع، وفي علمنا ببطلان ذلك دليل على أنّ الصّوت ليس بجسم »[2].

من خلال هذه التّعاريف نستخلص ملامح جديدة من ملامح التّفكير الصّوتي لدى البلاغيين يتمثّل: في ربط الصّوت اللغوي للإنسان بالجانب الذّهني، ولعلّ هذه البصمة المستحدثة مردّها للتّواشج المتعدّد بين الأمّة الإسلامية والأمم الأخرى فكريا، فربْط أبي طاهر البغدادي الصّوت بإدراك الفكر، وربط"ابن سنان الخفّاجي"الصّوت بالعقل والعرَضِ هو ملمح من ملامح التّجديد في النّظرة إلى الصّوت، هي نظرة ناتجة عن الخلفيات العقائدية التي تفشّت زمن تأسيس البلاغيين لدرسهم الصّوتي، فابن سنان ربط «بين صفتي الإدراك والمعقول، بل جعل الثّانية نتيجة للأولى، وهذا ليثبت أنّ الصّوت واقعي وموجود »[3]، وعبّر عنه "الجاحظ" بالجوهر، وأضاف التّأليف والتّقطيع كأساس في إنتاج الكلام.

إنّ الجمع بين هذه الدّرر التي أضافها البلاغيّون في تصوّرهم للصّوت من منظورهم توحي بظهور ملامح جديدة في تصوّر البلاغيين للصّوت يرى أصحابها بأنّ «الحروف وحدات من نظام ولهذه الوحدات أقسام ذهنية، لا أعمال نطقية على نحو ما تكون الأصوات، والفرق واضح بين العمل الحركي للصّوت، وبين الإدراك الذّهني الذي للحرف »[4]؛ إذ يمكننا القول -بناء على هذه المفاهيم-

---

1 - ابن سنان الخفّاجي، سر الفصاحة، ص: 25.

2 - المصدر نفسه، ص: 25.

3 - بوعنّاني سعاد آمنة، الدّرس الصّوتي عند علماء القرن الخامس الهجري، أطروحة دكتوراه، إشراف:أد أحمد عزّوز، جامعة وهران (الجزائر)، السّنة (2010م-2011م)، ص: 34.

4 - محمّد جواد النّوري، علم أصوات العربية، منشورات جامعة القدس المفتوحة، عمّان (الأردن)، ط01، (1996م)، ص: 121.

إنّ ثمّة تقارب نوعا ما بين فكر البلاغيين وما توصّل إليه المحدثون من ربط اللغة بالجانب الذّهني على غرار ماذهب إليه"دي سوسير".

2- التّفريق بين الصّوت والحرف

إذا كان النّحاة قد اشتركوا في التّعبير عن الصّوت بالحرف دون التّمييز بينهما، فإنّ البلاغيين قاموا بالتّفريق بين الصّوت والحرف، فقد ذهب "ابن سنان الخفّاجي" إلى التّعبير بالصّوت أحيانا وبالحرف أحيانا أخرى، ولعلّ هذا التّنويع في تناول المصطلحات كان يرمي به إلى إيضاح الفرق بينهما فقال: «والأصوات تُدرك بحاسّة السّمع في محالّها، ولا تحتاج إلى انتقال محالّها وانتقالها، وكونها أعراضا منع من انتقالها،...، وأن يجوز اختلاف انتقال الحروف حتّى يُدرك الكلام مختلفا»[1].

كما أنّنا نلمح الإشارة جليّة إلى الفرق بينهما في معرض حديثه عن(الحكاية والمحكي)، حيث إنّه أراد التّمييز بين الحكاية والمحكي من خلال قراءة القرآن، والتّعرّض للحقيقة والمجاز من كلام الله فقد ذهب إلى التّمييز بين الصّوت والحرف إلى «أنّ التّالي للقرآن يُستمع منه كلام الله على الحقيقة ...، فيوجد مع الصّوت مسموعا ومع الكتابة مكتوبا» [2].

ومن إرهاصات التّمييز بين الصّوت والحرف تسمية "ابن سينا"لرسالته أسباب حدوث الحروف بدل الأصوات، وقد بيّن في مقدّمة كتابه بكلّ جلاء أسباب حدوث الحرف وأسباب حدوث الصّوت[3]، وأشار إلى أنّ الحرف أعمّ من الصّوت بقوله: «والحرف هيئة للصّوت، عارضة له يتميّز بها عن صوت آخر مثله في الحدّة والثّقل تميّزا في المسموع» [4].

ولا ريب أنّ الدّراسات المعاصرة استحسنت هذا التّوجه والمفارقة من البلاغيين في التّمييز بين الصّوت والحرف، وذلك من منظور أنّ «هناك اعتقاد بأنّ الإنسان تكلّم فبل أن يكتب، وهذا

---

1 - ينظر: ابن سنان الخفّاجي، سر الفصاحة، ص:21.

2 - ينظر: المصدر نفسه، ص: 46.

3 - ينظر: ابن سينا، أسباب حدوث الحروف، تح: محمّد حسن الطّيان ويحي مير علم، مطبوعات مجمّع اللغة العربية، دمشق،(د ت)، (دط)، ص: 56 و59.

4 - المصدر نفسه، ص: 60.

الاعتقاد نابع من الصّورة الذّهنية التي تكوّنت عن الكتابة الرّاهنة، المؤلّفة من كلام مكوّن من حروف تترجم إلى سلاسل صوتية متتابعة»[1]، ممّا جعل المحدثين يرون بأنّ الصّوت مايتعلّق بالعمل الذّهني الذي ينجم عن التّتابع الصّوتي، أو الدّال والمدلول كما سمّاه "دي سوسير".

أمّا الحرف فاصطلحوا عليه بأنّه ما يتّم رسمه وخطّه، أي: إنّ الحرف في اصطلاح المحدثين هو «ما يكتب، وهو رسم تعارف النّاس على كتابته باليد، ويدرك بالعين المجرّدة، ويكتب على الورق بالحبر والقلم، فهو كمّ مادّي، أوشكل هندسي، يرسمه كلّ فرد،... أمّا الصّوت فهو الذي يُنطق ولا يُدرك بالعين، وإنّما يُدرك بالسّمع، وهو لا يُرى لأنّه تموّجات صوتية ترسلها عضلات الجهاز الصّوتي»[2].

3- إنتاج الصّوت عند البلاغيين

يعدّ إنتاج الصّوت عند البلاغيين من الأسس في دراستهم الصّوتية، فإذا كان النّحاة قد أرسوا المعالم الأولى للدّراسة الصّوتية المتمثّلة في المخارج والصّفات، فإنّ البلاغيين تجاوزوا هذه الأسس وتوثّبوا إلى غيرها من الزّيادات في الحقل الصّوتي على غرار الهواء والتّموّج والانتقال من المرسل نحو المتلقّي وقد منحوا الصّوت اهتماما واسعا وتقفّوا أثره في بناء الكلمة، وبيّنوا عدّة آليات تعمل على إنتاجه؛ «فالبلاغيون تحدثوا عن الأصوات عند حديثهم عن فصاحة الكلمة ولا سيما فيما يخلّ بفصاحتها من تنافر الحروف، وقد زاد "الجاحظ" في البيان والتبيين من العناية في الدراسة الصّوتية في أكثر من موضع»[3]، فنال بذلك شرف الرّيادة في التّأسيس لعملية إنتاج الصّوت عند البلاغيين.

تعتبر هذه اللّمسات من أهمّ اللّبنات والمرتكزات الصّوتية التي وضعها "الجاحظ"، فقد صارت مُتّكئا للبلاغيين بعده، لأنّه أعطى«اهتماما بالغا للصّوت في إطاره البلاغي والنّقدي، وركّز عليه بوصفه قناة تصل المتكلّم بالسّامع، وانتبه إلى أمور دقيقة أضافت بعدا عميقا إلى النّظرة النّقدية

[1] - أحمد زرقة، أسرار الحروف، ص:13.

[2] - محمّد جواد النّوري، علم أصوات العربية، ص:121.

[3] - بن فريحة الجيلالي، التّواصُل اللّغَوي في ظِلّ التّنَوّعَات الصّوتِية، ص:25.

والبلاغية للعمل الإبداعي» [1]، ويمكننا تحديد مرتكزات الكلام وإنتاج الصّوت عند البلاغيين وحصرها في مايلي:

أ/الجهاز النّطقي: منح البلاغيون الجهاز النّطقي أهمية قصوى، واعتبره "الجاحظ"(255هـ) الأساس الذي يضمن نجاح العملية التّواصلية بين المرسل والمتلقّي، بعد أن قسّموا العملية التّواصلية قسمين هما: بلاغة متعلّقة بالقلم أي مايدوّن ويكتب، وبلاغة متعلّقة باللّسان وهو مايعتمد فيه على المشافهة [2]، وكان لبلاغة اللّسان حظوة الدّراسة لتعلّقها بالنّطق والإبانة عن المقصود بخلاف الكتابة؛ وعلى هذا الأساس ذهب "الجاحظ" إلى الحديث عن آلة البيان مبيّنا أنّ معالم الفصاحة تتأتّى من سلامة الجهاز النّطقي من النّقص والعيوب، وهذا ما اصطلح عليه باسم (آلة البلاغة)، «وأرادوا بها سلامة آلة النّطق، وأداء الأصوات النّاتجة عنها، وعبّر عنها بمصطلح آلة البيان وآلة المنطق» [3]، إذ بها تتحدّد ملامح البليغ التّامّ من البليغ النّاقص.

إنّ الخطاب القرآني يتطلّب من متناوله وتاليه تمام آلة البيان، فلو أصيب أبلغ النّاس وأفصحهم في جهازه النّطقي فسيظهر ذلك في فلتات لسانه أثناء قراءة القرآن، فإن "كان واصل" بن عطاء استطاع المراوغة بجلب مرادفات الألفاظ ذوات الرّاء في نسجه للكلام [4]، فإنّه لن يستطيع لذلك سبيلا في تلاوته للقرآن، ولا سيما أنّ القرآن الكريم يتضمّن الكثير من الثّنائيات اللّفظية الضّدية حيث يوجد فيه «معانٍ لا تكاد تفترق، مثل الصّلاة والزّكاة، والجوع والخوف، والجنّة والنّار، والرّغبة

1 – عبد الحميد زاهيد وحسين كتّانة، قراءة في مفهوم فصاحة الكلمة في ضوء علم الأصوات الحديث، مجلّة العلوم الإنسانية، جامعة محمّد خيضر، بسكرة، العدد:25، (2012م)، ص: 176.

2 – مشتاق عبّاس معن ، أساسيات الفكر الصّوتي عند البلاغيين قراءة في وظيفة التّداخل المعرفي، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، قسم القرآن الكريم، كليّة التّربية، جامعة بغداد(العراق)، الحولية: 27، الرّسالة: 250، السّنة(1427هـ-2006م)، ص:59.

3 – المرجع نفسه، ص: 61.

4 – ينظر: الجاحظ، البيان والتّبيين، ج01، ص: 16، 17.

والرّهبة، والمهاجرين والأنصار »[1]، فضلا على أنّ حرف الرّاء من الحروف الذّلقية التي تدور بكثرة على ألسنة النّاطقين.

ووفقا لهذه الرّؤية فلا بلاغة في أداء الخطاب القرآني إلا بكمال الجهاز النّطقي، ويمكننا الوقوف على ما كان يرمي إليه البلاغيون في هذا المضمار الذي تتحقّق به الفصاحة والبلاغة للمتكلّم وذلك بخلوّ البليغ من عيوب النّطق، ولا سيما ما يتعلّق ببعض الحروف التي تعتريها اللّثغة فقد بيّن "الجاحظ" هذه الحروف المعرّضة للعيوب وهي: «أربعة أحرف: القاف، والسّين، واللام والرّاء »[2] وأنّ آلة البلاغة يجب أن تخلوَ منها ومن غيرها، وسنقف على بعض هذه العيوب لاستحالة ذكرها كلّها:

1-البحّة: عدّها "أبو طاهر البغدادي" ضربا من ضروب فساد المنطق، وأنّ سببها فساد في مخرج الصّوت، لعدم اعتدال المخارج من الحلق والخياشيم[3].

2-التّرخيم: وهو ناتج عن «حذف بعض الحروف من آخر بنية الكلمة »[4] لعلّة مرضية، وهو بخلاف التّرخيم المعهود في التّراث العربي على غرار قول امرئ القيس:[5]

أفاطم مهلا بعض هذا التّدلّل***وإن كنت قد أزمعت صرمي فاجملي

3-التّمتمة والفأفأة : والمقصود بالتّمتمة عسر النّطق بالتّاء، أمّا الفأفأة فهي عسر النّطق بالفاء[6].

4- الحُبسة: وهي ثقل النّطق على اللّسان، «يقال في لسانه حبسة، إذا كان الكلام يثقل عليه ولم يبلغ حدّ الفأفأة والتّمتام »[7]، ولهذا السّبب التمس سيّدنا موسى عليه السّلام من الله عز

---

1 - الجاحظ، البيان والتّبيين، ج01، ص: 21.

2 - المصدر نفسه، ج01، ص:34.

3 - أبو طاهر البغدادي نقلا عن: أساسيات الفكر الصّوتي عند البلاغيين قراءة في وظيفة التّداخل المعرفي، ص64.

4 - مشتاق عبّاس معن، أساسيات الفكر الصّوتي عند البلاغيين قراءة في وظيفة التّداخل المعرفي ، ص:65.

5 - ديوان امرئ القيس، ص: 113.

6 - ينظر: الجاحظ، البيان والتّبيين، ج01، ص: 37.

7 - المصدر نفسه، ج01، ص: 39.

وجلّ أن يؤيّده بأخيه هارون فقال:﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾[1]، وذلك لعلم موسى عليه السّلام أن لا بلاغة وفصاحة دون تمام آلة النّطق وكمالها.

5-الحكلة: عرّفها "الجاحظ" بقوله: «فإذا قالوا في لسانه حكلة فإنّما يذهبون إلى نقصان آلة المنطق، وعجز أداة اللّفظ، حتى لا تُعرف معانيه إلا بالاستدلال»[2]، فصاحب هذا النّقص عاجز عن الإبانة ولو كان بليغا، وقد عدّ عبّاس مشتاق هذه السّمة أشدّ نكالا بلسان صاحبها لأنّها جمعت بين ثلاثة عيوب هي: اللّثغة والعجمة والحبسة[3].

6- الخنخنة: وهي من العيوب النطقية الممقوتة التي ذهب بعض الدّارسين إلى حدّ وصفها بأنّها مظنّة جعل صاحبها محلّ السّخرية [4]، كما أنّها كانت محلّ اهتمام ودراسة لتشابكها مع الغنّة لارتباط هذه الأخيرة بالدّراسات القرآنية وأحكام التّجويد.

ب/كيفية حدوث الصوت:

تعدّ مبادرة البلاغيين في الحديث عن كيفية حدوث الصّوت من صلب تفكيرهم الصّوتي، فإذا كان النّحاة اكتفوا بالتّأصيل والتّقعيد التّنظيري البحت، فإنّ البلاغيين تجاوزوا هذا الطّرح إلى الحديث عن عمليّة التّصويت وكيفية حدوثها، وعرّف "ابن سنان" بداية تلك الآلية التي تتحكّم في حدوثه بقوله: «والصّوت يخرج مستطيلا ساذجا حتّى يعرض له في الحلق والفم والشّفتين مقاطع تثنيه عن امتداده، فيسمّى المقطع أينما عرض له حرفا» [5].

أشار "ابن سنان" في تعريفه هذا إلى نقطة مهمّة في طرحه الصّوتي تتمثّل في المقاطع والأشياء التي تتحكّم في حدوث الصّوت في مرحلته الفيزيولوجية، انطلاقا من الرّئتين مرورا بالحلق إلى وصوله

---

1 - سورة القصص، الآية: 34.

2 - الجاحظ، البيان والتّبيين، ج01، ص:40 .

3 - ينظر: مشتاق عبّاس معن، أساسيات الفكر الصّوتي عند البلاغيين قراءة في وظيفة التّداخل المعرفي: ص66.

4 - ينظر: المرجع نفسه، ص:67.

5 - ينظر: ابن سنان الخفّاجي، سر الفصاحة، ص:22.

للفم، وقد كان لهذا الطّرح صدى لدى المحدثين، فقد فصّلها "أحمد عمر مختار" مبيّنا أنّ الصّوت يحدث نتيجة أربع عمليات منفصلة هي: عملية تيار الهواء، وعملية التّصويت، والعملية الأنفية الفموية، وعملية النّطق، وربط كل عمليّة من هذه العمليات الأربع بجهازها على التّوالي وهي: حركة الرّئتين، ثمّ الأوتار الصّوتية، فالطبق، ثمّ اللسان مع الشّفتين[1].

كان "ابن سنان" ممّن أفاض في الحديث عن كيفية حدوث الصّوت وانتقاله في الوسط المادّي وكيفية وصوله إلى الأذن، إذ رأى بأنّ «الأصوات تُدرك بحاسّة السّمع في محالّها، ولا تحتاج إلى انتقال محالّها وانتقالها»[2]، وهذا إشارة واضحة منه أنّ الصّوت في انتقاله يعتمد على وسط مادّي يمتطيه حتّى يصل إلى المتلقّي، وهذا ماأقرّه "ابن سينا" (428هـ) في كلامه عن حدوث الصّوت مبيّنا أنّ السّبب يكمن في «تموّج الهواء دفعة بسرعة وبقوّة من أيّ سبب كان»[3].

أشار "ابن سنان" أيضا إلى العوارض التي تعترض الصّوت في وسطه المادّي وتتسبّب في عرقلة سيره، كما مثّل للصّوت بمهنة القصّار الذي يضرب الثّوب على الحجر فيقع صوت الضّربة قبل وقوع صدى الصّوت في إشارة منه إلى أنّ الصّوت يتولّد في الهواء بعد وقوع الضّرب؛ كما أشار إلى عامل الرّيح وأثره في تحديد إدراك منبع الصّوت[4].

نستخلص من هذا التّعريف نستخلص تلك الأسس التي ارتكز عليها البلاغيون في حديثهم عن انتقال الصّوت، فقد خرجوا عن المألوف وذلك بعدم الاكتفاء بالعملية الفيزيولوجية فحسب وإنّما ذهبو في ما يعرف عند المحدثين بالعملية الفيزيائية الأكوستيكية، وهي دراسة الصّوت بعد مفارقته للفم كآخر محطّة له بالعملية الفيزيولوجية؛ ممّا يجعلنا نقول بأنّ البلاغيين أسّسوا لبلورة دراسة ظاهرة صوتية

---

1 - ينظر: أحمد مختار عمر، دراسة الصّوت اللغوي، دار عالم الكتب، القاهرة(مصر)، (1418هـ-1997م)، ص: 113.
2 - ابن سنان، سر الفصاحة، ص:21.
3 - ابن سينا، أسباب حدوث الحروف، ص: 56.
4 - ينظر: ابن سنان، المصدر السّابق، ص: 22.

جديدة، امتدّ شعاعها للزّمن الرّاهن مثلما ذهب إليه بقوله: «إنّ ظاهرة انتقال الصّوت تشكّل في أيّامنا هذه الموضوع الأساسي لدراسة الأصوات، ومعنى ذلك الاشتغال بالتّموّجات والذّبذبات»(1).

نجد من خلال هذا التّعريف أنّ البلاغيين ذهبوا إلى تأصيل هذا الطّرح من منطلق أنّ الصّوت«لا بدّ من مروره بثلاث مراحل ليصل إلى عمليّة الإدراك وهي:التّصويت، الوسط النّاقل واستقباله بالسّمع»(2).

ج–المصاكّة والاعتماد: تعدّ من العوامل المهمّة التي وقف عندها البلاغيون في إنتاج الصّوت وتوليده ماذهب إليه ابن سنان الخفّاجي وهما عاملا المصاكّة والاعتماد، إذ تعدّان من الأدوات الإجرائية في حدوث الصّوت، وقد تحدّث عنها "ابن سنان" مبرزا أنّ «الصّوت من فعلنا إذا احتاج إلى الحركة لأنّها كالسّبب فيه، من حيث أنّا كنّا لا نفعله إلا متولّدا عن الاعتماد على وجه المصاكّة، والاعتماد يولّد الحركة» (3).

كما بيّن الدّور المحوري للإنسان في النّطق، إذ إنّه يعتبر الفاعل الأساس في حدوث النّطق عن طريق التّهيّؤ له بواسطة الشّهيق والزّفير، فلا «تقع الأصوات من فعل العباد إلا متولدة، ويدلّك على ذلك أيضا تعذّر إيجادها عليهم إلا بتوسّط الاعتماد والمصاكّة» (4).

ذهب "ابن سنان " إلى إثارة نقطة مهمّة لدى إنتاج الصّوت في حديثه عن الاعتماد والمصاكّة، تتمثّل هذه الأهميّة في إشارته إلى أنّ إنتاج الأصوات يختلف بعضه عن بعض، وهذا ملمح أساسي ينبغي أن يؤخذ بالحسبان، ولعلّ مخرج الصّوت وصفته واقترانه بصوت آخر مجاور له له أثر كبير في هذه العملية، ولذلك نلفاه يعقد مقارنة بين إنتاج صوت الرّاء والزّاي، حيث ذهب إلى أنّ

1 – عصام نورالدّين، علم الأصوات اللّغوية–الفونيتيكا–، دار الفكر اللّبناني، بيروت (لبنان)، ط01، (1992م)، ص:91.
2 – مشتاق عبّاس معن، أساسيات الفكر الصّوتي عند البلاغيين قراءة في وظيفة التّداخل المعرفي ص: 18.
3 – ابن سنان ، سر الفصاحة، ص:21.
4 – المصدر نفسه، ص:22..

الصّوت«يتولّد عن اعتماد الجسم ومصاكّته لغيره، وبأنّه يختلف باختلاف حال محلّه، فيتولّد من الصّوت في الطّست خلاف مايتولّد في الحجر» [1] .

ومن هنا نجد "ابن سنان" يشير إلى نوعية الحرف وأن كل حرف له مقدار ودرجة معيّنة من المصاكّة والاعتماد، «وهي إشارة واضحة إلى أنّ اختلاف حالة الصّوت راجعة لاختلاف موضع المحلّ» [2]، فالظّاهر أنّ المصاكّة والاعتماد بقدر قوة الحرف؛ ولو تأمّلنا مايرمي إليه ابن سنان في فكرته هذه، نجدها تشير إلى صفات الأصوات من إطباق أو شدّة أو رخاوة فضلا عن مخرجها، فإصدار صوت حلقي –واستنادا على هذه الآلية– نلفاه يتطلّب أكثر استهلاكا للجهد من الصّوت الشّفوي، لكون بعض الأصوات الشّفوية ذلقي، وبعضها ليّن، وهي أسرع في الأداء والنّطق من الأصوات الحلقية.

4-المخارج والصّفات عند البلاغيين

كان للبلاغيين نظرات مفارقة ورؤى جديدة في حديثهم عن المخارج والصّفات، وبما أنّ بحوثهم ترتهن إلى الفصاحة والبلاغة، فقد خالفوا النّحاة في بعض المواطن التي أسّسوها، كما أنّ الاختلاف تجلّى في بعض اللّمسات حتّى بين البلاغيين أنفسهم على غرار تمايز نظرتهم في باب صفات الحروف.

1– المخارج: اتّسمت رؤية البلاغيّين بالمحايثة والعمق في الوقوف على حقيقة المخارج، فإذا اقتصرت جهود النّحاة على التّنظير، فإنّ البلاغيين قفزوا إلى أكثر من ذلك، حين جعلوا الرّسومات لمخارج الحروف على غرار ماذهب إليه "السّكّاكي"(626هـ)، فهو يعدّ من أوّل علماء العربيّة وضع رسما تقريبيا للجهاز النّطقي، وقد وزع عليه الأصوات المختلفة ويتمثل فيما يلي: [3]

1 – ابن سنان، سر الفصاحة، ص: 20.

2 – نور الهدى حسني، الدّرس اللغوي عند ابن سنان الخفّاجي، أطروحة دكتوراه، إشراف د: دليلة مزور، جامعة محمّد خيضر، بسكرة (الجزائر)، (1437هـ-2016)، ص: 26.

3– السكاكي (أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمّد بن علي) ، مفتاح العلوم، تح نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان)، ط01، (1403هـ-1983م)، ص: 13.

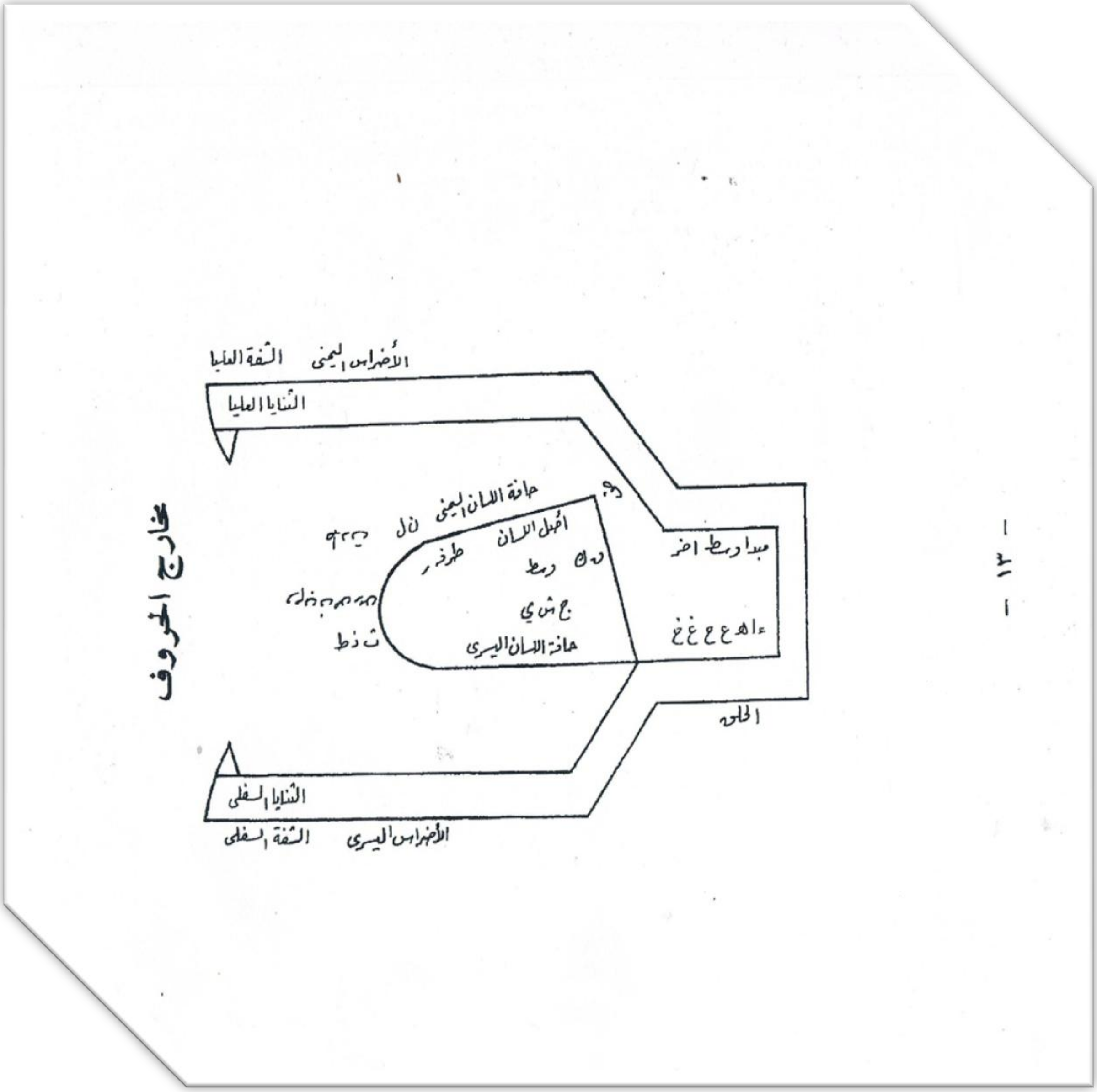

تأسيسا على هذه المعطيات ذهب البلاغيون إلى إرساء مرتكزات جديدة في تنظيرهم الصّوتي في باب المخارج وهي:

أ/**الذّوق السّليم**: يعدّ هذا الملمح من الأسس الرّئيسية لدى البلاغيين للوقوف على مكان حدوث الصّوت، إذ لا يمكن الاعتبار بصحّة مخرج الصّوت إلا من ذوي الطّباع السّليمة والأذواق المتميّزة، وإلا حيد عن الدّقّة في الوقوف على المخرج، ومن ثمّ يترتّب تذبذب أثناء الحديث عن الصّفات، ولذلك ذهب "السّكّاكي" إلى القول بأنّ «الحكم في أنواعها ومخارجها على كلّ ما يجده

كلّ أحد مستقيم الطّبع، إذا راجع نفسه واعتبرها كما كان بخلاف الغير، لا مكان التّفاوت بالآلات» [1]، وذلك للاختلاف الموجود بين أجهزة النّطق لدى البشر.

ب/عدد المخارج: انقسم البلاغيّون في تحديدهم لمخارج الأصوات إلى قسمين:

القسم الأوّل: ذهب إلى تقفّي نهج النّحاة في الوقوف على عدد المخارج، واعتدّوا بستّة عشر مخرجا، وهو ما ذهب إليه كلّ من "ابن سنان الخفّاجي"، و"الرّازي"و"السّكّاكي" وكذلك"البحراني" [2].

أمّا أثناء الحديث عن ترتيب هذه الأصوات فإنّنا نصادف موقفا آخر يخالف الكثير ممّا قال به النّحاة، فقد ذهب عبّاس مشتاق بعد قراءة متفحّصة ومقارنة بين مخارج الأصوات بين النّحاة والبلاغيين إلى القول بعدم التّبعية المطلقة من البلاغيين للنّحاة باستثناء "الرّازي"[3]، حيث كانت جهودهم مضنية وتتميّز بعدم الاكتفاء بجهود النّحاة، ممّا يوحي بتوقّد «أذهانهم في الدّرس، لأنّ الاختلاف أمر حيوي، إذ لاحظناهم خالفوا السّابقين وكذلك اختلفوا فيما بينهم، ممّا يؤكّد أنّ بحثهم للأصوات لا يقلّ أهمّية دراسة من سبقهم» [4].

أنشأ عبّاس مشتاق جدولا بيّن من خلاله أهمّ الفروق في المخارج بين البلاغيين بعد أن جعلهم فريقين، الفريق الأوّل يمثّله: "ابن سنان"، "السّكّاكي"، "البحراني"، والفريق الثّاني يمثّله: "الرّازي "و"السّكّاكي" و"البحراني" في بعض توجّهاته الصّوتية البلاغية، والجدول كالآتي: [5]

---

1 - السّكّاكي، مفتاح العلوم، ص:13.

2 -ينظر مشتاق عبّاس معن، أساسيات الفكر الصّوتي عند البلاغيين قراءة في وظيفة التّداخل المعرفي، ص:28.

3 - المرجع نفسه، ص:26.

4 - المرجع نفسه، ص:27.

5 - المرجع نفسه، ص: 27.

الأصوات المختلف فيها	الفريق الأوّل		الفريق الثّاني	
	التّرتيب	العالم	التّرتيب	العالم
أصوات الحلق	همزة أ هـ	ابن سنان السكاكي البحراني	همزة هـ ا	الرازي
أصوات طرف اللسان وأصول الثّنايا العليا	ط ت د	ابن سنان البحراني	ط د ت	الرازي السكاكي
أصوات ما بين الثّنايا وطرف اللّسان	ص ز س	ابن سنان السكاكي	ز س ص	الرازي البحراني
أصوات ما بين طرف اللّسان وأطراف الثّنايا العليا	ظ ث ذ	ابن سنان البحراني	ظ ث ذ	الرازي السكاكي

استخلص عبّاس مشتاق من خلال هذا التّمثيل أنّ البلاغيين امتازوا عن النّحاة بميزات هامّة وتفرّدوا بتوجّهات جديدة في الطّرح الصّوتي مطابقة لجهود المحدثين هي: (1)

- الاتّفاق على جعل الهمزة أعمق الأصوات.
- ترتيب الرّازي و"السّكّاكي" للأصوات:ط، و،د،و،ت، ترتيبا وافقهم عليه المحدثون.
- ترتيب الرّازيو"السّكّاكي"للأصوات:ظ، و، ذ، و، ث ترتيبا وافقهم عليه المحدثون.

القسم الثّاني: ذهب صاحب هذا الاتّجاه "يحي بن حمزة العلوي "(794هـ)في معرض حديثه عن مراعاة المحاسن المتعلّقة بأفراد الحروف إلى إجمال مخارج الحروف في ثلاثة مخارج عامّة هي: (2)

[1] – يُنظر: مشتاق عبّاس معن بتصرّف ، أساسيات الفكر الصّوتي عند البلاغيين قراءة في وظيفة التّداخل المعرفي ص:27.

[2] – يحي بن حمزة العلوي، الطّراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تح عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، (لبنان)، ط01، (1423هـ-2002م)، ج01، ص:58.

أ/ **أصوات الحلق** : وضمّنه سبعة أصوات هي:الهمزة والهاء، والألف وهي تخرج من أقصى الحلق، والعين والحاء من أوسط الحلق، والغين والخاء من أدنى الحلق.

ب/ **الأصوات الشّفهية**: وهي الباء، الفاء، الميم، الواو.

ج/ **أصوات اللّسان** : وهي ماعدا المخرجين السّابقين، وتتضمّن الحروف المتبقّية، والمتعلّقة باللّسان، أقصاه ووسطه وطرفه.

إنّ هذا التّقسيم من "العلوي" للمخارج على هذا المنظور يجعلنا نشعر وكأنّه يومئ إلى اهتمامه ببعض الحروف على بعض، فقد أولى اهتماما جمّا بالحروف الشّفوية والحلقيّة على وجه الخصوص ولعلّ عنايته بالحروف الشّفوية راجع لما تتميّز به هذه الأحرف، فهي «أخفّ الأحرف موقعا وألذّها سمعا، وألذّها سماعا، وأسلسها جريا على الألسنة» [(1)]، وفضلا عن ذلك فبعض هذه الحروف الشّفوية هي حروف ذلقية تخرج من ذلق اللّسان وطرفه، ولا يخفى على أهل البلاغة فاعليّة صفة الإذلاق في بناء الكلمة العربية، فهذه الصّفة تزيد اللفظة جمالا من حيث «ترقيقها وتلطيفها، وحسنها على المسموع» [(2)] ، فتحتوي المتلقّي وتحمله على مواصلة الاستماع.

أمّا الحروف الحلقية التي أولاها "العلوي" اهتماما فشأنها عنده شأن الحروف الشّفوية، والمنطلق العام الذي انطلق منه العلوي يعود إلى حاسّة الذّوق عنده «فما من واحدٍ من الأحرف السّبعة والعشرين العربيّة إلا وهو مختصّ بنوع فضيلة، لكنّها متفاوتة في الصّفاء والرّقّة، ولذلك فإنّك تجد العين أنصع الحروف جرسا وألذّها سمعا» [(3)]؛ فالحروف في عرف اللّغويين لا تستند على المخرج في حدّ ذاته بقدر ماتتركّز على السّمات الفارقة للحرف وصفاته، «ونوعية الصّوت هي مايعرف بالنّغمة أو الجرس» [(4)]، فصفات الأصوات وحسن توزيعها وقعها يزيد اللفظة انسجاما ، والأسلوب أكثر تلاؤما وأشدّ اتّساقا، وهذا ملمح من ملامح جودة الكلام وحسن تأليفه عند البلاغيين، وقد ذهب

---

[1] – يحي بن حمزة العلوي، الطّراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، ص:58.

[2] – المصدر نفسه، ص:58.

[3] – المصدر نفسه، ص:58.

[4] – أحمد زرقة، أسرار الحروف، ص:89.

"الخليل" أثناء حديثه عن خصائص بعض الحروف الحلقية والحروف المجاورة لها على غرار القاف بأنّهما«لا تدخلان في بناء إلاّ حسّنتاه، لأنّهما أطلق الحروف وأضخمها جرسا، فإذا اجتمعا أو أحدهما في بناء حَسُنَ البناء لنصاعتهما»[1].

نستخلص من كلام "العلوي"و"الخليل" أنّ جمال اللفظة يكمن في قوّة جرسها ونصاعتها وحسنها الذي يبقى حسّه في أذن السّامعين، وعليه فالشّرط الذي وقف عليه العلوي في اعتباره بثلاث مخارج فقط يرتهن إلى مايزيد من فصاحة اللفظة وجمالها، والبلاغيون كانت ألفاظ القرآن الكريم الأرض الخصبة لديهم للتّنقيب عن فصاحة ألفاظه ونصاعتها، ولا سيما أنّه ما من «لفظة قرآنية إلا ولها دلالتها الخاصّة، وموقعها لم يكن اعتباطيا، والذين جرّبوا استبدال كلمة أخرى بدل الكلمة الأصلية التي وردت في القرآن لم يجدوا ذلك المعنى البليغ والوقع الخاصّ الذي كان للّفظة الأولى»[2].

2- **الصّفات**: تعدّ الصّفات الشّقّ الثّاني من ثنائية المخرج والصّفة، وكما اهتمّ بها النّحاة وأسهبوا في الحديث عنها تأسيسا وتأصيلا وتقعيدا، فإنّ البلاغيين أيضا أوْلوْها أهميّة وأخذوا بما توصّل إليه النّحاة في وقوفهم على صفات الأصوات المتعدّدة باستثناء بعض التّغيير في المفاهيم والمسمّيات ويمكننا الوقوف على بعض نقاط هذا الاختلاف والمتمثّلة في:

أ/إعطاء الأهميّة للأصوات المجهورة: وهذا ماذهب إليه "السّكّاكي" وخالف به ماجرى عليه النّحاة من تقديمهم للمهموس على المجهور، «فقد دأب علماء العربية على ذكر الأصوات المهموسة، ويلخّصون الكلام عن المجهورة بقولهم:وما عدا هذه الأصوات فمجهور »[3]، كما ذهب

---

[1] – الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، ج01، ص: 38.

[2] – بولعشار مرسلي، الإعجاز البياني في الطّراز، رسالة ماجستير، إشراف: أ د: عشراتي سليمان، جامعة السّانيا، وهران(الجزائر) السّنة: (2006م-2007م)، ص:145.

[3] – مشتاق عبّاس معن، أساسيات الفكر الصّوتي عند البلاغيين قراءة في وظيفة التّداخل المعرفي، ص:31.

"السّكّاكي"إلى التّمثيل بالرّموز لهذه الأصوات المجهورة بقوله: "قدك أترجم وأطايب"[1]، إلا أنّه عدّ التّاء من الأصوات المجهورة، كما أنّه اعتمد في تسمية الأصوات المتوسّطة بالمعتدلة.

لعلّ الاهتمام بالحروف المجهورة(ب، ج، د، ذ، ر، ز، ض، ظ، ع، غ، ل، م، ن، و، ى) التي أهتمّ بها "السّكّاكي"دون الأصوات المهموسة راجع للسّمات الجمالية التي تتميّز بها هذه الأصوات، وكذلك ما تتّسم به في أداء الدّلالة الصّوتية، فمثلا ا لحروف: الضاد، والطاء، والظاء هي أصوات مجهورة ومفخّمة ومطبقة ومستعلية تحاكي عند المحدثين في كثير من مواضعها مواطن العذاب والنّكال، حيث «يتولّد عن الإطباق صفة التفخيم لصوت الحرف المطبق»[2].

يتجلّى لنا مثل هذا كما في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾[3]، حيث نرى صوت الطّاء بخصائصه وصفاته الصّوتية من استعلاء وتفخيم وإطباق وجهر ينبئ عن «غلظ الصّراخ المختلط المتجاوب من كل مكان، المنبعث من حناجر مكتظّة بالأصوات الخشنة» [4] التي أنبأ عنها جرس وقوّة صوت الصّاد المجهور.

ب/الاعتماد على النّفَس في تحديد الجهر والهمس: ذهب البلاغيون إلى الاعتماد على النّفَس في تحديد الجهر والهمس كصفة أساسية من صفات الأصوات، بخلاف ما كان مهيمنا لدى النّحاة من الاتّكاء على معايير النّفس والإشباع والاعتماد[5]، فابن سنان وإن كان اعتمد على تعريف "سيبويه" في تعريفه للجهر والهمس بقوله: «معنى الجهر في الحرف أنّه أشبع الاعتماد في موضعه ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد ويجري الصوت»[6]، وقال في تعريف الهمس:«ومعنى الهمس فيه أن يضعف الاعتماد في الصّوت حتى يجري معه النفس» [7]. فذهب ابن

1 – ينظر: السّكاكي، مفتاح العلوم، ص:11.
2 – مُحَمَّد مُحَمَّد داود، العربية وعلم اللغة الحديث، دار غريب، (2001م)، (د ط)، ص:127.
3 – سورة فاطر، الآية: 37.
4 – سيّد قطب، التّصوير الفنّي في القران، ص:92.
5 – ينظر: مشتاق عبّاس معن، أساسيات الفكر الصّوتي عند البلاغيين قراءة في وظيفة التّداخل المعرفي، ص:32.
6 – ابن سنان الخفّاجي، سر الفصاحة، ص:30.
7 – المصدر نفسه، ص:30.

سنان الخفّاجي إلى الاعتداد بالنّفس في تحديد المجهور من المهموس، كما أولى السّكّاكي للنّفس أهمية كبرى وأحدث مصطلح جديدا هو "الانحصار"، وأشار إلى فاعلية الهواء أو النّفس وأثره في الصّوت وتوجيهه بقوله: «وإذا تبع تمام الانحصار حفّز وضغط كما في حروف قولك:قد طبخت ميّت» [1].

ج/ تسمية الأصوات الشّديدة والرّخوة والمتوسّطة بمصطلحات جديدة أخرى وتقسيمها إلى ثلاثة أقسام هي: [2]

1-المستوى الاتباعي: وهو الذي يمثّله "ابن سنان" وتابع فيه النّحاة ووافقهم فيه فلم يشذّ عن قولهم [3] فقال: « ومنها أيضا الرّخو والشّديد، والذي بين الشّديد والرّخو، فالشّديد الذي يمنع الصّوت أن يجري فيه، وهي ثمانية أحرف: الهمزة والقاف والكاف والجيم والطاء والدال والتاء والباء، ويجمعها في اللفظ (أجدت طبقك)، والتي بين الشّديد والرّخو ثمانية أحرف: وهي الألف والعين والراء، والياء واللام والنون والميم والواو، ويجمعها في اللفظ لم يرو عنّا، والرّخوة الحروف التي لا تمنع الصّوت أن يجري فيها، وهي ماسوى هذين القسمين المذكورين » [4]، حيث نلفى هذا التّقسيم بحذافيره وتقسيماته عند "ابن جنّي" [5]، ممّا يومئ لتلك الهيمنة التّنظيرية الصّوتية من النّحاة.

2-المستوى الاتباعي المضطرب: اتّسم هذا المستوى بالاضطراب لمخالفة "الدّسوقي" في شرح تلخيص "القزويني" للأصول المتّفق عليها في علم الأصوات، حيث إنّ آراءه جاءت متذبذبة في حديثه عن صفات الشّدة والرخاوة والتّوسّط، وكذلك في حديثه عن الجهر والهمس، كما أنّه- الدّسوقي- أسقط الواو من الأصوات المتوسّطة [6].

3- المستوى غير الاتباعي: حيث كان البلاغيون يهدفون في هذا الاتّجاه إلى الانزياح عن مصطلحات السّابقين ومحاولة الإبداع، فعدل السّكّاكي عن التّعبير بالحروف المتوسّطة إلى الحروف

---

1 - السّكاكي، مفتاح العلوم، ص:11.

2 - ينظر: مشتاق عبّاس معن، أساسيات الفكر الصّوتي عند البلاغيين قراءة في وظيفة التّداخل المعرفي، ص:32.

3 - ينظر: ابن سنان، المصدر السّابق، ص: 30.

4 - المصدر نفسه، ص: 30.

5 - ينظر: ابن جني، سر صناعة الإعراب، ص 61.

6 - ينظر: مشتاق عبّاس معن، المرجع السّابق، ص: 33.

المعتدلة في حديثه عن الحروف المهموسة والمجهورة بقوله: «ثمّ إذا لم يتمّ الانحصار ولا الجري كما في حروف قولك:لم يرو عنّا سميت معتدلة»[1].

أشار "ابن سنان" الخفّاجي إلى الأصوات الذّلقية وبيّن ملامحها بأنّه يعتمد في نطقها على ذلق اللسان وهو طرفه، وحدّه، وأنّها ستّة أحرف هي: الفاء والرّاء والميم، والنّون، والميم، والباء، وقابل الحروف الذّلقية وهب ماعداها بالحروف المصمتة[2]؛ كما ربط "ابن سنان" الحروف المستحسنة بحقل الفصاحة، فبعد أن أشار إلى حروف العربية التّسغة والعشرين المعروفة قال: «ويلحق هذه الحروف التي ذكرناها حروف بعضها يحسن استعمالها في الفصيح من الكلام وبعضها لايحسن »[3]توظيفه في الكلام، وهي الحروف المستقبحة التي تزيد الألفاظ شناعة والكلام اضطرابا.

لم يقتصر التّأسيس للدّرس الصّوتي عند البلاغيين محاولة تميّزهم عن النّحاة فحسب، بل إنّ العلوي خالف غيره من البلاغيين في عدد الأصوات الذّلقية واعتبرها ثلاثة بدلا من السّتة، مثلما ذهب إليه"ابن سنان" وهي: الرّاء واللام والميم، وقد أشاد بأثرها في انسيابية الكلام وتسهيل أدائه وهيمنتها التّوظيفية في الكلام، وبيّن "العلوي"- مثل "الخليل"- أنّها من معايير تمييز الكلام العربي من غيره، فهي تستعمل بكثرة عند العرب بخلاف الأمم الأخرى على غرار العسجد والعِذيوط[4].

خالف "السّكّاكي" ماذهب إليه "ابن سنان" في تسمية الحروف المنطبقة التي اعتاد الأوائل تسميتها بهذا المصطلح وتابع "سيبويه" في تسميتها، إذ إنّ "سيبويه" عبّر عنها بالمطبقة في قوله: «ومنها المطبقة والمنفتحة » [5]، فعدل "السّكاكي" إلى تسميتها ب: "المطبقة"[6]في معرض حديثه عن الحروف المستعلية والمنطبقة، بينما سمّاها "ابن سنان" المنطبقة وعرّفها بقوله: «ومنها المنطبقة

---

1 - السّكّاكي، مفتاح العلوم، ص: 11.

2 - ينظر ابن سنان، سر الفصاحة، ص:31.

3 - المصدر نفسه، ص:29 .

4 - ينظر: يحي بن حمزة العلوي، الطّراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ص:58.

5 - سيبويه، الكتاب، ج04، ص:436.

6 - ينظر: السّكّاكي، مفتاح العلوم، ص: 12.

والمنفتحة، ومعنى الإطباق أن يرفع المتلفّظ بهذه الحروف لسانه ينطبق بها الحنك الأعلى فينحصر الصّوت بين اللسان والحنك، وهي أربعة أحرف، الصّاد والضّاد والطّاء والظّاء» [1] .

خلاصة الفصل الأول

نستخلص من خلال ماسبق أنّ الخطاب القرآني حظِي بعناية منقطعة النّظير منذ نزوله على النّبيّ عليه السّلام، وقد تراءت أولى ملامحه البلاغية الإعجازية-مثلما أشرنا في المبحث الأوّل- مع بداية أولى سوره المنزّلة، وذلك بآليات إجرائية وظواهر صوتية تأخذ بالقلوب لم يعهدها العرب على غرار الفواصل القرآنية والإيقاع وفصاحة الألفاظ مع ضمان السّلاسة والعذوبة، لغة قرآنية أرّقت أساطين الفصاحة وأرباب البيان، على غرار ما تناولناه في سورتي النّجم وفصّلت كنموذجين من نماذج الإعجاز البلاغي والصّوتي في القرآن الكريم، حيث رأينا تلك الأسرار الكامنة في اللغة المنطوقة للقرآن الكريم التي أرّقت البلغاء رغم فصاحتهم.

ولمّا كان هذا الخطاب القرآني المعجز منزلا بلسان عربي مبين، وكان هذا اللّسان بالنّسبة للعرب ذروة مجدهم وأجلّ باسقات شرفهم، فإنّه لم يكن هناك بدّ من التّشمير على السّواعد للحفاظ عليه من الدّخيل واللّحن، ممّا جعل النّحاة-كما أشرنا في المبحث الثّاني- يؤسّسون سياجا منيعا للحفاظ على هذا الرّافد المرجعي للّسان العربي، حيث انغلقت الدراسات اللغوية صدر القرون الأولى التي تجلّت مع أبي الأسود الدّؤلي فالخليل بن أحمد الفراهيدي فسيبويه تقعيدا وتأصيلا، لتزداد ترسُّخا مع ابن جنّي على وجه الخصوص.

إنّ تلك الجهود المبذولة من قِبلِ النّحاة كانت كفيلة لتحقيق سلامة اللّسان العربي من خلال صيانة النص القرآني من التحريف، ممّا جعل باب التّنقيب لا ستكناه أسرار الإعجاز القرآني ينفتح على مصراعيه لِيلجه القرّاء والمجوّدون والبلاغيون؛ حيث كان للبلاغيين منعرجا في جهودهم الصّوتية فقد كانت رؤيتهم -مثلما أشرنا في المبحث الثّالث- محايثة أحيانا في بعض الأسس التي اعتمدها

[1] - ابن سنان الخفّاجي، سر الفصاحة، ص:31.

النّحاة في المخارج والصّفات، وتجاوزوا الدّراسة الفيزيولوجية إلى الدّراسة الفيزيائية والأكوستيكية للصّوت، فتحدّثوا عن الوسط المادّي وانتقال الصّوت من المرسل نحو المتلقّي، فكانت جهودهم من المرتكزات التي اتّكأ عليها المحدثون في تنظيرهم الصّوتي.

ويرجع الفضل في تأسيس الدّرس الصوتي عند البلاغيين إلى "الجاحظ"، فقد تحدث عن آلة النّطق، واللثغة وعيوب الكلام، والفصاحة، ممّا يجعلنا نقول بأنّ "الجاحظ" مهّد للدّرس البلاغي عموما والصّوتي البلاغي خصوصا، ثمّ تعضّدت الدّراسة الصّوتية عند البلاغيين بالخصوص مع "ابن سنان الخفّاجي" و"ابن الأثير"، فكانت مادّته الصّوتية الدّسمة لدى البلاغيين منارة يهتدى بها للوقوف على معالم الفصاحة والبيان، وتجنّب العيّ من الكلام والهذيان ، فاستثمر البلاغيون ما توصّل إليه "الجاحظ" في دراسته الصّوتية للاهتداء بها في معرفة أسرار الإعجاز القرآني على غرار ما ذهب إليه أعلام البلاغة ك "الجرجاني"، و"الباقلاني"، "الخطّابي"، "الرّماني"، و"الزّمخشري" وغيرهم من البلاغيين.

الفصل الثّاني

الظّواهر الصّوتية عند البلاغيين القدامى

- المبحث الأول: ظاهرة الفصاحة عند البلاغيين التراثيين
- المبحث الثّاني: الظّواهر الصّوتية عند البلاغيين المفسّرين
- المبحث الثالث: الظّواهر البديعية عند البلاغيين القدامى

توطئة

حقّقت البلاغة الصّوتية حضورها كخاصيّة فعّالة من خصائص أسلوب القرآن الكريم، فاتّسم الخطاب القرآني بقوّة التّأثير في المتلقّي، ممّا ينمّ عن وجود ظواهر صوتية تعمل على تفعيل مظاهر الإعجاز في القرآن الكريم جعلته يتميّز بالبلاغة وقوّة التّأثير، ممّا أثار حفيظة البلاغيين ليقتحموا هذا الصّرح الشّامخ لاستكناه أسراره والوقوف على جنبات بلاغته.

تضمّن القرآن الكريم العديد من الظّواهر الصّوتية واصطبغ بها أسلوبه، والتي جعلت إعجازه يزداد قوّة بتقادم الزّمان وكثرة البحث فيه والإمعان؛ فإذا كانت بداية نزول القرآن في العهد النّبوي تصبو إلى التّوحيد والهدى، فإنّ الظّاهرة الصّوتية القرآنية كما وصفها الخطّابي تشير إلى أنّ «في إعجاز القرآن وجها آخر ذهب عنه النّاس، فلا يكاد يعرفه إلا الشّاذّ من آحادهم وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النّفوس، فإنّك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا إذا قرع السّمع خلص له إلى القلب من اللّذة والحلاوة في حال، ومن الرّوعة والمهابة في أخرى مايخلص منه إليه، تستبشر به النّفوس وتنشرح له الصّدور»[1].

يجعلنا هذا التّوصيف من "الخطّابي" نبحث في صلب الظّواهر الصّوتية التي اعتنى بها البلاغيون وتقفّوا أثرها في القرآن الكريم، فكان عملهم منعرجا حاسما في ولوج البحث في إعجاز القرآن، فقد وقفوا على ما له صلة بالمباحث البلاغية من تقارب مخارج الأصوات وتباعدها ، وتعرّضوا لصفتي الإذلاق والإصمات ، وكلّ ما يحقّق فصاحة الكلمة، وانسجام الكلام وبناء الأساليب، فوجدوا من القرآن الكريم أرضا خصبة وحقلا ثريا يتضمّن ما ينشدونه وذلك لامتلاكه«اللغة الشّاعرة بحروفها ومفرداتها وإعرابها، هي أوفر لغات الأرض حظّا لينزل بها هذا الكتاب الخالد، الذي أراد الله سبحانه بإعجازه أن يفوق الشّعر في وجازته وتأثيره، ولحنه

[1] - الباقلاني، إعجاز القرآن، تح السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، (دط)، ص:18، 19.

وموسيقاه»[1]، ممّا جعل البلاغيين يتهافتون على مورده المعين للوقوف على الظّواهر الصّوتية التي تعمل على حسن سبك النّص القرآني وتزيد من مظاهر إعجازه وقوّة بيانه.

تعتبر الفصاحة الظّاهرة الأساس التي أولاها البلاغيون جلّ اهتمامهم، فاتّخذوا النّصّ القرآني معيارا لها ونقّبوا عن مكامن وأسرار الفصاحة التي تزيد الألفاظ طلاوة والأسلوب اتّساقا وانسجاما، على غرار مخارج الحروف وصفاتها، والحروف المستحسنة والمستقبحة، وصفتي الإذلاق والإصمات، وأثر صفة الإذلاق في سلاسة اللفظة ومرونة الأداء، ممّا ميّز لغة القرآن الكريم بخصائص صوتية وصرفية وتركيبة بوّأته أعلى درجات الفصاحة والبيان.

المبحث الأول: ظاهرة الفصاحة عند البلاغيين التراثيين

1- مفهوم الفصاحة :

لغة: عرّفها "ابن فارس" بقوله: «الفاء والصاد والحاء: أصل يدل على خلوص في شيء، من ذلك اللسان الفصيح الطّليق، والكلام الفصيح: العربي، والأصل: أفصح اللبن: سكنت رغوته، وأفصح الرجل: تكلم بالعربيّة، وفصُح، جادت لغته حتّى لا يلحنُ»[2].

أمّا "أحمد الهاشمي" فذهب إلى أنّها أكثر شمولا للمعاني بقوله: «الفصاحة تطلق في اللغة على معانٍ كثيرة، منها البيان والظّهور، قال تعالى: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾[3]، أي: أبْين منّي قولا، ويقال أفصح الصّبيّ في منطقه إذا بان وظهر كلامه»[4] وربطها "ابن منظور" بالبلاغة والبيان بقوله: «الفصاحة البيان، فصُح الرّجل فصاحة فهو

[1] - عدنان مُحَمَّد زرزور، علوم القرآن وإعجازه وتاريخ توثيقه ، دار الأعلام، عمان (الأردن)، ط(01)، (1426هـ-2005م)، ص: 19.

[2] - ابن فارس، مقاييس اللغة، تح عبد السلام هارون، دار الفكر، (دط)، (1399هـ-1989م)، ج04، ص: 506، 507.

[3] - سورة القصص: الآية: 34.

[4] - السّيّد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ج01، ص: 19.

فصيح من قوم فصحاء وفِصاحٍ وفُصُحٍ،...، نقول: رجل فصيح وكلام فصيحٌ أي: بليغ، ولسان فصيحٌ، أي: طلقٌ»[1].

من خلال هذه التّعاريف نستخلص أنّ الفصاحة هي مرتكز من مرتكزات البلاغة تعمل على إبانة المعنى ووضوحه.

اصطلاحا: الفصاحة هي«عبارة عن الألفاظ البيّنة الظّاهرة، المتبادرة إلى الفهم والمأنوسة الاستعمال بين الكتّاب والشّعراء لمكان حسنها وهي تقع وصفا للكلمة والكلام والمتكلّم حسبما يعتبر الكاتب اللّفظة وحدها أو مسبوكة مع أخواتها» [2].

2- معايير الفصاحة:

أولى البلاغيون لظاهرة الفصاحة عناية عظيمة، ودندنوا حولها كثيرا وقاموا بتقسيمها وتوزيعها على ثلاثة مفاصل هي: الكلمة والمتكلّم والكلام، ولهم آراء متعدّدة ونظرات فاحصة حول تدقيق هذه المعايير، حيث سنقف على آرائهم في الفصاحة وهي:

أولا: جهود "الجاحظ" في تقفّي ظاهرة الفصاحة

بحث"الجاحظ" عن الظّواهر الصّوتية في أشعار العرب وخطبهم و تقفّى مواطن جمال لغتهم وأسبابه،فرأى بأنّ«أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغاً واحداً وسبك سبكاً واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان »[3]، إشارة منه إلى أثر المخارج في انسيابية الكلام وتحقّق الفصاحة وجودة النّطق، إلا أنّ بحثه ورؤيته في بلاغة الأصوات كانت «شاملة، وإن لم تأت مرتّبة، فله حديث عن الحروف والألفاظ والعبارة

1 – ينظر ابن منظور، لسان العرب، المجلّد 05، ج37، ص: 3419.
2 – السّيّد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ص: 19.
3 – الجاحظ، البيان والتّبيين، ج01، ص: 67.

جاء موزّعا خلال موضوعات أدبية شتّى» [1]، تنبئ عن اهتمام "الجاحظ" بأهميّة البحث الصّوتي وأثره في إثراء الدّرس اللغوي.

إنّ التّنقيب عن مواطن الجمال وروعة الأسلوب يجعلنا نشعر بأنّ "الجاحظ" مافتئ يؤسّس لظاهرة من الظّواهر الصّوتية ألا وهي ظاهرة الفصاحة؛ تلك الظّاهرة التي انماز بها القرآن الكريم، واتّسمت بها ألفاظه وتميّز بها نظمه وأسلوبه؛ ويُذكر عنه أنّه ألّف كتابا سمّاه "نظم القرآن" [2]، إلا أنّ هذا الكتاب لم يُعثر عليه؛ وقد أشار "عبد القاهر الجرجاني" صاحب نظريّة النّظم إلى جهود من سبقوه في الكشف عن أسرار نظم القرآن الذي يخالف نظرته في النّظم.

بيّن "عبد القاهر الجرجاني" مفهوم النّظم عند من سبقوه بأنّه يتمثّل في« ضمّ الشّئ إلى الشّئ كيف جاء واتّفق، ولذلك كان عندهم نظيرا للنَّسجِ والتّأليفِ والصياغةِ والبناءِ والوَشْيِ والتّحبير وما أشبه ذلك» [3]، مع العلم أنّ "الجاحظ" كان من أنصار اللّفظ ويصرّح في ذلك بقوله: «المعاني مطروحة في الطريق، يعرفها الأعجمي والعربي والقروي والبدوي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخيّر اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة وضرب من النّسج، وجنس من التصوير» [4].

وعلى هذا الأساس يمكننا الوقوف على نظرة "الجاحظ" في الفصاحة وأهمّ الأسس التي ارتآها لتحقّق هذه الظّاهرة وهي:

1- فصاحة الألفاظ: اشترط "الجاحظ" لاكتمال صرح الفصاحة أن تكون اللفظة في حدّ ذاتها فصيحة، ولا تتحقّق فصاحتها عنده إلا إذا خلت من بعض العيوب،وتوفّرت فيها

1 – محمّد إبراهيم شادي، البلاغة الصّوتية في القرآن الكريم، مطبعة الشّركة الإسلاميّة للتّوزيع والإنتاج والإعلان (الرّسالة)، القاهرة (مصر)، ط01، (1409هـ-1988م)، ص: 12.

2 – ينظر: الجاحظ، الحيوان، ج01، ص:09.

3 – عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح مُحَّد محمود شاكر، مكتبة الخانجي، ط05، (2004هـ)، ص: 49.

4 – الجاحظ، الحيوان، ج03، ص: 132.

شروط تعمل على إكسابها صفة الفصاحة، وحصر بعض العلماء فصاحة اللفظة في أربعة شروط هي:[1]

1- السّلامة من تنافر الحروف. 2- عدم مخالفة القياس.

3- عدم الكراهة في السّمع 4- عدم غرابة الاستعمال.

1-1- فصاحة الألفاظ بالنسبة للفظ المفرد:

أعطى"الجاحظ"المستوى اللّساني الثاني المكانة المرموقة في صنع الفصاحة وتحقيقها وبيّن بأنّه النّواة التي لايتلئبّ أمر الفصاحة إلا **به**، حيث ذهب إلى أنّه«متى كان اللفظ أيضا كريما في نفسه متخيرا في جنسه، وكان سليما من الفضول بريئا من التعقيد حبب إلى النفوس واتصل بالأذهان والتحم بالعقول وهشت إليه الأسماع وارتاحت إليه القلوب وخفّ على ألسن الرواة »[2]، وحتّى يضمن لِلّفظ مكانته اشترط شروطا لسلامته نشير لبعض منها هي:

أ/السّلامة من تنافر الحروف : يعدّ تنافر الحروف عيبا من العيوب المشينة لفصاحة اللّفظة وجمالها، إذ إنّ التّنافر في حروف الكلمة المفردة يستثقل في النُّطق، ويتطلّب النّطق بالكلمة من هذا اللون إلى زيادة جهد في الجهاز النّطقي للإنسان، كما ينفرُ منها السامع لثقل وقع اللفظة على الأذن، وعرّفه "الهاشمي" بقوله: «تنافر الحروف هو وصف في الكلمة يوجب ثِقلها على السّمع وصعوبة أدائها باللّسان بسبب كون حروف الكلمة متقاربة المخارج وهو نوعان»[3]، وجعله قسمين تنافر ثقيل وتنافر خفيف:

التّنافر الثّقيل: وهو تنافر ممقوت لدى البلاغيين لبعده عن الفصاحة، ويُتمثل في هذا بقول أحد الأعراب لما سُئل عن ناقته فقال: تركتها ترعى الهعخع، حيث وصف"الخليل بن أحمد" هذه

---

1 - ينظر: السّيّد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ص: 20.

2 - الجاحظ، البيان والتّبيين، ج02، ص: 08.

3 - السّيّد أحمد الهاشمي، المرجع السّابق، ص: 20.

اللّفظة بالشّناعة فقال: «سمعت كلمة شنعاء لا تجوز في التّأليف الرّباعي،سُئل أعرابي عن ناقته فقال تركتها ترعى العهعخ، فسألنا الثّقات من علمائهم فأنكروا أن يكون هذا الاسم من كلام العرب، وقال الفذّ منهم هي شجرة يُتداوى بورقها» [1].

يرجع عدم فصاحة هذه اللفظة لتقارب مخارج أصواتها واشتراكها في نفس المخرج الذي هو الحلق؛ حيث إنّ التّلفّظ بهذه اللفظة ذات المخرج الحلقي يتطلّب الكثير من الجهد لبعد مخارجها كونها كلّها حلقية، إذ يحتاج الجهاز النّطقي لجهد عسير في عمليته الفيزيولوجية للنّطق بها، وقد نقل"السّيوطي"قول"ابن دريد "وإشاراته إلى عدم استحسان تجاور الأصوات الحلقية متفرّدة عن غيرها من الأصوات الشّفوية والذّلقية، إذ يقول "ابن دريد "(321هـ): «اعلم أن الحروف إذا تقارَبت مخارجها كانت أثقل على اللسان منها إذا تباعدت؛ لأنك إذا استعملت اللسان في حروف الحلق دون حروف الفم ودون حروف الذلاقة، كلَّفته جرسًا واحدًا وحركات مختلفة »[2] ممّا يوحي بعسر النّطق بالألفاظ المتّحدّة في المخرج ولا سيما الأصوات الحلقية.

التّنافر الخفيف: هو دون الأوّل في شدّة التّنافر والشّناعة، ومن هذا اللّون لفظة (مستشزرات) ذات الأصداء الصّوتية غير المنسجمة، وذلك في قول امرئ القيس:[3]

غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إِلَى العُلاَ   تَضِلُّ العِقَاصُ فِي مُثَنًّى وَمُرْسَلِ

يردّ البلاغيون هذا الاستثقال في كلمة مستشزرات إلى الصّفات التي اكتستها حروف هذه الكلمة، وهي لفظة أقلّ تنافرا من لفظ (العهعخ)كما ذكر ذلك "السّيوطي" [4]، حيث إنّ عسر النّطق بها لا يرجع لتقارب المخارج فحسب، وإنما لتضارب وتباين الصّفات المؤلّفة لها فتوسّط صوتُ الشّين للزّاي والتّاء، نجم عنه ثقلٌ راجع إلى كون صوت الشين المهموس الرّخو

1 – الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، ج04، ص:314.

2– السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج01، ص: 191.

3 – ديوان امرئ القيس، ص: 115.

4 – ينظر: السّيوطي، المصدر السّابق، ج01، ص:185.

جاء بعد التّاء الشّديدة الهمس، ليصطدم بصوت الزاي المجهور، فتعذّر هذا التوثّب من الصّوت المهموس الضعيف إلى المهموس المتوسط فالمجهور القوي[1].

ولهذا ذهب "الجاحظ" إلى عدم استحسان تجاور بعض الحروف، فرأى أنّ «الجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين، بتقديم ولا تأخير، والزّاي لاتقارن الظّاء ولا السّين ولا الضّاد ولا الذّال، بتقديم ولا تأخير» [2]، ولعلّ العلة في استكراه "الجاحظ"لهذا التّجاور الصّوتي للتّقارب النّاشئ بين هذه الأصوات، التي تعسر معها آليتي المصاكّة والاعتماد أثناء نطقها، إمّا لتقارب هذه الحروف من جهة المخرج أو تقاربها من جهة الصّفة، كما أنّ صرح الفصاحة يقتضي أنّه«متى تحقّق القران بين الوحدات الصّغرى اكتست الكتلة الصّوتية النّاتجة عن تآلفها من الخصائص ما يجعل النّطق بها سهلا، ووقعُها مستساغا عذبا»[3]عند التّلفّظ بها.

وعلى هذا الأساس فالجيم الشّجرية تقترب مخرجا من القاف اللهوية والغين الحلقية وتعسر نطقا مع الظّاء التي تخرج من طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا، كما أنّ تميّز الجيم أيضا بصفات متعدّدة على غرار كونها مجهورة شديدة، فيعسر تجاورها مع القاف والطاء للاشتراك في نفس الصفات، لأنّ كلا من القاف والطّاء تتميّزان ببعض خصائص حرف الجيم من القلقلة والشّدة والجهر.

كما أن اقتران هذه الحروف يدفع باللفظة إلى الاصطباغ بصبغة الاستهجان والاستثقال على السّامع وخفاء المعنى، إذ «إنّ المعنى إذا اكتسى لفظا حسنا وأعاره البليغ مخرجا

---

1 – السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج01، ص:185

2 – الجاحظ، البيان والتّبيين، ج01، ص: 69.

3 – حمادي صمّود، التّفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوّره إلى القرن السّادس، المطبعة الرّسمية للجمهورية التّونسية، تونس، (1981م)، ص: 267.

سهلا، ومنحه المتكلّم دلاّ متعشّقا صار في قلبك أحلى ولصدرك أملى» [1]، بحسن اللّفظ وسهولته مخرجا وصفة.

إزاء هذا الوضع في توزيع الأصوات فإنّ اللفظة تزداد شناعة وتنافرا حينما تجتمع أصوات الحيّز الواحد في لفظة واحدة لاشتراك المخرج من جهة ولعموم تقارب صفات أصوات الحيّز الواحد من جهة أخرى، «وهكذا يؤلّف كلّ حيّز من الأحياز النّطقية مجموعات من الثّنائيات المتنافرة في العربية، مثل(هـ،ع، ع ح،ح غ، غ خ..)و(ط د، د ط، ت ط..)و(ص س، س ز، ص ز، زص، ص ذ، ظ س...)» [2]، حيث إنّ هذا التّجاور يقدح في فصاحة اللفظة ورونقها، ممّا يوحي أنّ "الجاحظ" في بحثه الصّوتي كان يتلمّس نصاعة اللّفظة من خلال الرّبط«بين حسن اللّفظ وسهولة مخارج حروفه وحلاوة أدائه الصّوتي، وبين قبول القلب له» [3] حتّى يكون له القبول لدى المتلقّي.

ب- سلامة اللفظ من الوحشية والغرابة: تقلّل هذه الصّفات من شأن اللفظ وتذهب برونقه وتبخسه جَماله، فلذلك رأى "الجاحظ" أنّ من معالم الفصاحة وشروطها أن«لا ينبغي أن يكون اللّفظ عاميّا وساقطا سوقيا، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا»[4]، وقد أشاد "الجاحظ"بمسلك الكتّاب في كتابتهم إذ إنّهم إذا كتبوا «التمسوا من الألفاظ مالم يكن متوعّرا وحشيا، ولا ساقطا سوقيا» [5]، وذلك مراعاة للمتلقي الذي يتحقق عنده الإفهام من خلال السهولة اللفظية المتأتّية من العبارات المأنوسة.

تتسبّب الألفاظ الغريبة الوحشية والوعرة المبتذلة عند الجاحظ خصوصا والبلاغيين عموما في عدّة أمور سلبية هي: غياب المعنى وانبهامه لدى السّامع، وذلك لأن الكلمة

---

1 - حمادي صمّود، التّفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوّره إلى القرن السّادس، ، ص: 254.
2 - محمّد حسن الطّيان، كيف تغدو فصيحا، ص: 45.
3 - محمّد إبراهيم شادي، البلاغة الصّوتية في القرآن الكريم، ص:13.
4 - الجاحظ، البيان والتّبيين، ج01، ص: 137.
5 - المصدر نفسه، ج01، ص: 144.

الوحشية الغريبة غير مألوفة وقد تكون غير معروفة ولا متداولة، فلا يُفهم معناها ولا يُدرك فحواها، ويتمثّل البلاغيون في ذلك بقول أبي تمّام: [1]

قَدْ قُلْتُ لماَّ اطْلَخَمَّ الامْرُ وانْبَعَثَتْ عشْـــواء تَاليةً غَبْساً دَهَارِيسـا

يرى البلاغيّون [2] أمثال ابن سنان والسّيد الهاشمي أ نّ هذه الألفاظ المستخدمة من قِبل الشّاعر (اطْلَخَمَّ) و (دَهَارِيسا) هي ألفاظ مجانبة للبلاغة وغير متّصفة بالفصاحـة، فلفظ (اطْلَخَمَّ) صعبٌ في نطقـه عسير في تلقّيه، ولعلّ الصّعوبة تكمن في أنّ هذا اللّفظ يبتدئ بصوتين مجهورين الطّاء واللاّم، ولا سيما صفات الطّاء المتعدّدة فهي: لثوية المخرج، انفجارية مطبقة شديدة مستعلية مفخّمة ومقلقلة، ثمّ يلتقي بصوت الخاء الحلقي المهموس، إلا أنّه يتّفق مع الطّاء في الاستعلاء والتّفخيم.

ومن الصّفات التي تزيد هذه اللّفظة تنافرا هو أنّ صوت اللام مجهور أيضا، فوقَع صوت الخاء بعد صوتين مجهوين، لتُختم اللفظة أيضا بصوت الميم الذي يشترك مع الأصوات السّابقة في الجهر، فنلاحظ من خلال هذا هيمنة الأصوات المجهورة على اللفظة ممّا أدّى بالبلاغيين إلى تصنيفها في خانة الألفاظ المتنافرة.

ومن هذا القبيل أيضا ما يُذكر أن عيسى بن عمر عندما سقط عن حماره وتجمع الناس عليه غضب وقال لهم : مالكم تكأكأتم علي تكأكؤكم علي ذي جنة افرنقعوا عني، حيث اتّسمت اللفظتين (تكأكأتم) و(افرنقعوا) بقبح التّأليف والوحشية والتّوعّر [3].

ج– عدم مخالفة القياس: أي: وجوب ورود اللفظة على ميزان العرب والخضوع لقوانينهم الصّرفية وتجنّب الشّذوذ عنها، كلفظة الأجلل في قول أبي النّجم[4]:

---

[1] – ديوان أبي تمّام، ص:161.

[2] – ينظر: السّيّد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ص:26.

[3] – ينظر: المصدر نفسه، ص:23، وابن سنان، سر الفصاحة: ص: 67.

[4] – ديوان أبي النّجم العجلي ، تح مُحَمَّد أديب عبد الواحد، مطبوعات مجمّع اللغة العربية، دمشق، سوريا، (1427هـ – 2006م)، ص: 338.

الحَمْدُ لله العَليّ الأَجْلَلِ الوَاحِدِ الفَرْدِ القَدِيمِ الأَوّلِ

تتّسم لفظة (الأجلل) بمخالفة القياس اللغوي العربي، فلا ينبغي للفظة أن تكون خارجة عن العرف اللغوي العربي وقواعده الصّرفية، ولا بدّ أن تخضع لآلية الإدغام كقاعدة من قواعد التّصريف العربي المطردة حتّى يتمّ تخليصها من الثّقل البنوي وتتماشى مع الميزان الصّرفي العربي بغية تحقيق البلاغة التي مقتضاها الإفهام للسّامع، إذ «ينبغي للمتكلّم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين»[1]، حتّي يقع التّناسق الفكري بين المرسل والمتلقّي معا.

1 -2- السّلامة من تنافر الحروف في الألفاظ المركبة: تتأتّى ملامح الفصاحة في بناء الكلام عند البلاغيين وتتحقّق مطارحها من المرتكزات التي وضعوها في فصاحة الأصوات والكلمات، وهي شروط ستّة يجب أن يسلم منها الكلام وهي:[2]

1-تنافر الكلمات مجتمعة 2-ضعف التّأليف 3- التّعقيد اللّفظي

4-التّعقيد المعنوي 5- كثرة التّكرار 6- تتابع الإضافات.

1-تنافر الكلمات مجتمعة: بالنسبة لتنافر الكلمات مجتمعة قد ينجم عن ثقل الكلمة في حدّ ذاتها إمّا لقرب المخارج-كما أشار الجاحظ-أو لتقارب الصّفات،وينقسم إلى قسمين:

أ/تنافر ثقيل: يعسر أداؤه ويستثقله اللسان على غرار قول الشّاعر:[3]

وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمكَانٍ قَفْرُ وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَربٍ قَبْرُ

يندرج هذا البيت من الشّعر عند البلاغيين ضمن النّوع المتَّسم بالتّنافر الشّديد الناجم عن التّقارب الشّديد للأصوات المكوِّنة لهذا البيت الشّعري من حيث المخارج والصفات، حتّى إنّه«لا يستطيع أحدٌ أن ينشد هذا البيت ثلاث مرّات في نسق واحدٍ فلا يتتعتع ولا

1 - الجاحظ، البيان والتّبيين، ج01، ص: 138.

2 - السّيّد أحمد الهاشمي،جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع،ص:32،وينظر:الجاحظ،البيان والتبيين،ج01،ص:65.

3 - الجاحظ، البيان والتبيين، ج01، ص: 65.

يتلجلج»[1]، لتداول كلّ من القاف والباء والرّاء على البيت الشّعري، وهي أصوات تتقارب فيما بينها في الصّفات، ويمكن تقفّي مخارج وصفات الحروف المهيمنة على البيت من الجدول التّمثيلي الآتي:

الحرف	المخرج	الصّفة	التّكرار
القاف	**لهوي، أقصى اللّسان مع مايواليه من سقف اللسان**	**الشدة،الجهر،الاستعلاء،الانفتاح، الإصمات، القلقلة .**	05
الباء	**شفوي**	**الجهر، الشّدّة، الاستفال، الانفتاح، الإذلاق، القلقلة**	07
الرّاء	**طرف اللسان الدقيق مع ما يحاذيه من لثّة الأسنان العليا**	**الجهر، التّكرير، التّفخيم، الإذلاق، التّرقيق**	07

نستخلص من هذا الجدول أنّ الصّفات المهيمنة على أصوات البيت تشترك في عدّة صفات على غرار الجهر والشّدّة والاستعلاء والإصمات في القاف، فضلا عن القلق الذي ينجم عن النّطق بصوت الرّاء المضطربة، فنلحظ هنا هيمنة الأصوات المجهورة التي جعلت البيت الشّعري يتّسم بقوّة الوقع وثِقل النّطق، إذ قوّة اللّفظ متعلّقة بقوّة الأصوات التي يتكوّن منها، مما نجم عن هذه الهيمنة للأصوات المجهورة تداخل وتشابه واستثقال في النّطق لهذه الأصوات، ممّا أدّى لغياب التّلاؤم والانسجام الصّوتي.

ذهب"الجاحظ"إلى أنّ منشد هذا البيت لا يستطيع إنشاده ثلاث مرات متواليات إلا ويقع في الخطأ والتّلعثم [2]، وذلك للخصائص الصّوتية في البيت، المتّمثّلة في التّشابه الكبير في الصّفات، حيث إنّها تهدم صرح انسجامه وتقوّض بنيانه، بل وتجعل الشّعر إن اتّسم بهذه الصّفات مستكرها ممقوتا، وقد نوّه بذلك في قوله: «إذا كان الشّعر مستكرها، وكانت ألفاظ البيت من الشّعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض، كان بينها من التّنافر ما بين أولاد العلاّت، وإذا

[1] – الجاحظ، البيان والتبيين، ج01، ص: 65

[2] – ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين ج01، ص: 65.

كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضيا موافقا، كان للّسان عند إنشاد ذلك الشّعر مؤونة»[1]، تقدح في نظمه وتذهب بصفائه.

ومن نظير هذا الكلام المتنافر الممقوت لدى البلاغيين قول امرئ القيس: «ربّ جفنة مُثْعنجِرةٍ، وطعنةٍ مسْحنْفرةٍ، وخطبة مستحْضَرةٍ، وقصيدةٍ محبّرةٍ، تبقى غدا بأنقِرةٍ، أكلتُ العرينَ، وشربتُ الصّمادح، إنيّ إذا أنشدت لأحبَنْطِي نزل بزيدٍ داهيةٌ خنفقيق، وحلّ به عنقفير»[2].

عدّ النّقاد هذا النّسيج اللّغوي من عيّ الكلام وممقوته، وليس ذلك ناجما من ثقل الكلمة في نفسها كما هو الحال مع لفظ الهعخع، وإنّما هذا التّنافر مردّه لتشابه في الصّفات الصّوتية لهذه الألفاظ المتجاورة، حيث إنّ هذه الألفاظ لو نُطقت مستقلة فإنها تنماز بالفصاحة والسّلاسة، فقد تكون الكلمة مستقلة بمفردها مأنوسة، غير أنه قد يعتريها في بناء الكلام انتكاس في أداء الوظيفة التعبيرية، وهذا مخالف للقوانين الصّوتية العربية المحمودة في بناء الكلمة والكلام، إذ إنّ الفصاحة عند "الجاحظ" تنهض على الحروف إذا كانت «سهلة ليّنة ورطبة مواتية، سلسة النّظام، خفيفة على اللّسان حتّى كأنّ البيت بأسره كلمة واحدةٌ، وحتّى كأنّ الكلمة بأسرها حرفٌ واحدٌ»[3] يسري على اللّسان.

ب/تنافر خفيف: قد يعتري السّلسلة الكلامية تنافر خفيف مردّه إلى ظاهرة التّكرار والتّشابه في المخرج كما يرى البلاغيون في قول أبي تمام يمدح موسى بن إبراهيم الرافقي:[4]

كَرِيمٌ مَتَى أَمْدَحْهُ أَمْدَحْهُ وَالْوَرَى مَعِي وَإِذَا مَا لُمْتُهُ لُمْتُهُ وَحْدِي

استعمل الشاعر التكرار مرّتين في اللّفظتين (أمدحه) و(لمته)، ممّا أدّى إلى تقويض صرحِ البلاغة والفصاحة، وأدّى إلى الثقل النطقي والسّماعي معا، هذا بالإضافة إلى اشتمال مفردة

1 – الجاحظ، البيان والتبيين، ج01، ص: 65.

2 – السيّد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ص: 27.

3 – الجاحظ، البيان والتبيين، ج01، ص:66 .

4 – ديوان أبي تمام الطائي، ص: 129.

(أمدحه) على ثلاثة حروف حلقية هي: الهمزة والحاء والهاء، مما يزيد النطق عسرا و استثقالا، وهذا ما يخالف التّلاؤم الصّوتي والبناء البلاغي الذي تقوم عليه البلاغة العربيّة.

2- خلو الكلام من ضعف التّأليف والتّعقيد اللّفظي والمعنوي

يتّسم الكلام بالفصاحة عند البلاغيين إذا سلِم من ضعف التأليف والتعقيد، حتّى لا يشوبه اللبس والغموض، ولذلك ينبغي أن يكون «الكلام جاريا على خلاف ما اشتهر من قوانين النّحو المعتبرة عند جمهور العلماء»[1]، ومن ضعف التّأليف والتّعقيد قول النّابغة: [2]

جَزى رَبُّهُ عَنّي عَدِيُّ بنِ حاتِمٍ جَزاءَ الكِلابِ العاوِياتِ وَقَد فَعَل

خالف الشّاعر القياس في إعادة الضمير في ربّه إلى عدي وهو متأخر لفظا ومعنى والقاعدة العربية أن يعود الضّمير على ما قبله أو بعده لفظا لا معنى.

ومن التّعقيد اللّفظي الذي يمجّه البلاغيون قول المتنبّي: [3]

جَفَختْ وهم لا يجفَخونَ بها بِهِمْ شِيَمٌ على الحَسَبِ الأغَرّ دَلائِلُ

يعود التّعقيد اللّفظي في قول المتنبّي هنا إلى إضفاء اللّبس ودحر المعنى الجليّ، فضلا عن هذه الألفاظ -جَفَختْ- التي تزيد السّامع استهجانا، لأنّ «اللّفظ متى كان كريما في نفسه متخيرا في جنسه، وكان سليما من الفضول، بريئا من التعقيد حبب إلى النفوس، واتصل بالأذهان والتحم بالعقول وهشت إليه الأسماع وارتاحت إليه القلوب وخف على القلوب»[4] لطلاوته وسهولة ألفاظه وجودة سبكه.

أمّا «التّعقيد المعنوي فالمقصود به حسب الهاشمي أن يكون التركيب خفي الدلالة على المعنى المراد، لخلل في انتقال الذهن من المعنى الأصلي الى المعنى المقصود بسبب إيراد اللوازم

[1] - السّيّد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ص: 33.
[2] - ديوان النّابغة الذّبياني، ص: 161.
[3] - ديوان المتنبّي، مطبعة دار بيروت، بيروت، لبنان، (1403هـ-1983م)، ص:179.
[4] - الجاحظ، البيان والتّبيين، ج02، ص: 05.

البعيدة المفتقرة الى وسائط كثيرة مع عدم ظهور القرائن الدالة على المقصود »[1]، فترى الكلام في هذه الحالة مبهما مضطربا، ألفاظه جليّة ومعانيه خفيّة على غرار قول عبّاس بن الأحنَف:[2]

سَأطلُبُ بُعدَ الدَّارِ عَنْكم لِتقْرُبوا وَتَسْكُبُ عَيْنايَ الدُّموعَ لِتَجْمُدَا

ذهب الشّاعر في نظمه إلى الاعتماد على التّعقيد المعنوي ممّا أدّى إلى خفاء المعنى وعدم وضوحه، حيث أحسن في جعلَ سكبَ الدُموع كنايةً عمّا يلزمُ في فراقِ الأحبَّة من الحُزن والكمد على فراقهم، فأحسنَ وأصابَ في ذلك، ولكنَّه أخطأ في جعل جمودِ العينِ كنايةً عمَّا يوجبُه التَّلاقي من الفرحِ والسُرُور بقُرب أحبتّهِ، وهو خفيٌّ وبعيدٌ، إذ لم يُعرفْ في كلام العربِ عند الدُّعاءِ لشخصٍ بالسرور (أنْ يقالَ له: جُمدتْ عينُك) أو لا زالتْ عينُك جامدةً، بل المعروفُ عندهم أنَّ جمودَ العين إنّما يكنَّى به عن عدمِ البكاءِ حالةَ الحزن ، والحالة أنّ الوقوف على مُراد الشّاعر ونيّته تحتاج إلى قرائن أكثر حتّى ينجلي الغموض ويتضح المعن المقصود[3].

3– خلوّ الكلام من كثرة التّكرار وتتابع الإضافات: تعدّ هاتين الصّفتين من القوادح في نظم الكلام ونسجه، والتّقليل من رونقه وجماله على غرار كثرة التّكرار في قول المتنبّي: [4]

أَقِل أَنِل أُن صُنِ اِحمِل عَلِّ سَلِّ أَعِد زِد هَشَّ بَشَّ هَبِ اِغفِر أَدنِ سُرَّ صِلِ

نلاحظ أنّ الشّاعر هنا جانب معالم الفصاحة والبلاغة والبيان لكثرة التّكرار المنبوذ في ساحة الفصاحة، ولا سيما إن كان هذا التّكرار بدون سبب؛ فخرج بهذا التّوكيد اللّفظي عن محاسن البلاغة وحاد عن معالم الفصاحة [5]، والمتنبّي في كلامه هذا أعاد الالتماسات والطّلب من الملك بكثرة التّكرارات التي تصبّ في معنى واحد.

[1] – السّيّد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ص: 34.
[2] – ديوان العبّاس بن الأحنف، تح عاتكة الخزرجي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة (مصر)، (1373هـ-1954م)، ص:106 .
[3] – ينظر: السّيّد أحمد الهاشمي، المرجع السّابق، ص: 34، 35.
[4] – ديوان المتنبّي، ص: 339.
[5] – ينظر: السّيّد أحمد الهاشمي، المرجع السّابق، ص: 35.

أمّا بالنّسبة لتوالي الإضافات فكقول ابن بابك:[1]

حَمَامَةَ جَرْعَا حَوْمَةَ الجَنْدَلِ اسْجَعِي فَأَنْتِ بِمَرْأَى مِنْ سُعَادَ وَمَسْمَعِ

حاد الشّاعر هنا عن معالم الفصاحة وأذهب ماءها بتوالي الإضافات، فقد أضاف الحمامة إلى الجرعا، والجرعا إلى الحومة، والحومة إلى الجندل، فضلا عن الفضاء الصّوتي الذي أحدثه بحضور الحاء والجيم وهيمنتهما وتداولهما في الشّطر الأوّل من البيت، وهكذا عدل عن الكلام المأنوس إلى اللبس والغموض، زيادة عمّا ينتج لدى السّامع من استثقالٍ ناجمٍ عن الحروف المتقاربة في المخارج والصفات.

بناء على ما أسّسه "الجاحظ" وبالتّمعّن في ألفاظ القرآن الكريم نجد أنّ ألفاظه تحيد عن الوحشي والغريب من الألفاظ، وتجنح إلى البساطة والسّهولة، باستثناء بعض الألفاظ النّادرة وهي ما أشار إليها العلماء على غرار "الرّاغب الأصبهاني"صاحب غريب القرآن، إذ وسم ألفاظ القرآن الكريم بقوله: «ألفاظ القرآن هي لبّ كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم، وحِكَمِهم، وإليها مفزع حذّاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم، وما عداها وعدا الألفاظ المتفرّعات عنها والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة، وكالحثالة والتّبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة »[2] وهذا إشارة منه إلى جلالة ألفاظ القرآن الكريم، وعدول الشّعراء والبلغاء عن ما سواها، ممّا يوحي أنّ ألفاظ القرآن الكريم صارت الرّافد المرجعي للتّأليف.

تمثّل"الجاحظ"بالكثير من الآيات القرآنية وأشاد بفصاحة ألفاظها وقوّتها، كما بيّن جلالة قدر الأسلوب القرآني الذي يمتاز بالتّفرّد عن غيره من أساليب العرب المعهودة في الشّعر والنّثر، فتكلّم عن جمال التّشبيه في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ* طَلْعُهَا كَأَنَّه

---

1 – لويس شيخو اليسوعي، علم الأدب –مقالات لمشاهير العرب، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت (لبنان)، (1887م)، ج01، ص: 58.

2 – الرّاغب الأصفهاني (أبو القاسم الحسين بن محمّد)، المفردات في غريب القرآن، تح دار الإعداد بمركز الدّراسات والبحوث، مكتبة نزّار مصطفى الباز، مكّة المكرّمة، (د ط)، ج01، ص:04.

رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾[1] ، فرأى أنّ هذا التّشبيه من قبيلِ التّخويف والوعيد لا من حقيقة الوجود والتّجسيد، مؤوّلا فخامة هذه الصّورة البلاغية باستحالة استعمال القرآن التّشبيه برؤوس الشّياطين غير المدركة [2]، كما تحدّث عن المجاز والتّأويل في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾[3]، فبيّن مؤوّلا أنّ العسل في حدّ ذاته ليس بشرابٍ إلا إذا كان ممزوجا بالماء [4]، ممّا يومئ أنّ هناك ثقلا بلاغيا يحتويه القرآن الكريم يمهّد "الجاحظ" للبلاغيين اقتحامه واكتناه أسراره.

كما أشار إلى حسن ملاءمة الألفاظ القرآنية وحسن تموقعها في الآيات أيضا، حيث إنّه لو وضعت لفظة أخرى مكان تلك اللّفظة المنزّل القرآن بها، لما كانت مؤدّية للدّلالة المرجوّة والمعنى المقصود على غرار ذكر القرآن للجوع للدّلالة على شدّته مع كثرة الفقر المدقع والعجز الظّاهر والإشارة إلى المفارقة بين لفظتي المطر والغيث، حيث ذهب الجاحظ إلى أنّ لفظة (المطر) وُظّفت للدّلالة على العذاب والانتقام نحو قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾[5]، بينما الغيث دلّت على الخير والدّعة نحو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾[6]، وهذا من تمام بلاغة القرآن وفصاحة ألفاظه[7].

وممّا يجب الوقوف عليه في تقفّيه لألفاظ القرآن أنّه توصّل إلى أنّ الخطاب القرآني يفرّق بين الثّنائيات المتلازمة المعهودة في بعض الآيات، فالقرآن «إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع،

1 – سورة الصّافّات، الآية: 64،65

2 – ينظر الجاحظ، الحيوان، ج06، ص: 212.

3 – سورة النّحل، الآية: 69.

4 – ينظر: الجاحظ، المصدر السّابق، ج05، ص: 425.

5 – سورة الحجر، الآية: 74.

6 – سورة الشّورى، الآية: 28.

7 – ينظر: الجاحظ، البيان والتّبيين، ج01، ص: 20.

وإذا ذكر سبع سماوات لم يقل الأرضين» [1]، وهذا من تمام نظم القرآن وحسن بيانه وسرّ فصاحته.

ثانيا: جهود "ابن سنان الخفّاجي" في تقفّي ظاهرة الفصاحة

كان ل"ابن سنان الخفّاجي" قدم صدق في إرساء دعائم ظاهرة الفصاحة والوقوف على محرابها، حيث يعدّ كتابه سرّ الفصاحة من بين الكتب القيّمة التي فتّشت عن ظاهرة الفصاحة والبحث عن أسبابها، حيث إنّه في كتابه هذا تحدّث بإسهاب عن الحروف والأصوات وفرّق بينهما، وبيّن أهميّة مخارج الحروف في تحقيق الفصاحة وبيّن أنّ الفصاحة تقتصر على اللّفظ بينما البلاغة متعلّقة بالمعاني، كما شابه "الجاحظ" في حديثه عن فصاحة اللّفظ والمركّب وبيّن شروط الفصاحة وأثرها في تحقيق انسجام الألفاظ، وأشاد بالأصوات المستحسنة والمستقبحة، وكذلك صفتي الإذلاق والإصمات، وأثر الأصوات الذّلقية في تيسير النّطق، وغيرها من المرتكزات التي ذكرها في طيّات كتابه.

قبل الشّروع في الحديث عن الفصاحة عند "ابن سنان" يجب أن نشير إلى أنّ هناك شروطا تطرّق إليها قبله "الجاحظ" فلا داعي للاستفاضة في ذكرها إلا ما تفرّد به من نظرة محايثة ومن ثمّ الوقوف على أهمّ الرّكائز التي ارتهن إليها ورآها تزيد من تصليب أرضية الفصاحة.

شروط الفصاحة عند "ابن سنان الخفّاجي"

تناول "ابن سنان" الفصاحة وأفاض فيها وعلّقها بالألفاظ، وعرّفها بأنّها «نعتٌ للألفاظ إذا وجدت على شروط عدّة، ومتى تكاملت تلك الشّروط فلا مزيّة على فصاحة تلك الألفاظ » [2]، ثمّ ذهب إلى تقسيمها قسمين، فصاحة اللّفظ وفصاحة المركّب:

أوّلا– فصاحة المفرد: ذهب "ابن سنان" إلى أنّه لا يتلئبّ فصاحة المفرد إلا إذا تضمّن ثمانية شروط هي:

---

[1] – الجاحظ، البيان والتّبيين، ج01، ص: 20.

[2] – ابن سنان، سرّ الفصاحة، ص: 63.

1-أن يكون تأليف اللفظة من حروف متباعدة المخارج : يعتبر هذا الشّرط من الشّروط التي ذكرها "الجاحظ" واستحسنها "ابن سنان "، وأنشأ لها مقاربة مع الألوان، كانسجام الأسود مع الأبيض، وعدم ائتلافه مع الأصفر، فرأى بأنّ «البياض مع السّواد أحسن منه مع الصّفرة لقرب مابينه وبين الأصفر، وبُعدِ مابينه وبين الأسود، وإذا كان هذا موجودا على هذه الصّفة ، لايحسن النّزاع فيه، كانت العلّة في حسن اللّفظة المؤلّفة من الحروف المتباعدة هي العلّة في حسن النّقوش إذا مُزجت من الألوان المتباعدة»[1].

كما ذهب إلى القول بشناعة تأليف بعض الألفاظ من حروف معيّنة في العرف اللغوي العربي نحو: اجتماع القاف والكاف والجيم لقرب مخارج هذه الحروف التي يثقل اللّسان بنطقها ولذلك«لم يأت قج ولا جق، ولا كج، ولا جك، ولا قك، ولا كق »[2]، لأنّ قوانين العرب الصّوتية تستجدي الخفّة وتنفر من الثّقل، وقد نقل "السّيوطي" قول الفارابي أنّ في العربية لا تجتمع القاف والجيم، والجيم والتّاء في كلمة واحدة كالجبت في قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾[3]، إلا وتوسّط بنية الكلمة حرف من حروف الذّلاقة [4]، وبيّن أنّ اللّفظة تزداد شناعة إذا تكوّنت من الحروف الحلقية نحو كلمة الهعخع[5].

2-أن يكون لتأليف اللفظة في السّمع حُسناً ومزية : أي أنّ كلام العرب في بنائه يخضع لنسق معيّن في توزيعه وبنائه، فالتّباعد في المخارج حسب "ابن سنان" لايفي بالغرض وحده، بل إنّ تتابع بناء الكلمة على نسقٍ معيّن هو ما يُكسب اللّفظة حسنا ومزيّة، وقد أشار إلى لفظة (عذب) وما شابهها نحو: العُذيب، وعُذيبة، عذْب، عذاب، عذبات، ورأى أنّ هذه الألفاظ تتّسم بحسن التّأليف الذي تحقّق لها بتباعد المخارج من جهة، ووُرودها على هذا

[1] - ابن سنان، سرّ الفصاحة، ص: 64.

[2] - المصدر نفسه ، ص:57.

[3] - سورة النّساء، الآية: 51.

[4] - ينظر: السّيوطي، المزهر في علوم اللّغة وأنواعها، ج01، ص: 270.

[5] - ابن سنان، المصدر السّابق، ص:57.

التّرتيب من جهة أخرى، بخلاف تأليف ألفاظ من نفس الحروف مع إحداث تقديم أو تأخير بين نفس هذه الحروف [1]، ممّا يوحي بأنّ "ابن سنان"انتقل من بناء اللّفظة إلى الوقوف على ذوقها وجمالها.

تتبدّى ملامح نظرة "ابن سنان"في ظاهرة الفصاحة في توثّبه إلى زيادة ملمح جديد من ملامح الفصاحة وهو عنصر(الذوق) للحروف، إذ استحسن من الألفاظ ما تستسيغه الآذان وتستلذّه ويسهل في النّطق على غرار لفظة (تفاوح) في قول المتنبّي: [2]

إِذا سارَتِ الأَحداجُ فَوقَ نَباتِهِ   تَفاوَحَ مِسكُ الغانِياتِ وَرَندُهُ

عقد"ابن سنان"مقارنة في تذوّق الألفاظ وجعل قبولها أو عدم قبولها متعلّقا بالأسماع، شريطة قوانين صوتية متعلّقة بميزان معيّن ينجم عنه جودة « التأليف في النّغم» [3]، ومن الألفاظ التي استحسنها أيضا لفظة تأنّفت وأغصان البان المرادفة لعساليج الشّوحط، كما تحدّث عن لفظة الجرشي ومَقَتها لثِقلِها في السّمع من قول أبي الطّيب [4]:

مُبَارَكُ الاسْمِ أغرُّ اللّقَبْ   كَرِيمُ الجِرِشَّى شَرِيفُ النّسَبْ

3- سلامة اللّفظة من الوحشية والوعورة: [*] اقتفى"ابن سنان" في هذه الميزة "الجاحظ" ورأى أنّ الألفاظ على هذا النّسق دليل على ضعف التّأليف، واستدلّ بعدّة ألفاظ استثقلها ورأى بأنّها أبعد عن حسن التّأليف على غرار قول أبي تمّام: [5]

قِف بِالطُلولِ الدارِساتِ عُلاثا   أَمسَت حِبالُ قَطينِهِنَّ رِثاثا

[1] - ينظر: ابن سنان، سر الفصاحة، ص: 65.

[2] - ديوان المتنبّي، ص: 253.

[3] - ابن سنان، المصدر السّابق، ص: 65.

[4] - ديوان المتنبّي، ص: 438.

*) أشرنا إلى هذا الملمح في شروط فصاحة اللّفظة عند الجاحظ.

[5] - ديوان أبي تمّام، ص: 63.

يرى"ابن سنان" في قول أبي تمّام هذا ألفاظا غير مأنوسة نحو قوله عُلاثا، كما أنّه عاب عليه اتّخاذه لحرف الثّاء قافية وهي غير مستحبّة عنده في نظم الشّعر(1).

4- **عدم اتّصاف الألفاظ بالعاميّة**: اشترط"ابن سنان" في سلامة اللّفظة ونصاعتها ألا تكون عامية ولا ساقطة، وإلا وُصفت بالابتذال نحولفظة "تفرعن"التي هي من ألفاظ هوام العوام، التي استعملها أبو تمّام في قوله: (2)

جليتَ والموتُ مبدٍ حرَّ صفحتِهِ وقدْ تفرعَنَ في أوصالِهِ الأجلُ

عاب"ابن سنان" على الشّعراء توظيفهم للألفاظ العاميّة والسّوقية، ورأى أنّها تقدح في نظم الشّعراء وتذهب بماء وجوههم، وأنّهم لا عذر لهم في الإتيان بهذه الألفاظ السّقيمة كونها تقدحفي نظم الكلام وتخرم الصّناعة الشّعرية(3)،لابتذالها وعدم استساغة مذاقها.

5- **أن تكون اللّفظة جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذة** : أي أن تسريَ اللفظة العربية على وفق قوانين أهل اللغة حتّى تحظى بالقبول، وقد اشترط لذلك شرطين هما:

أ/ الا تكون الكلمة دخيلة على اللسان العربي نحو قول أبي الشّيص: (4)

وجناح مقصوص تحيَّف ريشه ريبُ الزمان تحيُّفَ المِقراضِ

عِيب عند أهل اللغة لفظة "المِقراضِ" كونها غير عربية فصيحة، إذ يراها «علماء النّحو من التّصرّف الفاسد في الكلمة، وقد يكون ذلك لأجل أنّ اللفظة بعينها غير عربيّة »(5)، ممّا يجعلها على محكّ الطّرح والإبعاد.

---

1 - ينظر: ابن سنان، سر الفصاحة، ص: 72.

2 - ديوان أبي تمّام، ص:228.

3 - ينظر: ابن سنان، المصدر السّابق، ص: 75.

4 - ديوان أبي الشّيص الخزاعي وأخباره، تح عبد الله الجبوري، مطبعة المكتب الإسلامي، بيروت (لبنان)، ط 01، (1404هـ-1784م)، ص:78.

5 - ابن سنان، المصدر السّابق، ص: 77.

ب/التّعبير بلفظة في غير ما وضعت له: ويعدّ هذا من الحياد عن العرف اللغوي العربي الصّحيح أيضا، نحو قول أبي تمّام: [1]

حَلَّت مَحلَّ البكرِ مِنْ مُعْطىً وقَدْ زُفَّتْ مِنَ المعطى زِفَافَ الأَيِمِ

ذهب الشّاعر في لفظة (الأَيِم)إلى غير ما تعارف عليه العرب من دلالة هذه اللفظة، فقد جعل الأيم والثّيب بمنزلة واحدة، لكنّ الحقيقة أن«ليس الأيم الثّيب في كلام العرب، إنّما الأيم التي لازوج لها، بكرا كانت أو ثيّبا» [2]، حيث نجد القرآن الكريم يبيّن أنّ الأيم هي مطلق من لازوج لها في قوله تعالى: ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[3]، حيث ذهب المفسّرون إلى ما أقرّه "ابن سنان"من أنّ الأيم هي المرأة التي لا زوج لها سواءٌ كانت ثيّبا أم بكرا[4].

6-عدم استعمال لفظ مكان لفظ آخر بغية إخفاء معنى معيّن: يعدّ هذا عند"ابن سنان" من القوادح في الفصاحة والتّقليل من شأن اللّفظ، إذ إنّ اللفظة إذا استعملت في مورد وهي«غير مقصود بها ذلك المعنى قبحت»[5] والتبس معناها، نحو قول أبي تمّام:[6]

مُتَفَجِّرٌ نادَمتُهُ فكأنّني لِلدّلوِ أَو لِلمِرزَمَينِ نَديمُ

عاب"ابن سنان"على النّاظم استعماله لفظ الدّلو لمشابهته للدّلو المعروف، للمفارقة بين الدّلو المعهود والدّلو والمرزم ككوكبين عظيمين لا يحسن استعمال التّشبيه المبتذل بهما؛ وقد

1 - ديوان أبي تمّام، ص:313.
2 - ابن سنان، سر الفصاحة، ص: 77.
3 - سورة النّور، الآية: 32.
4 - ينظر: طاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج 18، ص:215.
5 - سر الفصاحة، ص: 85.
6 - ديوان أبي تمّام، ص: 300.

أدرك المتنبّي(354هـ) جلالة حضور التّشبيه بالكواكب في الأساليب البلاغية فقال مادحا جيش سيف الدّولة العرمرم بقوله: [1]

خميسٌ بشرْقِ الأرْضِ وَالغرْبِ زَحْفُهُ وَفي أُذُنِ الجَـوْزَاءِ منهُ زَمَـــازِمُ

كان للقرآن الكريم موقف مع ذكر الكواكب والإشادة بها، على غرار قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾[2] فوصفها بوصف العقلاء، إذ السّجود لا يكون إلا من البشر [3]؛ كما أنّ أسلوب القرآن أشدّ إحكاما في اقتناص الألفاظ وحسن توظيفها نحو قوله تعالى: ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا﴾[4] حيث عدل عن ذكر القرميد أو الآجر أو الطّوب لابتذال هذه الأسماء وعدم جزالتها واستبدالها بلفظة (الطّين) مع قرينة الوقود[5].

7- **أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف** : وصف"ابن سنان" اللفظة العربية بالقبح إذا زادت في تركيبها عن المعهود من البناء اللغوي العربي وحادت عن الفصاحة، ومن الأسباب التي تقلّل من شأن فصاحة اللّفظة حتّى تتّسم بالقبح طول اللفظة وكثرة حروفها، ممّا يذهب بصفائها وجمالها[6]، ومن ذلك لفظة سويدا واتها في قول المتنبّي: [7]

إِنَّ الْكِرَامَ بِلَا كِرَامٍ مِنْهُمُ مِثْلُ الْقُلُوبِ بِلَا سُوَيْدَاوَاتِهَا

---

1 - ديوان أبي تمّام، ص: 387.

2 - سورة يوسف، الآية: 04.

3 - ينظر: الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، مكتبة العبيكان، الرياض، ط01، (1418هـ-1998م)، ج03، ص: 255.

4 - سورة القصص، الآية: 38.

5 - ينظر: ضياء الدّين ابن الأثير، المثل السّائر، تح أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر (القاهرة)، (دط)، ج01، ص: 200.

6 - ينظر: ابن سنان، سر الفصاحة، ص: 88.

7 - ديوان المتنبّي، ص: 186.

عدّ"ابن سنان" لفظة (سُوَيْدَاوَاتِهَا) من الألفاظ غير المعتدلة لطولها وكثرة حروفها من غير حاجة؛ وقد ورد في القرآن الكريم ألفاظ طويلة على هذا النّسق ووصفت بالفصاحة والبلاغة على غرار لفظة (فَسَيَكْفِيكَهُمُ) في قوله تعالى: ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1]، ممّا يدلّ على أنّ فصاحة ألفاظ القرآن الكريم هي بخلاف غيرها من الألفاظ؛ وقد أرجع ابن الأثير سبب قبح الألفاظ من عدمه إلى أصل الكلمة، حيث إنّ سرّ جمال الألفاظ مآله إلى أصولها المركّبة منها ولا سيما الثّلاثي وما ندرَ من الرّباعي[2].

8-أن تكون الكلمة مصغّرة في موضعٍ عُبّر بها فيه عن شئ لطيف أو خفيّ: يعدّ التّصغير ملمحا من ملامح البلاغة التي تعرّض لها "ابن سنان"، وهذه الأداة الإجرائية البلاغية من عمق الأداء اللغوي لدى العرب، والغرض منها الإشارة والتّنبيه على شئ «لطيف أو خفيّ أو قليل أو مايجري مجرى ذلك» [3]،نحو قول المتنبّي: [4]

ظَلِلتُ بَينَ أُصَيحابي أُكَفكِفُهُ وَظَلَّ يَسفَحُ بَينَ العُذرِ وَالعَذَلِ

تتجلّى معالم فصاحة التّصغير في هذا البيت عند المتنبّي للدّلالة على وفاء الأصحاب عند النّوائب وفي مواقف الحزم، فلفظ أصيحابي «التّصغير فيه مختار، لأنّ العادة جارية في قلّة عدد من يصحب الإنسان في مثل هذه المواضع» [5] التي لايثبت فيها إلا ذوي الألباب.

تضمّن القرآن الكريم أسلوب التّصغير في بعض آياته ولا سيما في لفظة "بُنَيَّ"فقد وردت في كثير من سور القرآن نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾[6]، ممّا يوحي أنّ القرآن الكريم لم ينأى عن أساليب العرب ومناحيهم في الألفاظ

[1] – سورة البقرة، الآية: 137.
[2] – ينظر: المثل السّائر: ص: 204، 205.
[3] – ابن سنان، سر الفصاحة، ص:89.
[4] – ديوان المتنبّي، ص:336..
[5] – ابن سنان، المصدر السّابق، ص:92.
[6] – سورة يوسف، الآية: 05.

فالغرض من هذا التّصغير في هذه الآية الكريمة هو « تصغير التّحبيب والتّقريب والشّفقة »[1] النّاجم عن تعظيم سيدنا **"يعقوب"** لابنه **"يوسف"** عليهم السّلام.

كما ورد التّصغير في لفظة (رُوَيْدًا) التي أصلها«رود بضمّ الرّاء بعدها واو »[2] في قوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾[3]، حيث أفاد التّصغير في هذه الآية عظمة الخطاب القرآني تجاه محمّد عليه السّلام للدّلالة على تحقّق وقوع العذاب ونزوله بساحة المكذّبين لامحالة عن طريق استعمال التّصغير[4].

ثانيا– فصاحة الكلام المركّب : بعد أن أتمّ "ابن سنان "الحديث عن شروط الألفاظ المفردة انتقل إلى الحديث عن شروط فصاحة الكلام المركّب، أي الوقوف على فصاحة الألفاظ أثناء بنائها ورصّها مع بعض، ولهذا عرّف الفصاحة من منظوره أنّها «عبارة عن حسن التّأليف في الموضوع المختار» [5]، وفضلا عن الشّروط الثّمانية التى عدّها في فصاحة الكلمة، فقد وضع وضع خمسة شروط في تأليف الكلام وهي:

الشّرط الأوّل: أن تكون الألفاظ المكوّنة للكلام متباعدة المخارج: يرى**"**ابن سنان**"** أنّ تباعد المخارج في تأليف الكلام يُكسبه الفصاحة ويَسِمُه بالبلاغة كما هو الشّأن نفسه في نظم اللّفظة المفردة، بل إنّ هذ الصّنيع في تأليف الكلام أشد قبحا وشناعة [6]، لأنّه يجعل من الكلام المركّب فضاء تحت هيمنة الصّوت الواحد، كهيمنة صوت الكاف في قول الشّاعر: [7]

---

1 – أبو حيّان الأندلسي، البحر المحيط، تح الشّيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، (لبنان)، ط01، (1413هـ-1993م)، ج05، ص:281.

2 – طاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، ج30، ص: 268.

3 – سورة الطّارق، الآية: 17.

4 – ينظر: طاهر بن عاشور، المصدر السّابق، ج30، ص:269..

5 – ابن سنان، سر الفصاحة، ص: 95.

6 – ينظر: المصدر نفسه، ص: 97.

7 – لويس شيخو اليسوعي، علم الأدب، مطبعة الآباء اليسوعيين، ص: 58.

لو كُنْتِ كُنْتِ كَتَمْتِ السِّرَّ كُنْتُ كَمَا كنّا و كُنْتِ وَلَكِنْ ذَاكَ لَمْ يَكُنِ

يتجلّى الثّقل في تلفّظ البيت النّاجم عن استحواذ حرف الكاف عليه، إذ إنّ ورود حرف الكاف في كلّ كلمة يستلزم التّعامل مع نفس المخرج والصّفات، ممّا أدّى إلى ضعف فصاحته، فهو «لا يُحتاج إلى دليل على قبحه للتّكرار أكثر من سماعه» [1]الذي تمجّه الأذواق السّليمة، لترادف الصّفات المشتركة النّاجمة عن قرب مخارج ألفاظ البيت الذي هيمن عليه حرف الكاف، مع توالي لفظة "كُنْتُ"ثلاث مرّات، وهو مالا ينشدُه أهل الفصاحة والبلاغة، إذ«من عيوب الكلام تكرير الكلمة الواحدة في كلام قصير » [2]، فهذا يؤدّي لتكرار نفس الحروف الذي يستدعي التّقارب في المخارج والصّفات.

يعدل القرآن الكريم في كثير من مواضعه عن توظيف الألفاظ المتشابهة في الحروف ونفس الكلمات على غرار قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[3] وقوله وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾[4].

نلحظ أنّ التّشابه الكبير بين الآيتين جعل الخطاب القرآني ينأى عن استعمال لفظتين متتابعتين تحملان صوت الظّاء ، فوجود صوت الظّاء في لفظة (بِظُلْمِهِمْ)في آية النّحل لم يقترن بلفظة (ظَهْرِهَا)لما في التّكرار من ثِقل ناجم عن التّقارب في المخارج والصّفات، وهذا من باب تميّز الخطاب القرآني والتفنّن الأسلوبي فيه[5].

1 – ابن سنان، سر الفصاحة، ص: 97.

2 – أبو هلال العسكري، الصّناعتين، ص: 153.

3 – سورة النّحل، الآية: 61.

4 – سورة فاطر، الآية: 45.

5 – طاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، ج22، ص: 340.

الشّرط الثّاني: وجود الذّوق في اللّفظة : وذلك باستعمال الألفاظ المأنوسة السّلسة الموافقة للكلام، والحياد عن الغريبة الخشنة، فكما اشترطه "ابن سنان" في اللفظة المفردة ارتآه أيضا في الكلام المركّب، فقد شنّع على أبي تمّام قوله: [1]

جَذَبْتُ نَدَاهُ غَدْوَةَ السَّبْتِ جَذْبَةً فَخَرّ صَرِيعاً بَيْنَ أَيْدِي القَصَائِدِ

حيث عاب "ابن سنان" عليه لفظة (جَذَبْتُ) لعدم ملائمتها لمعنى البيت ككلّ فالشّاعر في معرض حديثه عن كرم الخليفة، فأدّى عدم مواءمة اللفظة للسّياق بإيقاع الشّاعر في هجاء الخليفة لا مدحه، فاللّفظة يحسُن بها «أن تفيد فائدة مختارة يزداد بها الكلام حُسنا وطُلاوة»[2] يجد المتلقّي مذاقته ويحسّ بجماله.

الشّرطان الثّالث والرّابع : أن تكون اللفظة المكوّنة لنسق الكلام غير وحشية ولا عاميّة، لأنّ وجود هذه الألفاظ ينفي عن الفصاحة رونقها، إذ لا عُلقة لتأليف الكلام من هذا الصّنف [3].

الشّرط الخامس: أن تكون ألفاظ الكلام المركّب وِفق العرف اللغوي العربي و «للتّأليف بهذا القسم علقة وكيدة، لأنّ إعراب اللّفظة تبع لتأليفها من الكلام »[4]، فمتى أُدمجت لفظة مخالفة للقياس العربي أثّرت في فصاحة الكلام وذهبت برونقه.

الشرط السادس: أن يتّسم نظم الكلام المركّب بالمحافظة على جودته من خلال انتقاء الألفاظ الجزلة غير الممتهنة، وذلك أن «أن تكون الكلمة قد عُبّر بها عن أمر آخر يُكره ذكره،

---

1 – ديوان أبي تمّام، ص: 95.

2 – ابن سنان، سر الفصاحة، ص: 146.

3 – ينظر: المصدر نفسه، ص: 107، 108.

4 – المصدر نفسه، ص: 108.

فللتّأليف فيه تعلّق بحسب إضافة الكلمة إلى غيرها» [1]، وقد عاب "ابن سنان" تأليف الشّريف الرّضي في قوله:[2]

أَعزِز عَلَيَّ بِأَن أَراكَ وَقَد خَلَت مِن جانِبَيكَ مَقاعدُ العُوّادِ

نوّه صاحب كتاب الإكسير في علم التّفسير إلى أنّ بلاغة القرآن الكريم تعدل في تعاملها مع لفظ المقاعد إلى القرائن حتّى لا يتّسم الخطاب القرآني بالضّعف البلاغي نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[3]، وقوله أيضا:﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾[4]، فلو أنّ الشّاعر ذكر بدل المقاعد «مجالس أو مواطن عوض مقاعد لخلص من هذه المعرّة» [5] اللفظية التي ينبو عن استعمالها البلغاء.

الشرط السّابع: أن يُجتنب في تأليف الكلام الألفاظ الطّويلة ذات الحروف الكثيرة، إذ إنّ التّأليف بهذه الألفاظ «قبحه أجلى إذا ترادفت فيه الكلمات الطّوال» [6]، على غرار الكلمات الوحشية، فهذه الألفاظ الطّويلة يمجّها الذّوق السليم وينفر منها على غرار لفظة مستشزرات.

الشّرط الثّامن: تجنّب الإفراط في استعمال أسلوب التّصغير، إذ إنّ البلاغة تقتضي الاقتصاد في توظيف «التّصغير والنّداء والتّرخيم والنّعت والعطف والتّوكيد، وغير ذلك من الأقسام والإسهاب في إيرادها معدود في جملة التّكرار، ويجب التّوسّط فيه» [7].

---

1 – المصدر نفسه، ص: 110.

2 – ديوان الشّريف الرّضي، تح محمود مصطفى حلاوي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت (لبنان)، ط 01، (1419هـ-1999م)، ج01، ص: 426.

3 – سورة آل عمران، الآية: 121.

4 – سورة القمر، الآية: 55.

5 – سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم الطوني، الإكسير في علم التّفسير في أصول وقواعد التّفسير الكريم، تح محمّد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت(لبنان)، ص: 107.

6 – ابن سنان، سر الفصاحة، ص: 110.

7 – المصدر نفسه، ص: 110.

بناء على هذا نخلص أنّ هذه الشّروط التي وضعها كل من "الجاحظ" و"ابن سنان" هي ممّا يرمي إلى بناء صرح الفصاحة وشدّ عضدها.

ثالثا: الحروف العربية وكمال الفصاحة عند العرب: هناك تفاوت بين الحروف العربية في تدعيم ركن الفصاحة عند العرب وشدّ بنيانه، وتعدّ الحروف المستحسنة والحروف الذّلقية من أهمّ الحروف التي تزيد الفصاحة كمالا والبلاغة بيانا وجمالا، وسنشير باختصار إلى أثر هذه الحروف ومدى إسهامها لدى البلاغيين في تثبيت أرضية الفصاحة.

1- الحروف المستحسنة وأثرها في تحقيق الفصاحة(*)

تعدّ ثنائية الأصوات المستحسنة والمستقبحة من المعايير المعتمدة عند البلاغيين في الوقوف على معالم الفصاحة من عدمها، إذ إنّ هذه الأصوات المستحسنة تعمل على تزيين الكلام وسلاسته، وسهولة النطق به وتيسير أدائه، وقد كان للبلاغيين عدّة توضيحات للأصوات المستحسنة وأثرها في تنميق الكلام وتزيينه.

أ/نظرة "ابن الأثير" للحروف المستحسنة : أشار"ضياء الدّين ابن الأثير" إلى فاعلية الحروف المستحسنة في تصليب أرضية الفصاحة وإضفاء العذوبة في الكلام، فقد بيّن بأنّ الألفاظ الجزلة المختارة عند أصحاب اللّفظة والصّناعة ماكان«متينا على عذوبته في الفم، ولذاذته في السّمع»[1] دون تكلّف الوحشي من الألفاظ

ارتهن "ابن الأثير" إلى أسلوب القرآن الكريم وعذوبة ألفاظه وسلاسة أسلوبه في آياته أثناء تصوير مشهد يوم القيامة وهول موقف الحشر إلى الله في أواخر سورة الزّمر ، وبيّن أنّ هذا التّصوير لهذا المشهد يتمّ عن طريق ألفاظ تتّسم بالعذوبة والسّلاسة [2]، بخلاف ما أُثِر عن العرب في تراثهم أحيانا من تعمّد توظيف الوعر من الألفاظ، والوحشي من الكلمات.

---

[1] - ابن الأثير، المثل السّائر، ص: 185.

[2] - ابن الأثير، المثل السّائر، ص: 186.

ف"ابن الأثير" بعد سبر أغوار الآية الكريمة ذهب إلى وصف ألفاظ القرآن الكريم أنّها تحافظ على نمطها «في تفسير الجزل والرّقيق اتّجاها يحتفظ للأسلوب بمستوى واحد من العذوبة والسّلاسة والانسجام»[1]، مكّنته من اعتلاء عرش البلاغة وقوّة السّبك وجودة البيان.

أشار "ابن الأثير" أيضا إلى أهميّة الحروف المستحسنة في إضفاء الجمالية في الكلام وحسن تأليفه، من خلال الإشارة إلى مالا يحسن استعماله نظما ونثرا من بعض الحروف، فلا يُستحسن نظم الكلام من «الثّاء والذّال والخاء والشّين والصّاد والطّاء والظّاء والغين، فإنّ في الحروف الباقية مندوحة عن استعمال مالا يحسن من هذه الأحرف المشار إليها»[2].

لو تأمّلنا ما توجّه إليه "ابن الأثير" لوجدناه -بمفهوم المخالفة- يشيد بالحروف الشّفوية والذّلقية ويستحسنها في تأليف الكلام، وذلك لسهولة النّطق بها وكثرة دورانها على ألسنة النّاس بخلاف هذه الأحرف الثّمانية المذكورة آنفا، وقد أشار إلى بعض القصائد الصّادرة من بعض الشّعراء المنسوجة على حرف الرّويّ من هذه الحروف ك أبي تمام وأبو الطيب المتنبي وابن هانئ المغربي، ووصفها بأنّها «مقاتل الفصاحة، وعذرى واضح في تركها، فإنّ واضع اللّغة لم يضع عليها ألفاظا تعذب في الفم، ولا تلذّ في السّمع»[3].

لعلّ من الأسباب التي جعلت "ابن الأثير" يمقت استعمال هذه الحروف هو مخارجها وصفاتها، فالمجموعة الأسنانية الثّاء والذّال والظّاء أثناء نطقها يقع رأس اللّسان بين الأسنان العليا والسّفلى، مع عمل الحبلين الصّوتيين، وما يتطلّبه الجهاز النّطقي من صرامة في التّحكّم في اللّسان[4]، أمّا الصّاد والطّاء والظّاء فلعلّ امتعاض "ابن الأثير" من جعلها حرف رويّ فلامتياز هذه الحروف بميزات خاصّة من استعلاء وإطباق وقلقلة في الطّاء، يتجشّم الشّاعر من خلالها العناء والعنت الذي هو في غنى عنه.

---

1 - محمّد إبراهيم شادي، البلاغة الصّوتية، ص: 20.

2 - ابن الأثير، المثل السّائر، ص: 195.

3 - المصدر نفسه، ص:196..

4 - ينظر: أحمد زرقة، أسرار الحروف، ص: 84.

وعليه فإنّ " ابن الأثير " كبلاغيّ عدل عمّن سبقه من البلاغيين باعتبار أساس الفصاحة مرتهن بمخارج الحروف وصفاتها، فقد «رفض التّعويل على صفة الحروف ومخارجها في الحكم على فصاحة الكلمة أو عدم فصاحتها »[1]، واهتمّ «بالأصوات من الجهة الجمالية ويذكر له في هذا المجال أنّه عوّل على الحسّ الفنّي والسّمعي تعويلا كبيرا عند الحكم على الأصوات بالحسن أو القبح»[2]، مرجعا ذلك إلى المتلقّي وحسن وقع الصوت في سمعه.

ب/نظرة العلوي للحروف المستحسنة: ذهب "يحي بن حمزة العلوي" (745هـ) إلى تخصيص الحروف المستحسنة بالحروف الذّلقية والشّفوية في معرض حديثه عن المحاسن المتعلّقة بالحروف وأرجع سبب استحسانه للحروف الشّفوية كونها «أخف الأحرف موقعا وألذّها سماعا، وأسلسها جريا على الألسنة »[3]، وأمّا الحروف الذّلقية فلخصائص انمازت بها أيضا على غرار كون«مخرجها من ذولق اللسان وهو طرفه، ويكثر استعمالها في الكلام، وما ذاك إلا من أجل خفّة مجراها، وطيب نغمتها، وسهولتها على النّطق ... فدخول هذه الأحرف في الأبنية من أجل ترقيقها وتلطيفها، وحسنها على المسموع»[4].

يرى"يحي بن حمزة العلوي "أنّ الحروف المستحسنة هي أساس الفصاحة والبلاغة، والحروف الذّلقية والشّفوية تعدّ المرتكز الأساس لتحقيق الانسجام بين الحروف الذي يؤدّي إلى استقامة الكلام، فمتى رُوعي في تأليف الألفاظ «هذه الأحرف السّهلة، كان الكلام في نهاية العذوبة، وجرى على أسلات الألسنة بالسّلاسة وخفّة المنطق، وهذا هو المراد بكون الكلام

---

1 – محمّد إبراهيم شادي، البلاغة الصّوتية، ص: 17.

2 – محمّد إبراهيم شادي، البلاغة الصّوتية، ص:19.

*) سبق الحديث أيضا عن الحروف المستحسنة والمستقبحة عند النّحاة في المبحث الثّاني من الفصل الأوّل عند لمسات سيبويه البلاغيّة.

3 – يحي بن حمزة العلوي، الطّراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ج01، ص: 58.

4 – المصدر نفسه بتصرّف، ج01، ص: 58.

فصيحا »[1]، بخلاف نسج الكلام بالحروف المستقبحة، فإنّها لا تزيد التّأليف إلا قبحا وركاكة، على غرار لفظة (جَحيشاً) في قول تأبّط شرا: [2]

يَظَلُّ بِموماةٍ وَيُمسي بِغَيرِهـــا جَحيشاً وَيَعروري ظُهورَ المهالِكِ

ذهب"يحي بن حمزة العلوي " في معرض حديثه عن مراعاة المحاسن المتعلّقة بمفردات الألفاظ إلى أنّ لفظة "جَحيشاً"وردت قبيحة جدا مستكرهة، مخالفة لمنهاج الفصاحة والبلاغة معا، حيث نوّه إلى محاسن ألفاظ القرآن الكريم واصفا إياها بأنّها «يخفّ جريها على اللّسان، وتلذّها الأسماع، ويحلو مذاقها»[3]، لكثرة دوران الحروف الشّفوية والذّلقية في القرآن.

تعتبر الحروف المستحسنة خاصية من الخصائص التي أوْلاها"يحي بن حمزة العلوي" عناية كبيرة في تحقيق الفصاحة، إذ هي عنده من الأسس التي تعمل على الكشف عن«أسباب تميّز أسلوب القرآن عن غيره من كلام العرب »[4]، من حيث الانسجام والتّهذيب والعذوبة اللفظية.

2- الحروف الذّلقية وأثرها في تحقيق الفصاحة: تعتبر الحروف الذّلقية من المرتكزات التي اتكأ عليها البلاغيون في الوقوف على كنه الفصاحة، فصفة الإذلاق لبعض الحروف تزيد الكلام عندهم سلاسة، وتُكسبه مرونة وجريانا على اللّسان، ولذلك نجد كتب البلاغيين والقراء حافلة بالتّعرّض لثنائية الحروف الذّلقية والحروف المصمتة، والوقوف على كنه هذه الحروف في شدّ ساعد السّند البلاغي.

أ/ مفهوم الإذلاق والإصمات:

1 – يحي بن حمزة العلوي بتصرّف، الطّراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ج01، ص: 58.

2 – ديوان تأبّط شرا، تح علي ذو الفقار شاكر، دار الغرب الأسلامي، بيروت(لبنان)، ط01، (1404هـ- 1984م)، ص:152.

3 – يحي بن حمزة العلوي بتصرّف، المصدر السّابق، ج01، ص:62..

4 – محمّد إبراهيم شادي، البلاغة الصّوتية، ص: 21.

مفهوم الإذلاق: لغة: «حدّة اللّسان وبلاغته وطلاقته» [1]، و قال الخليل : اعلم أنّ الحروف الذُّلْق والشّفوية ستّة وهي: ر ل ن ف ب م، وإنّما سمّيت هذه الحروف ذُلْقا لأنّ الذّلاقة في المنطق هي إنّما هي بطرف أسلة اللّسان والشّفتين[2].

اصطلاحا: «الذلاقة النطق بطرف أسلة اللسان والشفتين» [3]، وهي أيضا: «سرعة النّطق بالحرف المذلق لخروجه من الطّرف»[4].

مفهوم الإصمات:

لغة: من مادة صمت يصمت صمتا وصمتا وصموتا وصماتا أي:أطال السكوت[5].

اصطلاحا: الحروف المصمتة هي غير حروف الذّلاقة، سُميت بذلك لأنّه صُمت عنها أن يُبنى منها كلمة رباعية أو خماسية معرّاة من حروف الذّلاقة،...، والمصمت: الذي لا جوف له[6].

ب/أهمية حروف الإذلاق في تحقيق الفصاحة

لحروف الإذلاق فائدة كبيرة في تحقيق الفصاحة عن طريق إلباس الألفاظ حلّة العذوبة والتّيسير في النّطق، ولذلك منحها البلاغيون عناية كبرى في كتبهم، فهي تعمل على تخفيف الألفاظ من ثقلها البنوي وإكسابها ملامح الحسن والجمال، «فإن كل عارف بأسرار الكلام من أيّ لغة كانت من اللغات يعلم أن إخراج المعاني في ألفاظ حسنة رائقة، يلُذُّها السمع ولا ينبو عنها الطبع، خير من إخراجها في ألفاظ قبيحة مستكرهة ينبو عنها السمع» [7]، وقد أشار"الخليل بن أحمد "إلى ميزة عظيمة لأحرف الذّلاقة أنّه في حالة خلوّها من كلمة فإنّ

1 – نبيل بن عبد الحميد بن علي، الجامع الكبير في علم التّجويد، مطبعة الفاروق الحديثة، القاهرة (مصر)، ط01، (1426هـ-2005م)، ج02، ص: 93.

2 – ينظر الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، ج01، ص: 37.

3 – ابن منظور، لسان العرب، المجلّد: 03، ج 17، ص: 1512.

4 – نبيل بن عبد الحميد بن علي، الجامع الكبير في علم التّجويد، ص: 93.

5 – ابن منظور، لسان العرب، المجلّد: 04، ج 27، ص:2492..

6 – ينظر: المصدر نفسه، المجلّد 04، ج28.، ص:2493، 2494.

7 – ابن الأثير، المثل السائر، ج01، ص: 95.

القوانين الصّوتية العربية «قد ينوب فيها حرفان معيّنان عن أحد هذه الحروف» [1]، وهذا من أشرف الأدلّة منه على فضلها في أبنية الكلام.

تعدّ ثنائية الحروف الذّلقية والمصمتة من الأدوات الإجرائية لمعرفة الدّخيل في اللغة العربية، فاللسان العربي مفرداته لا تخلو من حرف على الأقل من الحروف الذلقية وإلا أُقصيت اللفظة من مملكة اللسان العربي، وقد أرسى هذه الدِّعامة "الخليل بن أحمد" بقوله: «فإذا وردت عليك كلمة رباعية أو خماسية معراة من الحروف الذلقية أو الشفوية ولا يكون في تلك الكلمة من هذه الحروف حرف واحد أو اثنان فما فوق ذلك فاعلم أن تلك الكلمة محدثة مبتدعة ليست من كلام العرب» [2].

تعمل الحروف الذّلقية على تقوية عضد الفصاحة وتحقيق البلاغة التي هي دَيْدَن العرب وصنعتهم، فالحروف الذّلقية تعمل على انسيابية الكلام وسرعة جريانه على الألسنة، ممّا ييسّر الإسفار عن مكنونات الصدور وخوالج النفس، وما« سُمِّي الكلام الفصيح فصيحا كما أنهم سموه بيانا إلا لإعرابه عما عُبِّر به عنه وإظهاره له إظهارا جليا» [3]، ولا تتحقّق هذه المزيّة – الفصاحة– إلا بالحياد والميل عن مواطن العيِّ من الكلام وقوادحه، فخلوّ الكلام من الحروف الذلقية يجعله ثقيلا على اللسان وحشيا، ومتسما بالغرابة والثّقل.

ج/رأي "ابن سنان" في الحروف الذّلقية

بناءً على ماسبق نستشفّ الأهميّة العظمى للحروف الذّلقية التي نالت الحظوة بالبحث لدى البلاغيين، وقد منح"ابن سنان"هذه الحروف العناية الفائقة في دراسته، فقد رأى أن المفردة لا يتسنى لها رونق و لا تتصف بفصاحة ولا تكون أندى في السّمع إلا إذا اشتملت على بعض حروف الذلاقة (فر من لب)، فقد امتعض من لفظة "عساليج الشوحط"لخلوّها من حروف

[1] – الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، ج01، ص: 26.

[2] – المصدر نفسه، ج01، ص: 54

[3] – غانم قدوري، الشرح الوجيز على المقدمة الجزرية، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية، جدّة (السّعودية)، ط01، (1430هـ-2009م)، ص: 48.

الذّلاقة عدا اللام، وآثر لفظة"أغصان البان"لاشتمالها على ثلاثة أحرف ذلقية هي: النون والباء واللام، مبيّنا أنّ أغصان البان أحسن من عساليج الشوحط في السّمع[1].

لم يكن"ابن سنان" متفرّدا بالقول بأنّ خلوّ الكلام من الحروف الذّلقية يزداد شناعة ووحشية، فقد عدّ"ابن الأثير"غياب الحروف الذّلقية في تأليف النّاثر والناظم من أسباب فساد التّأليف على غرار لفظة (جحيش) التي وسمها بالمنكرة القبيحة، وارتأى العذوبة والحسن والرّونق في مرادفتها(فريد)، فذهب إلى أنّه «يجب على الناظم والناثر أن يجتنبا ما يضيق به مجال الكلام في بعض الحروف كالثاء والذال والخاء والشين والصاد والطاء والظاء والغين فإن في الحروف الباقية مندوحة عن استعمال ما لا يحسن من هذه الحروف المشار إليها» [2].

وعلى هذه الرّؤية، ومن خلال هذه الاستقراءات فإن الكلمة العربية كلما قلّت فيها حروف الذلاقة تولّت وجهتها نحو الغموض والاستثقال، وتزداد غرابة وشناعة عند البلاغيين إذا ماخلت تماما من الحروف الذلقية كقول أبي تمام في وصف صهيل الخيل:[3]

وآخِذٌ طَعْمَ السِّقَاءِ سَامِطٌ وَخَاثِرٌ عُجَالِطٍ عُكَالِط

لا يخفى على المتأمل في البيت مايعتري النّاطق من الثّقل والغرابة وغياب الحُسن والطّلاوة، لخلوّ البيت تقريبا من الأصوات الذلقية، ممّا جعل اللّفظ يتجلّى بصورة الوحشي المتوعّر الذي يمقته أهل الفصاحة والبلاغة، فقد أوصى "بشر بن المعتمر "بتجنّب هذا الصّنف من الكلام بقوله: «إيّاك والتّوعّر في الكلام، فإنّه يُسلمك إلى التّعقيد، والتّعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويمنعك من مراميك» [4].

وعليه نستشرف إلى القول بأنّ الحروف المذلقة تعمل على تخصيب أرضية المستوى اللساني الأول وهو المستوى الصوتي، فهي تُيسِّر وظيفة البناء اللغوي حتّى يتّسم بالسّهولة

[1] – ابن سنان، سر الفصاحة، ص: 65.
[2] – ابن الأثير، المثل السائر، ص: 195.
[3] – ابن سنان، سر الفصاحة، ص: 68.
[4] – المصدر نفسه، ص: 229.

والتّناسق والتّناغم، لينتج عن ذلك حُسن التّجاور والتواشُج في السلسلة الكلامية، فتذيب صلابة الحروف المصمتة وتقلّل من قوة جرسها وشدّة وقعها على غرار قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾(1).

فرغم الفضاء الصّوتي المهيمن لحرف القاف المطبق الشّديد المجهور، والمصمت المقلقل المستعلي، ذي المخرج اللهوي المحاذي للحلق لأنّه يصدر من آخر اللّسان، وتواتره في الآية عشر مرّات، إلا أنّ هيمنة الحروف المذلقة وكثرة انتشارها في الآية قلّل من وقعه وقوّة جرسه، كما أنّ خلوّ هذه الآية تقريبا من الحروف التي يضيق بها مجال التّأليف-كما قال "ابن سنان" - جعل البنية الفونيمية للآية تتميّز بالعذوبة التي هي سمة ألفاظ القرآن الكريم.

من خلال ما تقدّم من طرح نخلص إلى أنّ حروف الإذلاق ماحلّت في تركيب فونيمي إلا حسّنته وزادت من سلاسته، فتشعرك بضمان«تناغم في الإيقاع الموسيقي ينساب من الحروف المتآلفة، والكلمات المتوازنة» (2)، بخلاف الحروف المصمتة التي يؤدّي تجاورها إلى الثّقل وعسر النّطق، وقد تأمّل العلماء قوله تعالى:﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(3)، فتوصّلوا إلى أنّ تراصّ الميمات في تركيب الآية لم يزدها إلا انسجاما واتّساقا، رغم الثّقل الصّوتي الذي يتّصف به حرف الميم الجيهور، ففصاحة ألفاظ القرآن الكريم«بريئة من التّعقيد والثّقل، خفيفة على الألسنة، تجري عليها كأنّها السلسال، رقّة وصفاء وعذوبة وحلاوة» (4)، بخلاف ما ألفه العرب في تراثهم.

رابعا: جهود "عبد القاهر الجرجاني" في تقفّي ظاهرة الفصاحة

1 - سورة المائدة، الآية: 27.

2 - مُحَمّد قطب عبد العال، من جماليات التّصوير الفنّي في القرآن، كتاب شهري يصدر عن رابطة العالم الإسلامي، مكّة المكرّمة، العدد: 147، السّنة (1415هـ)، ص: 11.

3 - سورة هود، الآية: 48.

4 - يحي بن حمزة العلوي، الطّراز، ج03، ص: 224.

نأى "عبد القاهر الجرجاني" في نظرته لظاهرة الفصاحة عن غيره من البلاغيين فقد ربطها بما يُعرف ب (نظرية النّظم)، حيث أرجع سر بلاغة الإعجاز القرآني إلى بلاغة لم تعرف من قبل، مبيّنا أنّ هناك «وصفا قد تجدّد بالقرآن، وأمرا لم يوجد في غيره، ولم يُعرف قبل نزوله»[1]، من خلال كتابيه الشّهيرين دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة.

1- نظرة"الجرجاني" إلى جهود سابقيه في الفصاحة

تجلّت نظرة "عبد القاهر الجرجاني" إلى الفصاحة وفق رؤية محايثة لغيره من العلماء، فهو لم يُعر الحروف اهتماما كبيرا مثل من سبقوه، ولا جعل الفصاحة مرتبطة بالألفاظ منفردة فحسب، ولا بالمعاني وحدها، وإنّما ارتأى مذهبا جديدا تمثّل في نظرية النّظم، ويمكن الإشارة إلى جهوده في ظاهرة الفصاحة وتجلياتها في القرآن الكريم كالآتي:

أ/نظرته إلى الحروف : لا تعدو عنده سوى متتالية صوتية نطقية، أو كما قال: «نظم الحروف هو تواليها في النّطق» [2]، فاستبعد أن تكون هذه الحروف قد استعذبت وتعطرت بنزول القرآن فاستحالت أداة إجرائية مؤثرة، فاستبعد سرّ إعجاز القرآن: «أن تكون الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة قد حدث في مذاقة حروفها وأصدائها أوصاف لم تكن»[3] .

ب/نظرته إلى الألفاظ المفردة: استطرد "الجرجاني" في تكشّفه عن أسرار إعجاز القرآن، فرأى بأن الألفاظ المفردة يستحيل أن تكون مظهر إعجاز القرآن فقال: «لا تجوز أن تكون في معاني الكلم المفرد التي هي بوضع اللغة» [4]،حتى إنه عَدَّ من قال بفصاحة الألفاظ مفردة أسوأ حالا وأشنع مقالا، مستدلا في ذلك بأنّ ألفاظ القرآن الكريم متداولة بين العرب نحو: الحمد، العالمين، الرّب، الملك، الدّين.

---

1 – عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 386.

2 – دلائل الإعجاز، ص: 49.

3 – المصدر نفسه، ص: 386.

4 – المصدر نفسه، ص: 386.

ج/نظرته إلى موسيقى القرآن الكريم: نفى" الجرجاني" أن يكون فصل القول في سر إعجاز القرآن في ترتيب الحركات والسكنات في الآيات القرآنية، ولاريب أن العرب كان النّغم الموسيقي لغتهم ببحوره المتعدّدة، فرأى أن لو كان الإعجاز يرتهن إلى ثنائية الحركات والسكنات لكان هذيان مسيلمة في قوله: إنا أعطيناك الجماهر فصل لربك وجاهر، وقوله والطاحنات طحنا معجزا أيضا[1].

د/نظرته إلى الفواصل القرآنية : استبعد"الجرجاني"أيضا الاعتماد على المقاطع والفواصل منفردة أن تكون مرتكزا من مرتكزات فصاحة القرآن الكريم وإعجازه، وذهب إلى أنّ هذه الفواصل لا تعدو في وظيفتها مضاهاة عمل القوافي في الشعر، أمّا أن تُعدّ مظهرا من مظاهر الإعجاز فمردود عنده، لأن العرب لهم من الشبكة التقفوية مالا يستهان به، وإلا كان رهان الإعجاز يعتمد على الوزن، كما شنّع على طائفة دأبوا على نسج الكلام وختمه وفق بعض الفواصل القرآنية نحو: يعلمون ويومنون، ظناً منهم أنّ سر إعجاز القرآن الكريم قد يكمن في تلك النّغمات المتأتّية عن نهاية هذه الآيات [2].

هـ- نظرته إلى الاستعارة وضروب المجاز: استبعد"الجرجاني"أن يكون المجاز والاستعارة كفرسي رهان يُعتمد عليهما كمظهرين إعجازيين في القرآن الكريم، فلا يمكن أن تكون الاستعارة منفردة أو ضروب المجاز عموما بانفرادها تشكّل الأصل في الإعجاز، وإلا وُصف القرآن الكريم بوصف اقتصار البلاغة في سُور قرآنية معيّنة أو آي معدودة دون غيرها، وهذا ما ينفي صفة عموم البلاغة في كل القرآن[3].

2- مفهوم النّظم عند "الجرجاني" وأهمّ أسسه

1- ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز ، ص: 386

2- ينظر: المصدر نفسه، ص:387..

3- ينظر: المصدر نفسه، ص:393..

يبدو من خلال ما أسلفنا أنّ "الجرجاني"مقت ماذهب إليه سالفوه، ممّا دفعه لإبراز موقفه من فصاحة القرآن الكريم وبلاغته وفق نظرية النّظم التي أسّسها ونافح عنها، وقد لخّص العلماء مفهوم النّظم عنده بأنّه يتّكئ على مقوّمات هي[1]:

أ/عدم الوقوف على الأغراض الأدبية البحتة المعروفة: انتقل "الجرجاني" إلى الحديث عن أساليب النّظم البلاغية من تقديم وتأخير واستعارة، بدل الحديث عن الصّور البلاغية المباشرة، مثل التّشبيه كوصف الكريم بالبحر، بل تحدّث عن حدوث الصّورة البلاغية النّاتجة عن «تنقّل المعنى من السّذاجة إلى الحلية في التّعبير والجمال في الأداء، وحسن العرض للمعنى»[2]، كأهميّة التّقديم ودلالته في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[3] حيث أشار إلى تمام المعنى المتضمّن لكمال خشية العلماء من الله بتقديم لفظ الجلالة على العلماء، حتّى يبيّن الخطاب القرآني أنّ الغرض من هذا التّقديم تبيان الخاشون لله من هم[4].

ب/رفع سمة الفصاحة عن اللّفظة المفردة: أزاح سمة الفصاحة عن اللّفظة منفردة بذاتها، ووضع لبنة جديدة في تحقيق الفصاحة تتمثّل في تلاؤم اللفظة مع أختها السابقة أو اللاحقة، فرأى أنّه «ينبغي أن يُنظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكَلِم إخباراً، ونهياً،واستخباراً وتعجباً، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة على لفظة»[5].

يردّ "الجرجاني" من خلال هذا الرّأي على أنصار اللفظ الذين جعلوا الفصاحة متعلّقة بالألفاظ وأسّسوا لها قوانينا وجعلوا لها شروطا على غرار "ابن سنان" و"الجاحظ" فقد

---

1 – ينظر: نعيم الحمصي، فكرة إعجاز القرآن من البعثة النّبوية إلى عصرنا الحاضر، ص:87.
2 – نعيم الحمصي، فكرة إعجاز القرآن من البعثة النّبوية إلى عصرنا الحاضر، ص: 86، 87.
3 – سورة فاطر، الآية: 28.
4 – ينظر: دلائل الإعجاز، ص: 338.
5 – المصدر نفسه، ص: 44.

ذهب "الجرجاني" إلى أن لا فصاحة للفظة منفردة حتّى يتحقّق لها «مكانتها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها»[1].

ج/ثنائية اللّفظ والمعنى: حذّر"الجرجاني" من الانتصار للفظ دون المعنى أو العكس، وأكّد على ضرورة الرّابطة بين الثّنائية دون الفصل بينهما، فقد ذهب أن لا مزية للفظة دون إدراجها في التّأليف والنّظم، أي إنّه ينبغي النّظر إلى اللفظة المواتية لأداء المعنى المراد الذي تتحقّق بها حسن الدّلالة، أمّا بالنّسبة للمعاني فإنّها لا تكتسب هوى النّفس والحظّ الأوفر من ميل القلوب، إلا إذا تمكّنت من اقتناص الألفاظ التي تخدم المعاني وتزيد من وضوحها، فاللّفظة المتمكّنة المقبولة هي ما استطاعت تحقيق حسن الاتّفاق في بناء النّسق وإصابة المعنى[2].

وعليه فإنّ "الجرجاني" استعمل كلّ ما في جعبته حتّى يرسّخ ثنائية اللّفظ والمعنى بدلائل لا تنفصم وقف عليها في كتابه دلائل الإعجاز، فمواقفه تشهد أنّه «ينكر أن يكون للمعاني مزيّة في البلاغة، كما أنكر ذلك بالقياس إلى الألفاظ من حيث هي ألفاظ في مستهلّ كتابه، فالمعوّل إنّما هو على النّظم والأسلوب والصّياغة» [3]، التي تميّز بها القرآن الكريم، حتّى صارت فصاحته في أعلى درجات البلاغة.

د/أثر علم النّحو في تحقيق التّلاؤم والانسجام في بناء النّسق القرآني: أشاد بالعلاقات النّحوية وأوْلاها أهمية كبرى في نظريته لما للنّحو من قوانين صارمة وأسس مضبوطة فهي-العلاقات النّحوية- أساس التّجليات البلاغية عنده، إذ تعمل على خدمة المعنى وحسن السّبك لتحقيق التّلاؤم بين المعاني والألفاظ، عن طريق التّقديم والتّأخير أو غيرها من أسرار النّحو ومعانيه، «إذ لايكون النظم شيئا غير توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم»[4].

[1] – دلائل الإعجاز، ص: 44

[2] – عبد القاهر الجرجاني، المصدر نفسه، ص: 44، 45.

[3] – شوقي ضيف، البلاغة تطوّر وتاريخ، دار المعارف، القاهرة (مصر)، ط09، (د تا)، ص:163.

[4] – عبد القاهر الجرجاني، المصدر السّابق، ص: 384.

ثمّ يستطرد "الجرجاني" في توضيح معالم النّظم وعلاقته بعلم النّحو الذي يُعدّ اللّبنة الأساس في رفع رايته فيقول: «واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها»[1]، ليجعل من العلاقات النّحوية المتنوّعة والمتناثرة في القرآن الكريم وسيلة تتحقّق بها ظاهرة الفصاحة.

هـ/**التصور الذهني وأثره في النظم**: يعدّ العامل النّفسي والعقلي عند "الجرجاني" من العوامل الأساسية في تحقيق الفصاحة، كما يعدّ هذا الملمح وثبة منه في ربط الفصاحة والبلاغة بالعمليات الذّهنية والنّفسية، فرأى أنّ الفصاحة عموما لا يتلئبّ أمرها إلا بعد ترتيب المعاني في النّفس، ومن ثمَّ البحث عن ما يلائمها من الألفاظ، ف «النظم ليس شيئا غير توخي معان النحو بين الكلم، وأنك ترتب المعاني أولا في نفسك، ثم تحذوا على ترتيبها الألفاظ في نطقك»[2]، حتّى تضمن مواءمة الألفاظ لآثار المعاني.

أمّا الجانب العقلي عنده فإنّه يرتبط بالتّفكير، إذ إصدار الألفاظ يستجدي إمعان النّظر والتّفكير، فالاسم مجرّدا لا تُوجد له أيّ صفة إلا بعد تفعيل آليات النّحو، لجعل هذا الاسم فاعلا أو مفعولا أو مبتدأ أو خبرا أو صفة، فتتجلّى الفكرة بعد النّطق بها بصورة جلية واضحة تحت القوّة الأسلوبية التي تنشئها معاني النّحو استجابة لمتطلبات التّفكير والعقل[3].

استنادا على ما تقدّم يمكننا الوقوف على قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[4] كآية من الآيات التي وقف عليها "الجرجاني" لنلمح بجلاء معايير وأثر النّظم فيها، مُعضَّدة

---

1 – عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 81.

2 – المصدر نفسه، ص: 454.

3 – ينظر: المصدر نفسه، ص: 410.

4 – سورة هود، الآية: 44.

بأقوال المفسّرين والبلاغيين، حيث نقل القرطبي قول النّحاس في هذه الآية:«لوفُتش كلام العرب والعجم ما وجد فيه مثل هذه الآية على حسن نظمها وبلاغة رصفها واشتمال المعاني فيها »[1]، وقال عنها "الزّمخشري": «استفصح علماء البيان هذه الآية ورقصوا لها رؤوسهم بإزاء تلك المحاسن التي هي اللب وما عداها قشور»[2].

ذهب"الجرجاني" إلى أنّ هذه الآية لو فكّرت فيها ملياًّ« فتجلّى لك منها الإعجاز، وبهرك الذي ترى وتسمع، أنّك لم تجد ما وجدت من المزيّة الظّاهرة، والفضيلة القاهرة، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض»[3]، كالنّسيج الذي لا يقبل الانفصام، فهو يرى أن هذه الآية بلغت من الإعجاز غايتها ويرجع ذلك لارتباط وتعلق وتناسب الكلم بعضه ببعض وكيفية تأدية اللفظ لوظيفته الناتج عن حسن السّبك والملاءمة، هذا طبعا دون إغفال العوامل النحوية المفضية إلى البناء النسقي المعجز، فهو ينكر أن تكون اللفظة المتفردة دالة في ذاتها، إذ«الألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا من التأليف، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب» [4].

وإلى سبر أغوار بلاغة الآية ذهب إلى أنّ من مبدأ العظمة أن نوديت الأرض نداء العاقل، ثمّ أُمرت ب (يا) دون (أيّ)، بخلاف(يا أيتها الأرض)، ونوه بإضافة الماء إلى الأرض (ماءك)، وقابل نداء الأرض بما يقابلها ويخصها وهو نداء السّماء بقوله و (يا سماء أقلعي)، ثم انتقل الباري إلى تصوير بداية نهاية المأساة بقوله: (وغيض الماء، وقضي الأمر) على وزن (فُعِل) ما يوحي أن لا شيء وقع من غيض الماء وهو ذهابه ونقصه إلا بقدرة قادر وبأمر آمر وهو الله.

1- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج11، ص: 126.

2 – الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج03، ص: 203.

3 – عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 45.

4 – عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تح محمود محمّد شاكر، مطبعة دار المدني، القاهرة (مصر)، ط 01، (1412هـ-1991م)، ص: 04.

هذا فضلا عن الجرس والتّجانس بين ألفاظ الآية نحو: (ابْلَعِي/أَقْلِعِي)، ثمّ ختم الآية بصورة مشرقة توحي بغد جديد بقوله:(واستوت على الجودي)، وأضمر السفينة لإبقاء الدلالة على جسامة وعِظَم الخطب، وأسدى روعة بيانية بجعل خواتم الآية شبيهة بمبادئها وتشبيه أعجازها بهواديها بقوله : (وقيل)، وهذا كلّه دالٌّ على الاتّساق النّاجم عن إحكام في الأصوات المسموعة، وملاءمة الألفاظ للمعاني[1].

إنّ ما أشار إليه "الجرجاني " من البلاغة والإعجاز في هذه الآية، ناجم عن تطبيق لنظرية النّظم التي أسّسها، فالمتدبّر في الآية يرى ارتباط وتعلق الكلم بعضه ببعض، وكيفية أداء اللفظ لوظيفته الناتج عن السبك والملاءمة، هذا طبعا دون إغفال العوامل النحوية واللّمسات البلاغية، ممّا أدّى إلى بناء نسقي معجز، انطلاقا من الجانب الصوتي المكوّن لألفاظ الآية، إلى غاية رسم صورة ذهنية لهذا المشهد الرّهيب ، وهذا ما يعكس «الصّورة الفنّية عنده، فهي لا تنفصل عن السّياق الذي تتنزّل فيه، وهذا التّصوّر ينمّ عن فهم عميق لما يحدث بين عناصر اللّغة من تفاعل عندما ينتظمها الكلام»[2]، فينتج في نسق عال من الانصهار والتمازج.

1 – ينظر: عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص: 45، 46، والزّمخشري، الكشّاف، ج03، ص: 203.

2 – حمّادي صمّود، التّفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوّره إلى القرن السّادس، ص: 413.

المبحث الثّاني: الظّواهر الصّوتية عند البلاغيين المفسّرين

استشرف البلاغيون المفسّرون للإحاطة بمواطن الإعجاز الصّوتي في القرآن الكريم، فمعينه الذي لا ينضب وسحر بلاغته الذي لا ينتهي، كان كفيلا أن يجعل المنقّبين في إعجازه من البلاغيين يتوالوا فُرادى وزُرافات، فما من عصر يمرّ إلا وتزداد الحاجة للبحث عن أسرار إعجاز القرآن والكشف عن دُرره ولآلئه؛ فكان للبلاغيين المفسّرين بصمة خاصّة في وُلوج هذا الصّرح البلاغي والتّدبّر في مظاهر إعجازه، فظهرت لهم سابقة في تناوله والإحاطة بألوان جديدة من فيض سحر بلاغته، عن طريق تخطّي عتبة من سبقوهم من النّحاة، ومن أتى بعدهم من البلاغيين ممّن بحثوا في سرّ فصاحته.

تعدّ دراسات البلاغيين المفسّرين للظّواهر الصّوتية في القرآن الكريم منعرجا جديدا في البحث عن بلاغته وسرّ إعجازه، فإذا كانت دراسات "الجاحظ"و"ابن سنان الخفّاجي " و"عبد القاهر الجرجاني " مقاربة ومقارنة بين فصاحة القرآن الكريم والتّراث العربي، فإنّ البلاغيين المفسّرين كانت سهام جهودهم تصبّ في عمق النّص القرآني، ممّا جعلهم يستشرفون لظواهر جديدة اشتمل عليها القرآن الكريم، لم تُعرف لدى العرب من قبلُ.

حصر "الباقلاني"وجوه البلاغة في عشرة وجوه هي: التّلاؤم، الفواصل، التّجانس التّصريف، التّضمين، المبالغة، حسن البيان، الإيجاز، التّشبيه، الاستعارة [1]، إلا أننّا سنقف على الثّلاثة الأولى منها لتواشجها مع الجانب الصّوتي، من حيث جرس الحروف والإيقاع الموسيقى للنّصّ القرآني، إضافة إلى التّعرّض إلى فواتح السّور القرآنية ولا سيما الحروف المقطّعة بغية الوقوف على أبعادها ومدلولاتها الصّوتية.

[1] - ينظر الباقلاني، إعجاز القرآن، ص: 396.

الظّاهرة الأولى: ظاهرة التّلاؤم الصّوتي في القرآن الكريم

حظيت ظاهرة التّلاؤم الصّوتي كملمح صوتي بلاغي في القرآن الكريم بالدّراسة لدى البلاغيين المفسّرين ، فهي تزيد النّص القرآني إشراقا وتلألؤا، وتضفي عليه بلاغة ناصعة لا تضاهيها أيّ بلاغة، فاشرأبّت الأعناق نحو هذه الظّاهرة الصّوتية التي شغلت هم البلاغيين المفسّرين، فانبروا لسبر أغوارها واستكناه مظاهر إعجازها، إذ إنّهم عكفوا على دراستها لِما لها من مزيّة تعمل على إظهار الآيات أو السّور القرآنية متلائمة في أعلى درجات الانسجام والاتّساق، عن طريق التّلاؤم الصّوتي الذي تتجلّى فائدته في تحقيق«حسن الكلام في السّمع وسهولته في اللفظ، وتقبّل المعنى له في النّفس، لما يرِد عليها من حسن الصّورة وطريقة الدّلالة»[1]، مثلما تقتضيه قوانين البلاغة الصّوتية وأسسها.

مفهوم التّلاؤم الصّوتي

مفهوم التلاؤم: عرّف كلّ من "الباقلاني"و"الرّماني"(386هـ) التّلاؤم بأنّه: نقيض التّنافر، وأنّه تعديل الحروف في التأليف، والتّأليف على ثلاثة أوجه: متنافر، متلائم في الطبقة الوسطى، ومتلائم في الطبقة العليا [2]، وذهب "الباقلاني"إلى تعريف أدقّ بقوله: «التّلاؤم حسن الكلام في السّمع، وسهولته في اللّفظ، ووقع المعنى في القلب، وذلك كالخطّ الحسن والبيان الشّافي، والمتنافر كالخطّ القبيح، فإذا انضاف إلى التّلاؤم حسن البيان وصحّة البرهان في أعلى الطّبقات، ظهر الإعجاز لمن كان جيّد الطّبع، وبصيرا بجواهر الكلام»[3].

---

1 – محمّد حسن شرشر، البناء الصّوتي في البيان القرآني، دار الطّباعة المحمّدية، القاهرة (مصر)، ط01، (1408هـ-1988م) ، ص:07.

2 – ينظر: الرُّماني، النّكت في إعجاز القرآن، من كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح مُحَمَّد خلف الله ومُحَمَّد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة (مصر)، ط03، ص: 94، 95. والباقلاني، إعجاز القرآن، ص: 407.

3 – الباقلاني، إعجاز القرآن، ص: 408.

مفهوم الصّوت

1 -الصّوت لغةً: الصّاد والواو والتّاء أصلٌ صحيح، وهو الصَّوت، وهو جنسٌ لكلِّ ما وَقَرَ في أُذنِ السَّامع، يقال هذا صوتُ زَيد، ورجل صيِّت، إذا كان شديدَ الصَّوت؛ وصائتٌ إذا صاح[1].

أمّا "ابن منظور" فقد كانت له نظرة محايثة بربط الصّوت بالجرس، فعرّفه بقوله : الصوت: الجرس، وجمعه أصوات، وقال"ابن السّكّيت"الصّوت: صوت الإنسان وغيره والصائت: الصائح، ورجل صيّت :أي شديد الصوت[2].

2-الصّوت اصطلاحا: عرّفه "ابن جنّي "بقوله: الصّوت «عَرَضٌ يخرج مع النفس مستطيلاً متصلاً حتى يعرض له في الحلق والفم والشّفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته، فيسمى المقطع أينما عُرِض له حرفاً، وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها»[3].

من خلال هذه التّعاريف نستشفّ بأنّ التلاؤم الصّوتي هو تعديلُ وتصرّف في الحروف وتأليفها، وتقريب بعضها من بعض، بغية المحافظة على وتيرة نطقية معيّنة للأصوات؛ حتّى يتحقّق من خلال هذا التّعديل بناء «النّسيج الصّوتي للمفردات التي تتشكّل منها الجملة حيث تتكوّن الكلمة في التّشكيل المنسجم من حروف ذات صفات معيّنة، تتناغم مع المعنى والجوّ الذي يدور في إطاره النّص»[4].

كما أنّ تحقّقه مرهون بسهولة اللّفظ المتقبّل في السّمع، المتجلّي أثره في القلب، فبه- التّلاؤم الصّوتي- يُماط اللثام عن الكلام، ويُدرك فحواه من أقرب الطّرق الموصلة إليه، وهو أحدُ شروط البلاغة، لأن الكلام لا تتحقق فيه البلاغة إذا تنافرت حروفُه، لأنه يستثقل على اللسان

[1] - ابن فارس(أحمد بن فارس بن زكرياء)، معجم مقاييس اللغة، تح عبد السلام مُحَّد هارون، دار الفكر للطباعة والنّشر، ط(1979)، ص: 318،319.

[2] - ابن منظور، لسان العرب، المجلّد 04 ، ج27، ص: 2521.

[3] - ابن جنّي، سر صناعة الإعراب، تح حسن هنداوي، (دط)، (دتا)، ص: 06.

[4] - محمّد إبراهيم شادي، البلاغة الصّوتية في القرآن الكريم، ص: 50.

والأذن معا، ويُبهم معناه، كما أنّه يتواشج «مع الفواصل والتّجانس في أنّ ثلاثتها تنظر إلى البناء الصّوتي في القرآن، وتلفت إلى ما فيه من التّفوّق والتّأثير، والعناية بمذاقة الحروف العربية وتعديل مزاجها» [1].

1- عوامل التّلاؤم الصّوتي في القرآن وملامحه

تنماز لغة القرآن الكريم بالتلاؤم والانسجام التّام بين الأصوات المكونة لآيات القرآن الكريم وسُوره، انطلاقا من المستوى الصّوتي الذي يظهر أثره جليا في الألفاظ المكتسيّة بجلباب الانسجام والاتّساق، فتكتسب هذه الألفاظ عذوبة في النّطق، وسهولة ومرونة في الأداء، تُلمح بجلاء أثناء تلاوة القرآن بيسر وخفّة دون عناء، أشار إليها القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾[2]، بخلاف ما كان عليه لسان العرب في الجاهلية، حيث كان يتضمّن المفردات المستثقلة على النّطق، التي تنخر صلب التّلاؤم وتعصف بانسيابية الكلام ويمكننا الوقوف على العوامل التي أكسبت النّص القرآني ظاهرة التّلاؤم مع التّمثيل كالآتي:

1-1- **المخارج والصّفات:** تُصنّف مخارج الحروف وصفاتها من أهمّ الأسس التي تعمل على تفعيل التّلاؤم من عدمه، وإيجاد كيانه من غيابه، ولقد كان للمنقّبين عن سرّ تلاؤم القرآن الكريم صولات وجولات بين آياته وسوره ودرره؛ وممّن سبق في هذه البحوث "الخليل بن أحمد الفراهيدي" حين ذهب في تأسيس قوانينه الصّوتية إلى عدّة مرتكزات لاحِوَل عنها لتحقيق التّلاؤم الصّوتي والعدول عن التّنافر، إذ بيّن بأنّ هناك عوامل صوتية ترتهن إلى مخارج الحروف وصفاتها، لابدّ من مجانبتها حتّى يتحقّق التّلاؤم الصّوتي، حيث تلقّف البلاغيون بعده هذا الأساس وتوسّعوا في النّظر فيه.

---

[1] - محمّد محمّد أبو موسى، الإعجاز البلاغي لتراث أهل العلم، مكتبة وهبة، القاهرة (مصر)، ط 02، (1418هـ-1997م)، ص: 139.

[2] - سورة القمر، الآية:17.

يعمل اتّحاد المخارج أو تقاربها إلى خرق التلاؤم الصّوتي ويعكر صفو الكلمة ويجعلها متنافرة، بل إنّ من محاسن الكلمة وحسن بنائها-كما ذهب الخليل- ألا تتجاور بعض الأصوات مع بعض، كالحاء مع العين، والقاف مع الكاف[1].

إنّ ماذهب إليه "الخليل" كان إشعاعا لتوالي الدّراسات في هذه الظّواهر التي أرسى دعائمها، فقد كانت روح الوثوقية في "الخليل" تهيمن على البلاغيين بعده، حيث ذهب "الرّماني"في بحثه عن جماليات التّلاؤم الصّوتي في القرآن الكريم إلى ما استند عليه الخليل، حيث رأى بأنّ التّقارب في المخارج والتّشابه في الصّ فات يؤدّي إلى قبح الكلام وشناعته، ويذهب بسلاستِه ونصاعته، بخلاف الكلام المكوّن من الم خارج المتباعدة والصّفات المتمايزة، فبيّن بأنّ تنافر الحروف إمّا أن يقع من بعدٍ شديدٍ فيكون كالطّفر، وإمّا أن يكون ناجما عن قربٍ شديد فيكون شأن الحروف كالماشي المقيّد، لأنّه بمنزلة رفع اللّسان وردّه لمكانه، ممّا استدعى تفعيل الظّواهر الصّوتية الأخرى كالإبدال والإدغام لتجنّب الثّقل في الكلام[2].

تعتبر مخارج الحروف وصفاتها من الأسس الجليلة التي تُكسب اللفظ تلاؤما وانسجاما وتزيد الكلام جمالا وإشراقا، حتّى يكون كالكتلة الواحدة التي لا تقبل الانفصام، وقد امتازت الآيات القرآنية بهذه البصمة، واكتست هذه الحلّة، فلو أنّنا «استعرضنا آيات القرآن الكريم من أوّل سورة الفاتحة إلى آخر سورة النّاس على تعريف الفصاحة والبلاغة، وشروط الألفاظ الفصيحة والكلام البليغ، لوجدنا كلّ آية قد تحقّقت فيها الفصاحة والبلاغة في أبهى صورهما ولوجدنا أنّ معاني الكلمات تنساب إلى القلب قبل أن تبهرنا الألفاظ بجمالها السّاحر »[3] النّاجم عن حسن توزيع الحروف وتعديل مخارجها.

1 – الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، ج01، ص: 26

2 – ينظر: الرّماني، النّكت في إعجاز القرآن، ص: 96.

3 – مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ص:127.

عطفا على هذا يمكننا القول بأنّ التّلاؤم الصّوتي يتجلّى بوضوح في ألفاظ القرآن الكريم، فلا تجد فيه ألفاظا وحشية غريبة، ولا معقّدة ممقوتة [*]، لأثر التّعديل الذي يطرأ على الحروف، فيعمل على تحقيق المواءمة بينها عن طريق الظّواهر الصّوتية المختلفة، كالإدغام والإبدال والإقلاب والحذف، فنجد في القرآن الكريم مثلا أفعالا نحو: (اصطبر)في قوله تعالى:﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[1]، وكذلك في مادة (إدَّكر)في قوله تعالى:﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾[2] ترهن لإجراءات صوتية بحتة. خضعت هذه الأفعال الواردة على وزن "افتعل"لآلية صوتية هي الإبدال، للوصول إلى الجمالية الذوقية عن طريق الاستبدالات بهدف التّخفيف من شحنات الصّفات المتباينة وللمحافظة على تلاؤم الحروف فيما كان على وزن (افتعل) يُلجأُ إلى استبدال الصاد المستعلية المطبقة نحو التاء المهموسة الضعيفة، بالبحث في الحقل الصّوتي عن ما يقوم مقام التّاء الشديدة المهموسة، والمستفلة المنفتحة ، ويحسن التّجاور مع الصّاد، ذي الصّفات المتعدّدة كالهمس والإستعلاء، والإصمات والإطباق، وهذا يسفر عن استعمال القرآن الكريم لآلية من الآليات الصّوتية التي تزيده تلاؤما وانسجاما.

1-2- تناسب الألفاظ: تتّسم ألفاظ القرآن الكريم بالتّناسب في توزيعها، شأنها شأن الحروف في ذلك، فالانسجام والتّناسق يظهر جليا في ألفاظه، ويُلمح ذلك في انضباط النّغم الموسيقي أثناء التّلاوة، ممّا جعل "الرّماني"يصنّفه في المتلائم من الطّبقة العليا، إذ يقول«والمتلائم في الطبقة العليا القرآن كله، وذلك بيّن لمن تأمله، والفرق بينه وبين غيره من الكلام في تلاؤم

*) أشرنا إلى شروط فصاحة اللّفظة عند الجاحظ وابن سنان الخفّاجي في المبحث الأوّل من الفصل الثّاني، وذكرنا فيه الكثير من الألفاظ الوحشية .

1 - سورة طه، الآية: 132.

2 - سورة يوسف، الآية: 45.

الحروف على نحو من الفرق بين المتنافر والمتلائم في الطبقة الوسطى، وبعض الناس أشدَّ إحساساً بذلك وفطنة له من بعض»[1].

ذهب "الرّماني" في تصنيفه هذا للقرآن الكريم بوسمه أنّه في أعلى درجات التّلاؤم، إلى إضفاء صفة تدلّ على الشّموخ البلاغي للنّص القرآني تتمثّل في الإحساس لدى القارئ، أي أنّ لألفاظ القرآن الكريم من الدّلالة الإيحائية والتّأثير والوقع، مالا تستطيع أي لفظة أخرى أن تقوم مقام اللّفظة الموضوعة بالوحي، حيث تستمدّ اللفظة القرآنية قوّتها–حسبه–من خلال الحروف المكوّنة للّفظة [2]، فتدرك جزالتها وشرفها عن طريق «التّلاؤم في التّعديل من غير بعد شديد أو قرب شديد، وذلك يظهر ب سهولته على اللّسان، وحسنه في الأسماع، وتقبّله في الطّباع» [3]، عن طريق الذّوق والإحساس.

تتموقع ألفاظ القرآن الكريم وفق السّياق العام للآية من حيث المعنى والمبنى، فمن حيث المبنى تترسّم وفق فاعلية المستوى الصّوتي المرتكِز على المخارج والصّفات؛ أمّا من حيث المعنى فإنّها ترتهن إلى انتقاء الأصوات الملائمة للمعنى، حيث ذهب "ابن الأثير" للإشارة إلى وقع الألفاظ القويّة في السّمع وأثرها فيه بقوله: «اعلم أن الألفاظ تجري من السمع مجرى الأشخاص من البصر، فالألفاظ الجزلة تُتخيل في السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار والألفاظ الرقيقة تُتخيل كأشخاص ذي دماثة ولين أخلاق ولطافة مزاج»[4].

تتلاءم ألفاظ القرآن الكريم وفق السّياق العام للآيات القرآنية وفق وجهتين:

أ/وجهة الإيقاع والنّغم: تعمل الرّوافد الإيقاعية المختلفة في النّص القرآني كالجرس والفواصل القرآنية، والنّغم المتباين كوسيلة للحفاظ على تلاؤم الجوّ العام للآية أو السّورة القرآنية وانسجامها، فعند الوقوف على كثير من الآيات القرآنية نجد ألفاظا يظهر في البداية أنّه يمكن

1 – الرّماني، النّكت في إعجاز القرآن، من كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص: 95.
2 – ينظر: محمّد إبراهيم شادي، البلاغة الصّوتية في القرآن الكريم ، ص: 16.
3 – الرّماني، المصدر السّابق، ص:96.
4 – ابن الأثير، المثل السّائر، ج01، ص: 195.

الاستغناء عنها، إلا أنّ الحقيقة بخلاف ذلك، لأنّ اللفظة في القرآن الكريم أثبتت هيمنتها اللغوية، وقوّتها التّأثيرية كما قال "الرّافعي" مبيّنا جزالة الألفاظ القرآنية أمام صُنّاع اللفظ والبلاغة الذين نزل القرآن بلسانهم بقوله: «لما قرئ عليهم القرآن رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جمله، ألحانًا لغوية رائعة، كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة، قراءتها في توقيعها، فلم يفتهم هذا المعنى، وأنه أمر لا قِبل لهم به، وكان ذلك أبين في عجزهم»[1] عن الإتيان بمثله.

يتجلّى لقارئ القرآن الكريم التّلاؤم الصّوتي الذي تستسيغه الأذن ويستهويه القلب من خلال الإيقاع، النّاجم عن سبك الألفاظ وتوظيف الحروف المناسبة لها، ممّا يجعل الآيات منسجمة متناسقة في ما بينها تحت وقع إيقاعي معيّن، يجعلها تنساب بعذوبة وسلاسة على الألسنة، ويمكننا الوقوف على التّلاؤم الصّوتي في القرآن الكريم من خلال بعض الآيات كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا * يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾[2].

لا يعترض التّاليَ لهذه الآيات القرآنية أدنى شكّ من التماس التّلاؤم الصّوتي يهيمن عليها أثناء تلاوتها، ففي جانب الحروف نلاحظ التّلاؤم يتحقّق لغياب التّنافر في الآيات فألفاظ الآيات مكوّنة من أصوات متناسبة في المخارج من حيث القرب والبعد، ممّا مكّن الألفاظ أن تتحلّى بدرجة كبيرة من التّناسق والانسجام، وقد أشار الرّافعي لجلالة قدر الألفاظ القرآنية بأنّها تتكوّن: «من حروفٍ لو سقط واحدٌ منها أو أُبدل بغيره، أو أُقحم معه حرفٌ آخر لكان ذلك خللا بيّنا، أو ضُعفا ظاهرا في نسق الوزن وجرس النّغمة، وفي حسّ السّمع وذوق

[1] – مصطفى صادق الرّافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النّبوية، دار الكتاب العربي، بيروت (لبنان)، ط09، (1393هـ-1973م)، ص: 214.

[2] – سورة الأحزاب، الآيات: 28- 30.

اللسان، وفي انسجام العبارة وبراعة المخرج وتساند الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض »[1]، محقّقة بذلك تلاؤما صوتيا، وانسجاما موسيقيا، وقوّة تأثيرية في المتلقّي.

وممّا زاد من تحقيق التّلاؤم الصّوتي في الآيات، المقاطع المفتوحة (ص ع ع)في نهاية كلّ آية كملمح من ملامح «البحث الصّوتي الحديث، معرفة بحقائق صوتية تتجاوز الأصوات المفردة إلى علاقاتها في بنية اللغة»[2]، حيث عملت هذه المقاطع المفتوحة على تحقيق الانسجام بتوفير إيقاع مميّز لنهاية الآيات، حيث إنّ«لكل آية مقطع تنتهي به هو الفاصلة»[3]، يحمل في جنباته التأثير الصّوتي على المتلقي، وهو إيقاع هائل عميق هيمن على جلّ آيات السّورة بدءا وختاما حتّى يتناسق بدؤها وختامها، مع كلّ موضوعها واتجاهها[4].

ب/وجهة المعنى والدّلالة: من مظاهر إعجاز القرآن الكريم أنّه يتنوّع في تناوله للألفاظ التي تظهر مترادفة نحو الرّب والإله، إلا أنّ هذا التّوظيف في القرآن الكريم وفق مقتضيات المقام، لأنّه«ما من لفظ فيه ممكن أن يقوم غيره مقامه »[5] ، نحو لفظة(الجوف)في قوله تعالى:﴿مَاجَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾[6]، ولفظة (البطن) في قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾[7]، ممّا يوحي أنّ التّلاؤم في توظيف الألفاظ يقتضي وضعها محلّها الذي لا تقوم

---

1 – مصطفى صادق الرّافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، ص: 217.

2 – محمود فهمي حجازي، مدخل إلى علم اللّغة، دار قباء للطّباعة و النّشر والتّوزيع، القاهرة(مصر)، (دط)، ص: 80.

3 – مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ص: 142.

4 – ينظر: سيّد قطب، في ظلال القرآن، دار الشّروق، القاهرة (مصر)، ط 07، (1398هـ–1978م)، ج05، ص: 2886.

5 – بنت الشّاطئ، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، دار المعارف القاهرة (مصر). ط 03، (1404هـ–1984م)، ج01، ص: 210.

6 – سورة الأحزاب، الآية: 04.

7 – سورة آل عمران، الآية: 35.

بها غيرها رغم التّقارب الشّديد والتّشابه بين اللّفظتين في المبنى والمعنى، وهذا من تمام قوّة السّبك والحرص على التّلاؤم في المعنى[1].

وعليه نرى ألفاظ القرآن الكريم تنأى عن المألوف ممّا عُهد من الألفاظ المتنافرة المستهجنة في كلام العرب، أي أنّ الله عزّ وجلّ «سهّل سبيله، فهو خارج عن الوحشي المستكره، والغريب المستنكر، والصّنعة المتكلّفة» [2]، ممّا منح ألفاظ القرآن ا لسهولة في النّطق لسلاستها وخفتها على اللسان، فتجلّى النّص القرآني بتكامل أسلوبي وبناء نسقي عجيب يجعله متلائما ومنسجما في أعلى درجات التّلاؤم، كأنه مادة انصهرت وامتزجت وأنتجت وحدة متكاملة لا تقبل التجزيء ولا الانفصام.

ممّا ذكره"عبد القاهر ا لجرجاني" ونوّه بقوّة تماسكه وشدّة تلاؤمه وجمال لفظه ، قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[3]، حيث إنّ الآية على غرار غرار آي القرآن الكريم خالية من الألفاظ المعقّدة، ولكنّها بلغت بألفاظها من الفصاحة والبلاغة أعلى درجاتها، عن طريق تفعيل العلاقات النّحوية، وكيف أنّها تعمل على شدّ الكلام بعضه ببعض حتّى يغدو من البلاغة بمكان.

وردت لفظة (الحياة) نكرة فأكسبت الخطاب القرآني «حُسنا وروعة ولُطف موقع لا يُقادَرُ قدْرهُ، وتجدك تعدم ذلك مع التّعريف، وتخرج عن الأريحية والأنس [4] بهذا التّنكير، الذي يُشيرُ إلى حرص الكافرين على الحياة والتّشبّث بها مهما كانت هذه الحياة.

ومن الألفاظ القرآنية التي تتحقّق بها الدّلالة وينجلي المعنى لفظة (اثَّاقَلْتُمْ) في قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ﴾[5]

1 – ينظر: المثل السّائر، ج01، ص: 164.

2 – مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ص: 95.

3 – سورة البقرة، الآية: 179.

4 – دلائل الإعجاز، ص: 286.

5– سورة التّوبة، الآية: 38.

حيث تترسّم معالم هذه اللّفظة للدّلالة على أمر معيّن، فهي تُحاكي تقاعس وتثاقل بعض المؤمنين ومحبّتهم للخلود إلى الدّعة والرّاحة، بأداء فنّي يحاكي صدى الأصوات المكوّنة لبنية اللفظة، من الثّقل والتّشديد على حرف الثّاء اللّثوي الذي يومئ للخلود والنّزوع للأرض فاقترانها بحرف المدّ المجاور لحرف القاف الشّديد المجهور المطبق، والمستعلي المصمت المقلقل، ثمّ التّاء المهموسة، فالميم المجهورة المذلقة، حيث إنّ هذه الصّفات المتباينة للّفظة الثّقيلة في النّطق تحاكي بطء المتثاقلين في الاستجابة لأمر الله ورسوله[1].

وبناءً على ما بين أيدينا من جهود العلماء ونظرتهم في التّلاؤم الصّوتي في القرآن الكريم وروافد هذا التّلاؤم الصّوتي، فإنّ خير ما يُترجم انسجام الأنساق الصّوتية في القرآن الكريم قول"الخطابي" (388هـ) في تبيانه للكلام المسبوك، إذ بيّن بأنّه يقوم على ثلاثة أشياء هي: «لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم، و إذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظما أحسن تأليفا وأشدّ تلاؤما وتشاكلا من نظمه» [2].

الظّاهرة الثّانية: التّجانس الصّوتي في القرآن الكريم

تكلّم البلاغيون والمفسّرون عن هذه الظّاهرة الصّوتية لما تكتسبه من الأهمية في بناء النّسيج القرآني والعمل على سبكه، فالتّجانس الصّوتي في القرآن الكريم يعمل على إضفاء وتيرة موسيقية عذبة تزيد الخطاب القرآني جمالا واتّساقا ، فهي كالرّافد الإيقاعي يرسّخ مدى فاعلية الأنساق الصّوتية التّأثيرية في القرآن الكريم، ويزيد من جماليّة الأسلوب البلاغي القرآني وأداءاته الفنّية التي لا نظير لها.

---

[1] – ينظر :أحمد مختار عمر، لغة القرآن، دراسة توثيقية فنّية، مؤسّسة الكويت للتّقدّم العلمي، الكويت، ط 02، (1418هـ-1997م)، ص: 142.

[2] – الخطّابي، إعجاز القرآن، من كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص:27.

1- مفهوم التّجانس الصّوتي: لغة: مصدر تجانس، يتجانس، تجانسا فهو متجانس تجانس الشّيئان: تماثلا، إتّحدا في الجنس والصّفات[1].

اصطلاحا: التّجانس الصّوتي هو تآلف، توافق سمات الكلام من إيقاع ونبر واختيار ألفاظ لما فيها من معان وأصوات متجانسة بحيث يصبح حسن الوقع في السَّمع أو خلاّبًا للذِّهن ،كما قد يعرّف بأنّه: تكرار صوت أو أكثر في الكلمات المتوالية، وهو مظهر من مظاهر موسيقى الكلام[2].

أمّا "الباقلاّني" فقد عرّف التّجانس بقوله: بيان بأنواع الكلام الذي يجمعه أصل واحد[3].

بناء على هذه التّعاريف نستخلص أنّ التجانس الصّوتي هو تأليف الكلام الذي يتضمّن تقاربا وتماثلا في صفاته، حتّى يحقّق إيقاعا معيّنا ومعنى قريبا إلى الأفهام.

2- أنواع التّجانس الصّوتي

ذهب "الباقلاني" إلى القول بأنّ أنواع التّجانس الصّوتي لونين هما مزاوجة ومناسبة.

أ/المزاوجة: مثّل الباقلاني للمزاوجة بقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾[4]، وأشار الرّماني إلى أنّ الغرض من الأمر بالاعتداء في قوله: (فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ) ، إلى أنّه استعارة للدّلالة على مقدار القصاص، فكانت جمالية التّوزيع الصّوتي تقتضي الاختفاء خلف الاستعارة بغية مزاوجة الكلام بحسن البيان، كما أنّها متعلّقة بالجزاء[5].

ب/ المناسبة: عدّها "الرّماني" من فنون المعاني التي ترجع لأصل واحدٍ، أي أن الألفاظ الواردة في هذا اللّون تصبّ في دلالة واحدة عامّة، وقد مثّل لذلك بقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا

---

1 - ينظر: أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربيّة المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة(مصر)، ط 01، (1429هـ-2008م): ج02، ص: 404.

2 - المرجع نفسه، ص: 405.

3 - الباقلاّني، إعجاز القرآن، ص: 411.

4 - سورة البقرة، الآية: 194.

5 - ينظر: الرّماني، النّكت في إعجاز القرآن، من كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص:99.

يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾[1]، إذ أثبت للقلوب والأبصار التّقلّب، إلا أنّ تقلّب القلوب بالخواطر، بينما تقلّب الأبصار بالمناظر، فمدار الالتقاء في الدّلالة العامّة يتمثّل في أصل واحد هو التّقلّب[2].

3- نماذج من التّجانس الصّوتي في القرآن الكريم

تتجلّى في القرآن الكريم ملامح التّجانس الصّوتي وتهيمن على أسلوبه في كثير من الآيات القرآنية بإيقاع مميّز، حيث «يكاد يكون التّناسب أو الانسجام المبدأ الأوّل الذي يستمدّ منه الإيقاع ماهيته »[3]، عن طريق الظّواهر الصّوتية المختلفة، ويمكننا الوقوف على بعض هذه الملامح من خلال تقفّيها عبر مظهرين هما:

3-1- مظاهر التّجانس الصّوتي عند القرّاء والمجوّدين: نلمح التّجانس الصّوتي لدى القرّاء والمجوّدين من خلال الظّواهر الصّوتية التي تعرّضوا لها، فنلحظ التّوافق في رصف الحروف القرآنية ووضعها وفق مخارجها وصفاتها، ممّا يضمن للآية عذوبتها الموسيقية وتوازنها الإيقاعي ويمكن التّمثيل لذلك ببعض الظّواهر الصّوتية التي اعتنى بها المجوّدون كالآتي:

أ/الاستعلاء والتّفخيم: تحافظ الآيات القرآنية على وتيرتها الإيقاعية وفق ما يقتضيه مقام التّفخيم والاستعلاء نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾[4] حيث توالت الحروف المستعلية المفخّمة الصّاد والطّاء والقاف وهي أصوات مستعلية مطبقة، تحاكي فصل الخطاب ومحاجّة النّبيّ محمّد عليه السّلام للنّصارى في تبيان شأن عيسى عليه السّلام، فلا غرو أن تأتي هذه الحروف بصفاتها المستعلية للدّلالة على علوّ الله وقدرته أن يتّخذ صاحبة أو ولدا وهذا مظهر جليل من مظاهر التّجانس الصّوتي، إذ تجلّى «التّنسيق في تأليف

---

1 - سورة النّور، الآية: 37.

2 - ينظر: الرُّماني، النّكت في إعجاز القرآن، من كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص: 100.

3 - ماجد النّجار، الدّلالة الصّوتية في القرآن الكريم، دار نجف أصفهان، أصفهان، ط01، (2007م)، ص: 551.

4 - سورة آل عمران، الآية: 51.

العبارات، بتخيّر الألفاظ، ثمّ نظمها في نسقٍ خاص، يبلغ في الفصاحة أعلى درجاتها » [1]، عن طريق تراصّ الحروف المستعلية المفخّمة الدّالّة على علوّ الله وقوّته.

ومن ملامح التّجانس الصّوتي وتحقيق الدّلالة وحضور الأصوات المفخّمة(خص ضغط قظ) قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[2]، حيث نرى هيمنة جلّ الأصوات المفخّمة(القاف، الضّاد، الغين، القاف، الظّاء) على نسق الآية، فضلا عن تعانق هذه الأصوات المفخّمة مع أصوات أخرى ذات إيقاعٍ قويّ وجرس شديدٍ، كالحروف المجهورة (كاللام، الرّاء، الباء، العين، الميم، الجيم، الدّال، النّون)، والحروف الشّديدة (كالهمزة، الباء الجيم،التّاء، الدّال، الكاف)، إذ إنّ هذه الحروف تحاكي بصداها الصّوتي وقوّة جرسها استعلاء الخطاب والأمر الإلهي حتّى يبدو كأنّه خطاب للعلماء والعقلاء [3].

ب/الجهر والهمس: تعدّ هاتين الظاهرتين من الظّواهر الصّوتية المتوافرة في القرآن الكريم ولكلّ منهما أحكامه النّطقية الخاصّة به أثناء التّلاوة، كما أنّ لكل ظاهرة سياق خاصّ وفضاء معيّن يهيمن على الآيات الواردة فيها الأصوات المجهورة أو المهموسة.

فمن مظاهر التّجانس الصّوتي في فضاء الحروف الج هورة مثلا قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ آَلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[4]، إذ نلمح تراصّ الحروف المجهورة (الدّال، الهمزة، اللاّم، الذّال، الباء، العين) في ألفاظ الآية القرآنية حيث نستشفّ من خلال جرسها وقوّة قرعها للآذان الدّلالة الصّوتية التي تحملها في ثناياها وطيّاتها التي تعكس جزالة الألفاظ القرآنية في تقريع المكابرين والمعاندين، حيث لو استبدلت ألفاظ

---

[1] – سيّد قطب، التّصوير الفنّي في القرآن، ص: 87.

[2] – سورة هود، الآية:44.

[3] – ينظر البيضاوي، تفسير البيضاوي، تح محمّد عبد القادر شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت ،(لبنان)، ط01، (1419هـ-1999م)، ج04، ص:650.

[4] – سورة آل عمران، الآية: 11.

الآية بألفاظ أخرى من جنسها ذات أصوات مهموسة لانتفى التّجانس الصّوتي وتشوّه بناء الآية صوتيا، ممّا يمكّن من القول بأنّ«في القرآن إيقاعا موسيقيا متعدّد الأنواع، يتناسق مع الجوّ، ويؤدي وظيفة أساسية في البيان»[1] .

يتحقّق الانسجام أيضا في الفضاء الصّوتي الذي تهيمن عليه الأصوات المهموسة ويتعانق مع الدّلالة العامّة للسّورة، فمثلا سورة النّاس ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾[2] نرى هيمنة الأصوات المهموسة تسيطر على جلّ السّورة القرآنية، ممّا يخلق تجانسا صوتيا إيحائيا يبقى أثره في النّفوس، عن طريق جرس صوت السّين المهموس الصّفيري ، حتّى لو أنّ القارئ تمادى في قرائتها لمرّات متوالية لانكفأ صوت السّين بجرسه متواشجا مع الأصوات المهموسة معه إلى إنشاء جوّ وسوسة الوسواس الخنّاس[3]، الذي نجم عن حسن التّجانس الواقع بين الأصوات المهموسة في السّورة.

نستشفّ من خلال هذا التّمثيل تحقّق التّجانس الصّوتي كظاهرة صوتية عن طريق «تساوق هذه الحروف على أصول مضبوطة من بلاغة النّغم بالهمس والجهر والقلقلة والصّفير والمدّ والغنّة ونحوها »[4]، ممّا يوحي بأنّ اللّفظة في النّصّ القرآني تقتنص «الجرس الموسيقي للكلمة، وما تحويه من ظلال للمعاني في إثراء معنى الكلمة، والإيحاء بمضمونها قبل أن يوحي مضمونها اللغوي به» [5]، عن طريق الإيقاع المميّز للّفظة القرآنية النّاجم عن مكوّناتها الصّوتية.

1 – سيّد قطب، التّصوير الفنّي في القرآن، ص: 101، 102.

2 – سورة النّاس، الآيات:01-06.

3 – ينظر: سيّد قطب، التّصوير الفنّي في القرآن، ص: 94.

4 – مصطفى صادق الرّافعي، إعجاز القرآن، ص: 218.

5 – أحمد مختار عمر، لغة القران – دراسة توثيقية فنية – ص: 141.

3-2- مظاهر التّجانس الصّوتي في القرآن عند علماء النّحو والصّرف

تجلّت ظاهرة التّجانس الصّوتي في القرآن أيضا في عمل النّحاة ولا سيما الصّرفيين منهم، حيث وقفوا عند الكثير من الأفعال التي ارتهنت لآلية التّعديل الصّوتي بغية تخفيف الفعل من الثّقل البنوي، بهدف تحقيق التّآلف والانسجام الصّوتي في الألفاظ، ويمكننا التّعرّض لبعض الأفعال التي خضعت للتّرويض حتّى اكتست حلّة التّجانس الصّوتي.

من الأفعال التي خضعت لإجراءات صوتية لتعديلها ماكان على وزن ا فتعل نحو : (اصطبرَ/ادَّكَر) في قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَانَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ"﴾[2].

تعامل علماء النحو مع تاء الافتعال بآلية الاستبدال لتحقيق التّجانس الصّوتي في هذه الأفعال، وهي-ظاهرة الإبدال- من الألوان المستفيضة في القرآن الكريم، يعكس مدى إحكام التوزيع الصوتي الذي اتّصفت به ألفاظ القرآن الكريم، حتّى تصل إلى تحقيق الجمالية الذوقية عن طريق الاستبدالات ، التي ترمي إلى تخفيف الأداء النطقي والتّجانس اللّفظي بحسن مجاورة الحروف لبعضها عن طريق خصائصها وصفاتها، فالتوثب من الصّاد المستعلية المطبقة نحو التاء المهموسة الضعيفة في (اصطبر)لا يحسن نطقا ولا سمعا، ولذلك عُدل عن النطق بالتاء إلى ما ينوب عنها من جنسها وهي الطاء، وقد أشار بن مالك إلى هذه الظاهرة الصّوتية بقوله:[3]

ذُو اللِّيْنِ فَاتَا افْتِعَالٍ أبْدِلاَ وَشَذَّ فِي ذِي الْهَمْزِ نَحْوُ ائْتَكَلاَ
طَاتَا افْتِعَالٍ رُدَّ إِثْرَ مُطْبَقِ فِي ادَّانَ وَازْدَدْ وَادَّكِرْ دَالاً بَقِي

1 – سورة طه، الآية: 132.
2 – سورة يوسف، الآية: 45.
3 – محمّد بن عبد الله بن مالك الأندلسي، متن الألفية، المكتبة الشعبية، بيروت(لبنان)، ص: 65.

بيَّن النّحاة بأنه«يجب إبدال تاء الافتعال وفروعه طاء بعد أحد حروف الإطباق وهي الصاد والضاد والظاء والطاء وذلك نحو: اصطبر، إضطرم، إططعن، إظطهر، وأصلها: إصتبر إضترم، إطتعن، إظتهر، فاستقل اجتماع التاء مع الحرف المطبق لما بينهما من مقاربة المخرج ومباينة الوصف، لأن التاء من حروف الهمس، والمطبق من حروف الاستعلاء، فأبدل من التاء حرف استعلاء من مخرجها وهو الطاء»[1]، من أجل تحقيق التّجانس بين صفات الحروف.

من خلال ماسلف، يمكن القول بأنّ التّجانس الصّوتي في الأفعال يعدّ من العوامل المساعدة على فهم اللّفظة وتيسيرها، كما أنّه يعمل على الاقتصاد في الجهد بتحقيق المواءمة بين حروف الفعل، باعتبار أنّ اللّسان العربي يتكوّن من «مجاميع من المقاطع، تتكوّن كلّ مجموعة من عدّة مقاطع ينظمّ بعضها إلى بعضٍ، وينسجم بعضها مع بعض »[2]، ممّا يحقّق جرسا متميّزا وإيقاعا متوازيا، وبناء صوتيا يسهم في توضيح الإيحاءات الدّلالية للآيات القرآنية ويصل بها إلى الجمالية الذوقية لدى المتلقّي.

الظّاهرة الثّالثة: الفواصل القرآنية

1-مفهوم الفواصل القرآنية:

لغة: عرّفها "ابن منظور" بقوله: «الفصل الحاجز بين الشّيئين... والفاصلة:الخرزة التي تفصل بين الخرزتين في النّظام...والتّفصيل: التّبيين»[3].

اصطلاحا: عرّفها "الرّماني"بقوله: «الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع، كما توجب حسن إفهام المعاني، والفواصل بلاغة والأسجاع عيبٌ، ذلك لأنّ الفواصل تابعة للمعاني، وأمّا الأسجاع فالمعاني تابعة لها»[4]، واتّفق معه "الباقلاني"أيضا في التّعريف بقوله:

---

[1] – المكودي، شرح المكودي على ألفية بن مالك، تح: فاطمة راشد الراجحي، جامعة الكويت (الكويت)، ط01، (1993م)، ج02، ص: 964.

[2] –إبراهيم أنيس، الأصوات اللّغوية، مكتبة الأنجلو مصرية (مصر)، ط05، (1975م) ، ص:161.

[3] – ينظر ابن منظور بتصرّف، لسان العرب، المجلّد05، ج37، ص: 3422.

[4] – الرُّماني، النّكت في إعجاز القرآن، من كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص:97.

الفواصل«حروف متشاكلة في المقاطع، يقع بها إفهام المعاني، وفيها بلاغة والأسجاع عيب؛ لأنّ السّجع يتبعه المعنى، والفواصل تابعة للمعاني»[1].

من خلال هذه التّعاريف نستنتج أنّ الفواصل القرآنية ملمح صوتي من ملامح بلاغة القرآن الكريم، تعمل على تحقيق التّلاؤم الصّوتي بين آياته، كما تُكسبها جمالا وانسجاما موسيقيا، يعمل على المساعدة على تحقيق إفهام المعاني، كما أنّها تعدّ ركنا من أركان البلاغة القرآنية؛ فهي تعمل على المحافظة على توالي الإيقاع واستمراريّته وما يتركه في النّفس من أثرٍ جليّ يجعل المتلقّين يُنغضون رؤوسهم لحسن الإيقاع وجرس الأصوات.

2- بين الفواصل القرآنية والسّجع

في ظلّ التّعاريف السّابقة للفواصل القرآنية نشمّ بعض رائحة التّواشج والتّقارب بين الفواصل القرآنية وسجع العرب في خُطبهم، ممّا ينبئ عن تجذّر الإيقاع في اللّسان العربي عن طريق السّجع فبل الإسلام، وقد كانت هذه الفواصل القرآنية محلّ جدل بين البلاغيين بين الإقرار والإنكار، وذلك لالتباسها بالسّجع المعروف عند العرب، «وحتّى القرن الثّالث للهجرة، كان التّحرّج واضحا من القول بالسّجع في القرآن، وكأنّما كان حسّ المؤمن ينبو عن هذه الكلمة لكثرة ما أطلقت عن قديم على سجع الكهّان »[2]، فانقسم العلماء في مصطلح تناولها، فمنهم من ذكرها بمصطلح السّجع، ومنهم من سمّاها الفواصل القرآنية، وهناك من أطلق عليها رؤوس آي القرآن، ويمكن التّعرّض للرّأيين كالآتي:

الرّأي الأوّل: القائلون بانتفاء السّجع في القرآن:

كان قصب السّبق في هذه المسألة للنّحاة، فقد دندنوا حولها كثيرا ورأوا البون شاسعا بين اللونين الصّوتيين، الفواصل القرآنية والسّجع، فالفرّاء من النّحاة الذين تعرّضوا«للفواصل القرآنية كثيرا، وبخاصّة في السّور المكيّة، ولم يذكرها بالفواصل، وإنّما هي عنده رؤوس آيات، وقد

[1] - الباقلاني، إعجاز القرآن، ص: 409.

[2] - بنت الشّاطئ، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، ص: 254.

تحاشى القول بالسّجع فيها»[1]، ثمّ صار الأمر إلى البلاغيين فأفاضوا في الخوض في هذه المسألة وكانت لهم رؤى متعدّدة.

رأي الأشاعرة:

ذهب الأشاعرة كلّهم إلى نفي السّجع في كلام الله، حيث «قرّر الأشاعرة نفي السّجع عن القرآن وقالوا إنّما هي فواصل» [2]، معلّلين ذلك بأنّ أداء السّجع وموسيقاه بخلاف أداء الفواصل القرآنية، لأنّه–السّجع– تكلّف في الصّنعة، وزيادة تعمّد التّنميق للّفظة ولو على حساب المعنى، «وهذا هو الحدّ الفاصل بين فنّية البلاغة كما تجلوها الفواصل القرآنية بدلالتها المعنوية المرهفة، ونسقها الفريد في إيقاعها الباهر، وبين ما تقدّمه الصّنعة البديعيّة من زخرف لفظيّ يُكره الكلمات على أن تجئ في غير مواضعها البيانية»[3].

كما انتصر لهذا الرّأي "السّيوطي" من منطلق جلالة الخطاب القرآني وتفرّده، فأسلوبه أسمق عن غيره من الخطابات، لأن أصل السّجع من«سجع الطير، فشرف القرآن أن يستعار لشيء منه لفظ أصله مهمل»[4]، فهو ينبو عن السّجع المعروف لدى العرب.

وممّن انتصر لمصطلح الفواصل القرآنية وأقصى السّجع "الطّبري "و"ابن خالويه"، فقد أشارا إلى أهميّة الفواصل القرآنية وأثرها في تحقيق الانسجام الصّوتي في القرآن الكريم، حيث تمثّلوا في ذلك إلى لفظة (كُتُبه)في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾[5] وتنوّع قراءات القرّاء فيها بين الإفراد والجمع، حيث أشار "ابن خالويه"لمن قرأها بالجمع أنّ مكمن السّر في ذلك تحقيق الائتلاف في الكلام وبنائه على نسق واحد، تحكمه فاصلة نهاية الآية، «فالحجّة لمن جمع أنّه شاكل بين اللّفظين، وحقّق المعنى، لأنّ الله أنزل تعالى قد أنزل كتبا وأرسل

1 – بنت الشّاطئ، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، ص: 253،254..
2 – المرجع نفسه، ص 254، وينظر الباقلاني، إعجاز القرآن، ص: 86.
3 – بنت الشّاطئ، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، ص: 258.
4 – السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج02، ص: 97.
5 – سورة البقرة، الآية: 285

رُسلا»[1]، فارتكنوا لصيغة الجمع بدل الإفراد تقفّيا للتّلاؤم الصّوتي وتحقيق الانسجام بين ألفاظ الآية، أمّا "الطّبري" فبرّر اختياره للفظة الجمع أيضا اعتمادا على القرينة اللفظية والسّياق القرآني الذي وردت فيه القراءة، لتحقيق الاتّساق بين الكلام المتقدّم والمتأخّر من حيث اللّفظ والمعنى على سياقٍ واحدٍ[2].

الرّأي الثّاني: القائلون بوجود السّجع في القرآن:

إذا كان جلّ العلماء نفوا السّجع عن القرآن الكريم، فإنّ جماًّ آخر منهم أجازوا وُروده في الخطاب القرآني كغيره من الفنون والأساليب الواردة فيه، ورأوا أنّ السّجع«ممّا يبين به فضل الكلام، وأنّه من الأجناس التي يقع فيها التّفاضل في البيان والفصاحة، كالتّجنيس والالتفات»[3]، ويمكننا الوقوف على بعض المجيزين منهم وتقفّي مُستندهم في ذلك ومنهم:

أ- "الزّركشي" (794هـ) **صاحب كتاب البرهان:** أشاد بسجع القرآن، وفرّق بينه وبين الفواصل القرآنية، ليبيّن أنّه لون بديعي مستقلّ بذاته، كما بيّن أنّه يتفاوت في الجودة وأنّه أنواع متباينة، وأحسنه وأجوده « ما تساوت قرائنه، ليكون شبيها بالشّعر، فإنّ أبياته متساوية كقوله تعالى: فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ*وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ*وَظِلٍّ مَمْدُودٍ»[4]، ثمّ أسهب في تِبيان أنواعه، بأنّه يتضمّن القصير والمتوسّط والطّويل مطعّما ذلك بشواهد من القرآن الكريم[5].

ب- "حازم القرطاجنّي"(684هـ): عاب من وسم السّجع بالنّقص، ووصفه بأنّه زينة الكلام وصناعة أرباب البيان، فقد تساءل «كيف يُعاب السّجع على الإطلاق ؟! وإنّما نزل

1 - ابن خالويه، الحجّة في القراءات السّبع، تح عبد العال سالم مكرّم، دار الشّروق، القاهرة (مصر)، ط03،(1399هـ-1979م)، ص: 102

2 - يُنظر: جنان محمّد مهدي العقيدي، النّقد اللّغوي عند الطّبري إمام المفسّرين، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان)، (2012م)، ص: 172.

3 - الباقلاني، إعجاز القرآن، ص: 86.

4 - الزّركشي(بدر الدّين مُحَمَّد بن عبد الله)، البرهان في علوم القرآن، تح محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار التّراث، القاهرة (مصر)، ط03، (1404هـ-1984م)، ص: 77.

5 - ينظر: المصدر نفسه، ص:78 .

القرآن على أساليب الفصيح من كلام العرب »[1]، فالسّجع عنده صنو جمالي يستهوي بإيقاعه وجرسه وموسيقاه المتلقّي، كغيره من الألوان البديعية التي تزيد الكلام رفعة وجمالا.

ج– ابن الأثير : انتصر ابن الأثير للسّجع وأولاه عناية جمّة، مبيّنا أنّ الشّانئين له عاجزون عن الإتيان بمثله واسِماً إيّاهم بالعجز عن النّسج على شاكلته، مستدلاّ على أهميّته بوُروده في كثير من الأيات والسّور القرآنية، كسورة الرّحمان وسورة القمر، مبيّنا أثره الشّجيّ المتمثّل في الجرس والإيقاع وما يتركه في الأذن من أثر موسيقي[2].

د– أبو هلال العسكري : تعرّض للسّجع في حديثه عن السّجع والازدواج، وبيّن بأنّ للسّجع في القرآن مزيّة خاصة، بخلاف أسجاع العرب المعهودة، والتي نشمّ في بعضها رائحة التّكلّف، إذ«جميع مافي القرآن ممّا يجري على التّسجيع والازدواج مخالف في تمكين المعنى وصفاء اللّفظ، وتضمّن الطّلاوة والماء لما يجري مجراه من كلام الخلق »[3]، مستشهدا في ذلك ببعض الآيات والسّور القرآنية.

3– أثر الفواصل القرآنية في تحقيق الانسجام الصّوتي في القرآن الكريم

تتبدّى فاعلية الفواصل القرآنية وأثرها في تحقيق التّلاؤم والانسجام في الخطاب القرآني، من خلال معرفة التّمظهرات الصّوتية التي تنتج إثر الوقف على الفاصلة القرآنية، حيث تتقمّص ثوبا صوتيا تظهر فيه على غرار السّكون والرّوم والإشمام والنّقل والإبدال والحذف، حيث سنتعرّض لظاهرتين من هذه الظّواهر الصّوتية المتعدّدة التي تتجلّى أثناء الوقف، وهي الوقف بالسّكون والوقف بالحذف:

1 – حازم القرطاجنّي، أبو الحسن حازم، منهاج البلغاء وسرّ الأدباء، تح مُحَّد الحبيب بن الخوجة ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، لبنان ، ط02، (1981م)، ج02، ص: 388.

2 – ينظر: ابن الأثير، المثل السّائر، ج01، ص: 210.

3 – أبو هلال العسكري، الصّناعتين، ص: 260

أ/**الوقف بالسّكون**: يعدّ الوقف على رؤوس الآي من عوامل الانسجام الصّوتي، فهو يعمل على زيادة التّناسق بين الآيات القرآنية، والوقف على رؤوس الآي، أو الفاصلة القرآنية ما هو إلا حذف صوتي في أواخر الكلمات، شريطة أن لا يكون الكلام متعلقا بما بعده، فحيثما كان المعنى متماسكا متناسقا لا يجوز الوقف على رؤوس هذه الآيات، وإلا وقع الخلل البيّن في معنى الآية ومرادها نحو قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ*الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[1] حيث منع المجوّدون الوقوف على المصلين ووصفوه بالقبيح لحصول الالتباس من وقوع الويل على المصلين[2].

ب/**الوقوف بالحذف**: يعتبر الوقف مع حذف آخر الآية من عوامل الانسجام الصّوتي في القرآن الكريم، وذلك بغية الحفاظ على الإيقاع الموسيقي العام للآية أو السّورة القرآنية ككلّ، كحذف حرف العلة (الياء)من الفعل يسري في قوله تعالى: ﴿ وَالْفَجْرِ*وَلَيَالٍ عَشْرٍ*وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ* وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾[3]، حيث إنّ الوقف بالحذف على يسر هدفه تحقيق التّوافق بين الفواصل السّابقة واللاحقة[4].

وعليه فإنّ الغرض المتوخّى من هذه الفواصل في القرآن الكريم هو الحفاظ على تماسك الوحدة الذّهنية للمتلقّي، حتّى لا يشرد عن القوّة التّصويرية التي يرمي الجانب الصّوتي ترسيخها في ذات المتلقّي بنسقٍ إعجازي تتألّف«كلماته من حروفٍ لو سقط واحدٌ منها أو أُبدل بغيره أو أُقحم معه حرفٌ آخر لكان ذلك خللا بيّنا، أو ضُعفا ظاهرا في نسق الوزن وجرس النّغمة

[1] - سورة الماعون، الآية 4،5.

[2] - ينظر : الأشموني أحمد بن محمّد، منار الهدى في بيان الوقف والابتدا، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط02، (1393هـ-1973م)، ص: 435.

[3] - سورة الفجر: الآيات: 01-04.

[4] - ينظر : الطبريّ، تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، دار الكتب العلمية، بيروت(لبنان)، (دط)، (1412هـ -1992 م)، ج12 ، ص.: 05.

وفي حسّ السّمع وذوق اللسان، وفي انسجام العبارة وبراعة المخرج وتساند الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض»[1]، حتّى تتجلّى الدّلالة المقصودة للآيات.

يمكن الإشارة إلى أثر الفواصل القرآنية وجمالها الإيقاعي من خلال قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى* مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾[2].

يرى المتدبّر في تلاوة هذه الآيات التّلاؤم الصّوتي يعمّ جوانبها بفاعلية وأثر الفواصل القرآنية، التي يُسمع وقعها ويبقى رنينها في أذن المتلقّي نهاية كلّ آية من هذه الآيات المتقاربة في عدد آياتها، فهي تتراوح من ثلاث إلى أربع كلمات تتساوق وتتناغم فيما بينها متلائمة ومنسجمة، ومتسربلة بجو موسيقي يجعل المتلقّي يستكين.

تمنح الفواصل القرآنية بوقعها إيقاعا وتجانسا صوتيا مميّزا لهذه الآيات يأخذ بالألباب ، فقد ساعدت على جعل آيات سورة النّجم عموما «متساوية في الوزن تقريبا-على نظامٍ غير نظام الشّعر العربي- متّحدّة في حرف التّقفية تماما، ذات إيقاعٍ موسيقي متّحدٍ تبعا لهذا وذاك»[3]، ممّا يزيد في سبك آيات الخطاب القرآني وانسجام آياته.

إنّ المتدبّر في سورة النّجم عموما يستخلص أنّ الفاصلة القرآنية تتجلى كبصمة تهدف إلى استمالة المتلقّي واحتوائه وجدانيا، لما تتميّز به من إيقاع موسيقي ذي تأثير، فهي بمثابة

1 – مصطفى صادق الرّافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة ص217.
2 – سورة النّجم، الآيات 01- 17.
3 – سيّد قطب، التّصوير الفنّي في القرآن، ص104.

القافية في الشعر، والسّجع في النثر، ممّا عهده العرب وكانوا يجنحون إليه في سبك الكلام، إلا أنّها تنماز عنهما بأنّها متعلّقة بفواصل رؤوس الآيات؛ فالغاية منها العمل على تثبيت النّغم الموسيقي الواحد، حتّى يترسّخ الإيقاع الذي يهدف للمحافظة على المعنى الواحد، ممّا يجعل المتلقّي«يسمع ضربا خالصا من الموسيقى اللّغويّة في انسجامه واطّراد نسقه واتّزانه على أجزاء النّفس مقطعا مقطعا، ونبرة نبرة، كأنّها توقّعه توقيعا ولا تتلوه تلاوةً»[1].

وممّا يزيد من التّأكيد على أثر الفاصلة في القرآنية وماهيتها الإيقاعية التي تصبو إلى المحافظة على الإيقاع وضمان كينونته وبقائه،قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى* أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى* تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾[2]، حيث تعمل اللفظتان (الْأُخْرَى) و (إذا) على المحافظة على إيقاع الآيات [*] ، فلو حُذِفتمن الآيا ت لتصدّع النّسق الموسيقي ولاكفهرّ الجوّ العام للإيقاع واختلّ توازنه، ولذهب عن الآيات التّلاؤم وحسن الطّلاوة، إذ من مزايا القرآن الكريم وخصائصه الأسلوبية«أن تأتِيَ اللفظة لتؤدّي معنى السّياق، وتؤدّي تناسبا في الإيقاع»[3]، الموسيقي للقرآن الكريم.

وفي ضوء ما تقدّم يمكن القول: إنّ الفواصل القرآنية تتجلّى كمظهر من مظاهر الجمال في الأداء الصّوتي في القرآن الكريم، محدثة تلاؤما صوتيا يحرّك شغاث القلوب، فقد أسدت على السّورة روعة بيانية تعمل على إكسابها في مجملها ذوقا بلاغيا وإيقاعا مميّزا يبيّن مدى سموّ النّص القرآني وتميّزه، حتّى يتمكّن الأسلوب القرآني عن طريق التّلاؤم الصّوتي من استمالة المتلقّي

---

1 – مصطفى صادق الرّافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، ص: 212، 213.

2 – سورة النّجم، الآيات: 19-22.

*– أدلى الخليل بن أحمد الفراهيدي(175هـ) بدلوه في مسألة الفواصل القرآنية وأثرها في تحقيق التّلاؤم الصّوتي، عند لفظة الأخرى أيضا في قوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾(سورة طه، الآية: 18)، وبيّن أنّ السّر في توظيف لفظة الأخرى أنّه من أسلوب القرآن ومزاياه، وتمام طلاوته وحسن إيقاعه وموسيقاه، وعلّل أنّ ورود هذه اللفظة هو من أجل موافقة رؤوس الآيات القرآنية، التي تُكسب الخطاب القرآني رونقا وأداء نطقيا متلائما(ينظر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج20، ص:37).

3 – سيّد قطب، التّصوير الفنّي في القرآن، ص104.

واحتوائه، لأنّ آيات القرآن تتكوّن مع«ما يلائمها من ألفاظ اللغة، بحيث لا تندّ لفظة، ولا تتخلّف كلمةٌ؛ ثمّ استعمال أمسِّها رحما بالمعنى، وأفصحها في الدّلالة عليه، وأبلغها في التّصوير وأحسنها في النّسق، وأبدعها سناء، وأكثرها غناء، وأصفاها رونقا وماءً »[1]، ممّا يزيد الخطاب القرآني تلاؤما وتلاحما في البناء، واتّساقا وانسجاما أثناء النّطق.

الظّاهرة الرّابعة: فواتح السّور القرآنية

كانت فواتح السّور القرآنية من المحاور التي اعتنى بها البلاغيون المفسرون وأوْلوْها أهمية كبرى على غرار المظاهر الإعجازية الأخرى للقرآن الكريم، إلا أنّ الإعجاز في فواتح السّور فاق كلّ التّحدّيات الموجودة في القرآن، فإذا كان للاستعارة والسّجع، أو المطابقة والجناس وغيرها من الملامح البلاغية ومضات في بلاغة العرب، فإنّ فواتح السّور القرآنية لم يُعهد في تراث العرب الاستفتاح بها على هذه الشّاكلة، فقد وردت «بطريقة لا عهد للعرب بها فى ابتداءات كلامهم، كابتداء سور بالتسبيح نحو: (الأعلى والإسراء والحشر والصف والجمعة والتغابن) وابتداء سور بالحمد نحو: (الكهف والأنعام وسبأ وفاطر والفاتحة)، وابتداء سور بالتمجيد والتعظيم نحو سورتي: (الملك والفرقان)، ولم يكن لهذا مثيل عند العرب فى ابتداء قصائدهم ولا خطبهم»[2]، ممّا أثار فضيلة البلاغيين المفسّرين في اكتناه الأسرار القابعة خلف هذه الاستفتاحات الواردة في أوائل السّور القرآنية.

وممّا هو أشدّ إعجازا وأكثر تحدّيا في فواتح السّور القرآنية (الحروف المفردة) نحو(ص ق، ن)، والمبتدأة بحرفين ثنائيين نحو:(يس، طه، حم)، والأعظم إعجازا من ذلك كلّه الحروف المقطّعة التي ابتدئت بها بعض السّور القرآنية نحو: ﴿الٓمٓ﴾، كالتي افتتحت بها سورة البقرة وآل عمران، والأعراف وغيرها من السّور القرآنية، إذ «ما من حرف في القرآن الكريم تأوّلوه زائدا أو

[1] – مصطفى صادق الرّافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، ص: 226.

[2] – محمّد إبراهيم شادي، إعجاز القرآن ومنهج البحث عن التّميّز، مكتبة جزيرة الورد، أصبهان، ص:142.

قدّروه محذوفا أو فسّروه بحرفٍ آخر، لا يتحدّى بسحره البياني كلّ محاولة لتأويله على الوجه الذي جاء به في البيان المعجز»[1]، ممّا كان كفيلا باستنزاف البحث وإعمال الفكر.

وعلى هذا الأساس فإنّ فواتح السّور القرآنية معجزة قرآنية ليست كمعجزة الفصاحة أو التّلاؤم الصّوتي والفواصل القرآنية التي تناولناها، لأنّ ما وقفنا عليه كان عند البلاغيين محلّ مقارنة بين اللّسان العربي التّليد وأسلوب القرآن الكريم، أمّا فواتح السّور القرآنية فهي بحقّ ملمح جليّ من ملامح البلاغة القرآنية، إذ «من البلاغة حسن الابتداء، وهو أن يُتأنّق في أوّل الكلام؛ لأنه أول ما يقرع السمع، فإن كان محرراً أقبل السامع على الكلام ووعاه وإلا أعرض عنه، ولو كان الباقي في نهاية الحسن ، فينبغي أن يؤتى فيه بأعذب لفظ وأجزله، وأرقه وأسلسه وأحسنه نظماً وسبكاً، وأصحّه معنى، وأوضحه وأخلاه من التعقيد والتقديم والتأخير الملبس، أو الذي لا يناسب ، وقد أتت جميع فواتح السور على أحسن الوجوه وأبلغها وأكملها كالتحميدات وحروف الهجاء والنداء وغير ذلك» [2].

1- أنواع الاستفتاحات في السّور القرآنية

تنوّعت فواتح السّور القرآنية وتعدّدت من سورة لأخرى، وكان من السّباقين لخوض غمار هذه الفواتح وطرق أبوابها وكشف أسرارها "ابن أبي الأصبع المصري "(654هـ)، في كتابه"الخواطر السّوانح في أسرار الفواتح "، حيث أفردها بالتّأليف ودندن حولها كثيرا، وقد أشار محقّق هذا الكتاب حنفي مُحَمَّد شرف إلى هندسته البحثية في الكتاب، وبيّن أنّه حصر هذه الفواتح وبحث في أقسامها وأعدادها البسيطة والمركّبة، وأشكالها ومبانيها وخصائصها ودلالاتها[3]، وقد لخّصها "جلال الدّين ا لسّيوطي"(911هـ) وجعلها في عشرة أنواع من الاستفتاحات هي: [4]

---

1 – بنت الشّاطئ، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، ص: 139.

2 – السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج03، ص: 317، 318.

3 – ينظر: الخواطر السّوانح في أسرار الفواتح، تح حنفي مُحَمَّد شرف، دار اللّؤلؤة، المنصورة،(مصر)، ص:03.

4 – ينظر: السّيوطي، المصدر السّابق، ج03، ص: 317.

- **الاستفتاح بالثناء على الله** : وذلك في خمسة عشر سورة، منها خمسة مبتدأة بالحمدلة هي: الفاتحة، الّأنعام، الكهف، سبأ وفاطر، والابتداء بلفظ تبارك في سورتين هما: الفرقان والملك، وسبع سور مبتدأة بالتّسبيح هي: الإسراء، الحديد والحشر والصّف، ثمّ الجمعة والتّغابن، والأعلى.

-**الاستفتاح بحروف التهَجّي**: نحو: ﴿ق﴾ و ﴿طه﴾ و﴿ الم﴾ وغيرها، في تسع وعشرين سورة، وقد أثارت هذه الحروف المقطّعة فضول الباحثين ودندنوا حولها كثيرا.

- **الاستفتاح بالنداء**: نحو: ﴿يا أيُّها النبيّ﴾ و ﴿يا أيُّها الذين آمنوا﴾ وغيرها، في عشر سُوَر نِصْفها بنداء النّبيّ عليه السّلام، والأخرى بنداء أمّته.

- **الاستفتاح بالجمل الخبرية**: نحو: ﴿أتى أمرُ الله﴾ و ﴿الرحمن علّمَ القرآن﴾ ، وورد ذلك في خمس وعشرين سورة.

- **الاستفتاح بالقَسَم**: في خمس عشر ة سورة ، منها القسم بالملائكة نحو: ﴿والصَّافات﴾ والأفلاك، والنّبات، وكذلك الإنسان، والحيوان، وأكثرها القسم بالوقت لشرفه.

- **الاستفتاح بالشّرط** : ورد ذلك في سبع سور هي: الواقعة، المنافقون، التّكوير، الانفطار الانشقاق، الزلزلة، النّصر.

- **الاستفتاح بالأمر**: في ستّ سور هي: الجن، إقرأ، الكافرون، الإخلاص، المعوذتين.

- **الاستفتاح بالاستفهام** : في ستّ سور هي: الإنسان، النّبأ، الغاشية، الانشراح، الفيل الماعون.

- **الاستفتاح بالدعاء**: في ثلاث سُوَر هي: المطففين الهمزة و المسد.

- **الاستفتاح بالتعليل**: وذلك في سورة واحدة: هي سورة قريش.

2- الحروف المقطّعة وأقوال البلاغيين المفسّرين فيها

حظيت الحروف المقطّعة لدى البلاغيين بالدّراسة، بغية سبر أغوارها وكشف أسرارها، إذ لم يُعهد توظيف العرب في استفتاح كلامهم وفق هذا النّسق الصّوتي، فقد اختلفت الحروف المقطّعة وتنوّعت، إذ ورد بعضها بحرف واحدٍ، ومنها ما ورد بحرفين اثنين، وهناك ماورد بثلاثة أحرف وأربع، وأقصاها ماكان على خمسة أحرف، حيث وردت الثّمانية والعشرون فاتحة في الخمسين سورة المتتالية من ترتيب القرآن، بينما انفردت واحدة فقط وهي سورة﴿ن﴾في التّرتيب الثّامن والسّتين[1]، ممّا جعل البلاغيين المفسّرين يُجمعون أمرهم و يأتوا صفّا لفضّ مغاليق هذا الملمح الصّوتي الإعجازي الذي تفرّد به القرآن الكريم.

2-1- رأي "الباقلاني"في الحروف المقطّعة: يعدّ الإمام "الباقلاني" من الأوائل الذين أدلوا بدلوهم في معجزة الحروف المقطّعة، حيث وقف على بيانها وتفسيرها وبعض أسرارها الصّوتية، ويمكننا الوقوف على جهوده وهي: [2]

أ/ ذهب "الباقلاني" عن طريقة التّقصّي إلى القول بأنّ السّور القرآنية المبتدأة بالحروف المقطّعة هي ثمانية وعشرون حرفا، وفواتح السّور القرآنية تعادل نصف الحروف العربية تقريبا، أي أنّها أربعة عشر حرفا، منها عشرة مهموسة هي: الحاء، الهاء، الخاء، الكاف والشّين، الثّاء والفاء والتّاء، والصّاد والسّين، بينما المتبقيّة هي حروف مجهورة، وقد جُمعت هذه الحروف المتداولة في فواتح السّور التّسع والعشرين -كما ذكر ذلك "الزّمخشري "- في قولهم : (نصّ حكيم قاطع له سر) [3].

---

[1] - ينظر: سهام خضر، الإعجاز اللغوي في فواتح السّور، دار الكتب العلمية، بيروت، (لبنان)، (2008م)، ط01، ص: 122.

[2] - ينظر: الباقلاني، إعجاز القرآن، ص: 66، 67.

[3] - ينظر: الزّركشي، البرهان في علوم القرآن، ص: 167.

ب/نصف الحروف التي ابتدئت بها بعض السّور مهموسة، وكذلك الشّأن بنصف الحروف المجهورة بلا زيادة ولا نقصان.

ج/ ما وَرَدَ من هذه الحروف المقطّعة هو نصف الحروف الحلقية، ونصف الحروف الشديدة، ونصف الحروف المطبقة.

د/ بيّن "الباقلاني" أنّ فواتح السّور التي بدئت بحروف مقطّعة أنّ نصفها من الحروف الشّديدة (أجدك قطبت)على غرار سورة قاف ومريم؛ وكذلك الشّأن باللنسبة للحروف المطبقة فقد ذكر أنّ نصفها ورد في بدايات السّور المستهلّة بالحروف المقطّعة.

وتأسيسا على هذا الملمح الإعجازي المتمثّل في فواتح السّور القرآنية، ولا سيما الحروف المقطّعة، فقد تجلّى للإمام "الباقلاني". أنّ هذه الأخيرة -الحروف المقطّعة- من أهم العوامل الثّلاثة التي انفرد وتميّز بها نظم القرآن الكريم، بعد أن حصر وجوه الإعجاز في ثلاثة وجوه هي: الإخبار عن الغيبيات، وكون النّبي عليه السّلام أميّا، وثالث الوجوه نظم القرآن البديع في سبكه، العجيب في تأليفه، المتميّز ببلاغته وأسلوبه، التي تعدّ الحروف المقطّعة لونا من ألوانه الإعجازية التي أرّقت أساطين البيان، ولم يستكنهوا فحواها ولا بلغوا معرفة أسرارها[1].

أشاد "الزركشي"بجهود "الباقلاني"ووقوفه على التّفصيلات التي وضعها في أكتناه الحروف المقطّعة، مستنبطا-الباقلاني- بأنّ هذه الحروف الموجودة في فواتح السّور كأنّها تتملّك من السّلاسة والعذوبة مالا تكسبه غيرها من الحروف، وكأنّ لسان الحال يقول: «من زعم أنّ القرآن ليس بآية فليأخذ الشّطر الباقي، ويركّب عليه لفظا معارضة للقرآن »[2]، وشبيها باستفتاحاته، إن استطاع إلى ذلك سبيلا.

[1] - ينظر مُحَّد سالم محيسن، روائع البيان في إعجاز القرآن، دار محيسن للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة(مصر) ط 01، (1423هـ-2002م)، ص: 30، 31.

[2] - ينظر الزّركشي، البرهان في علوم القرآن، ص: 167.

2-2- رأي "الزّمخشري"(538هـ) في الحروف المقطّعة

إذا كانت إرهاصات تقفّي فواتح السّور القرآنية انبثقت م ع"الباقلاني"، فإنّ من جاء بعده توسّعوا في اقتحام هذا البناء الإعجازي المغلق ؛ وكان "الزمخشري" ممّن يراود «فكرة الإعجاز في الكشّاف على خصائص الكلمات والنّظم في التّعبير»[1]، فحاول التوسّع في إدراك كنه الحروف المقّطعة وقرع أسرارها، فأناخ ركاب بحثه عند «النّصفية في حروف الفواتح، ورأى فيها لطائف ملزمة بالحجّة »[2]، كما أشار إلى عجز فصحاء العرب النّسج على منوالها، والسّبك على شاكلتها، رغم أنّه بلسانهم، «وكلام منظوم من عين ماينظمون منه كلامهم ليؤدّيهم النّظر إلى أن يستيقنوا أن لم تتساقط مقدرتهم دونه، ولم تظهر معجزتهم عن أن يأتوا بمثله بعد المراجعات المتطاولة، وهم أمراء الكلام، وزعماء الحوار »[3]، وسنقف على إضافات وجهود "الزّمخشري" في وقوفاته على أسرار الحروف المقطّعة كالآتي:

أ/ بيّن "الزمخشري"بأنّ الحروف الواردة في فواتح السّور تتوزّع على تسع وعشرين سورة بعدد الحروف العربية[*]، وبيّن بأنّ الحروف التي وردت في أوائل هذه السّور هي نصف حروف العربية بقوله: «اعلم أنك إذا تأملت ما أورده الله عزّ سلطانه في الفواتح من هذه الأسماء وجدتها نصف أسامي حروف المعجم أربعة عشر سواء، وهي: الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون في تسع وعشرين سورة على

1 - نعيم الحمصي، فكرة إعجاز القرآن، ص: 92.

2 - بنت الشّاطئ، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، ص: 142.

3 - الزمخشري، الكشاف، ج01، ص: 137.

*)قول الزّمخشري حروف العربية تسعة وعشرين حرفا، ثمّ قوله بأنّ فواتح السّور المبتدأة بالحروف المقطّعة أربعة عشر، وأنّها أنصاف حروف العربية، يوحي بأنّه اضطرب في مسألة التّفريق بين الهمزة والألف اللّينة، والظّاهر أنّه أسقط الهمزة التي اعتدّ بها النّحاة، وترك الألف اللّينة(ينظر: الزمخشري ، الكشاف، ج01، ص: 139.)

عدد حروف المعجم، ثم إذا نظرت في هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف»[1].

ما ذهب إليه "الزّمخشري"يومئ لتلمّسات دقيقة ولطائف خفيّة تطلّع إليها في بحثه الصّوتي في الحروف المقطّعة الواردة في فواتح السّور التي أرّقت المتلقّين زمن التّنزيل؛ فقد ذكرت بنت الشّاطئ ما وقع بين النّبيّ عليه السّلام واليهود حين سمعوا بهذا الإعجاز، ومحاولة استنباطهم مدّة رسالة النّبي عن طريق توظيف الحساب الجملي للحروف المعروف بحساب أبي جاد [2].

ب/ أوضح "الزمخشري" تبعا "للباقلاني" أن في هذه الحروف تتضمّن من المهموسة نصفها وعددها، ومن المجهورة نصفها وعددها، ومن الشديدة نصفها وعددها، ومن الرخوة نصفها وعدّدها، ومن المطبقة نصفها وعددها، ومن المنفتحة نصفها وعددها، ومن المستعلية نصفها وعددها، ومن المنخفضة نصفها وعددها، ومن حروف القلقلة نصفها[3].

ج/ اتّسم بحث "الزمخشري"عن "الباقلاني" بالشّمولية، فقد استدرك وزاد ما أهمله الباقلاني ولم يذكره على غرار الحروف الرخوة، والمنفتحة، والمستعلية، والمنخفضة، وحروف القلقلة، فقد توسّع فيها "الزمخشري"[4].

د/أشار إلى أنّ القرآن الكريم نزل بلسان العرب ووفق قوانينهم الصّوتية، فالأصوات المذكورة في فواتح السّور عموما، والحروف المقطّعة خصوصا هي من أكثر مايدور على لسان العرب، خلافا لبعض الحروف المقوتة لديهم، والتي يندر استعمالها عندهم، على غرار الثّاء

[1] – الزمخشري، الكشاف، ج01، ص: 138، 139.

[2] – ينظر: بنت الشّاطئ، الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرق، ص: 146، 147.

[3] – ينظر: الزمخشري ، الكشاف، ج01، ص: 139.

[4] – ينظر : المصدر نفسه، ج01، ص: 139.

الظّاء، الذّال فقال: «ثم إذا استقريت الكلم وتراكيبها، رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكور منها» [1].

كما نبّه على استحواذ الألف واللاّم على أكثر الحروف المقطّعة، فقد وردت في جلّ فواتح السّور المبتدأة بالحروف المقطّعة، على غرار سورة البقرة، وآل عمران، والروم، والعنكبوت ولقمان والسجدة، والأعراف، والرعد، ويونس، وإبراهيم، وهود، ويوسف، والحجر ، وبيّن أنّ مكمن السّرّ في ذلك أنّ هذين الحرفين هما من أكثر الحروف دورانا على ألسنة العرب واستعمالا، وبيّن أنّ سرّ ورودها في أكثر الحروف المقطّعة هدفه تجديد التّنبيه، وأقرّ في الأسماع والقلوب بتوالي إيقاعها وجرس حروفها[2].

2-3- رأي "الزّركشي"في الحروف المقطّعة

أحدث"بدر الدين الزركشي " قفزة محايثة في تناوله للحروف المقطّعة، ففضلا عمّا توصّل إليه من قبله من المفسّرين البلاغيين، إلاّ أنّه حاز الشّرف في تناوله لهذه الظّاهرة المعجزة بوقوفه على الصّدى الصّوتي للحروف المقطعة في فواتح هذه السور، ويمكن رصد معالم جهود "الزركشي" في النّقاط التّالية:

أ/ وقف عند بعض الصّفات التي لم يتناولها من قبله على غرار حروف الصّفير، وقد سرت عليها قوانين الحروف المقطّعة في الانتقاء، إذ لم يُذكر منها إلاّ حرفين اثنين هما: السّين والصّاد، واستثنيت الزّاي، وكذلك حروف اللّين: الواو والياء والألف، إذ لم يذكر منها سوى الألف والياء كما نبّه على ورود الحروف ذات الصّفات غير المتقابلة كالرّاء واللاّم وكذلك الشّأن بالنّسبة للألف الهاوية [3].

[1] – الزمخشري، الكشاف، ج01، ص: 139.

[2] – ينظر: الزمخشري، المصدر السّابق، ج01، ص:140..

[3] – ينظر: الزّركشي، البرهان في علوم القرآن، ج01، ص: 166.

ب/أحدث "الزركشي" المفارقة أيضا بوقوفه على أعداد أصوات في فواتح السور، وبيّن بأنّها خمسة أنواع منها ماورد على حرفٍ واحد، ومنها ماجاء على حرفين، ومنها ما أتى على ثلاثة وأربعة حروف، وأقصاها ماكان على خمسة أحرف[1].

ج/ توثّب"الزركشي" في تناوله للحروف المقطّعة وذهب أنّ لهذه الحروف المقطّعة أسرارا خفيّة، فذهب إلى أنّ ما بُدئ بحرف واحدٍ جُعل «اسما لشئ خاص»[2] ، وأمّا ما ابتدئ بثلاثة أحرف نحو ﴿أَلَمّ﴾، فإنّ هذا التّرتيب لهذه الأحرف وتوزيعها على هذا النّسق، قد يتضمّن أسرارا، ويومئ للطائف وأسرار جليلة، «وذلك أن الألف إذا بدئ بها أولا كانت همزة، وهي أول المخارج من أقصى الصدر، واللام من وسط مخارج الحروف، وهي أشد الحروف اعتمادا على اللسان، والميم آخر الحروف، ومخرجها من الفم ، وهذه الثلاثة هي أصل مخارج الحروف أعني الحلق واللسان والشفتين، وترتبت في التنزيل من البداية إلى الوسط إلى النهاية»[3].

أمّا حين إلصاقها بحرف آخر فهذا الحرف الزّائد يوحي بزيادة أخرى، على غرار إضافة الصّاد في ﴿أَلَمّ ص﴾ حيث إنّ هذه الصّاد تُحاكي بجرسها قصص الأنبياء وأقوامهم[4]، أي أنّه أشار إلى محاكاة أصوات اللّغة للأحداث. كما أبرز "الزركشي"أنّ السّور التي تُبتدأ ب: ﴿أَلَمّ﴾ تتضمّن الإشارة إلى مبدإ الخلق ونهايته وتوسّطه، كما تتضمّن الإشارة لوسطية الشّريعة وسماحتها[5]، ممّا يوحي أنّ هذه الحروف المقطّعة التي أفاض فيها العلماء دراسة وتنقيبا تتضمّن الكثير من اللّطائف والأسرار والمعاني الخفية.

[1] – ينظر: الزّركشي، البرهان في علوم القرآن، ج01، ص: 168.

[2] – المصدر نفسه، ج01، ص: 168.

[3] – الزّركشي، البرهان في علوم القرآن، ج01، ص: 168.

[4] – ينظر: بنت الشّاطئ، الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرق، ص: 149.

[5] – ينظر: الزّركشي، البرهان في علوم القرآن، ج01، ص: 168.

د/انتصر"الزركشي"أيضا لما ذهب إليه بعض البلاغيين ممّن جعلوا مخارج الحروف ثلاثة بدلا من ستّة عشر تأسّيا بالنّحاة، على غرار"يحي بن حمزة العلوي"[1].

هـ/ وقف "الزركشي" عند نقطة مهمّة جدّا تتمثّل في مسألة التّجانس الصّوتي في القرآن الكريم، وأشاد إلى حسن توزيعها وانتفاء ما يعكّر صفو تجاورها، أي: إنّه أثار ما أشار إليه "الجاحظ"و"ابن سنان" ودندنا حوله كثيرا حين أشارا إلى أثر تقارب الحروف وتشابه الصّفات وأثر ذلك في بناء الألفاظ.

وعليه وقف "الزركشي"عند حسن تجاور الطّاء مع السّين بقوله: «وتأمل اقتران الطاء بالسين والهاء في القرآن، فإن الطاء جمعت من صفات الحروف خمس صفات لم يجمعها غيرها وهي: الجهر، والشدة، والاستعلاء، والإطباق، والإصمات، والسين: مهموس، رخو، مستفل صفير، منفتح، فلا يمكن أن يجمع إلى الطاء حرف يقابلها، كالسين والهاء، فذكر الحرفين اللذين جمعا صفات الحروف»[2] المتعدّدة ممّا يدفع باللّفظة إلى السّلاسة في النّطق لحسن التّلاؤم بين صفات الحرفين.

و/ وقف "الزركشي"على مسألة صوتية جليلة تتمثّل في هيمنة صوت معيّن في بناء السّورة القرآنية ككل، حيث استشهد بالدّلالة الصّوتية لحرف القاف في سورة ﴿**ق**﴾، وما يتركه هذا الصّوت-القاف- بصفاته المتعدّدة من القلقلة والشدة، والجهر والانفتاح، ممّا يوحي بأنّ هذه السّورة مبنية على ألفاظ متضمّنة لنفس الحرف، يرسم في النّفس انطباعا معيّنا بهيمنة وخصائص حرف القاف.

توالت ألفاظ سورة ﴿**ق**﴾ تحت وطأة جرس حرف القاف توحي بالإنذار على غرار الألفاظ الآتية: القرآن، الخلق ، وتكرار القول ومراجعته مرارا ، والقرب من ابن آدم، وتلقي الملكين، وقول العتيد، وذكر الرقيب، وذكر السابق والقرين، والإلقاء في جهنم، والتقدم بالوعد

---

[1] - ينظر: يحي بن حمزة العلوي، الطّراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ج01، ص:58.

[2] - الزّركشي، البرهان في علوم القرآن، ج01، ص: 169.

وذكر المتقين، وذكر القلب، والتنقيب في البلاد، وذكر القتل مرتين، وتشقق الأرض ، وكلّها أهوال وعقبات يحاكيها حرف القاف بقوّة جرسه وقلقلته، وشدّة جهره وانفتاحه [1]، ممّا يرسّخ ما ذهب إليه "ابن جنّي"بقوله: «فإنّ كثيرا من هذه اللّغة وجدته مضاهيا بأجراس حروفه أصوات الأفعال التي عبّر بها عنها» [2]، ممّا يوحي بأنّ هناك عروة وثيقة بين الحروف وأصدائها أو بالأحرى بين الدّال والمدلول.

وفي خضمّ وقوفه على الصّدى الصّوتي للحروف أيضا وقف على سرّ حرف الصّاد الذي فُتحت به سورة ﴿صَ﴾ حيث أشار إلى مدى العمق الصّوتي لهذا الحرف ، الذي ينبئ بصداه عن تلك الخصومات المتعدّدة التي كان المشركون يقارعون بها النّبيّ عليه السّلام، إذ كان مستهلّ بداية التّشاكس بباب العقيدة والتّوحيد، مشنّعين على النّبي دحر آلهتهم وذمّه لها بقولهم: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾[3]، ثمّ انتقل الخطاب القرآني إلى الإخبار عن تلك الخصومة الشّديدة بين يدي داود عليه السّلام، ليردف ذلك توالي ذكر الخصومات الصّارخة لكلّ من أهل النّار، فاختصام الملأ الأعلى في العلم، ثم تخاصم إبليس واعتراضه على ربه حين أمره بالسجود، ثم اختصامه ثانيا في شأن بنيه، و قسمه-إبليس- بإغواء ذريّة آدم أجمعين إلا أهل الإخلاص منهم[4].

لقد كان لحرف الصّاد المطبق المستعلي، المصمت الصّفيري تمام الحضور في تحقيق الدلالة الصوتية لشدّ سمع المتلقّي لأصداء تلك الخصومات المتوالية عن طريق اصطكاك الصّاد وقوّة جرسه، فحرف الصّاد الصّفيري باعتبار الصّفير «آلية نطقية درجة الانفتاح معها أضيق من آلية الرّخاوة، وهذا يؤدّي إلى ارتفاع في صوت الحفيف الحادث عن الاحتكاك، حتّى يغدو

---

1 – ينظر: الزّركشي، البرهان في علوم القرآن، ج01، ص: 169.

2 – ابن جنّي، الخصائص، ج01، ص: 65.

3 – سورة ص، الآية: 05.

4 – ينظر: الزّركشي، البرهان في علوم القرآن، ج01، ص: 170.

صوتا يشبه الصّفير الحاد» [1]، الذي يوحي بصفاته لتلك الخصومات العنيدة، التي مهّد لذكرها حرف الصّاد أوّل السّورة، ممّا يجعلنا نحسّ بجو السّورة العام عن طريق فواتح السّور.

3- الأبعاد الدّلالية والصّوتية للحروف المقطّعة وآراء البلاغيين المفسّرين فيها

3-1- الأبعاد الدّلالية للحروف المقطّعة وآراء البلاغيين المفسّرين فيها

تباينت آراء البلاغيين والمفسّرين حول كنه الحروف المقطّعة ودندنوا حولها كثيرا في كتبهم وتفاسيرهم بغية الوقوف على أسرارها واستخراج معانيها، فكانت «كالمهيّجة لمن سمعها من الفصحاء، والموقظة للهمم الرّاقدة من البلغاء لطلب التّساجل والأخذ في التّفاضل، وهي بمنزلة زمجرة الرّعد قبل النّاظر في الأعلام لتعرف الأرض فضل الغمام، وتحفظ ما أفيض عليها من الإنعام، وما هذا شأنه خليق بالنّظر فيه، والوقوف على معانيه، بحفظ حدّ مبانيه » [2] فتشعّبت آراؤهم وشُحذت قرائحهم وتعدّدت فهومهم حولها، ويمكن الوقوف على أقوال البلاغيين المفسّرين في تناولهم للأبعاد الدّلالية للحروف المقطّعة كالآتي:

الرّأي الأول : ذهب أصحاب هذا الرّأي إلى القول بأنّ الحروف المقطّعة هي من المتشابه الذي لا يعلم كنه ه إلا الله عزّ وجلّ ، وانتصر لهذا الرّأي بعض من رعيل الصّحابة والتّابعين رضوان الله عليهم على غرار أبي بكر الصّديق والشّعبي، مرتكزين في ذلك أنّ هذه الحروف المقطّعة «علم مستور، وسر محجوب استأثر الله به، ولهذا قال الصّديق ﷺ: في كلّ كتاب سرٌّ، وسِرُّه في القرآن أوائل سوره، قال الشّعبي: إنّها من المتشابه، نؤمن بظاهرها ونكل العلم فيها إلى الله عزّ وجلّ »[3].

---

[1] – مُحَمّد زرقة، أسرار الحروف، ص: 93، 94.

[2] – الزّركشي، البرهان في علوم القرآن ، ج01، ص: 176.

[3] – الزّركشي، المصدر السّابق، ج01، ص: 173.

كما انتصر لهذا الرّأي "أبو حيّان التّوحيدي"(754هـ) بعد أن ساق العديد من أقوال المفسّرين المتباينة، فقال: «والذي أذهب إليه أنّ هذه الحروف التي في فواتح السّور هو من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه وسائر كلامه تعالى محكم »[1]، وسار على نفس الرّأي "الألوسي"وذكر أيضا الكثير من الأقوال، وانتصر للقائلين بأنّها من المتشابه الذي انفرد الله عزّ وجلّ بعلمه، واستند لرأي ابن عبّاس وأبي بكر الصّديق[2].

حذا حذو توجّه هؤلاء العلماء الكثير ممّن جاء بعدهم وانتصروا لرأيهم، ورأوا أنّ كل الشّطط–حسبهم– لمن ابتغى للحروف المقطّعة تأويلا أو رام تفسيرا، حيث كان ل "الشّوكاني" نظرة أعمق في تناوله الحروف المقطّعة بقوله: « إنّه متشابه المتشابه »[3]، للإشارة إلى خطر الخوض في البحث عن سرّ هذه الحروف المقطّعة الواردة في أوائل بعض السّور القرآنية.

الرّأي الثّاني: كان على النّقيض من الرّأي الأوّل من يقول بأنّه لا ينبغي أن يكون في كتاب الله مالا يُعرف لفظه، ولا يُدرك معناه، كون القرآن نزل بلسان عربي مبين، فقد أشار "الرّازي"(604هـ) إلى أقوال المتكلّمين والمأوّلين الخائضين في تفسير فواتح السّور القرآنية بقوله: «وقد أنكر المتكلّمون هذا القول، وقالوا: لا يجوز أن يرِد في كتاب تالله ما لا يفهمه الخلق واحتجّوا عليه بالآيات والأخبار والمعقول»[4].

1–أدلّة القائلين بأنّ الحروف المقطّعة من المتشابه

ارتكز القائلون بأنّ الحروف المقطّعة من المتشابه الذي لا يعلم سرّه إلا الله عزّ وجلّ على ثلاثة أسس هي الآيات القرآنية والأخبار والعقل:

---

1 – أبو حيّان الأندلسي، البحر المحيط، تح عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان)، ج01، ص: 158.

2 – ينظر: الألوسي، روح المعاني، تح إدارة الطّباعة المنيرية، دار إحياء التّراث العربي، بيروت(لبنان)، ج01، ص:100.

3 – الشّوكاني، فتح القدير، تح يوسف الغوش، دار المعرفة، لبنان(بيروت)، ج01، ص: 23.

4 – الرّازي، التّفسير الكبير، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت (لبنان)، ط01،(1401هـ–1981م)، (دت)، ج02، ص:04..

أ/ **الأدلة القرآنية** : استشهد القائلون بأنّ الحروف المقطّعة سرّ إلهي على مجموعة من الآيات القرآنية، تنفي –حسبهم- استحالة الإحاطة بسرّ هذه الفواتح القرآنية المميّزة على غرار قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آَيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آَمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[1]، فارتهن أصحاب هذا الرّأي إلى أنّ الحروف المقطّعة قد تكون من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه.

وربّما ممّا يعضّد هذا الرّأي الوقوف على الآية ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ثمّ الاستئناف بما بعدها ممّا يجعل تأويل هذه الفواتح موقوف على الله عزّ وجلّ وحده

ب/الأدلّة بالأخبار: استند المفسّرون البلاغيون في إظهارهم لرأيهم إلى بعض الأحاديث النّبوية والأخبار المتواترة عن الصّحابة والتّابعين، على غرار قول النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام: «إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله، فإذا أُنطقوا به أنكره أهل الغرة بالله» [2]، أي أنّ سرّ هذه الفواتح سرّ مقدّس لا يُدركه إلا من قذف الله في روعه فهمه وحسن معرفته.

ج/الأدلّة العقلية: ذهب"الرّازي" إلى ذكر الأدلّة العقلية التي رآها القائلون بأنّ الحروف المقطّعة سرٌّ إلهي استأثر الله بعلمه، إلى أنّه من الجائز «أن يأمرنا الله تعالى بأن نتكلم بما لا نقف على معناه، ويكون المقصود ظهور كمال الانقياد والتسليم من المأمور للأمر، كما جاز ذلك في الأفعال»[3]، إشارة منهم إلى محدودية العقل كغيره من الحواس الجسمية عن الإحاطة بمعرفة كلّ الأشياء.

2- أدلّة القائلين بأنّ الحروف المقطّعة ليست من المتشابه

[1] – سورة آل عمران، الآية: 07.

[2] – الرّازي، التّفسير الكبير، ج02،ص: 05.

[3] – المصدر نفسه، ج02، ص: 06.

ذهب أصحاب هذا الرّأي إلى حشد مجموعة من الأدلّة والاستشهادات لا تقلّ أهميّة للرّد على مخالفيهم، إذ«قال الجمهور من العلماء: بل يجب أن يُتكلّم فيها، وتُلتمس الفوائد التي تحتها، والمعاني التي تتخرّج عليها، واختلفوا في ذلك على اثني عشر قولا»[1]، مستندين في ذلك على أدلّة موازية من القرآن والأخبار والعقل.

أ/الأدلّة من القرآن : إتّكأ أصحاب هذا الرّأي وهم المتكلّمة على إعمال العقل في محاولة لإثبات مذهبهم القاضي بالقول بأنّ الحروف المقطّعة معلومة المعنى، وليست من المتشابه استنادا على أربعة عشر آية قرآنية سنذكر بعضا منها[2]، على غرار قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[3]، ممّا يوحي –حسبهم- أن لا داعي في التّدبّر إلا لمعلوم.

كما أنّ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ *عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾[4]، يوحي بأنّ الإنذار لا يكون إلا بمعلوم.

وكذلك قوله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾[5]، يقتضي أن لا يكون الاستنباط إلا من معلوم، فكيف يمكن طلب الاستنباط–حسبهم- من شئ مجهول.

كما أنّ وصف الله عزّ وجلّ لكلامه بأنّه هدى في كثير من الآيات القرآنية على غرار قوله تعالى: ﴿فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[6]، يقتضي أن لا تكون هذه الهداية إلا ناجمة عن معلوم.

هذه بعض الآيات التي ذكرها المتكلّمون لتعضيد رأيهم والانتصار لمذهبهم، بأنّ الحروف المقطّعة، وإن ظهرت مبانيها وتوارت معانيها، فإنّ هذا ليس بالضّرورة أن يرد في القرآن مجهول، وإنّما هو من باب التّحدّي الصّوتي وقرع الخصم الذي نزل القرآن بلسانه أن يأتي بمثلها بما تبقّى

1 – الثّعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تح الشّيخ علي محمّد معوّض وآخرون، دار إحياء التّراث العربي، بيروت(لبنان)، ط01، (1418هـ-1997م)، ج01، ص: 181.
2 – ينظر: الرّازي، المصدر السّابق، ج02، ص:04.:
3 – سورة محمّد، الآية: 24.
4 – سورة الشّعراء، الآية:192، 193، 194.
5 – سورة النّساء، الآية: 83.
6 – سورة البقرة، الآية: 02.

من حروف العربية وينسج على منوالها، فيرى الصّانع لذلك هل تتّسم الصّنعة بالجمال إن استطاع لذلك سبيلا [1].

ب/الأدلّة من الأخبار : ارتكز أصحاب هذا الرّأي في مذهبهم لمجموعة من الأحاديث والآثار على غرار استشهادهم بقول النّبيّ عليه السّلام« إني تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلّوا كتاب الله وسنّتي» ()، فرأوا أنّه يستحيل التّمسّك بمجهول بغية اجتناب الضّلالة [2].

ج/ الأدلّة العقلية: تتمثّل الأدلّة العقلية التي ساقها أصحاب هذا الرّأي في ما يلي:[3]

– بما أنّ الخطاب ورد بلسان عربي مبين، فإنّه يستحيل مخاطبتهم بما لا يفقهون، وإلاّ كان شأنهم كمن يُخاطب بلغة الزّنوج.

– الغرض من الخطاب الإفهام، إذ لايُعقل أن يُخاطب العربي الفصيح آنذاك بما لا يفقهه، لأنّ الله عزّ وجلّ قال ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾[4]، ولا يتحقّق التّبيين وتحضر الهداية إلا إذا كان المتلقّي والمرسل على شفرة واحدة.

– وقع التّحدّي بالقرآن الكريم، والتّحدّي لا يكون إلا بمعلوم.

3-2- الأبعاد الصّوتية للحروف المقطّعة وآراء البلاغيين المفسّرين فيها

من غير المعقول أن يكون وجود هذه الحروف المقطّعة في فواتح السّور عبثا، بل إنّها من صلب إعجاز القرآن الكريم وقوّته الأسلوبية الضّاغطة، فقد ذهب الخائضون في اغتراف بحر أسرار الحروف المقطّعة إلى تقفّي الدّلالات الخفيّة التي تقبع خلفها من منطلق أنّ كلام الله يستحيل أن يحمل في ثناياه ما يُجهل معناه، فقد ذهب أبو بكر بن العربي إلى القول بأنّ أقوال

1 – ينظر :الرّازي، التّفسير الكبير، ج02، ص:04.

2 – ينظر: المصدر نفسه، ج02، ص:04.

3 – ينظر: المصدر نفسه، ج02، ص:05.

4 – سورة إبراهيم، الآية: 04.

العلماء تتجاوز العشرين قولا ، توحي باجتهادهم في تفكيك الشّفرات الصّوتية لها [1]، ويمكن الوقوف على ملامح هذه الشّفرات الصّوتية للحروف المقطّعة لدى العلماء في النّقاط التّالية:

أ/ التّميّز الصّوتي لحروف العربية وعدم تساويها وتشابهها، سواء في المخارج أو الصّفات، وكذلك من حيث جمال جرس هذه الحروف وإيقاعها، إذ لا يحسن التّأليف بغيرها على غرار الثّاء والظّاء والغين مثلا، فإنّها لا تملك من النّصاعة والصّفاء مثل ما تملكه الحروف المقطّعة، وهذ ملمح من ملامح إعجاز القرآن في تمييز الأصوات اللغوية عن غيرها، فكان هذا كالتّقريع والتّعجيز لفصحاء المشركين، ورفع التّحدّي لهم أن ينسجوا بناء نحو هذا البناء الذي نزل بلسانهم، وقد كانوا من قبله أصحاب شعر فصيح وخطابة بليغة[2].

ب/من أسرار هذه الحروف المقطّعة وأصدائها الصّوتية أنّها تتضمّن بعد ذكر كل لفظ ذي حروف مقطّعة الإشارة إلى جلالة القرآن الكريم وعظمته، وقد انتظمت هذه الإشادة والإشارة في كلّ السّور التّسع والعشرين المفتوحة بالحروف المقطّعة، ممّا يوحي أنّ هذا المشاد به منتصر لا محالة، وظاهر أمره ومهيمن إعجازه، فأوصاف القرآن الكريم الواردة بعد كلّ ألفاظ الحروف المقطّعة من نفي الرّيبة كما هو في فاتحة سورة البقرة، وبأنّه مصدّق لما بين يديه في فاتحة آل عمران، ووصفه بأنّه مخرج من الظّلمات إلى النّور في فاتحة سورة إبراهيم، وغيرها من الأوصاف، كفيل بالإشارة إلى أنّ هذه الأصداء الصّوتية تحمل في ثناياها تمام الإعجاز والتّحدّي[3].

ج/تكاد الحروف المقطّعة تكون كالمفتاح للقلوب المغلّفة، فقد كان ديدن المخاطبين بهذا القرآن ولسان حالهم يقول: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[4]، فكانت هذه الحروف المقطّعة بأصدائها وأجراسها الصّوتية كالدّافع لهم لمواصلة الاستماع الذي نأوا عنه

[1] – ينظر: السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج03، ص: 27.
[2] – ينظر: المصدر نفسه، ج03، ص: 28.
[3] – ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تح مصطفى السّيّد محمّد وآخرون، مؤسسّة قرطبة للطّبع والنّشر والتّوزيع، الجيزة(مصر)، ط01، (1421هـ-2000م)، ج01، ص: 257.
[4] – سورة فصّلت، الآية: 26.

وأعرضوا، فتجلّى التّحدّي بأسمى معانيه بأصغر الوحدات الصّوتية(صامت+صائت) لإيقاظ وقرع القلوب المقفلة[1].

د/هناك إشارة صوتية لطيفة في المذكورات بعد هذه الحروف المقطّعة، تتبلور في ذكر القرآن الكريم بعدها إمّا بوصفه بالقرآن، وإمّا بالكتاب، حيث تتوسّط أحيانا أسماء الإشارة بين الحروف المقطّعة وذكر القرآن كما هو الشّأن في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ * ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[2]، بينما يأتي ذكر القرآن مباشرة إن كانت فاتحة السّورة تُبتدأ بمقطع صوتي واحد(ص ع) نحو فاتحة سورة ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾و﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ أو مَقْطعين نحو﴿ يس*وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ ، وهذا الملمح الصّوتي يتضمّن من الدّلالة الصّوتية الإيحائية للمتلقّي الاستعداد التّامّ للاستماع إلى ماسيقصّه القرآن الكريم ويمليه، فكانت كالتّنبيهات التي حلّت محل النّداء المألوف لدى العر آنذاك[3].

هـ/تحمل فواتح السّور ذات المقاطع الثّلاث﴿الٓمٓ﴾ سرّا عجيبا يتمثّل في ذكر مبدإ الخلق ووسطه والمعاد، الذي كان المشركون يكذّبون به وينكرونه، فقامت الأصداء الصّوتية لهذه الحروف ومخارجها بالتّلميح عن طريق مخرج الهمزة الحلقي البعيد لبدإ الخلق، واللاّم الواقعة وسط الجهاز الصّوتي تضمّنت الإشارة لوسط الخلق، بينما أشارت الميم الشّفوية إلى نهاية الخلق فترجمت المخارج الصّوتية الأبعاد الثّلاثية لهذه الحياة الدّنيا مثل ماهو ظاهر جليّ في سورة البقرة وآل عمران، وتنزيل السجدة، وسورة الروم [4].

---

[1] – ينظر: الزّمخشري، الكشّاف، ج01، ص: 136، والبحر المحيط، ج01، ص: 136.

[2] – سورة البقرة، الآية: 01،02.

[3] – ينظر طاهر بن عاشور. التّحرير والتّنوير، ج01، ص: 214، 215.

[4] – الزّركشي، البرهان في علوم القرآن، ج01، ص: 168.

و/تتجلّى أسمى الإيحاءات الصّوتية للحروف المقطّعة في الأصداء الصّوتية للحروف المفردة التي استفتحت بها بعض السّور القرآنية، فصوت الصّاد في فاتحة سورة ﴿صَ﴾بجرسه الصّفيري يحاكي بموسيقيته المميّزة الخصومات المتعدّدة التي اشتملت عليها السورة، سواءٌ خصومات النّبيّ عليه السّلام مع قومه، أو الصّخب واللغط بين يدي نبيّ الله داود، أو تَخاصُم أهل النار، ثمّ تَخاصُم إبليس واعتراضه على ربِّه بالسجود[1]، ممّا يوحي بأداء صوتي جديد يتمثّل في دلالة الحرف الواحد على المعنى العام للسّورة القرآنية.

كما يُلمح جليا دلالة المقطع الصّوتي المفرد (ص ع) على السورة القرآنية عامّة في كلّ من سورتي ﴿ق﴾و﴿ن﴾، حيث نستشفّ هيمنة هاذين الصّوتين في السّور التي بُدئتا بهما أين ذُكر حرف القاف في سورة ﴿ق﴾ (57) مرّة مع أنّ آياتها (45)، أمّا في سورة ﴿ن﴾ فقد تكرّرَ هذا الحرف فيها (124) مرّةً وآياتها (52)، وجميع فواصل هذه السورة تنتهي بحرف النّون إلاّ عشر آيات تنتهي بحرف الميم، الذي بحكم تجانسه صوتيا وموسيقيا مع النّون يضمن ديمومة الإيقاع العامّ للسّورة[2].

إنّ هذا التّوزيع العجيب الموجود في هذه السّور القرآنية هو ممّا يجعلّ التّالي للقرآن الكريم أثناء تقابله مع هذا النّوع من السّور يتأكّد تماما هيمنة صوت مميّز يضاهي بجرس حروفه أغراضا بيّنة تشتمل عليها السّورة القرآنية، ممّا يرفع السّتار عن أهمية الجانب الصوتي في القرآن الكريم بِأبع اده الإعجازيّة والدّلاليّة.

1 – الزّركشي، البرهان في علوم القرآن، ج01، ص: 169.

2 – الحسناوي مُحمَّد، الفاصلة في القرآن، دار عمّار للنّشر والتّوزيع، عمّان(الأردن)، ط 02، (1421هـ–2000م)، ص: 201.

المبحث الثالث: الظّواهر البديعية عند البلاغيين القدامى

تعدّ الظّواهر البديعية من الظّواهر الصّوتية التي اعتنى بها علماء البلاغة القدامى واستشرفوا لتقفّيها والوقوف على أسرارها الجمالية، فكان النّص القرآني الحقل الرّحب الذي تضمّن ضالّتهم لما تميّز به هذا الأخير من حسن صياغة التّعبير وجودة السّبك وحسن الانتقاء للظّواهر الصّوتية.

مفهوم علم البديع

لغة: البديع: المبدع، وأبدعت الشّئ أي: اخترعته، والبديع: على وزن فعيلٌ، أي: بمعنى اسم الفاعل نحو قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[1]، أي: خالقها و مبدعها، وأبدع أبلغ من بدع، وأبدع الشّاعر: جاء بالبديع[2].

اصطلاحا: عرّفه علماء البلاغة بأنّه: «علم يعرف به وجوه تحسين الكلام، بعد مراعاة مطابقة الكلام لمقتضى الحال ووضوح الدّلالة»[3].

بناء على هذه التّعريف، فعلم البديع غايته وماهيته تحسين جودة الكلام وإزالة الشّوائب العالقة به، وإظهاره في حلّة أسلوبية ورونق بلاغي جميل، والقرآن الكريم أعظم أسلوب بلاغي اشتمل على العديد من الظّواهر البديعية على غرار: الطّباق، الجناس، السّجع، المقابلة، التّورية المبالغة، وغيرها، حيث سنقف على بعضٍ منها ممّا له تساوق والطّرح الصّوتي.

الظّاهرة الأولى: الجناس الصّوتي

1– مفهوم الجناس الصّوتي لغة: الجناس في اللغة المشاكلة والاتّحاد في الجنس والجنس: الضّرب من كلّ شئ، يقال: هذا يجانس هذا، أي: يشاكله، والجنس أعم من النوع والجمع أجناس وجنوس، وكان الأصمعي يقول: إنّه من لغة المولّدين[1].

---

1 – سورة البقرة: الآية: 117.

2 – ينظر: ابن منظور، لسان العرب، المجلّد01، ج04، ص:230.

3 – علال نوريم، جديد الثّلاثة الفنون في شرح الجوهر المكنون، دار الكتاب العربي، الدار البيضاء (المغرب)، ط01، (1429هـ-2008م)، ج03، ص: 07.

اصطلاحا:الجناس في اصطلاح البد يعيين هو : «اتفاق الكلمتين في كل الحروف أو أكثرها مع اختلاف المعنى»[2].

بينما أقحم "أبو هلال العسكري "(395هـ) الملاءمة في تأليف الحروف بقوله: «التجنيس أن يورد المتكلم كلمتين، تجانس كل واحدة منهما صاحبتها في تأليف حروفها»[3].

بينما ذهب الإمام "السّيوطي" إلى نظرة عميقة في تعريفه للجناس مبيّنا ماهيته وأهمّيّته بقوله: الجناس هو تشابه اللفظين في لفظ، وفائدته: الميل إلى الإصغاء إليه، والتّجنيس: أن يتفق اللفظ ويختلف المعنى, ولا يكون أحدهما حقيقة والآخر مجاز, بل يكونا حقيقيتين[4].

2- أقسام الجناس الصّوتي ونماذجه في القرآن الكريم

اهتم العلماء قديما وحديثا بالجناس الصّوتي، وتقفّوا أثره الموسيقي ووقعه الإيقاعي، سواء في القرآن الكريم أو التّراث العربي، ف قسّموه أنواعا اعتمادا على الاستقراء الأمثلة و إعمال الفكر في احتمالات التقسيم ، ومن أبرز الخائضين في سبر أغوار هذه الظّاهرة الصّوتية: "أبو هلال العسكري"، فقد جعل الجناس في الفن الثالث من فنون البديع وسماه التجنيس [5]، أمّا "السكاكي" فقد جعله في القسم الثاني من كتابه مفتاح العلوم.

أمّا "ابن الأثير" فقد ذكره في النوع الثاني من الألفاظ المركّبة بعد السّجع وسماه تجنيسا وبيّن حقيقته وأهمّيّته [6]،كما دندن حوله "عبد القاهر الجرجاني " وعدّه من ضروب البلاغة وأُسسها، وأنّه ممّا يحسن به الكلام، فضلا عن تضمّنه جمال اللفظ والجرس، ومناجاة العقل

---

1 - ينظر: ابن منظور، لسان العرب، المجلّد:01، ج07، ص: 700.

2 - إبراهيم مصطفى، و شعبان عبد العالي عطية وآخرون، المعجم الوسيط، مكتبة الشّروق الدّولية، مصر، (د ت)، ط04، (1425هـ- 2004م)، ج01، ص: 140

3 - أبو هلال العسكري، الصّناعتين، ج01، ص: 320.

4 - السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج03، ص:271.

5 - ينظر: أبو هلال العسكري، المصدر السّابق، ج01، ص: 320.

6 - ينظر: ابن الأثير، المثل السّائر: ج01، ص: 263-268.

والنّفس [1]، كما وقف"الزركشي" عنده وسمّاه التّجنيس، وردّ على القائلين بندرة الجناس التّامّ في القرآن، ومايز بين تمثّلات الجناس من حيث الصّوامت والصّوائت، وذكر بأنّه من اللطائف الغريبة والأسرار العجيبة وركن إعجازي في القرآن الكريم[2].

قسّم علماء البلاغة الجناس إلى قسمين أساسيين هما: الجناس التّامّ والجناس النّاقص[3]، ينضوي تحت كلّ قسم منهما أنواع متعدّدة هي:

القسم الأوّل: الجناس التام: هو ما اتفق فيه اللفظان في ركنين أساسيين هما اتّحاد الحرفين والنّظام، لتتفرّع إلى أمور أربعة هي: أنواع الحروف وعددها، وحركة الحروف وترتيبها التّام ثلاثة أنواع هي: (المتماثل، المستوفَى، المركّب) [4]، ويمثّل البلاغيون للجناس التّامّ بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾[5]، حيث إنّ السّاعة الأولى في الآية بمعنى القيامة، أمّا السّاعة الثّانية فهي الزّمن الدّنيوي المعهود.

نلاحظ رغم أنّ جرس اللفظتين وتساويهما في الصّوامت والصّوائت، وإيقاعهما مُشتركا باستثناء التّعريف في الأولى إلا أنّ المعنى مختلف بينهما [6]، وكأنّ القرآن الكريم بأسلوبه يهدف إلى تعمّد نغم موسيقي يزيد في دلالة الآية ونصاعتها عن طريق هذا النّمط التّشكيلي، لأنّ استبدال السّاعة –مثلا– بلفظة القيامة، وإن كانت مرادفة لها، فهي أقلّ لذّة لعدم تناسب جرسها وإيقاعها مع سياق الآية العام

[1] – ينظر: دلائل الإعجاز، ص: 524، وأسرار البلاغة، ص:06، 07.
[2] – ينظر: الزّركشي، البرهان في علوم القرآن، ج03، ص: 450و454.
[3] – ينظر: علال نوريم، جديد الثّلاثة الفنون في شرح الجوهر المكنون، ج03، ص: 50.
[4] – ينظر: المرجع نفسه، ج03، ص: 35 ،36.
[5] – سورة الرّوم، الآية: 55.
[6] – ينظر العلوي، الطّراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ج02، ص: 185.

القسم الثاني الجناس الناقص: هو أن يختلف اللفظان في أحد الأمور الأربعة التي يشتغل عليها الجناس وهي: أعداد الحروف، أنواعها، ترتيبها، هيئتها [1]، وقد قسّمه البلاغيون إلى تفريعات وملحقات فيها من الإسراف والتّعقيد ماتستغني عنه الدّراسة الأكاديمية، مع قلّة شواهده في القرآن الكريم[2]، وقد اشتمل القرآن الكريم بعض نماذج الجناس النّاقص على غرار الآيات التّالية:

أ/الجناس النّاقص من حيث عدد الحروف: قد يعتري التّغيّر في الحروف بداية اللفظة، أو وسطها، أو آخرها، وقد مثّل السّيوطي للجناس الناقص من هذا النوع بقوله تعالى: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾[3]، حيث أضيفت الميم في لفظة (الْمَسَاقُ)، وهو عنده جناس واقع في عدد الحروف[4].

ب/ الجناس المضارع: وعرّفه السّيوطي بقوله: « وهو أن يختلفا بحرف مقارب في المخرج، سواء كان في الأوّل أو الوسط أو الآخر »[5]،وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾[6]، أي: أنّ الجناس وقع بين اللفظين(يَنْهَوْنَ) و(يَنْأَوْنَ)، وهو الجناس النّاقص النّاقص من حيث أنواع الحروف، وهو جناس مضارع لتوافق الحرفين المتمايزين في نفس المخرج[7]، فكلّ من الهمزة والهاء يشتركان في المخرج الحلقي، ممّا يدع النّغم الموسيقي للآية يحافظ على وتيرته.

---

1 – ينظر: علال نوريم، جديد الثّلاثة الفنون في شرح الجوهر المكنون، ج03، ص: 40.

2 – ينظر: هدى صيهود زرزور العمري، المظاهر الأسلوبية وأثرها الأسلوبي في التّعبير القرآني، رسالة ماجستير، إشراف: أد إياد عبد الودود عثمان الحمداني، كلية التربية للعلوم الإنسانية (قسم اللغة العربية)، جمهورية مصر، السنة: (1434هـ-2013م)، ص: 342، 343.

3 – سورة القيامة، الآية: 29، 30.

4 – ينظر: السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج03، ص: 272.

5 – المصدر نفسه، ج03، ص: 272.

6 – سورة الأنعام، الآية: 26.

7 – ينظر: علال نوريم، المرجع السّابق، ج03، ص: 41.

ج/الجناس اللاّحق: يكون نوع الجناس لاحقا، أي: متباعد الحرفين اللذين وقع عليهما الجناس النّاقص من حيث المخرج، فهو بخلاف الجناس المضارع نحو قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾[1]، فقد وقع الجناس بين اللّفظتين (هُمَزَةٍ)و(لُمَزَةٍ) إلا أنّ البون شاسعٌ بين الهمزة واللاّم في أوّل الكلمتين من حيث المخرج، فاللاّم من أدنى حافتيّ اللسان إلى منتهى طرفه، مع مايحاذيهما من منبت الأسنان العليا، أمّا الهاء فهي من الحلق.

د/جناس القلب: هو الجناس النّاقص من حيث ترتيب الحروف ، ويسمّى جناس القلب، لانّ الحروف تقلّب فيه تقديما وتأخيرا، وهو عند البلاغيين ثلاثة أقسام: جناس قلب كلّ نحو: فتح وحتف، وجناس قلب بعضٍ نحو: حريقا ورحيقا، وجناس قلب مجنّحٍ وهو موجود في الشّعر[2]. نحو قول القائل:[3]

ساقٍ قلبه يُريني قسوةً وكلّ ساقٍ قلبه قاسٍ

تعدّد أنواع الجناس النّاقص إلى عدّة أنواع نذكر منها مايلي:

ه/الجناس المحرّف: هو ما اختلف فيه اللفظان في حركة الحروف، واتفقا في نوعها وعددها وترتيبها، أي: أن التّجانس يقع بهيئة الحروف، أي: في شكلها[4]، نحو قوله عز وجل: وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِين ﴾[5]، وبتميّز هذا النّوع من الجناس بأنّه يشتغل على الصّوائت لا على الصّوامت، فاللّفظتين (مُنْذِرِينَ) و(الْمُنْذَرِين) مشتركتين في هيكل اللّفظة وشكلها، إلا أنّ الصّوائت تتحكّم في دلالة اللّفظتين، حيث إنّ جرس اللّفظتين يتغيّر في حرف الذّال كسرا وفتحا ممّا يوحي بالتّمايز بين اللفظتين من خلال إيقاع حروفهما.

1 – سورة الهمزة، الآية: 01.

2 – ينظر: نوريم، جديد الثّلاثة الفنون في شرح الجوهر المكنون، ج03، ص: 43.

3 – ديوان الشّاب الظّريف، تح شاكر هادي شكر، مطبعة النّجف، العراق، (1387هـ-1967م)، ص:150..

4 – ينظر: علال نوريم، المرجع السّابق، ج03، ص: 46.

5 – سورة الصّافات، الآية: 72، 73.

و/ **الجناس المصحّف:** ويسمّى «جناس الخطّ، بأن تختلف الحروف في النّقط »[1]، ويمثّل له البلاغيون من القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[2]، نلاحظ أنّ هذا اللّون من الجناس يشتغل على بنية اللّفظة وشكلها، حيث تعمل النّقاط على تبيان المعنى وإظهار الفرق بين اللّفظتين، حيث جاءت كلّ فواصل هذه الآيات محذوفة الياء موافقة للفظة الدّين، حيث إنّ فواصل الآيات حسب الزّمخشري تتوخّى المطابقة والمجانسة المذكورة للآيات حتّى ترِد وفق إيقاع واحدٍ[3].

قد يجتمع الجناسين المصحّف والمحرّف معا نحو قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[4]، فيحدث نغما موسيقي وجرسا صوتيا تستلذّه الأذن، ولا سيما أنّ الآية وردت بعد ذكر مآل الكافرين والخاسرين أعمالا والأشنع أحوالا، فيكون هذا الجناس المزدوج كقرع للآذان والأفئدة لتنبيهها لأمر عظيم.

3 ملحقات الجناس: من الأهمية بمكان التعرض بعد الحديث عن الجناس التام والناقص والوقوف على بعض أنواعهما ، الإشارة إلى ملحقات الجناس وهي ثلاثة أنواع:

3-1-الجناس المزدوج : وهو يطلق على اللّفظين المتجانسين إذا تجاورا، وهو من الجناس المعنوي عند البلاغيين[5] ، نحو قوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[6].

يتجلّى الجناس المزدوج بين اللّفظتين (سَبَإٍ)و (بِنَبَإٍ)، حيث يقرع أذن المتلقّي روعة التّناسب بين اللّفظتين، لحسن وجمال خاتمة كلّ منهما عن طريق التّنوين، يعضّدهما في ذلك جرس التّنوين الثّاث في لفظة (يَقِينٍ) ممّا يجعل إيقاع الآية يأخذ بمجامع النّفوس، وهذا من

1 - السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج03، ص: 271.
2 - سورة الشّعراء، الآية: 79، 80.
3 - ينظر: الزّمخشري، الكشّاف، ج04، ص:398.
4 - سورة الكهف، الآية: 104.
5 - ينظر: علال نوريم، جديد الثّلاثة الفنون في شرح الجوهر المكنون، ج03، ص: 46، وجواهر البلاغة، ص: 329.
6 - سورة النّمل، الآية: 22.

محاسن الكلام الذي يتعلّق باللّفظ، الذي لا يتحقّق إلا بصنعة عالم بجواهر الكلام، يحفظ له عن طريق الإيقاع صحّة المعنى وسداده، فلفظ الخبر مطابق للفظ النّبإ، إلا أنّ استبدالها يخرم الجوّ الموسيقي العام للآية[1].

3-2- جناس الاشتقاق : ويسمّى جناس الاقتضاب، والمقتضب، وهو أن يجتمع اللّفظان في أصل الاشتقاق[2]، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي وجهتُ وجهي للذي فطرَ السماوَاتِ والأرضَ حَنيفًا﴾[3] ، حيث وقع التّجانس بين اللفظين(وجهتُ)و(وجهي)، إلا أنّ معنى اللفظتين متغاير تماما، لأنّ الأولى بمعنى اتّجهت، أمّا الثّانية فهي جزء من الجسم، فتحقّق هذه الخاصية الصّوتية أثرا حسنا في الصّوت، ووقعا جميلا في القلب.

3-3-شبه جناس الاشتقاق : ويمثّل البلاغيون لشبه جناس الاشتقاق بقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴾[4]، وكذلك: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[5]، باستقراء الآيتين نستشفّ أنّ جرس جرس الحروف في أوّل الآيتين ونهايتهما متقارب وفق مايقتضيه قانون تجانس الاشتقاق، إلا أنّ المعنى لا يتوافق بينهما، فالأولى بمعنى القول، والثّانية بمعنى البغض لعمل المشركين[6].

وكذلك هو الشّأن في الآية الثّانية، فشبهُ اشتقاق التّجانس بين اللّفظتين (مِداداً) و (مَدداً) موجودٌ رغم التباعد في المعنى، لأن الأولى بمعنى الحِبر، والثانية بمعنى الزيادة، فاللفظان رغم التقارب والاشتراك في الجذر اللغوي وفق ما يقتضيه قانون الاشتقاق، إلا أنهما متباينان في

1 – ينظر: الزّمخشري، الكشّاف، ج04، ص: 447.
2 – ينظر: الإتقان في علوم القرآن، ج03، ص:273..
3 – سورة الأنعام، الآية: 79.
4 – سورة الشّعراء، الآية: 168.
5 – سورة الكهف، الآية: 109.
6 – ينظر: علال نوريم، جديد الثّلاثة الفنون في شرح الجوهر المكنون، ج03، ص: 47.

الدلالة وهنا مربط الفرس في أداء جناس الاشتقاق، ليكفل الوحدة الذهنية للمتلقي عن طريق النّغم الموسيقي لما يوجد من بعض التباعد في الدلالة الخفية بين الكلمتين.

يلوحُ للمتأمّل في الآية وجود وشائج بين الكلمتين لتشابه الحروف المكوّنة لهما، ممّا يمنح النص عمقا دلاليا في التقارب في المعنى، بين حركة الامتداد لماء البحر وكتابة كلمات الله التي لا تنفد، وهذا غاية ما يريد الله عز وجل أن «يخبر به على لسان أحد رسله، بأن يكتب حرصا على بقائه في الأمة، وشبهت معلومات الله المخبر بها والمطلق عليها كلمات بالمكتوبات ورمز إلى المشبه به بما هو من لوازمه وهو المداد الذي هو الكتابة »[1]، وهذا ملمح من ملامح بلاغة القرآن الكريم تجلّى عن طريق التّجانس الصّوتي.

الظّاهرة الثّانية: الطّباق في القرآن الكريم

يعتبر الطّباق من المحسّنات البديعية الموجودة في القرآن الكريم، فهو من أجلّ الصّناعات اللفظية في النّصّ القرآني، فلا يقلّ أثره في إظهار روعة القرآن وسر فصاحته وبلاغته ، التي تزيد أسلوب القرآن الكريم جمالا ورونقا.

1- مفهوم الطباق:

لغة: عرّفه "ابن منظور" بقوله: طابقه مطابقة وطباقا، وتطابق الشّيئان: تساويا، والمطابقة: الموافقة، وطابقت بين الشّيئين إذا جعلتهما على حذوٍ واحدٍ، وطابق بين قميصين: أي: لبس أحدهما على الآخر، والسّماوات الطّباق: سمّيت بذلك لمطابقة بعضها لبعض[2].

اصطلاحا: هو الجمع بين معنيين متقابلين، سواء أكان ذلك التقابل تقابل التضاد أو الإيجاب والسلب أو العدم والملكة أوالتضايف، أو ما شابه ذلك، وسواء كان ذلك المعنى

---

[1]- طاهر بن عاشور ، التحرير والتنوير، ج16، ص: 52.

[2] – ينظر: ابن منظور، لسان العرب، المجلّد 04، ص: 2636.

حقيقيا أو مجازيا[1]، وعرّفه آخرون بقولهم: الطّباق: الجمع بين الشّئ وضدّه في الكلام، وهو نوعان: طباق إيجاب، وطباق سلبٍ [2].

وعرّفه "ابن المعتزّ"(399هـ) نقلا عن الخليل بقوله: «طابقت بين الشّيئين إذا جمعتهما على حذوٍ واحدٍ» [3]

من خلال هذه التّعاريف فإنّ الطّباق هو لون بديعي بلاغي، و «ركن من أركان البناء اللغوي والبيباني، الذي زخرت به النّصوص العربية شعرا ونثرا، وليس مجرّد شكل من أشكال الزّينة والحشو الذي يرهق النّصّ بما لا فائدة ولا جدوى منه »[4]، فهو يشتغل على الجمع بين الألفاظ المتضادّة، بهدف استمالة المتلقّي وتنبيهه، وقد غني النّصّ القرآن بهذا اللّون البديعي على غرار قوله تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾[5]، حيث ورد الطّباق بين اللّفظتين (أيقاظا) و(رقود).

2- مظاهر الطّباق: يرى البلاغيّون أنّ الطّباق يتمظهر في عدّة أشكال هي: [6]

أ/ أن يأتيَ بين اسمين نحو قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآَخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾[7].

ب/أن يرد بين فعلين نحو: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا﴾[8].

---

1 - أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع، دار الكتب العلمية، بيروت(لبنان)، ط03، (1414هـ-1993م)، ص: 320.

2 - ينظر: علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، (البيان،المعاني، البديع)، دار المعارف، مصر، (دط)، ص: 281.

3 - ابن المعتزّ، البديع، تح: عرفان مطرجي، مؤسسة الكتب الثّقافية، بيروت(لبنان)، ط 01، (1433هـ-2012م)، ص:48.

4 - هدى صيهود زرزور العمري، المظاهر الأسلوبية وأثرها الأسلوبي في التّعبير القرآني، ص:39.

5 - سورة الكهف، الآية: 18.

6 - ينظر: السّيّد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 303.

7 - سورة الحديد، الآية: 03.

8 - سورة الأعلى، الآية: 13.

ج/ أن يرد بين حرفين، نحو قوله تعالى: ﴿لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[1].

د/ أن يرد مختلفا عن ما سبق، فقد يأتي بين فعل وحرف نحو: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[2]، أو بين اسمٍ وفعلٍ نحو: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾[3].

3-أقسام الطّباق وأنواعه

ذهب البلاغيون في تحديد أنواع الطّباق إلى قسمين هما: [4]

3-1- طباق الايجاب: وهو مالم يختلف فيه المتضادّين إيجابا وسلبا، نحو قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ﴾[5]، حيث وقع الطّباق بين (تُؤْتِي) وَ(تَنْزِعُ) وبين وَ(تُعِزُّ) وَ(تُذِلُّ) .

3-2- طباق السّلب : هو ما اختلف فيه الضّدّان إيجابا وسلبا، حيث يجمع بين الفعل وضدّه، بإثبات أحدهما ونفي الآخر، نحو قوله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾[6]، حيث وقع الطّباق بين (يَسْتَخْفُونَ) وَ(لَا يَسْتَخْفُونَ).

4- الأبعاد الصّوتية والدّلالية للطّباق

لا شكّ أنّ لورود الطّباق في القرآن أبعادا دلالية وصوتية لا يستهان بها، فالإيقاع الذي ينجم عن جرس الحروف أثناء الطّباق، هو من المظاهر البلاغية التي تؤدّي إلى إفرازات دلالية، توحي إلى ترسيخ معانٍ معيّنة، ويمكن التّعرّض لبعض هذه الأبعاد كالآتي:

أ/ **العمل على زيادة تحقيق الإفهام:** يهدف الطّباق للإشارة إلى معانٍ معيّنة عن طريق الأثر السّمعي الذي يتركه في المتلقّي، فقد «يذكر الطّباق ويراد به أحوال الكلمات لمعانيها،

---

1 - سورة البقرة، الآية: 228.

2 - سورة الرّعد، الآية: 33.

3 - سورة الأنعام، الآية: 122.

4 - ينظر: السّيّد أحمد الهاشمي، جواهر الأدب في المعاني والبيان والبديع، ص: 303.

5 - سورة أل عمران، الآية: 26.

6 - سورة النّساء، الآية: 108.

فالكلام المطابق هو الذي تتنزّل فيه الأحوال على وفق المعاني »[1]، ويمكن التّمثيل لذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾[2].

يهدف أسلوب القرآن الكريم في هذه الآيات إلى تحقيق الموازنة بين هذه الأضداد عن طريق الطّباق والجمع بينهما في حيّز صوتي واحد[3]، ولا سيما أنّ سياق الآيات يتعرّض بطريقة لطيفة لنظم هذه التّمثيلات، للموازنة بين عدّة أطراف على غرار البحرين المالح والأجاج وتنزيلهما منزلة الصّالحين والطّالحين والمؤمنين والكافرين، ممّا يستدعي حشد التّطابق للأمور المحسوسة كالبصر، والظّلمة والنّور لتقريب الإفهام[4].

ب/ استكشاف البنية العميقة للنّصّ القرآني : يهدف الطّباق إلى استكشاف البنية العميقة للنّصّ القرآني، دون الوقوف على الدّال الصّوتي منفردا نحو قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾[5]، إذ إنّ ظاهر الآية يتضمّن المطابقة بين اللّفظين (أَسِرُّوا) و(اجْهَرُوا) كحضور بديعي يزيد النّصّ القرآني جمالا، إلاّ أنّ ما وراء هذا الطّباق هو ملمح عقدي يومئ لسعة علم الله وكمال قدرته على معرفة بواطن الإنسان وعمق تفكيره، والإحاطة بضمائر النّفس قبل ترجمة الألسنة عنها[6].

ج/ تحديد الدّلالة الحقيقية بين الدّال والمدلول : يعمل الطّباق أيضا على رفع ملابسات الخطاب القرآني، والعمل على رفع الغموض والوقوف على المعاني الحقيقية للآيات ويوجد ذلك في الطّباق الموجود بين الحرفين، ويمكن التّعرّض لذلك من خلال الوقوف على

---

1 – مُحَّد حسنين أبو موسى، البلاغة القرآنية في تفسير الزّمخشري وأثرها في الدّراسات البلاغية، دار الفكر العربي، القاهرة (مصر)، (د ط)، ص: 465.

2 – سورة فاطر، الآيات:19-21.

3 – ينظر: أحمد أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، مطبعة نهضة مصر، مصر، (2005م)، ص: 142.

4 – ينظر: الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، ج 22، ص: 186، والزّمخشري، الكشّاف، ج05، ص: 150.

5 – سورة الملك، الآية: 13.

6 – الزّمخشري، الكشّاف، ج06، ص: 174.

المطابقة بين الحروف نحو قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[1]، حيث وقف "الزّمخشري" على أحد طرفي الطّباق (من) وأشار إلى دلالته المتمثّلة في كون الرّحلة تمّت في جزء يسير من اللّيل [2]..

تعمل المطابقة النّاشئة بين الحرفين (مِنَ) و(إِلَى) على الكشف عن الدّلالة الخفيّة لهذه الدّوال التي تبيّن ماهية هذه الرّحلة، والوقوف على مبتداها ومنتهاها، في ظلّ الالتفات إلى الدّلالة المعجمية التي أحدثها أسلوب الطّباق بين الحرفين (مِنَ) و(إِلَى)، مايبيّن أهميّة ثراء الصورة الطّباقية التي تتخذ من الحرف وسيلة للتّعبير عن المتضادّات[3].

د/المحافظة على النّغم الموسيقي: يعمل الطّباق على إحداث جوّ موسيقي معيّن بامتياز أثناء تخلّله للآيات أو السّور القرآنية، فيزيد في ثرائها الأسلوبي، ويُكسبها خصوبة وعذوبة، فهو ملمح جمال يزيد من رونق الكلام وبهجته، ونصاعة الأسلوب وقوّته، ولا سيما إذا اقترنت المطابقة مع لون بديعي آخر كالمقابلة أو السّجع أو الجناس[4].

يهيمن الأداء الموسيقي للآيات القرآنية في سورة النّجم على غرار الآيات التّالية: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى *وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا *وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾[5]، حيث يسير الإيقاع بين الألفاظ المتطابقة (أَضْحَكَ وَأَبْكَى) و (أَمَاتَ وَأَحْيَا) وَ (الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى)، دون تقديم لفظة على الأخرى، محافظة على الفاصلة القرآنية المتمثّلة في الألف المقصورة التي تنتهي بها جلّ آيات سورة النّجم، ممّا يزيد السّورة عن طريق هذه الأداة الإجرائية- المحافظة على الفاصلة- انسجاما واتّساقا بين أطرافها، و «تتكشف للناظر في القرآن آفاقٌ وراء آفاق، من

1 - سورة الإسراء، الآية: 01.
2 - ينظر: الزّمخشري، المصدر السّابق، ج03، ص: 492.
3 - ينظر: هدى صيهود زرزور العمري، المظاهر الأسلوبية وأثرها الأسلوبي في التّعبير القرآني، ص:47، 48.
4 - ينظر: ابن المعتزّ، البديع، ص: 59، 60.
5 - سورة النّجم، الآية: 43-45.

التناسق والاتساق، فمن نظمٍ فصيح إلى سردٍ عذبٍ إلى معنى مترابط إلى نسقٍ متسلسل»[1] يترسّخ في الآذان ويخاطب الوجدان.

الظّاهرة الثّالثة: المقابلة

1 – مفهوم المقابلة لغة : قال ابن فارس: « القاف والباء واللام أصل واحد صحيح تدل كَلِمُهُ كلّها على مواجهة الشيء للشيء» [2] ، وقال الخليل: «القِبل: الطاقة، تقول :لا قبل لهم، وفي معنى آخر هو التلقاء، تقول: لقيته قبلاً أي مواجهة» [3].

قال "ابن سيده "(458هـ): «قابل الشيء بالشيء مقابلة، وقبالا:عارضه...وتقابل القوم: استقبل بعضهم بعضا، وقوله تعالى في وصف أهل الجنة: ﴿ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾[4]، وجاء في التفسير : أنه لا ينظر بعضهم في أقفاء بعض»[5].

من خلال ماسلف من التّعاريف نستخلص أنّ المقابلة تتمثّل في المواجهة بين شيئين.

اصطلاحا: اختلف البلاغيون في تحديد مفهوم المقابلة، حيث عرّفها الخطيب القزويني وجعلها رِدفا للطّباق ومن مادّته بقوله: المقابلة هي «أن يُؤتى بمعنيين متوافقين، أو معانٍ متوافقة ثمّ بما يقابلهما أو يقابلها على التّرتيب، والمراد بالتّوافق خلاف التّقابل» [6].

وعرّفها **"**المراغي**"** بقوله: «المقابلة هي أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر ثمّ يؤتى بما يقابل ذلك على سبيل الترتيب»[7].

---

1 – سيّد قطب، التّصوير الفنّي في القرآن، ص: 142.

2 – ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة، ج05، ص: 51.

3 – الخليل بن أحمد، كتاب العين، ج03، ص: 355.

4 – سورة الحجر، الآية: 47.

5 – ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم في اللّغة، تح عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت(لبنان)، ط01،(1421هـ- 2000 م)، ج6 ، ص: 429.

6 – الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة(المعاني والبيان والبديع)، دار الكتب العلمية، بيروت(لبنان)، ، ج 02، ص:353.

7 – أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع، ص: 322.

نستشفّ من خلال هذه التّعاريف أنّ المقابلة لون بديعي يشتغل على إحداث التّقابل بين عدّة معانٍ متباينة، عن طريق ألفاظٍ متعدّدة، ممّا يوحي بوجود فرق بين الطّباق والمقابلة عند البلاغيين، فقد بيّن "السّيوطي"(911هـ) ثمرة الخلاف بينهما نقلا عن أبي الأصبع المصري من وجهين هما:[1]

أحدهما: أن الطباق لا يكون إلا من ضدين فقط، أمّا المقابلة فلا تكون إلا بما زاد من الأربعة إلى العشرة.

الثّاني: أن الطباق لا يكون إلا بالأضداد، والمقابلة بالأضداد وبغيرها.

2- أنواع المقابلة في القرآن الكريم

بما أنّ القرآن الكريم حاز شامخات الشّرف في التّوظيف البلاغي، فلا شكّ أنّه اشتمل على هذا اللّون البديعي (المقابلة)، فقد غنيت به آيات الذّكر الحكيم ، ويمكن الوقوف على أنواع المقابلة كالآتي:

أ/مقابلة لفظين بلفظين: ورد في القرآن الكريم من هذا النّوع نحو قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾[2]، ورد التّقابل بين (الضّحك والبكاء)و(القلّة والكثرة).

ب/مقابلة أكثر من ثلاثة ألفاظ بمثلها: وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾[3]، حيث جرى التّقابل اللّفظي بين الألفاظ الثّلاثة (يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ) وَ(يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ)، وقد تقع المقابلة أيضا في أربعة ألفاظ نحو قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى *فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى *وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى *فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾[4].

[1] - ينظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج03، ص: 285.
[2] - سورة التّوبة، الآية: 82.
[3] - سورة الأعراف، الآية: 157.
[4] - سورة اللّيل، الآية: 5-10.

ج/مقابلة سورة بسورة أخرى: يتسنّى للمتأمّل في القرآن الكريم أثناء التّبحر في سُورِه خاصّة القصار منها، أنّ الكثير منها وردت متقابلة تزيد في تحقيق المشاهد وترسيخ الإعجاز الصّوتي للمقابلة، عن طريق التّباين الأسلوبي للسّورة القرآنية الذي يغذوه الوقع الصّوتي للحروف، مثلما تعرّض له "أبو حيّان الأندلسي" في تفسيره لسورة (القارعة) ومقابلتها بالتي قبلها سورة (العاديات) للمناسبة الجامعة بينهما، فالأولى خُتمت ببعثرة القبور، وقابلتها سورة القارعة بالتّعرّض لماهية البعث وبعض حيثياته[1]، مع العلم أنّ لكلّ سورة إيقاع خاصّ بها ونغم تستقلّ به يختلف عن الأخرى.

ويمكن الوقوف على الأثر الصّوتي وجرس الحروف في السّور القرآنية المتقابلة، على غرار سورتي الفلق والنّاس، فرغم أنّ السّورتين متشابهتين، إلا أنّ الأولى يهيمن عليها الحروف المجهورة(اللام، القاف، الغين، الباء، الدّال) التي تحاكي الأجسام المادّية والجسمانيات من الغاسق والنّافث والحاسد، بينما سورة النّاس بحروفها المهموسة(السّين، الخاء، الصّاد) تُحاكي الخفاء المتمثّل في النّفس الإنسانية ووسوسة الشّياطين[2].

3-لأبعاد الصّوتية والدّلالية للمقابلة

لا شكّ أنّ للمقابلة في القرآن الكريم أبعادا دلاليا وصوتية تنجم عن الفواصل القرآنية والتّقابلات النّاشئة بين الألفاظ المتضادّة، إذ يعمل جرس الأصوات ووقع الحروف على تحقيق وإتمام الفائدة التي بها تتحقّق غاية الإفهام والتّيسير، ويمكن الوقوف على بعض هذه الأبعاد كالآتي:

أ/ تناسب الألفاظ و المعاني المتقابلة: تتناسب المعاني في القرآن الكريم وفقا لألفاظها المعبّرة عنها، حيث يقع التّقابل في النص القرآني بين ألفاظه، ممّا يزيدها لذة وإثارة ويجعل المعاني

1 - ينظر: الواحدي، البحر المحيط، ج08، ص: 503.

2 - ينظر: مُحَّد عبد القادر شاهين، حاشية محي الدّين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي، تح مُحَّد عبد القادر شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت(لبنان)، ط01، (1419هـ-1999م)، ج08، ص:736، 737.

أكثر وضوحا وبيانا، نحو قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾[1].

نلمح في هذه الآية مجموعة من التّقابلات بين الآيات عن طريق الألفاظ (يَلِجُ/يَخْرُجُ) وكذلك (يَنْزِلُ/يَعْرُجُ)، وما سبقها من الألفاظ المتطابقة في فاتحة السّورة، حيث يعمل جرس حروف الألفاظ المتقابلة على تنبيه الذّهن للإحساس بجلالة الآية وقدرها، فتزداد هذه الألفاظ بوقعها تعانقا مع المعنى البياني للآيات، للتنبيه على موقف المشركين من عدم إيمانهم بالله حيث ذهب "ابن عطيّة"(546هـ) إلى القول بأنّ الآية خرجت عن أساسيات الألفاظ المعهودة [2] للدّلالة عن طريق التّقابلات لشناعة المواقف الشّركية ودحرها.

ب/ التّأثير الأسلوبي البلاغي: يتمخّض عن توخّي النّص القرآني لهذه الأداة الإجرائية المتمثّلة في المقابلة التّأثير الأسلوبي، الذي عن طريقه تتحقّق غاية الإقناع والإرشاد، فينتج النّصّ متكاملا روعة وجمالا، وقد ذهب "حازم القرطاجني"(684هـ) للإشارة إلى أنّ من حسن التّصرّف في المعاني اقتناص مايناسبها ويقاربها من الألفاظ، وجعل هذه المعاني المتقابلة في حيزين متقابلين، فقد يتجلّى المعنى عن طريق التّضادّ بالتّطابق والمقابلة[3].

يمكن الوقوف على هذا الملمح الجمالي التّأثيري لأسلوب القرآن الكريم من خلال قوله تعالى:﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى *فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى *وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى *وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى *فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾[4]، حيث وقعت المقابلة في حيّزين بين عدّة ألفاظ هي (أَعْطَى/اتَّقَى/صَدَّقَ/الْيُسْرَى) وبين(بَخِلَ/اسْتَغْنَى/ كَذَّبَ/الْعُسْرَى) حيث يتأتّى للمتمعّن في

[1] – سورة الحديد، الآية: 04.

[2] – ينظر: ابن عطيّة، المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح عبد السّلام عبد الشّافي محمّد، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان)، ط01، (1422هـ-2001م)، ج05، ص:257.

[3] – ينظر: حازم القرطاجنّي، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص: 14، 15.

[4] – سورة اللّيل، الآية: 5-10.

هذه التّقابلات الضّدية حضور البلاغة الصّوتية للألف المقصورة المهيمنة على جلّ نهايات الألفاظ المتطابقة التي يبقى وقعها نديا في الأذن.

تعمل هذه التّقابلات على تهيئة المتلقّي لتقفّي المشاهد والمآلات للفريقين، لترسّخ في النّفس أثرا من «التناسق والاتساق، فمن نظم فصيح إلى سرد عذب إلى معنى مترابط إلى نسق متسلسل إلى موسيقى منغمة، إلى اتساق في الأجزاء، إلى تناسق في الإطار»[1]، منح الآية الكريمة ملمحا جماليا وصبغة بلاغية ولمسة أسلوبية تأخذ بالقلوب، إذ «وزعت الألفاظ توزيعا محكما مرتبا، وفقا لمعايير دلالية تحقق التناسب اللفظي والمعنوي»[2]، بين ألفاظ الآية ومعانيها.

ج/ تفعيل الجانب الذّهني للمتلقّي:

يتأتّى تفعيل الجانب الذّهني للمتلقّي من خلال المقابلة النّاشئة مابين آيات القرآن الكريم وسُوره، فالباحث في درر القرآن الكريم قد يعترضه أسلوب قرآني في معرض الإنكار أو التّنبيه على موقف ما، ممّا يستجدي وجود مايشير لهذه المقابلة إمّا سلفا أو تأخّرا، أي: أنّ الباحث في الدّلالة الصّوتية للمقابلة «يؤكد التعامل مع أساليب التعبير القرآني عامة، وأساليب التقابل منه خاصة بشك ليثبت كل مرة أنه ينفتح على الذهن البشري في كلِّ اتجاه على الصعيد الفكري والنفسي»[3].

إنّ الأصداء الصّوتية لبعض سور القرآن الكريم وقوّة جرس حروفها في الدّفاع عن حوبة الدّين، ينبئ عن ما يقابلها من مواقف الكفرة والمشركين، ولو تأمّلنا قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ* فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾[4]، لأحسسنا بجرس الأصوات وقوّة الأسلوب الرّادع، ينبئ ذهنيا أنّ سورة الكوثر تردّ عن طريق المقابلة البديعية عن فحوى السّورة

---

[1] – سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص: 142.

[2] – هدى صيهود زرزور العمري، المظاهر الأسلوبية وأثرها الأسلوبي في التّعبير القرآني، ص:67.

[3] – المرجع نفسه، ص: 74.

[4] – سورة الكوثر، الآية:01-03.

التي قبلها، وهي سورة الماعون، ولا سيما أنّ العاص بن وائل ممّن يُنسب إليه سبب نزول السّورتين، فكانت مقابلة صفات النّبيّ عليه السّلام واردة في سورة الكوثر، مقابِلة لصفات العاص بن وائل [1].

بناء على ماسلف فقد أشار بعض الدّارسين إلى أنّ المقابلة بين السّورتين تضمّنت المواجهة الضّدّية بين عدّة متناقضات هي: البخل والكرم، وترك الصّلاة والمواضبة عليها، المراءاة والإخلاص، منع الزّكاة والصّدقة، التّكذيب بيوم الدّين والتّصديق به[2].

الظّاهرة الرّابعة: السّجع في القرآن الكريم

لا شكّ أنّ النّصّ القرآني كان غنيا بهذا اللّون البديعي، فقد تجلّى في الكثير من آياته وسوره، لما له من الأثر الأسلوبي والجمالية الصّوتية التي تهتزّ لها النّفوس، فهو طاقة إيقاعية تزيد النّص القرآني من الانسجام والتّلاؤم الموسيقي، فضلا عن ضمان التّوازن الصّوتي للألفاظ مايهيّئ المتلقّي وجدانيا لمواصلة الاستماع والإمعان.

1- مفهوم السّجع

لغة: جاء في لسان العرب: سجع يسجعُ سجعاً، استوى واستقام، وأشبه بعضه بعضا... والسجع الكلام المقفى ، وجمعه أسجاع و أساجيع، وكلام مُسجّعٌ، وسجع يسجع سجعا، وسجّع تسجيعا: تكلّم بكلام له فواصل كفواصل الشّعر من غير وزنٍ، وقال ابن جنّي: سُمّي سجعا لاشتباه أواخره وتناسب فواصله،...، و سجع الحمام يسجع سجعا: هدل على جهةٍ واحدة،...، وأصل السّجع: القصد المستوي على نسقٍ واحدٍ[3].

اصطلاحا: يقول "ابن سنان الخفاجي": السجع هو «تماثل الحرو ف في مقاطع الفصول»[4].

---

1 – ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج22، ص: 510 و529.

2 – ينظر: هدى صيهود زرزور العمري، المظاهر الأسلوبية وأثرها الأسلوبي في التّعبير القرآني، ص:79.

3 – ينظر: ابن منظور بتصرّف، لسان العرب، المجلّد03، ج21، ص: 1944.

4 – ابن سنان الخفّاجي، سر الفصاحة، ص: 171.

وعرّفه "الخطيب القزويني" (739هـ) بقوله: السّجع هو: «تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد، وهذا معنى قول "السّكاكي": الأسجاع من النثر كالقوافي في الشعر »[1]. وعرّفه غيره بأنّه: «توافق الفاصلتين في الحرف الأخير، وأفضله ما تساوت فِقَرُه»[2].

وعلى مسلك هذه التّعاريف نستخلص أنّ السّجع هو لون بديعي موسيقي، يعتري أواخر الكلمات، فيدع في النّفس طربا لاشتباهه بالقافية الشّعرية ، حيث يعمل على الزيادة في التناسق اللفظي، فضلاً عن الاحتفاظ بالإيقاع الصوتي العام عن طريق التّوافق والتّماثل في الحرف الأخير من الفواصل.

2- أنواع السّجع ونماذجه من القرآن الكريم: يقسّم غالب البلاغيين السّجع إلى ثلاثة أنواع هي:

أ/السّجع المطرّف: هو«ما اختلفت فاصلتاه في الوزن، واتّفقتا في الحرف الأخير »[3] أي: أنّ مؤلّف الكلام يعمد إلى بناء لفظي جُملي بأسجاعٍ غير متفقة في صيغتها الوزنية شريطة الاتّفاق في الحرف الأخير، وقد اشتمل القرآن الكريم على هذا النّوع نحو قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾[4]، حيث اشتركت الآيتين في الحرف الأخير واختلفتا في الوزن.

ب/السّجع المتوازي: هو «ماكان الاتّفاق فيه في الكلمتين الأخيرتين فقط »[5]، نحو قوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾[1]، حيث نلاحظ سريان التّعريف في سجع الآية، لاختلاف اللّفظتين(سُرُرٌ)و(أَكْوَابٌ).

1 – الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة(المعاني والبيان والبديع)، ص:402.
2 – السّيّد أحمد الهاشمي، جواهر الأدب، ص: 330 ، وعلي الجارم و مصطفى أمين، البلاغة الواضحة(البيان، المعاني، البديع)، ص: 273.
3 – المرجع السّابق، ص:330.
4 – سورة نوح، الآية: 13، 14.
5 – السّيّد أحمد الهاشمي، المرجع السّابق، ص: 331.

ج/السّجع المرصّع: وهو «ماكان فيه ألفاظ إحدى الفقرتين كلّها أو أكثرها مثل مايقابلها من الفقرة الأخرى وزنا وتقفية»[2]، وهو أيضا من الألوان الواردة في القرآن الكريم نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾[3]، حيث وقع التّشابه والتّقارب بين اللّفظتين (إِلَيْنَا/ إِيَابَهُمْ) من جهة، وبين (عَلَيْنَا/حِسَابَهُمْ) من جهة أخرى، ويتمثّل البلاغيون في رصد هذا اللّون من الأسجاع بقول الحريري: فهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ويقرع الأسماع بزواجر وعظه[4].

3- الأبعاد الصّوتية والدّلالية للسّجع في القرآن الكريم

لا ريب أنّ للسّجع في القرآن أبعادا صوتية ودلالية تحدثها تلك الفواصل القرآنية الواقعة نهاية الآيات، وقد تعرّض الباحثون لهذه الملامح الصّوتية والدّلالية التي تزيد النّصّ القرآني جمالا وكمالا، وتعمل على تنسيقه وتدبيجه، ويمكن الوقوف على بعض هذه الأبعاد كالآتي:

أ/ الحدث الموسيقي: يعمل السّجع في القرآن الكريم على إحداث نغم موسيقي معيّن، ممّا يُنتج توازنا إيقاعيا للآيات، وتجانسا بين الألفاظ، سواءٌ كان الحرف الأخير للآيات هو نفسه نحو حرف الباء في قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ* سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ* وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾[5]، حيث نلاحظ ختم الآيات بالباء الشّفوية المجهورة الشّديدة، وقد تكون فاصلة السّجع مختلفة، إلا أنّها من جنس الفواصل الأخرى لتشابه وتماثل في الصّفات.

---

1 – سورة الغاشية، الآية: 13 ،14.

2 – السّيّد أحمد الهاشمي، المرجع السّابق، ص: 330

3 – سورة الغاشية، الآية: 25، 26.

4 – ينظر: الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة(المعاني والبيان والبديع)، ص: 403.

5 – سورة المسد: الآية: 01-04.

من مظاهر الآيات المسجوعة المتّحدة في الصّفات نحو قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[1]، حيث تشترك الميم مع النّون في الصفات الآتية: الجهر، الإذلاق، الغنّة، الاستفال، ممّا «يمكننا القول أن الاتزان الإيقاعي في فواصل الآيات؛ جاء قصداً مراعاة للمعنى المطروح وفقا لفاعلية التقارب والتماثل في الحروف الأخيرة؛ مما أضفى صيغة التناسب والتجانس على النسق الصوتي لسورٍ بأكملها »[2].

ب/ التّأثير على المتلقّي: يعمل السّجع عموما بإيقاعه وفواصله على مخاطبة المكامن القلبية واستثارتها، عن أطريقه أسلوبه المزركش بالصّنعة اللّفظية، «وبما أنّ السّجع فنّ من فنون القول فيه اللّحن والنّغم »[3]، فإنّه بوقعه الصّوتي يؤثّر في المتلقّي ويحمله على الفهم والإنصات وقد ذكر المفسّرون مدى تأثير السّجع القرآني في المشركين حتّى حملتهم الفاعليّة الصّوتية والتّأثير الإيقاعي للسّجع على مواصلة الاستماع، بعد أن كانوا يضعون أصابعهم في آذانهم لصدّ قلوبهم عن الاستماع للقرآن[*].

ج/العمل على جلاء المعنى ووضوحه: تشتغل الآلة الإبداعية ولا سيما في القرآن الكريم على العمل لإيصال المعاني إلى القلب عن طريق التّأثير الأيقاعي المتأتّي عن السّجع فالصّنعة اللّفظية وإن كانت تزيد النّصّ القرآني جمالا وزخرفة، إلاّ أنّ القرآن الكريم باعتباره كتاب هداية وإرشاد فإنّه يجنح عن طريق السّجع إلى جلاء المعنى ووضوحه، ولا سيما أنّ

---

1 – سورة التّكاثر، الآية: 05-08.

2 – هدى صيهود زرزور العمري، المظاهر الأسلوبية وأثرها الأسلوبي في التّعبير القرآني، ص:152.

3 – مصطفى الصّاوي الجويني، البلاغة العربية تأصيل وتجديد، مطبعة المعارف بالإسكندرية، مصر، ط(1958م)، ص: 193.

*) يمكن الرّجوع إلى المبحث الأوّل من الفصل الأوّل، حيث أشرنا إلى تأثير السّجع في المشركين أثناء تلاوة النّبيّ عليه السّلام لسورة النّجم حتّى سجدوا بسجوده عليه السّلام.

المخاطبين به في زمانه كانت المحسّنات البديعية ديدنهم ودأبهم، فماهية علم البديع «القصد أن يكون للمعنى السّيادة والأولوية وله سلطانه المطلق في فرض ما توجبه الألوان النّفسية من مختلف الصّور والأساليب، وإنّ السّجع لإحداها »[1]، به تتكشّف المعاني المقصودة المنضوية خلف الألفاظ.

ممّا أُلف عن العرب الإبانة ووضوح الكلام والعدول عن الغموض، وقد نزل القرآن الكريم يُعضّد هذه الوجهة ويثمّنها بسلاسة ألفاظه وحيادها عن الغريب والوحشي من الكلام ومن أسرار التّعبير القرآني القابعة تحت المكوّنات الصّوتية نهايات الآيات المسجوعة، حيث إنّ جرس الحروف المجهورة يختلف عن جرسها في الآيات المهموسة، فلكلٍّ منها دلالتها وغايتها«ولا شكّ أنّ دلالة الجزء على الكلّ تدلّ على أهميّة الجزء الدّالّ، وفاعليته في تحديد ماهية المدلول عليه» [2]، ولا سيما أثناء التّبصّر في السّور المكيّة والمدنية.

د/ تحقيق الفصاحة: تعمل الفواصل القرآنية أو السّجع في القرآن على الزّيادة في تحقيق فصاحة الألفاظ، وذلك عن طريق حسن تأليفها في البناء اللّغوي في القرآن الكريم، فتعمُّد الجرس الصّوتي في حرف واحد يزيد من تلاؤم الكلام وجماله، الذي كان صنيع العرب عن طريق توظيف الألوان البديعية في لسانهم، فقد كانوا «أصحاب الفطرة اللّغوية والحسّ البياني، الذين صرّفوا اللّغة وشقّقوا أبنيتها وطرق وضعها ومحاسن تأليفها» [3]، ممّا يضمن لبنية الألفاظ التّوازي والتّساوق في الإيقاع الموسيقي، فتصطبغ اللّفظة بمعايير الفصاحة، وتتحقّق بلاغة الكلام ويتّسم بالسّلاسة والعذوبة ويخلص من العيّ والنّقصان.

---

1 – مصطفى الصّاوي الجويني، البلاغة العربية تأصيل وتجديد، ص: 194.

2 – مُحَمّد العمري، الموازنات الصّوتية في الرّؤية البلاغية والممارسة الشّعرية–نحو كتابة تاريخ جديد للبلاغة والشّعر– دار إفريقيا الشّرق، بيروت (لبنان)، (2001م)، ص: 62.

3 – مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 200.

انمازت ألفاظ القرآن الكريم المسجوعة بالفصاحة، حيث ما من لفظة فيه إلا وقد تقمّصت رداء العذوبة وحقّقت التّمكّن من مكانها، ولو تمعّنا توظيف الألفاظ المسجوعة في القرآن الكريم لوجدنا ذلك جليا على غرار قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾[1]، حيث إنّ لفظة (الأخرى) تعمل كلفظة مسجوعة على المحافظة على موسيقى الآية وإيقاعها، حتّى تضمن لها مواءمة الفواصل الأخرى، ممّا يجعلنا نستيقن أنّ للسّجع قدرته الإعجازية وهيمنته الأسلوبية في النّصّ القرآني، إذ يعمل على تحقيق التّجانس والتّلاؤم في رصّ الألفاظ، ممّا يمكّنه من المساعدة على تحقيق فصاحة الآية وإظهار دلالتها.

وقد كان للمتأخّرين لمسات في باب السّجع وعدِّه من روافد فصاحة الأسلوب القرآني فقد ذهب ظاهر بن عاشور إلى أعمق من ذلك بجعله السّجع القرآني من معالم الإعجاز القرآني ودرره بقوله: «واعلم أنّ هذه الفواصل من جملة المقصود من الإعجاز، لأنّها ترجع لمحسّنات الكلام، وهي من جانب فصاحة الكلام، فمن الغرض البلاغي الوقوف عند الفواصل لتقع في الأسماع فتتأثّر نفوس السّامعين بمحاسن ذلك التّماثل كما تتأثّر بالقوافي في الشّعر وبالأسجاع في الكلام المسجوع »[2]، ممّا يجعل القرآن الكريم يمتلك باسقات الفصاحة وجماليات الإيقاع، وعذوبة الألفاظ.

هـ/التّصوير للمشاهد القرآنية: يعمل السّجع في القرآن الكريم على تيسير تصوير المشاهد المختلفة في القرآن الكريم وتقريبها من الذّهن، حتّى تتجلّى بوضوح وذلك عن طريق الفواصل القرآنية التي تُختم بها كلّ آية كريمة، ويمكن التّمثيل لبعض هذه المشاهد بالوقوف على مشهد يوم القيامة وأحوال المجرمين فيه في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ

[1] – سورة النّجم، الآيات: 19-22.

[2] – طاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، ج01، ص: 76.

* وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾[1].

تتبدّى في فاتحة السّورة ثلاثة مشاهد يسردها الأسلوب القرآني تترى، فمن الإشارة لنهاية الدّنيا وبداية الآخرة، إلى اليوم الموعود، ثمّ مباشرة إلى الوقوف على الجزاء وقسوته لأصحاب الأخدود [2]، عن طريق هذه الآيات المسجوعة المختومة بفواصل شديدة تتمثّل في الحروف المجهورة الشّديدة (الجيم والدّال).

الظّاهرة الخامسة: مراعاة النّظير

1- مفهوم مراعاة النّظير: هو «أن يُجمع في الكلام بين أمر وما يناسبه لا بالتّضاد»[3] كقوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾[4].

وعرّفه "السيوطي" أثناء حديثه عن ائتلاف اللّفظ مع اللّفظ، وائتلاف اللّفظ مع المعنى بقوله: «الأوّل: أن تكون الألفاظ يلائم بعضها بعضاً، بأن يقرن الغريب بمثلِهِ والمتداول بمثله رعاية لحسن الجوار والمناسبة، والثّاني أن تكون ألفاظ الكلام ملائمة للمعنى المراد، فإن كان فخما كانت ألفاظه فخمة، أو جزلا فجزلة، أو غريبا فغريبة، أو متداولة فمتداولا، أو متوسّطا بين الغرابة والاستعمال، فكذلك» [5].

على ضوء هذا التّعريف، تعتبر هذه الظّاهرة من الظّواهر الصّوتية البلاغية التي دندن حولها كثيرا علماء البلاغة لأهميّتها، إذ تعمل على تحقيق تعانق اللّفظ مع المعنى، وتحقيق التّناسب والتّلاؤم بين الألفاظ، وقد أورده البلاغيّون بأسماء مختلفة تنصهر في بوتقة واحدة تتمثّل

---

1 - سورة البروج، الآية: 01-07.

2 - ينظر: صيهود زرزور العمري، المظاهر الأسلوبية وأثرها الأسلوبي في التّعبير القرآني، ص:153.

3 - عبد المتعال الصّعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبه الآداب، القاهرة (مصر)، (دط)، (1420هـ-1999م)، ج04، ص: 14.

4 - سورة الرّحمان، الآية: 05.

5 - السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج03، ص: 262.

في تحقيق الانسجام بين المباني والمعاني، عن طريق التّقريبات الصّوتية للألفاظ ضمن النّسق التّركيبي، حتّى يتحلّى الأسلوب بأعلى درجات الانسجام والتّلاؤم.

ويجدر التّنبيه على أنّه بعيد عن جنس الطّباق والمقابلة، لأنّ الطباق يرتكز على الجمع بين لفظٍ متضاد وآخر، والمقابلة تعمل على تحقيق التناسب بين معنيين متضادين أو أكثر، ومن الأسماء التي تلبسها هذه الظّاهرة هي: (التناسب، الائتلاف، المؤاخاة، التوفيق، التلفيق التفويت، إيهام التناسب)، إلا أنّ جلّ البلاغيين يسمّونه بمراعاة النظير [1].

2- الأبعاد الصّوتية والدّلالية لظاهرة مراعاة النّظير

لا شكّ أنّ لهذه الظّاهرة أبعادا صوتية ودلالية تنضوي تحتها، كونُ هذه الظّاهرة تصبو إلى جمع المباني والمعاني في وعاء واحد، حتّى يغدو الكلام كأنّه قطع ذهبية أو فضّية انصهرت واندمجت حتّى غدت ككتلة واحدة، لا تقبل الانفصام، وهذا مرتكز من مرتكزات النّظم عند "عبد القاهر الجرجاني"، ويمكن الوقوف على بعض هذه الأبعاد كالآتي:

أ/تحقيق التّناسب الصّوتي بين الألفاظ: تعمل ظاهرة مراعاة النظير على تحقيق الائتلاف بين الألفاظ، ممّا يضمن حسن تجاورها عن طريق هذا التّآلف، ولذلك وجد البلاغيون في القرآن الكريم آياتٍ تتميّز بألفاظ تُهيّئ الذّهن لاستقبال معانيها وسبر أغوارها على غرار قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾[2].

لا ريب أنّ المتأمّل في هذه الآية يشدّ انتباهه ورود هذه الألفاظ على هذا النّسق اللّفظي الجزل، تتخلّله التّاء المهموسة التي تظهر ما يضمره يعقوب عليه السّلام، الشّديدة التي تحاكي غيظه المكظوم وقلبه المكلوم، ممّا يستجدي إمعان النّظر فيها وفي مادّتها الصّوتية، فقد وصفها "السّيوطي" ألفاظ الآية بالغرابة لعدول الأسلوب القرآني عن المألوف والمسنعمل من مرادفاتها لدى العرب.

---

[1] -ينظر: عبد المتعال الصّعيدي، المرجع السّابق، ج04، ص: 14، والقزويني، الإيضاح، ص: 355.

[2] - سورة يوسف، الآية: 85.

إنّ اقتران التّاء بلفظ الجلالة في القَسَم من غريب الاستعمال عندهم، وكذلك (تَفْتَأُ) و (حَرَضًا) يناظرها من الألفاظ (تزال) و(هلكا)، إلاّ أنّ قوّة المشهد القصصي في القرآن، وبغية تقريبه من الأذهان جعله يعدل لمراعاة الألفاظ الغريبة المتقاربة، حتّى يتسنّى لكلّ لفظة حسن تجاورها مع أختها، توخّيا لحسن الجوار، ورغبة في ائتلاف الألفاظ وإصابة المعنى [1].

ب/ تحقيق ملاءمة اللّفظ للمعنى: يؤدّي التّوظيف الصّوتي لحروف معيّنة إلى تهيئة تقريب المعنى من النّفوس عن طريق حتّى يتسنّى تحقيق التّناسب اللّفظي والمعنوي، وتحدث مطابقة المعنى للمبنى، ففي قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾[2]، يتجلّى لنا الأثر الصّوتي لمكونات مادّة (يَصْطَرِخُونَ) التي هي أبلغ من يصرخون، فهي تومئ إلى أنّ هذا الصّراخ منكرٌ خارج عن المعتاد والمألوف [3]، كما أنّ جرس حروف اللّفظة المكوّنة من الحروف المطبقة (الصّاد،الطّاء)، والرّاء التي توحي حركتها المضطربة في اللّسان بتوالي طلبات الاستغاثة وشدّة الصّياح بجهد وشدّة، كلّها تصبّ في وعاء دلالة الألفاظ على المعاني المقصودة من لفظة (يَصْطَرِخُونَ)[4].

ج/ تحقيق التّناسب بين المعاني: تقتضي ظاهرة مراعاة النّظير كملمح بديعي التّيسير في فهم الخطاب، وهو ماسمّاه البلاغيون (إيهام التّناسب)، ومن نماذج هذا اللّون قوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾[5]، حيث يقع التوهّم واللّبس في لفظ (النَّجْمُ) ضمن السّياق العام للآية، إذ تقتضي دلالة النّجم معنيين مختلفين:[6]

---

1 – ينظر: السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج03، ص: 262.
2 – سورة فاطر، الآية: 37.
3 – ينظر: السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج03، ص: 263.
4 – ينظر: الزّمخشري، الكشّاف، ج05، ص:158، 159.
5 – سورة الرّحمان، الآية: 05،06.
6 – ينظر: صيهود زرزور العمري، المظاهر الأسلوبية وأثرها الأسلوبي في التّعبير القرآني، ص:105.

المعنى الأوّل: اعتبار لفظ (النَّجْم) كوكبا متّصلا ذكره بذكر ماقبله من الأجرام والكواكب الشّمس والقمر.

المعنى الثّاني: اعتبار لفظ (النَّجْم) من جنس نبات الأرض لمناظرته للشّجر.

تتجلّى لنا ظاهرة مراعاة النّظير بوضوح عند قوله تعالى : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[1]، إذ اقتضت الظّاهرة الصّوتية مقابلة ضعف البصر البشري كجوهر لطيف عن إدراك الذّات الإلهية بلفظ (اللَّطِيفُ) ذي الحروف اللّينة والمهموسة، ومقابلة قدرة الله تعالى الإدراكية للأبصار بلفظ(الْخَبِير) المتضمّن للحروف المجهورة الشّديدة (الباء) والرّاء[2]، كما أنّ اللّفظتين (اللَّطِيفُ)و(الْخَبِيرُ) تتّسمان بإيقاعٍ واحدٍ وجرسٍ متميّزٍ، لتماثلهما المقاطع الصّوتية.

د/المحافظة على الإيقاع العام للآية:

تعمل ظاهرة مراعاة النّظير على المحافظة على الإيقاع العامّ للآية القرآنية، إذ تجعل المتلقّي المثالي يعيش لحظات تكهّن لما سيقرع أذنه عن طريق ذوقه اللّغوي، وذلك من خلال تكهّنه لنهاية الآيات عن طريق الفواصل القرآنية المهيمنة على نسق الآية وجوّها، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[3].

ذكر الإمام "السّيوطي" في معرض حديثه عن أهمية الفواصل القرآنية، أنّها تعمل على الزّيادة في رونق الأسلوب وعذوبته عن طريق التّمكن لهذه الفواصل، ممّا ينجم عنه ائتلاق

---

1 – سورة الأنعام، الآية: 103.

2 – ينظر: الزّمخشري، الكشّاف، ج02، ص: 383.

3 – سورة المؤمنون، الآية: 12-14.

القافية، ونصاعة الأسلوب، وتمكّن المعنى، وبِدارُه إلى الذّهن، وهذا ما مكّن لزيد بن ثابت أفق التّوقّع لنهاية الآية الآنفة، حيث تلفّظ ب: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ قبل إملاء النّبيّ عليه السّلام لها، ممّا جعل تنبُّؤه يرتهن لموافقة نهاية الآية للنّسق الذي سرت عليه منذ بدايتها عن طريق التّشكّلات الصّوتية المتمثّلة في صوامت معيّنة منحت الآيات منحنى موسيقيا معّينا مراعاة للنّظائر التي قبلها، حتّى يتحقّق ائتلاف المعاني بالألفاظ[1].

الظّاهرة السّادسة: التّعديد

تعدّ هذه الظّاهرة الصّوتية التي ذكرها كثير من البلاغيين على غرار "الزّركشي" و"السّيوطي" من الظّواهر الصّوتية الموجودة في علم البديع، وتنماز هذه الظّاهرة باشتغالها على الصّوائت دون الصّوامت، فهي تجعل المتلقّي يحسّ بنسق إيقاعي إبداعي مميّز تصنعه الصّوائت بحسن تتابعها وتجاورها.

1- مفهوم ظاهرة التّعديد: عرّفها "السّيوطي" بقوله: «هي إيقاع الألفاظ المبدّدة على سياقٍ واحدٍ، وأكثر مايوجد في الصّفات »[2]، أمّا "الزّركشي" فقد عرّفها بقوله : «هي إيقاع الألفاظ المبدّدة على سياقٍ واحدٍ، وأكثر ما يؤخذ في الصّفات، ومقتضاها ألاّ يُعطف بعضها على بعض لاتّحاد محلّها ويجريها مجرى الوصف في الصّدق على ما صدق» [3].

نستخلص من هذين التّعريفين أنّ هذه الظّاهرة تعمل على جعل الألفاظ تقع على جرسٍ صوتي واحدٍ تتحكّم فيه الصّوائت، سواء كانت مضمومة أو مفتوحة أو مكسورة، أو منوّنةً، وأنّها متعلّقة بالصّفات لا بالأفعال.

1 - ينظر: السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج03، ص:301، 302.
2 - السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج03، ص: 269.
3 - الزّركشي، البرهان في علوم القرآن، ج03،ص: 475..

2- الأبعاد الصّوتية والدّلالية لظاهرة التّعديد

يتجلّى أثر الصّوائت في تِبيان الأبعاد الدّلالية والصّوتية لهذه الظّاهرة، فهي ملمح جمالي بجرس حروفها ونوعية إيقاعها، ويمكن الوقوف على أبعادها التّالية:

أ/البنية الإيقاعية: تعمل ظاهرة التّعديد على سيرورة الآيات القرآنية عبر وتيرة معيّنة تشتغل على سُلمِيّة الصّوائت، ممّا يضفي على أسلوبه عذوبة ملحوظة ، وتجعل أسلوبه ذي خصائص فنية مؤثرة وجذابة، تمكّنه من تصدّر أعلى مرتبة في الجمال الصّوتي ، وقد تأتي هذه الوتيرة الإيقاعية عن طريق الرّفع نحو قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ﴾[1]، حيث نرقب هيمنة صائت الضّمة يتربّع على نهايات صوامت أسماء الله تعالى، تحاكي رفعة مقام الرّبوبية وقداسة الأسماء وثقل الصّفات، التي تحاكيها الضّمّة التي هي عند العلماء أثقل من الكسرة والفتحة، وهي بعض من الواو[2]. وقد تأتي الصّوائت مفتوحة نحو قوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآَمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[3]، كما أنّها تأتي مكسورة نحو قوله تعالى: ﴿مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ﴾[4].

ب/تحقيق التّلاؤم: تعمل ظاهرة التّعديد على تحقيق التّلاؤم بين الألفاظ المتبدّدة عن طريق الصّوائت الخاتمة للآيات، فلو أنّ اللّغة العربية لم تكن تخضع لقوانين نحويةٍ من رفع ونصب وفتحٍ، لا تّسمت ألفاظها بعدم الانسجام، وغابت دلالتها المتوخّاة منها، واضمحلّ السّياق العام للآيات القرآنية، إذ إنّ الاعتناء بالصّوائت لا يقلّ أهميّة عن الصّوامت؛ ولعلّ ابن الأثير

---

[1] - سورة الحشر، الآية: 23.

[2] - ينظر: ابن جنّي، سر صناعة الإعراب، ص: 19.

[3] - سورة التّوبة، الآية: 112.

[4] - سورة التّحريم، الآية: 05.

كان أدقّ في نظرته، حين رأى بأنّ جمال اللفظة لا ينحسر في كون مخارجها فقط، سواء أكانت متقاربة أو متباعدة، وإنّما فضّل الذّوق والإيقاع وحسن الوقع في الآذان ، أي: أنّ حاسّة السّمع هي الفيصل في حسن الألفاظ أو عدمه[1].

ج/ التّلوينات الصّوتية : تساعد ظاهرة التّمديد على التّلوينات الصّوتية كالتّفخيم والتّرقيق، أي أنّه تتحكّم في التّغيّرات الصّوتية التي تعتري الألفاظ، ويتجلّى ذلك في البناء اللّغوي، فالوقوف على صائت الضّمّة أو الكسرة أو الفتحة يقتضي نوعا من أنواع التّوقّف وتمثّل القراءات القرآنية الأرض الخصبة والمهيّأة لتقفّي الظّواهر الصّوتية المختلفة للصّوائت.

تتجلّى أهميّة صائت الضّمة أثناء الوقوف على بعض الآيات المنتهية به نحو قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾[2]، حيث إنّ الضّمّة كملمح صوتي يحاكي وظيفة الرّفع في اللغة التي يقتضي معناها العلوّ والرّفعة ، فهو-الرّفع- « نقيض الخفض في كلّ شئ »[3] ، وعليه فإنّ الضّمّة نهاية هذه الآية والآيات بعدها تُحاكي رفعة الله وجلالة أسمائه، عن طريق «صفات توحي بالقهر والغلبة والجبروت والاستعلاء»[4] تترجمها تلك التّلوينات الصّوتية من تفخيم وترقيق ونبر وتنغيم، تزيد الخطاب القرآني تماسكا وانسجاما.

يعمل صائت الضّمّة المتربّع على نهايات الصّوامت المجهورة في عمومها في الآية الآنفة وحتّى في الآيات الواردة معها قبلها وبعدها على الدّلالة للذّات المقدّسة من باب دلالة الجزء على الكلّ، «ولا شكّ أنّ دلالة الجزء على الكلّ تدلّ على أهميّة الجزء الدّال، وفاعليته في تحديد المدلول عليه»[5]، عن طريق الإيقاع المتميّز الذي تنتهي به هذه الآيات.

1- ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص: 173.

2 – سورة الحشر، الآية: 23.

3 – لسان العرب، المجلّد03، ج19، ص: 1690.

4 – سيد قطب، في ظلال القرآن، ج06، ص:3533..

5 – محمّد العمري، الموازنات الصّوتية، ص:62.

الظّاهرة السّابعة: الموازنة

تعدّ ظاهرة الموازنة من الظّواهر الصّوتية التي أولاها البلاغيون رعاية كبيرة لما تتملّكه من من إيقاع ونغم موسيقي، ممّا يزيد المتلقّي تأثيرا وانصهارا وامتزاجا مع الجو الإبداعي، والتّناسق الأسلوبي، فإذا كانت «المجانسات والتّرصيعات الصّوتية هي الأرضية التي يتحقّق فيها جمال الغناء والإنشاد واستواؤهما » [1] عند العرب في روافدهم اللّغوية شعرا ونثرا، باعتبارهم ذوّاقين للطّرب والإيقاع الصّوتي النّاجم عن المقوّمات الصّوتية للشّعر والنّثر عندهم، فإنّ القرآن الكريم بإيقاعه المتميّز أذكى جذوة التّأثّر فيهم، وقد حظيت هذه الظّاهرة بالورود كثيرا في القرآن الكريم، إذ«معظم آياته جارية على هذا النّهج، حتّى أنّه لا تخلو منه سورة من السّور» [2].

1- مفهوم ظاهرة الموازنة: عرّفها "ابن الأثير" بقوله: «الموازنة هي أن تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية في الوزن، وأن يكون صدر البيت الشّعري وعجزُه متساويي الألفاظ وزنا» [3]، وعرّفها "عبد العزيز عتيق" بقوله: «الموازنة نوع من أنواع البديع اللّفظي يقع في النّثر والنّظم، وهي تساوي الفاصلتين في الوزن دون القافية» [4].

أمّا صاحب عروس الأفراح فعرّفها تعريفا مختصرا جامعا بقوله: «الموازنة وهي تساوي الفاصلتين في الوزن دون التّقفية» [5]، نحو قوله تعالى: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾[6].

مَبْثُوثَةٌ﴾[6].

[1] – المرجع نفسه، ص:63.

[2] – ابن الأثير، المثل السّائر، ج01، ص:293..

[3] – المصدر نفسه، ج01، ص: 291.

[4] – عبد العزيز عتيق، علم البديع، دار النّهضة العربية، بيروت (لبنان)، (دط)، ص:239.

[5] – بهاء الدّين السّبكي، عروس الأفراح شرح تلخيص المفتاح، تح عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت (لبنان)، ط01، (1423هـ-2003م)، ج02، ص: 303

[6] – سورة الغاشية، الآية: 15، 16.

بناء على هذه التّعاريف نلاحظ تناول علماء البلاغة لهذه الظّاهرة ولا سيما علماء البديع منهم بعناية كبيرة لأهميّتها، فهي من المحسّنات البديعية اللّفظية، تشتغل على الوزن والإيقاع، وتتقاطع مع السّجع وتتشابه بمرتكزاته، ومن البلاغيين من عدّها من ضروب السّجع إلاّ أنّها مستقلّة بذاتها منفصلة عنه[1].

2- بين السّجع والموازنة: من خلال التّعريفين السّابقين نلاحظ التّواشج بين الظّاهرتين الصّوتيتين(السّجع/الموازنة) إلاّ أنّ ثمّة فروقا بين هذين اللّونين البديعيين، يمكن الوقوف عليها كالآتي[2]:

السّجع	الموازنة
يقع في النّثر على وجه الخصوص	تقع في النّثر والشّعر معا
يشتغل على القافية في آخر الكلام المنظوم	تشتغل على وزن بنية الكلمات
كلّ سجع يعدّ موازنة	لا تعدّ كل الموازنات سجعا
يعتمد على القافية والحرف الأخير	تعتمد على الوزن فقط نحو(المستبين/المستقيم)

3-الأبعاد الصّوتية والدّلالية لظاهرة الموازنة

لظاهرة الموازنة عدّة أبعاد صوتية ودلالية، لأنّ هذه الظّاهرة ترتهن لعدّة مقوّمات صوتية وإيقاعية متعدّدة، فهي تشتغل وتتقاطع مع السّجع من جهة، والفواصل القرآنية من جهة أخرى، ويمكن الوقوف على هذه الأبعاد كالآتي:

أ/ **تحقيق الفصاحة:** تعمل ظاهرة الموازنة على تخصيب فصاحة المستوى التّركيبي عن طريق التّحكّم في بعض الألفاظ، ولا سيما الأخيرة منها نحو قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا * إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[3]، حيث نلاحظ الموازنة بين اللّفظتين(أَسَفًا/ عَمَلًا) تعضّد من فصاحة

---

[1] - ينظر: بهاء الدّين السّبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، ج02، ص: 303.
[2] - ينظر: عبد العزيز عتيق، علم البديع، ص: 239، 240.
[3] - سورة الكهف، الآية: 06، 07.

الآية وتزيد من قوّة بيانها، فلو استبدلت لفظة (عَمَلًا) مثلا بأحد مرادفاتها نحو أحسن فعلا، لاختلّ إيقاع الآيات، وغابت الفصاحة وحسن البيان، إذ إنّ ورود الآيتين على نفس الإيقاع يجعلها معتدلة موزونة.

تعدّ ظاهرة الموازنة من الأسس التي تجعل النّصّ القرآني كلاًّ متماسكا، فنسيج الكلام من خلال وروده على نسق الألفاظ المتوازية يزيد من فصاحته ويكسبه من الطّلاوة والرّونق مايقع في النّفس موقع القبول والاستحسان [1] ، وما أصاب الوليد بن المغيرة من الاستكانة لأسلوب القرآن الكريم وقوّة فصاحته، والإشادة بتوصيف بلاغته بقوله: «والله لقد سمعت منه كلاما، والله ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجنّ، وإنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق، وإنّه ليعلو ولا يُعلى عليه، وما يقول هذا بشر »[2]، وهذه شهادة من متلقّي مثالي خبير بأسرار البلاغة ومواطن الفصاحة.

ب/الأداء الموسيقي: تعمل ظاهرة الموازنة على إحداث نغم موسيقي تأثيري في المتلقّي، شأنها شأن الظّواهر الصّوتية البديعية الأخرى، كالمقابلة والتّقسيم، فالتّأثير الموسيقي النّاجم عن الجوانب الصّوتية يتبدّى في التّرصيع والتّقفية وغيرها من الأسس الصّوتية ذات الجانب الجمالي، والواقع الأسلوبي، هدفها الرّئيس يتمثّل في تحقيق التّناسب في المقدار الصّوتي للكلمات[3].

يعمل الإيقاع الدّاخلي للآيات القرآنية على إحداث جوّ موسيقي معيّن، ناجمٍ عن ظاهرة الموازنة التي تتجلّى في أسلوب القرآن الكريم، ممّا جعل المتلقّى في صدر الإسلام يستكين لهذه الأداءات الموسيقية المتوازنة التي تأخذ بمجامع القلوب، حتّى وصفها أحدهم بنعوت الحلاوة

1 – ينظر: ابن الأثير، المثل السّائر، ج01، ص: 291.
2 – القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج21، ص:377.
3 – مُحَّد العمري، الموازنات الصّوتية، ص: 63.

والطّلاوة والعذوبة، لما تتركه آيات القرآن من شجى في النّفوس، ناجم عن «الجانب الصّوتي والأثر السّمعي النّاتج عن التّوازن»[1]، ممّا يجعل المعنى متلئبّا ومساوقا للّفظ.

ج/تحقيق التّجانس الصّوتي:

تعمل ظاهرة الموازنة أيضا على تحقيق التّوازن في بناء النّسق الصّوتي خصوصا واللّغوي عموما، وتضفي على النّصّ القرآني تجانسا صوتيا منقطع النّظير، حتّى يُخيّل للمتلقّي أنّه تحت وطئة السّجع أو الفواصل القرآنية، رغم البون الموجود بين الموازنة والفواصل القرآنية، فالمستمع لسورة مريم عليها السّلام في الآيات التّالية : ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا * أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا * فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾[2]، يخيّل إليه أنّه تحت رحمة الإيقاع الصّوتي للفواصل القرآنية الموجودة في جلّ السّورة، إلا أنّ هذه الآيات بخلاف ذلك، فالانسجام الصّوتي التّأثيري ناتج عن ظاهرة الموازنة وليس الفواصل القرآنية لغياب القافية نهاية الآيات.

مردّ التّجانس الصّوتي في هذه الآيات يكشف عن تلك الأواصر الصّوتية المبثوثة في النّصّ القرآني، والتي مكّنته من المحافظة على وتيرته الإيقاعية ، ممّا يسفر عن تلك العلاقة التواشجية لعناصر اللغة المكوّنة له صوتا وصرفا وتركيبا، والتي بتداخلها تتحقق القيمة اللغوية القمينة للنّص القرآني وتبوّئه أعلى مقامات الفصاحة، «فاللغة نظام من العناصر المعتمد بعضها على بعض تنتج قيمة كل عنصر من وجود العناصر الأخرى في وقت واحد»[3].

بناء على هذه الرّؤية، فوظيفة ظاهرة الموازنة تعمل على تحقيق ما يسمّى بالارتباط الداخلي للعناصر اللّغوية، وهو ما أسماه "عبد القاهر الجرجاني" بالنّسيج اللّغوي لشدّة تماسكه

[1] – ابن الأثير، المثل السّائر، ج01، ص: 63.
[2] – سورة مريم، الآيات: 81-84.
[3] – فرديناند دي سوسير ،علم اللغة العام تر يوئيل يوسف عزيز، أفاق عربية، بغداد (العراق) ط01، (1985م)، ص: 134.

وقوّة امتزاجه، النّاجم عن التناسق. الذي انماز به أسلوب النص القرآني، حتّى غدا كأنه مادّة انصهرت في بوتقة واحدة فأنتجت سبيكة ذهبية لا تقبل الانفصام، ناتجة عن قوّة السّبك وفاعليّة التطريزات الصّوتية والمكونات الجمالية ألفاظا وإيقاعا ونغما وبلاغة، وهذا ماعناه بقوله: «واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علما لا يعترضه شك أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك»(1).

خلاصة الفصل الثّاني

من خلال ماسبق يمكننا الوقوف على ملامح الفصل الثاني وأهم ما ذكرناه فيه كالآتي:

الإشارة للمنعرج الذي أحدثه البلاغيون في الدّراسة الصّوتية، فإذا كان النّحاة ركّزوا على مخارج الحروف وصفاتها مثلما وقفنا عليه في الفصل الأوّل، فإنّ البلاغيين اعتنوا ببنية الكلمة وما يزيد من بهائها ورونقها، ويعود على التّركيب عموما بالسّلاسة والعذوبة.

ولهذا تعرّضنا في **المبحث الأوّل** من الفصل الثّاني لظاهرة الفصاحة منفردة لما لهذه الظّاهرة من أهمية كبيرة لدى العرب، فعليها قام سوقهم وبها امتاز لسانهم، فلا غرو أن يبارزهم القرآن الكريم بسلاحهم ويضعضع باسقات شرفهم، كونه – القرآن الكريم- نزل بلسان عربي مبين؛ ممّا جعلنا نقف على مكامن وأسرار الفصاحة التي تزيد الألفاظ طلاوة والأسلوب اتّساقا وانسجاما، على غرار مخارج الحروف وصفاتها، والحروف المستحسنة والمستقبحة، وصفتي الإذلاق والإصمات، وأثر صفة الإذلاق في سلاسة اللفظة ومرونة الأداء، ممّا ميّز لغة القرآن الكريم بخصائص صوتية وصرفية وتركيبة بوّأته أعلى درجات الفصاحة والبيان.

ولأهمية هذه الظّاهرة (الفصاحة) تقفّينا جهود البلاغيين في لمساتهم له ا بدءا من "الجاحظ"و"ابن سنان الخفاجي "، حيث أشارا إلى أن الفصاحة لا يستقيم أمرها إلا إذا ارتهنت إلى عدّة شروط مهمّة على غرار: سلامة الألفاظ من تنافر الحروف والصّفات، وامتيازها بالوضوح، وخلوّها من التعقيد والوحشية وكلّ ما يحيد بها عن مقوّمات الفصاحة.

1 – عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 55.

ثمّ وقفنا عند الحروف الذّلقية والحروف المستحسنة وأثرهما في تحقيق فصاحة الكلام والإشارة لجهود البلاغيين في تقفّيهم لهذه الحروف على غرار "ابن الأثير"و"ابن سنان"و"يحي بن حمزة العلوي" ، فقد منح هؤلاء البلاغيون هذه الحروف عناية كبيرة لما لها من أثر في تحقيق الفصاحة، إذ هي عندهم من الأسس التي تعمل على انسجام الأسلوب وتهذيبه وتحقيق العذوبة اللفظية فيه.

وممّن اعتنى بظاهرة الفصاحة ومنحها حقّها من الدّراسة "عبد القاهر الجرجاني"، فقد ربطها بما يسمّى بنظرية (النّظم) التي دندن حولها كثيرا وخالف من سبقه في وجهة نظرهم للفصاحة، فنفى صبغة الفصاحة عن اللفظة المفردة، وأشاد بالعوامل النّحوية من تقديم وتأخير واستعارة وضروب البلاغة، بدل الحديث عن الصّور البلاغية المعهودة مثل التّشابيه والاستعارات المعروفة، أي: جعل مواطن الفصاحة كامنة في حسن التّعبير والجمال في الأداء، وحسن العرض للمعنى، وربط بين ثنائيتي اللّفظ والمعنى، فلا فصاحة للفظة عنده إلا إذا كانت تحقّق لها حسن مجاورتها ومؤانستها لأخواتها ضمن بنية السّلسلة الكلامية، وهذا ما يضمن عنده تحقيق ثنائية اللّفظ والمعنى.

ومن المعالم التي أحياها "الجرجاني" أيضا التصور الذهني وأثره في تحقيق النظم، حيث عدّ العوامل النّفسية والعقلية من العوامل الأساسية في تحقيق الفصاحة، فهي عنده لا يتلئبّ أمرها إلا بعد ترتيب المعاني في النّفس، ومن ثمَّ البحث عن مايلائمها من الألفاظ، حتّى تضمن مواءمة الألفاظ لآثار المعاني، ويتولّد الكلام على شكل نسيج أو بناء متراصٍّ لا يقبل الانفصال ولا الانفصام.

أمّا **المبحث الثّاني** من الفصل الثّاني فتناولت فيه الظّواهر الصّوتية عند البلاغيين المفسّرين على غرار "الباقلاني" و"الرّماني" و"الخطابي" و"العلوي"، حيث ظهرت لهم سابقة في تناول ملامح إعجاز صوتية في القران الكريم، على غرار الظّواهر الصوتية الآتية: ظاهرة الفواصل القرآنية، وهي ظاهرة دندن حولها الكثير من البلاغيين والمفسّرين لتداخلها وتشابهها

مع سجع العرب في خطبهم، ثمّ تناولنا ظاهرة التّلاؤم الصّوتي في القرآن الكريم وعوامله نحو: مخارج الحروف وصفاتها، ومطابقة الألفاظ للمعاني؛ وكذلك ظاهرة التّجانس الصّوتي في القرآن الكريم والوقوف على أهميتها في بناء النّسيج القرآني والعمل على سبكه.

فالتّجانس الصّوتي في القرآن الكريم يعمل على إضفاء وتيرة موسيقية عذبة تزيد الخطاب القرآني جمالا واتّساقا، فهي كالرّافد الإيقاعي يرسّخ مدى فاعلية الأنساق الصّوتية التّأثيرية في القرآن الكريم، ويزيد من جمالية الأسلوب البلاغي القرآني، أمّا الظاهرة الثّالثة فهي الفواصل القرآنية، إذ تعدّ ملمحا صوتيا من ملامح بلاغة القرآن الكريم، تعمل على تحقيق التّلاؤم الصّوتي بين آياته، كما تُكسبها جمالا وانسجاما موسيقيا يعمل على المساعدة على تحقيق إفهام المعاني، فهي تحافظ على توالي الإيقاع واستمراريّته وما يتركه في النّفس من أثرٍ جليّ يجعل المتلقّين يُنغضون رؤوسهم لحسن الإيقاع وجرس الأصوات، مع الإشارة إلى الفرق بينها وبين السّجع.

كما تناولنا ظاهرة فواتح السّور القرآنية ولا سيما الحروف المقطعة وما أشار إليه علماء البلاغة والتّفسير من التّراتبية الصّوتية التي تميّزت بها هذه الحروف المقطّعة من اشتمالها على أنصاف مجموعات المخارج الصّوتية وصفاتها، مع الوقوف على أبعادها الصّوتية والدّلالية.

أمّا **المبحث الثّالث** من الفصل الثّاني فتمحور حول الظّواهر البديعية لدى البلاغيين القدامى، حيث تناولت سبعة من الظّواهر هي: الطّباق والمقابلة، السّجع والتّعديد والموازنة الجناس و مراعاة النّظير، مع التّمثيل ما أمكن لهذه الظّواهر من القرآن الكريم، والإشارة لأهميتها الصّوتية وأثرها الموسيقي في القرآن الكريم ، إذ تعمل هذه الظّواهر البديعية على إضفاء بصمة صوتية موسيقية لا يُقاوم إيقاعها ولا يُدفع عن النّفس تأثيرها.

الفصل الثّالث

الظّواهر الصّوتية عند البلاغيين المحدثين

- المبحث الأوّل: التّلوينات الصّوتية وأثرها البلاغي في النّص القرآني
- المبحث الثّاني: ظاهرة الحذف في القرآن الكريم
- المبحث الثّالث: ظاهرة الإيقاع في القرآن الكريم

توطئة

بما أنّ القرآن الكريم كلام الله المعجز ببلاغته ونظمه، وقد أرّق كما أسلفنا أرباب البلاغة والبيان وتركهم مشدوهين، فإنّه لم يخلو عصر من العصور إلا وينبري من ينقّب عن مكامن إعجازه ومصدر بلاغته التي جعلته أسّ البلاغة ومنتهاها.

وعلى هذا الأساس فإذا كان للبلاغيين الأوائل قدم صدق في استكناه ظواهره الصّوتية، والوقوف على عتبات إعجازه كظاهرة الفصاحة والحروف المقطّعة والفواصل القرآنية، وكذلك التّعرّض لعوامل نظمه وتراصّ بنيته وقوّة سبكه، كظاهرة الانسجام الصّوتي ومراعاة النّظير والموازنة فقد تلاحى في الأفق منعرج جديد لدى الباحثين المحدثين يبحث في ظواهر صوتية أخرى على غرار التّلوينات الصّوتية وما ينضوي تحتها من تنغيم ونبر ووقف وأثرها البلاغي، وكذلك الوقوف على ظواهر مستجدّة أخرى على غرار موسيقى القرآن وإيقاعه، وجرس حروفه، ودلالة أصواته، وهذا مايُلمح في لمسات المحدثين على غرار "سيّد قطب"، و"الرّافعي"، و"فاضل السّامرائي" و"عبد الله درّاز" وغيرهم.

يتبدّى للباحث في أعمال المحدثين أنّهم أحدثوا منعرجا آخر غير ما دأب عليه البلاغيون التّراثيّون الأوائل، وذلك بتكشّفهم وتعمّقهم في تقفّي أعمال وآثار أسلافهم حينما طرقوا باب الذّوق ك "ابن الأثير "، وباب النّظم ك "الجرجاني"، وأثر الحروف في تحقيق الفصاحة ك"الجاحظ" و"ابن سنان"، إلاّ أنّ المحدثين الباحثين في إعجاز القرآن واستكناه أسرار بلاغته وطرْق مادّة تميّزه «يردّون ما يلحظونه من انسجام واتّساق تراكيب القرآن تارة إلى نظم الحروف وترتيب أوضاعها بحسب مخارجها وصفاتها، فترى الجمال اللّغوي ماثلا في مجموعة حروف مختلفة أو مؤتلفة، وتارة أخرى إلى النّظام الصّوتي البديع الذي قسّمت فيه الحركة والسّكون تقسيما

منوّعا، وتارة ثالثة إلى تشكيل كلماته وجُمله من مقاطع أو أسباب وأوتادٍ، على أوضاع خاصّة بحيث تتعاون وتتفاعل في إخراج هذا الجمال الإيقاعي» [1]، الذي تميّز به النّصّ القرآني.

المبحث الأوّل: التّلوينات الصّوتية وأثرها البلاغي في النّص القرآني

تعدّ التّلوينات الصّوتية، أو المقاطع فوق التّركيبية متمثّلة في النّبر والوقف والتّنغيم من أهمّ ما يسهم في تحقيق الجمال الأسلوبي للنّصّ القرآني، فضلا أنّها تعمل على سبر أغوار الدّلالة الصّوتية المختفية خلف الأسوار اللّفظية وكشف مراميها، عن طريق الإيقاعات المميّزة لهذه الأنساق الصّوتية؛ إذ يمكن القول بأنّ دراسة الصّوت والكشف عن عمق دلالته تقتضي تعانق عدّة عوامل صوتية تتفاعل فيما بينها لكشف البنية العميقة للآيات القرآنية، وبناء على هذا «كانت دراسة المعنى الصوتي شاقة، وكان بحث مكون صوتي واحد لابد أن يتقاطع في حد ذاته مع عدد غير قليل من المكونات» [2] الصّوتية تستند على علائق تركيبية وأخرى فوق تركيبية.

بناء على هذا يمكننا القول بأنّ المقاطع فوق التّركيبية تتكئ على المقاطع الصّوتية منتظرة ولادتها لتصبغها بصبغة معيّنة تتأتّى منها الدّلالة وينجلي المعنى، وقد حُصرت هذه الأنساق فوق المقطعية في ثلاثة أنواع هي: النبر (*Accent*) الوقف (*Pause*) التنغيم (*intonation*) حيث سنقف عند هذه الظّواهر الصّوتية في القرآن الكريم دراسة وتمثيلا.

الظاهرة الأولى: النّبر في القرآن الكريم

1-مفهوم النّبر

لغة: النبر بالكلام الهمز، والنّبر مصدر نبر الحرف ينبره نبرا همزه ، ورجلٌ نبّار: فصيح الكلام، ونبّار بالكلام: فصيح بليغ[3].

---

[1] - مُحَمَّد إبراهيم شادي، البلاغة الصّوتية في القرآن الكريم، ص: 24، 25.

[2] - سلوم ثامر، نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، دار الحوار للنّشر والتّوزيع، اللاذقية (سوريا)، ط01، (1983م)، ص: 45.

[3] - ينظر: ابن منظور، لسان العرب، المجلّد06، ج49، ص: 4323

اصطلاحا: النبر في ميدان علم الأصوات يعني النطق بمقطع من مقاطع الكلمة بصوت أوضح من بقية المقاطع المجاورة، فهو «مكون فوميمي فوق تركيبي تتبدى ملامحه النطقية في هيئة صورة سمعية مثقلة تطال بعض المقاطع المكونة للكلمة بصيغة فجائية» [1] ، يقع في السّمع.

وعرّفه "مُحَّد الأنطاكي" من منظور كونه مكوّنا صوتيا يعتري «أعضاء النطق أثناء التلفظ بمقطع ما من مقاطع الكلمة» [2].

أمّا "أحمد مختار عمر" فقد بيّن أنّ النّبر يحدث نتيجة لعامل الهواء، أي: « باحتوائه على قدر أكبر من ضغط الرئة بالنسبة للمقاطع الأخرى» [3].

نستخلص من هذه التّعاريف أنّ النّبر يقع على مقطع صوتي واحدٍ، نتيجة لضغط الهواء على الرّئة بسبب قوّة النّفس وشدّته، ممّا ينتج عنه المقطع المنبور.

وعلى هذا الأساس، يمكن القول بأنّ بروز الصّوت المنبور يعتمد على شدة قوة النّفس ولذلك«يلاحظ مع الصّوت المنبور نشاطا في أعضاء النطق الأخرى، كأقصى الحنك واللسان والشفتين»[4]، وبالتّالي فإنّ كميّة الشدة في المقطع المنبور تكون أكثر منها في المقطع غير المنبور ممّا يقتضي طاقة زائدة وجهدا عضليا إضافيا حتّى يتأتّى النّطق بهذا المقطع المنبور[5].

---

1 – بن شيحة نصيرة، أسلوبية البناء الصّوتي في الخطاب الشّعري المعاصر –محمود درويش أنموذجا–، أطروحة دكتوراه، إشراف:أ د عقاق قادة، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعبّاس (الجزائر)، السّنة (1434هـ–2013م)، ص: 139.

2 –مُحَّد الأنطاكي، المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها،دار الشّروق العربي، بيروت (لبنان)، ط 03، (1391هـ–1971م)، ج 01 ، ص: 22 .

3 – أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، ص: 162. ،

4 – راضية بن عربية، الظواهر الصوتية في قراءة الإمام نافع–سورة التوبة أنموذجا–دراسة صوتية ووظيفية وتطبيقية، أطروحة دكتوراه، إشراف:أد خير الدّين سيب، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان (الجزائر)، السّنة (1432هـ/2011م)، ص: 403.

5 – ينظر: أحمد مختار عمر ، دراسة الصوت اللغوي، ص: 221.

2 – مواطن ورود النّبر في اللّغات

ليس للنّبر موقع يضبطه في اللّفظة، لأنّه ليس محلّ إجماع ودراسة عند اللّسانيين، ولذلك ورد متمايزا في الألسن واللهجات، فبعض اللّغات يقع النبر عندهم أول الكلمة، ومنهم من يقع عندهم في وسط الكلمة، أي: أنّه يتميّز بالحريّة في وروده في الكلمة، وهذا يوحي أنّه ليس مستخدما في كل اللغات العالمية [1].

يعود هذا الاختلاف لمواطن ورود النّبر في الكلمة بالنّسبة للّغات المنبورة، أو عدم وروده أصلا للّغات غير المنبورة من النظرة السائدة إلى النبر كونه فونيما أم لا، بل إن موقعيته تفصح عن الكلمة كونها اسما أو فعلا مثلما هو الحال في اللّغة الإنجليزية؛ كما أنّه يرد بدرجات متفاوتة على الألفاظ، فقد يقع قويا، أو متوسّطا، كما يقع ضعيفا [2]، أمّا بالنّسبة للعرب فلا يمكننا أن ننكر النّبر في نطقهم باعتباره يثبت أداء لا كتابة، «فعندما نتتبع مؤلفات العرب القدامى فيما يخص موسيقى الشعر ، نجدهم قد اكتفوا بذكر الأوزان والبحور ، وهذا يقتصر على توالي المقاطع والنظام الذي تخضع له ، ولكن لم يحدثونا عن كيفية الإنشاد ومعرفة طريق الأداء »[3]التي هي الأساس في التّعامل مع التّلوينات الصّوتية.

أمّا بالنّسبة للغة العرب فالدّراسات المعاصرة ذهبت إلى القول بأنّ النبر لم يظهر في اللغة العربية مثلما عرف واشتهر عند غير العرب، إذ«ليس عندنا أي دليل مادي يبين كيف كان العرب الأقدمون ينبرون كلماتهم، لأن اللغويين القدماء لم يهتموا بتسجيل هذه الظاهرة، وربما لم تلفت نظرهم لعدم تدخلها في تغيير المعنى، أو ربما تنبهوا إليها ولكنهم فسروها بطريقة أخرى »[4]؛ ممّا أثار حفيظة اللّسانيين العرب المحدثين واستشرفوا للكشف عن هذه الظواهر الصّوتية، حيث بذلت

[1]– ينظر: أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، دار المعارف ط01، (1976 م) مصر، ص: 222.
[2] – ينظر: المرجع نفسه، ص: 223 ،224.
[3] – بن فريحة الجيلالي، التّواصُل اللّغَوي في ظِلّ التّنَوّعَات الصّوتِية، ص: 512.
[4]– أحمد مختار عمر، المرجع السّابق، ص:358.

جهودٌ للوقوف على هذه الأنساق الصّوتية فوق المقطعية، لمسايرة الدراسات اللسانية والأسلوبية المعاصرة، لتتعانق مع مطارح ومطامح الدراسات الغربية فقعّد المحدثون العرب قواعد تقريبية لتحديد هذه المقاطع المنبورة[1].

يذهب بعض الباحثين المعاصرين -مثلما أسلفنا- إلى أنّ العرب القدامى لم يُغفلوا هذه الظّاهرة الصّوتية، وإنّما أشاروا إليها ووقفوا عندها أثناء حديثهم عن الهمز، فالتّلوينات الصّوتية عُرفت عند العرب منذ القدم ممّا يوحي بوجود هذه الظّواهر في زخمهم اللّغوي، ف "الخليل بن أحمد" قال في معرض حديثه عن الهمزة: «والهمزة في الهواء لم يكن لها حيّز تنسب إليه» [2]، أي: إنّه نفى المخرج للهمزة، ممّا يجعلها تخضع للتّلوينات الصّوتية، كما أشار "مُحَّد مُحَّد داود" إلى مراودة العرب القدامى لماهية النّبر بقوله: «ولعل إشارات القدماء بمصطلح (مطل الحركة) الذى ورد عند ابن جنى، وأطلق عليه سيبويه: إشباع الحركة، قريب -بوجه ما -من دلالة النبر عند المعاصرين»[3].

ولعلّ "جلال الدّين السّيوطي" كان أكثر وضوحا في شأن الهمزة وتلويناتها الصّوتية بقوله: «لماّ كان الهمز أثقل الحروف نطقا، وأبعدها مخرجا، تنوّع العرب في تحقيقه بأنواع التّخفيف، وكانت قريش وأهل الحجاز أكثرهم له تخفيفا، ولذلك أكثر مايرد من تخفيف من طُرُقهم»[4] للهمز عن طريق آليات صوتية تقلّل من شدّة الهمز وقوّته، وهي أربعة آليات ذكرها السّيوطي وهي: الإبدال والتّسهيل والنّقل، الإسقاط[5]، فكانت تجليات النّبر في القراءات القرآنية تظهر بوضوح في باب الهمز وما يطرأ عليه من التّلوينات الصّوتية التي تهدف إلى تسهيل النّطق به.

1 - ينظر: أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، ص: 360.
2 - الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين، ج01، ص: 03.
3 - مُحَّد مُحَّد داود، العربية وعلم اللّغة الحديث، دار غريب، مصر، (2001م)، (دط)، ص: 133.
4 - السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج01، ص: 277.
5 - ينظر: السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج01، ص: 277، 278.

ولعلّ ممّا يعضّد من أقوال العلماء بوجود النّبر كظاهرة صوتية في التّراث اللّغوي العربي قول الشّاعر: [1]

ثم قالوا: تحبها؟! قلت: بهرا عدد الرمل والحصى والتراب

وقع النبر في هذا البيت على جملة تحبها؟ بدليل أن الشطر الثاني جاء جوابا عن السؤال فأسقط همزة الاستفهام مكتفيا بالنبر عن ذكرها، على المقطع الأخير (ص ع ع) من الشّطر الأوّل للبيت، وقد قال النحاة في البيت ما يؤكد جواز إعمال الهمزة مع عدم الذكر، وحذف الهمزة مظنّة العلم بالأحوال[2].

3- الأبعاد الصّوتية والدّلالية لظاهرة النّبر في القرآن الكريم

لا شكّ أنّ الأنساق الصّوتية عموما لم يخلو منها القرآن الكريم، إذ هي ممّا يسهم في إيقاعه وموسيقاه، ويتجلّى ذلك خصوصا في القراءات القرآنية، إذ «لم تزل العلماء تستنبط من كلّ حرفٍ يقرأ به قارئ معنى، لا يوجد في قراءة ذلك الآخر ذلك المعنى» [3] ، الذي قرأ به قارئ آخر، وهذا إشارة من "القسطلاني" إلى موسيقى القرآن وإيقاعه على غرار الغنن وإتقان نطق الحروف والتّلوينات الصّوتية، وما يترتّب عن ذلك من جماليات أسلوبية تقع في أذن المتلقّي، وتقبع على نفسه، وهذا ملمح من ملامح الإعجاز القرآني، لا يتذوّقه إلاّ سليمي الطّباع، وصحيحي القلوب والأسماع[4].

1 - ديوان عمر بن أبي ربيعة، تح فايز مُحَّد، دار الكتاب العربي، بيروت (لبنان)، ط02، (1416هـ-1996م)، ص: 73.

2- ينظر: أحمد بن يوسف، الدّر المصون في علوم الكتاب المكنون، تح أحمد محمّد الخرّاط، دار القلم، دمشق (سوريا)، (دط)، ج09، ص: 333، وإبراهيم خليل، مدخل إلى علم اللغة، دار المسيرة للنشر والطباعة والتوزيع، عمان (الأردن) ط02، (2014م)، ص: 168.

3 - القسطلاني، لطائف الإشارات لفنون القراءات، تح مركز الدّراسات القرآنية، المملكة العربية السّعودية، (دط)، ج 01، ص:356..

4 - ينظر: المصدر نفسه، ص:356.

كما أشار العلماء إلى أنّ النّبر كان يأتي أيضا عن طريق القلقلة، حيث تتأتّي ظاهرة النّبر عن طريق الوقوف على نهاية الحروف المقلقلة، حيث إنّ وصل القراءة يقلّل من قوّة النّبر وحدّة جرسه بخلاف إتمامها، لأنّ الوقوف على أحد حروف القلقلة لشدّة ضغطه واستعلائه[1].

بناء على هذا التّوصيف من "القسطلاني" نستشفّ أنّ النّبر يعمل أيضا على إظهار المعنى المراد من الآيات القرآنية، وتحقيق التّأثير الوجداني، إذ إنّ النّبر كملمح من ملامح التّلوينات الصّوتية يعمل على تحقيق«الإقناع العقلي في الوقت الذي يتحقّق فيه الإمتاع الوجداني» [2]، وتركه يؤدّي إلى غموض المعنى، لأنّ أسلوب الخطاب القرآني يرتهن إلى معالم إعجازية، استمدّت طاقتها من فرائد أسلوبية يعدّ النّبر إحداها، ومن هنا يمكننا الوقوف على نماذج نبرية من القرآن الكريم لنرى مدى فاعليّة ظاهرة النّبر في إبراز حيثيات الخطاب القرآني كالآتي:

أ/ مواطن تجنّب النّبر في القرآن الكريم: يوجد العديد من الآيات القرآنية ينبغي لتاليها تجنّب النّبر فيها وإلاّ وقع في نقيض المعنى المرجوّ منها نحو قوله تعالى: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[3]، إذ يجب على القارئ لهذه الآية إذا أراد أن يحافظ على المعنى المراد من التلاوة أن يتجنب النبر الذي يقع على لفظة (أَهْلَكَ) في المقطع الأوّل (ص ع ص) (أهـ)، حتّى تكون القراءة سليمة والمعنى سليمين، لأنّ النّبر إذا وقع على المقطع السالف الذكر يخل بالمعنى ويغير دلالة اللفظة من الأهل الذين هم الأقارب إلى معنى أخر وهو الهلاك.

1 – ينظر: أحمد البايبي، القضايا التّطريزية في القراءات القرآنية – دراسة لسانية في الصّواتة الإيقاعية–، عالم الكتب الحديث، إربد (الأردن)، ط01، (2012م)، ج02، ص: 53.

2 – صلاح الدّين عبد التّواب، الصّورة الأدبية في القرآن الكريم، الشّركة المصرية العالمية للنّشر، القاهرة (مصر)، ط 01، (1995م)، ص: 180.

3– سورة هود، الأية: 40.

ومن الأمثلة الدّالّة على فاعلية النّبر في جلاء المعنى ووضوحه قوله تعالى: ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾[1]، فيجب عدم النّبر في حرف الفاء من اللّفظة (فسقى)، لأنّ دلالة المعنى تتغيّر عن مقصودها ومعناها الأصلي، من السّقاية إلى الفسق، إذ إنّه يمكن نبر حرف القاف حتّى نمايز بين اللّفظتين السّقاية والفسق[2].

ب/ مواطن وجوب توظيف النّبر في القرآن الكريم

من الألفاظ الواردة في الآيات القرآنية لفظة "هوى" من قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾[3]، وقوله تعالى أيضا: ﴿وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴾[4]، فالذي يريد أن يحافظ على الوجه السليم للآيتين يجب أن يوظف خاصية النبر الذي يقع على المقطع (ص ع ع) المتمثل في(وى) من الفعل هوى والمقصود به السقوط والبعد، وإلا نأى بمراد الآية إلى الحب في غياب النبر ويلمح الفرق جليا في المعنى من قول الشاعر: [5]

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْهَوَى

فالنبر في لفظة (الهوى) هنا يقع على الهاء لتنزاح الدّلالة إلى الحب، فالنبر يحافظ على سلامة المعنى ووحدة السياق، وغيابه «يؤدّي إلى قلق تواصلي دائم »[6] للوقوف على استبطان المعنى العميق والمقصود من الآيات، لأن النبر لول م يستعمل هنا على الهاء لغير الدلالة المتأتية من السياق، فهو الأداة الإجرائية الوحيدة الكفيلة بالتفريق بين كلمتين وبالتالي بين معنيين.

---

1 – سورة القصص، الآية: 24.

2 – ينظر: مُحَّد مُحَّد داود، العربية وعلم اللّغة الحديث، ص: 134.

3– سورة النجم، الأية: 01.

4– سورة طه، الآية: 81.

5 – ديوان ديك الجنّ الحمصي، جمع وشرح عبد المعين الملّوحي ومحي الدّين الدّرويش، مطابع الفجر الحديثة، حمص (سوريا)، (1960م)، (دط)، ص: 108.

6 – عشتار داود محمّد، الإشارة الجمالية في المثل القرآني، منشورات إتّحاد الكتّاب العرب، دمشق (سوريا)، (2005م)، ص: 27.

من الأمثلة القرآنية التي وقف عندها دارسوا ظاهرة النّبر قوله تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[1]، حيث رأوا أنّ النّبر يجب أن يقع على حرف الفاء من اللّفظة (فقست) حتّى تحافظ على معناها المتمثّل في القساوة، لأنّ غياب النّبر يؤدّي إلى اختلاف المعنى وانزياحه من القساوة إلى الفقس، وهو بخلاف مراد الآية[2]، لأنّ الفسق هنا يُقصد به الكفر وعدم الإيمان، كما يعمل جناس القلب بين اللّفظتين (فقست/ الفاسقون) على تحقيق الانسجام البلاغي بين ألفاظ الآية[3].

ويظهر بوضوح أثر النّبر ووجوبه حتّى يتسنّى معنى الآية الحقيقي في قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾[4]، حيث إنّ غياب النّبر في حرف اللاّم من اللّفظة (أوحى لها) يجنح بالمعنى إلى دلالة دلالة ومعنى بعيد، وهذا بخلاف مرامي الآية القرآنية ومعانيها، وذلك أنّ« تحوّل النّبر عن اللاّم في (لها)، يجعل الكلمتين(أوحى/ لها)كلمة واحدة(أوحالها)، بمعنى الوحل، وهذا نهاية فساد المعنى» [5،5]، إذ يجب نبر لام (لها) وتنغيمها حتّى حتّى تتأتّى المفارقة بين المعنيين..

في ظلّ هذا الملمح من الطّرح، نستحضر أهميّة المفارقة الدّلالية التي يصنعها النّبر كظاهرة صوتية تُستعمل كمؤشّرٍ للوقوف على الدّلالة الحقيقية للآيات؛ فقد ذهب علماء البلاغة والتّفسير أنّ الأنسب في التّوظيف عند النّحويين استعمال لفظة (إليها) بدل لفظة (لها) [6]، إلاّ أنّ الخطاب الخطاب القرآني عدل عن ذلك ب «إيثار التّعدية باللاّم، لما في معنى اللاّم من اختصاص وإلصاقٍ وصيرورة وتقوية الإيصال » [7] لمقصود الآية ومعناها الحقيقي، إذ لا تُستكشف البنية العميقة

---

1 – سورة الحديد، الآية: 16.

2 – ينظر: مُحَّد مُحَّد داود، العربية وعلم اللّغة الحديث، ص: 134.

3 – ينظر: طاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، ج27، ص: 393.

4 – سورة الزّلزلة، الآية: 05.

5 – مُحَّد مُحَّد داود، المرجع السّابق، ص: 134.

6 – ينظر: طاهر بن عاشور، المصدر السّابق، ج30، ص: 493، وأبو حيّان الأندلسي، البحر المحيط، ج08، ص:497..

7 – بنت الشّاطئ، التّفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف، مصر، ط07، (1990م)، ص:92.

للخطاب القرآني عن طريق الدّال المتمثّل في التّشكيل الصّوتي السّطحي فحسب، بل إنّه يجب «الوصول إلى ما يشكّل نواة مركزية سُرّب إليها السرّ الدّلالي »[1]، الذي تُظهره الظّواهر الصّوتية التي اعتنى بها العلماء المحدثون على غرار النّبر.

بناء على ما سلف، يمكن القول بأنّ النّبر ملمح جمالي يعمل على إبراز المعنى ووضوحه، ويعمل على تحقيق «التّفاعل والتّآزر في تشكيل بنية تطريزية تتداخل ملامح التّطريز داخلها، فهو مصدر الجمال والجلال القرآني»[2]، الذي لا يضاهيه أيّ نسيج أو بناء لغوي.

الظاهرة الثّانية: التّنغيم في القرآن الكريم

1- مفهوم التّنغيم

لغة: التنغيم في اللغة مشتق من النغم وهو: «جرس الكلام وحسن الصوت من القراءة ونحوها»[3].

اصطلاحا: اجتهد الكثير من العلماء في تحديد المفهوم الاصطلاحي للتّنغيم كالآتي:

عرّفه **"**سمير إبراهيم العزاوي**"** بقوله: «هو موسيقى الكلام التي تظهر في صورة ارتفاعات وانخفاضات في مستوى الكلام الذي لا يلقى على مستوى واحد بحال»[4].

وعرّفه **"**أحمد البايبي**"** في ضوء القراءات القرآنية بقوله : «تقتضي القراءة المرتّلة أن يوقّع القارئ بصوته ملامح العلوّ الموسيقي، أي: النّغم والتّنغيم، فالتّرتيل ليس فقط تجويد الحروف، بل هو أيضا مراعاة المستوى اللّحني »[5].

---

1 - سعيد بن كرّاد، سياق الجملة وسياقات النّصّ، الفهم والتّأويل، مجلّة علامات، مكناس (المغرب)، العدد33، (2010م)، ص: 11.

2 - أحمد البايبي، القضايا التّطريزية في القراءات القرآنية-دراسة لسانية في الصّواتة الإيقاعية-، ج02، ص: 304.

3 -الخليل بن أحمد الفراهيدي،كتاب العين، ج4، ص:247، وابن فارس، معجم مقاييس اللّغة، ج05، ص: 452.

4 -سمير ابراهيم العزاوي، التنغيم في القرأن الكريم، دار الضياء للنشر والتوزيع ، عمان(الأردن)، ط1، (2009م)، ص: 28

5 - أحمد البايبي، المرجع السّابق، ج01، ص: 187.

استنادا على هذه التّعاريف نستخلص أنّ التّنغيم ظاهرة تطريزية تتعلّق بارتفاع الصوت وانخفاضه أثناء الكلام للتعبير عن معنى معين، فهو قرينة «تحدد المدلول المراد، مع أنه لا يشكل علاقات نحوية، ولكنه يبرز العلاقات القابعة تحت السطح المنطوق مؤثرا على التفسير» (1).

2- أقسام التّنغيم:

ذهب "أحمد مختار عمر" إلى أنّ التّنغيم في اللّغة العربية يرجع إلى شكل النّغمة المنبورة من حيثُ ارتفاع وانخفاض درجتها وقسّمها قسمين هما: (2)

أ/**النغمة الهابطة**: وهي تتصف بالهبوط في نهايتها.

ب/**النغمة الصاعدة**: وهي تتصف بالصعود في نهايتها

بينما يقسّم علماء التّجويد التّنغيم إلى ثلاثة مستويات هي: النغمة الصوتية الصاعدة والمتوسطة والهابطة، ومن خلال هذه الظّاهرة الصّوتية تتحدد دلالة المعنى. ويلمح ذلك جليا في ما ذكره "مُحَمَّد بن محمود السّمرقندي الهمذاني "(738هـ) في منظومته الموسومة بالعقد الفريد أثناء تناوله للّفظة (ما) وما يطرأ عليها من التّغيّرات الصّوتية المتعلّقة بالنّفي والجحود فقال: (3)

إِذَا مَا لِنَفْيٍ أَوْ لجحْدٍ فَصَوتها ارْفَعَنْ ولِلاستفْهَامِ مَكّنْ وَعَدّلا
وَفي غَيْرِ اخْفِضْ صَوْتها والذِي بِما شَبِيهٍ بمعْناهُ فَقصه لِتَفْضلا

1- مُحَمَّد حماسة عبد اللطيف، النحو والدلالة -مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي -، دار الشّروق، (مصر) ط01، (1420هـ-2000م)، ص: 118.

2 - ينظر: ماريو باي، أسس علم اللّغة، تر أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة (مصر)، ط 08، (1419هـ-1998م)، ص: 94.

(*) هو الحسن بن أحمد بن الحسن بن أحمد ابن سهل العطار أبو علاء الهمذاني ولد سنة (488هـ). شيخ همذان، وإمام العراقيين في القراءات، له باع في التفسير والحديث والأنساب والتواريخ. أشهر مصنفاته: زاد المسير في التفسير،والوقف والابتداء في القراءات، ومعرفة القراءة، الهادي في معرفة المقاطع، توفي سنة(569هـ).

3- نقلا عن براهيمي طاهر، التّنغيم ظاهرة أصيلة في التّراث العربي الإسلامي، مجلّة دراسات أدبية، دار الخلدونية للنشر والتّوزيع، (الجزائر)، السنة (1433هـ-2012م)، العدد: 13، ص:85.

ولعلماء التجويد إشارات لهذا المعنى سبقوا بها المحدثين في ما وصلوا إليه من بحوث صوتية إذ يقول صاحب كتاب التمهيد في التجويد [*]:«وأما اللحن فهو الذي لا يقف على حقيقته إلا نحارير القراء ومشاهير العلماء وهو ضربان أحدهما لا تعرف كيفيته ولا تدرك حقيقته إلا بالمشافهة والأخذ من أفواه أولي الضبط والدراية وذلك نحو مقادير المدات وحدود المملات والملطفات والمشبعات والمختلسات والفرق بين التنصيص والإثبات والخبر والاستفهام والإظهار والإدغام والحذف والتمام والروم والإشمام، وإلى ما سوى ذلك من الأسرار التي لا تتقيد بالخط واللطائف التي لا تؤخذ إلا من أهل الإتقان والضبط» [1].

طرق "أحمد مطلوب" واستقرأ مواطن التّنغيم من خلال تعرّضه للاستفهام، وبيّن بأنّه يتجلّى بالنّغمة المرتفعة الصاعدة أثناء خروجه إلى معنى الاستبعاد والافتخار، والأمر، والتأكيد والتبكيت، والتحذير، والتحضيض، والتذكير، والتشويق، والتعجب، والتعظيم والتفخيم، والتقرير والتنبيه، والتهديد، والتهويل، والنفي،والنهي، والوعيد، بينما رأى النغمة الهابطة تتوافق مع خروج الاستفهام إلى معنى الاستبطاء، والاسترشاد، والاكتفاء، والإنكار، والإياس، والإيناس، والتجاهل والتحقير، والتفجع، والتكثير، والتمني، والتهكم، والتوبيخ، والدعاء، والعتاب[2].

وتأسيسا على ما سبق يمكن القول: إنّ ظاهرة التّنغيم متواترة في التّراث العربي، واحتضنها القرآن الكريم بأقسامها المرتفعة والمنخفضة، حيث تجلّت في الكثير من الآيات القرآنية، وذلك باعتبار القرآن الكريم يتضمّن كلّ الأساليب المتعلّقة بعلم المعاني، حيث يتجلّى ذلك في كتب التّجويد والقراءات والتّفسير.

[1]- نقلا عن براهيمي طاهر، التّنغيم ظاهرة أصيلة في التّراث العربي الإسلامي، مجلّة دراسات أدبية، دار الخلدونية للنشر والتّوزيع، (الجزائر)، السنة (1433هـ-2012م)، العدد: 13، ص:85.

[2] - ينظر: أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، الدّار العربية للموسوعات، ط01، (1426هـ-2006م)، ج01، ص: 181-194.

3- تجليّات التّنغيم في التّراث العربي

بما أنّ اللغة العربية تتميّز بخصائص فريدة وسمات متميّزة فإنّها - بلا شكّ- تناولت ظاهرة التّنغيم دون تسميتها، كونها لغة إيقاعية تتميّز بجرس الحروف ونصاعة الألفاظ، فهي تحتاج إلى وسائل وطرق أداء من أجل الإبلاغ والإفهام.

على هذا الأساس تمظهر باب من أبواب البلاغة يتمثّل في علم المعاني وما ينضوي تحته من ألوان على غرار أحوال المسند والمسند إليه، والخبر والإنشاء، الفصل والوصل، الإيجاز والإطناب والمساواة، وللوقوف على فحوى الخطاب ودلالته لا بدّ من وجود تلوين صوتي يقف على عتبة هذه الأساليب حتّى تتجلّى معانيها وتتّضح مبانيها.

نقل "ابن جنّي" عن "سيبويه" شاهدا من شواهد العرب يخضع للتّلوين الصّوتي حتّى يظهر معناه، وذلك قولهم: سير عليه ليلٌ، حيث إنّ المراد بهذا اللّفظ هو اللّيل الطّويل، فاستنباط اللّيل الطّويل يُستنتج عن طريق التطويح والتطريحِ، والتفخيم والتعظيم، كما أشار "ابن جنّي" إلى أنّ أسلوب المدح والذّمّ يقتضي التّنغيم حتّى يُفهم المعنى المقصود، ومن ذلك قول العرب (كان والله رجلا) حيث لا مناص للمُخبر بهذه العظمة للرّجل إلاّ تمطيط اللاّم وإطالة الصّوت بها حيث إنّ "ابن جنّي "ذكر أثر التّفخيم والتّعظيم أنّه يقوم مجرى ماتُحذف فيه الصّفة[1].

وممّا ذُكر في التّراث العربي قضية الخبر والإنشاء نحو قولهم: (مازيدٌ إلاّ قائمٌ) أو(ماقائمٌ إلاّ زيدٌ)، ممّا يوهم غير المتبصّر في أسرار لغة العرب أنّ هذه الجمل الثّلاث تصبّ في معنى واحدٍ، إلاّ أنّ الحقيقة بخلاف ذلك، لأنّها تعبّر عن أوصاف القيام والهيئات التي يُتوهّم كون زيدٍ عليها من الجلوس أو الاضطجاع أو الاتّكاء[2]، ولذلك ذكر المثال نفسه "السّيوطي" في باب الحصر بإنّما

---

[1] - ابن جنّي، الخصائص، ج02، ص: 370، 371.

[2] - ينظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 346.

وأشار إلى المنطوق والمفهوم [1]، ممّ يتبيّن من خلاله أنّ البنية العميقة قد لا تتساوق مع البنية السّطحية (الألفاظ)، ممّا يحتاج إلى طرائق صوتية متعدّدة للوقوف على المعنى المراد من الألفاظ.

ولم تزل هذه الخصيصة الموسيقية التي كانت تسري على ألسنة العرب ماثلة حتّى استعملت على لسان النّبيّ عليه السّلام والصّحابة في غزوة الخندق، حيث كانوا يتمثّلون بأرجاز ابن رواحة قائلين: [2]

وَاللهِ لَوْلَا أَنْتَ ما اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَـا
فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَـــا وثبّتِ الأقدامَ إنْ لاقَيْنا
إنَّ الأُلَى قدْ أَبَوْا عَلَيْنَـا وإنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبيْنَـــا

ذكر علماء السّير أنّ النّبيّ عليه السّلام دأب على ما كان يعكف عليه العرب أثناء عملهم لتخفيف عبء العمل عن طريق الإنشاد، فكان يرفع صوته الشّريف ويمدّه عند كلّ قافية مع تأكيد هذا التّمديد الصّوتي العالي مع كل حرف أخير [3]، أي حرف الرويّ ذو المقطع الطّويل (ص ع ع)، ممّا يجعل هذا «البيان النبوي الشريف يمتاز في كل حديث منه، بل كل مطلع منه وختام بأسلوب إيقاعي فني، ذاك لأن العربية بطبيعتها لغة موسيقية، والحديث النبوي الشريف يسير على سنن العربية وأساليبها في التعبير، فتميز أسلوبه بالإيقاع الصوتي المعبر والجرس اللافت»[4]، الذي تجلّى في التّمثّل بشعر ابن رواحة.

---

1 – ينظر: السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج03، ص: 159.

2 – وليد قصّاب، ديوان عبد الله بن أبي رواحة، دار العلوم للطّباعة والنّشر، بيروت(لبنان)، ط01، (1401هـ-1981م)، ص:31.

3 – ينظر: صفيّ الرحمان المباركفوري، الرّحيق المختوم، وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلامية، قطر، (1428هـ-2007م)، ص: 304، وأبو بكر جابر الجزائري، هذا الحبيب يامحبّ، دار الشّروق للنّشر والتّوزيع، الرياض(المملكة العربية السّعودية)، ط03، (1409هـ-1989م)، ص: 301.

4 – مدحت حسيني حسيني ليمونة، البلاغة الصّوتية في الأحاديث النّبويّة، مجلّة كلية اللّغة العربية بإيتاي البارود، جامعة الأزهر(مصر)، المجلّد: 25، العدد: 02، ص: 1726.

4- الأبعاد الصّوتية والدّلالية لظاهرة التّنغيم في التّراث

على ضوء ما سبق من التّعاريف لظاهرة التّنغيم نلحظ أنّ له أبعادا صوتية ودلالية على النّحو التّالي:

أ/ **التّعبير عن العوامل النّفسية** : يعمل التّنغيم على إ ظهار المكنونات النّفسية بواسطة الأداءات الموسيقية، إذ «يستخدم التنوعات الموسيقية في الكلام بطريقة تمييزية تفرق بين المعاني وإلى اختلاف التنغيم يرجع الفضل في أننا يمكننا أن نعبر عن كل مشاعرنا وحالاتنا الذهنية من كل نوع» [(1)] ولذلك أُثر عن الشّعراء توظيف الإيقاع العروضي في شعرهم وفق الحالة النّفسية التي يكونون عليها من فرح أو اكتئاب وغيرها من الانفعالات النفّسية، فقد كانوا أمّة ترتهن إلى الوزن تقتضيه فطرتهم وحتّمته عليهم طبيعتهم البدوية.

وعلى سبيل المثال نجد بحر الطّويل عندهم «أكثر الأوزان شيوعا بينهم، إنّما اتّسع لتفرغ فيه العواطف جملة فهو يتناول الغزل الممزوج بالحسرة، والحماسة التي يخالطها شئ من الإنسانية والرّثاء الذي يُتوسّع فيه بقصّ الأعمال مبالغة في الأسف والحزن، ويتّصل بذلك سائر ما يدلّ على التّأمّل المستخرج من أعماق النّفس كالتّشبيهات والأوصاف ونحوها »[(2)]، ممّا يجعل نغم هذه البحور الشّعرية متمايزا ومختلفا من بحر لآخر.

ب/ **تحديد الدّلالة:** يعمل التنغيم على تحديد الدّلالة الواردة في الألفاظ، فقد لا يتأتّى للدّال الإبانة عن فحوى الألفاظ إلا بالتّنغيم كنظام صوتي يسفر عن المدلول، ويمكن التّمثيل بهذا بقول الأعشى: [(3)]

وَذَا النُّصُب المنْصُوبَ لَا تَنْسُكَنّهُ   وَلا تَعْبُدِ الشّيْطانَ وَاللهَ فَاعْبُدَا

وَصَلِّ عَلى حينِ العَشيّاتِ والضُّحَى   وَلا تحمدِ الشّيْطانَ وَاللهَ فَاحْمدَا

[1]- أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، ص: 230.

[2] - الرّافعي، تاريخ آداب العرب، ج02، ص: 21.

[3] - ديوان الأعشى الكبير، ص:17.

والضابط في تحديد الدلالة المقصودة هنا هو درجة الصوت أو التنغيم في لفظة (فاعبدا)، حيث إنّ رغم المخاطب مفرد إلا أنّ الشّاعر جنح إلى التّثنية وفق ما تقتضيه قوانين العرب الصّوتية واللّغويه عندهم للتّنبيه، ف«تقول العرب: افعلا كذا، والمخاطب واحدٌ» [1].

ذهب "أبو منصور التّعالبي"(430هـ) إلى أنّ الشّاعر قصد بقوله (فاعبدا) أي: (فاعبدن) ثمّ عدل إلى استبدال النّون الخفيفة للضّرورة الصّوتية التي يفرضها رويّ القصيدة فقلبت ألفا [2]، لما للألف الممدودة من نفَس مفتوح عالٍ بخلاف النّون السّاكنة، فالمقطع الصّوتي المفتوح للألف هو (ص ع ع) أندى في السّمع من المقطع الصّوتي المغلوق (ص ع ص) في حال كون الرّويّ نونا.

كما أشار "أبو منصور التّعالبي" إلى وُرود هذه الظّاهرة في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾[3]، وبيّن أنّ المقصود بالخطاب هو مالك خازن النّار، إلا أنّ الخطاب ورد بصيغة التّثنية[4]، كما أشار "الزّمخشري" إلى ضرورة صوتية أخرى قد تكون سبب التّثنية بدل الإفراد، معلّلا ذلك «أن تكون الألف في (أَلْقِيَا) بدلا من النّون إجراء للوصل مجرى الوقف» [5]، موافقة لدأب العرب في ميلهم إلى الخفّة أثناء الكلام.

5- الأبعاد الصّوتية والدّلالية لظاهرة التّنغيم في القران الكريم

حفل القرآن الكريم بظاهرة التّنغيم كملمح صوتي وورد في الكثير من الآيات القرآنية، فهو بمثابة الفيصل في تحديد السياق المبتغى من الآيات القرآنية، ولا سيما الاستفهامية منها، و من ثمّ

---

1 - التّعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمّد بن إسماعيل)، فقه اللّغة وأسرار العربية، تح ياسين الأيّوبي، المكتبة العصرية، بيروت (لبنان)، ط02، (1420هـ-2000م)، ص: 364.

2 - ينظر: التّعالبي، المصدر نفسه، ص: 365.

3 - سورة ق، الآية: 24.

4 - ينظر التّعالبي، المصدر نفسه، ص: 365

5 - الزّمخشري، الكشّاف، ج05، ص: 599.

الوقوف على الأغراض المختلفة للجمل الاستفهامية واستكناه مرادها، ويمكننا التّعرّض لبعض الآيات القرآنية واستنباط دلالاتها والإشارة إلى أبعادها من خلال ظاهرة التّنغيم كالآتي:

أ/**اللّوم والعتاب:** يتجلّى التّنغيم الصّاعد في الكثير من الآيات القرآنية، وقد عدّها **"أحمد مطلوب"** فوجدها حوالي تسعة عشر، بينما التّنغيم ذو النّغمة الهابطة فحوالي خمسة عشر موضعا[1].

من الأمثلة على التّنغيم ذي الدّرجة المرتفعة قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2]، حيث يقع التّنغيم على هذه الآية بوتيرة مرتفعة تحاكي تعنّت أفئدة المكذّبين وتقرع قلوبهم، ونوع الأسلوب هنا هو استفهام استنكاري تعجّبي شدّة أسلوبه -الإنكار- تقتضي الرّد وتِبيان سبب الإنكار، وإلاّ كان المخاطب حرياً باللّوم والوعيد [3]، كما سلك **"الثّعالبي"** نفس المسلك وبيّن أنّ هذا الاستفهام «تقرير وتوبيخ أي: كيف تكفرون؟! ونعمه عليكم وقدرته» [4] ظاهرة جلية، «وفي هذا الاستعراض السريع يرتسم ظل القدرة القادرة، ويلقي في الحس إيحاءاته المؤثرة العميقة» [5]، التي لا تُستخلص إلاّ عن طريقة وتيرة صوتية صوتية معيّنة تتمثّل في التّنغيم الصّوتي.

ب/**التّهكّم والسّخرية:** هناك الكثير من الآيات القرآنية لا تتّضح مبانيها ولا مراميها إلاّ من خلال فاعليّة التّنغيم، فالإعجاز الصّوتي الكامن خلف أسوار هذه الظاهرة كفيل بفكّ شفرات المعاني المرادة من الآيات القرآنية، ولعلّ من الآيات الكريمة التي لا يتّضح معناها من خلال مبناها إلاّ بالتّلوينات الصّوتية قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾[6].

---

1 – ينظر: أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطوّرها، ج01، ص: 197.

2 – سورة البقرة، الآية: 28.

3 – ينظر: طاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير: ج01، ص: 374.

4 – الثّعالبي، الجواهر الحسان، ج01، ص:203.

5 – سيد قطب، في ظلال القرآن، ج01، ص: 53.

6 – سورة الدّخان، الآية: 47.

إنّ تناول الآية بالتّلاوة العادية يجعل البنية العميقة للآية بعيدا عن الفهم، لأنّ الآية نزلت بصيغة التّهكّم والسّخرية، فهي لا تفكّ مغاليقها إلاّ بالتّنغيم، إذ يُتّخذ«كقرينة صوتية، كاشفا عن البنية العميقة، ومعرفتها تساعد على معرفة المدلول المراد بالجملة، لأن البنية العميقة للجملة تساعد على تفسيرها التفسير الصحيح في كثير من الأحيان» [1]، على غرار هذه الآية الكريمة.

يعمل التّنغيم على ملامسة المعنى الباطني للآية ومن ثمّ الوقوف على المعنى الحقيقي للآية القرآنية، إذ لا يُدرك البعد الخفيّ لهذه الآية إلاّ من خلال تجاوز عتبة الدّال الصّوتي، ومن ثمّ النّفاذ للمدلول، بغية «الوصول إلى مايشكّل نواة مركزية سُرّب إليها السّرّ الدّلالي» [2]، وقد وقف المفسّرون عند هذه الآية مليّا على عرار طاهر بن عاشور، حيث بيّن اللّمسات البلاغية في هذه الآية، مبيّنا أنّ صيغة الأمر مستعملة في الإهانة والتّهكّم عن طريق الضّديّة، إذ المقصود من الآية لا يرتهن إلى الدّال، وإنّما إلى صيغة النّطق والتّلفّظ بها حتّى تتجلّى الذّلّة والمهانة للمخاطب عن طريق الصّيغة التّهكميّة[3].

ج/التّعجب والتّعظيم

يتجلّى التّنغيم أيضا في أسلوب التّعجّب في القرآن الكريم ولا سيما في ردّ القرآن على المعارضين والمعترضين لأخباره، ويُلمح ذلك جليا في السّور المكيّة على وجه الخصوص لأنّها ترصّ الأدلّة الدّامغة لثبوت وحدانية الله، ومن الآيات التي يزيد أسلوب التّعجّب من إبراز معناها قوله تعالى: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[4] حيث إنّ لفظ (كَبُرَتْ كَلِمَةً) في الآية وردت في سياق الرّدّ على المشركين بأنّ الله اتّخذ ولدا، فلا سبيل إلى تجسيد المعنى على أرض الواقع إلا بصيغة التّعجّب.

[1] – محمّد حماسة عبد اللطيف، النحو والدلالة مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي، ص:118.
[2] – سعيد بنكرّاد، سياق الجملة وسياقات النّص، الفهم والتّأويل، ص: 11.
[3] -- ينظر: طاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، ج25، ص: 316.
[4] – سورة الكهف، الآية: 05.

ذهب "الشّنقيطي" في تفسيره لهذه الآية إلى تبيان الوجوه البلاغية والنّحوية القابعة فيها بقوله: إنّ لفظ كَبُرَ علة وزن (فَعُلَ)، وهي صيغة تُستعمل للذّم والمدح، كما أنّ (كلمة) تعرب حالا عند النّحاة محاكاة لحال الكفّار في افترائهم وكذبهم[1].

وقد كان ل"مُحَّد مُحَّد أبو موسى" توضيح فيما يخصّ لفظة (كَبُرَ) في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾[2]، إذ إنّ ورودها دليل على التّعجّب والذمّ من المواقف العجيبة المتعلّقة بالإنكار واستعظام القول، ممّا يستجدي توظيف التّنغيم في لفظة (كَبُرَ) حتّى تتجلّى صيغة التّعجّب والاستنكار، وممّا يدلّ على فصاحة اللّفظة وبلاغتها أنّها خضعت لتغيّر إسنادي من تقديم المسند عن المسند إليه، ممّا يكسب العبارة مذاقا بلاغيا تحت غطاء التّقديم والتّأخير، وهذا أسخى وأبلغ وبه تتمايز المعاني[3].

وقد أشار "الزّمخشري"إلى لفظة (كَبُرَ) وما تحتمله من صيغ التّعجّب واستعظام أقوال المفترين في قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُون ﴾[4]، ونوّه بأنّ التّعجّب رغم أنّه غير واردٍ بألفاظ التّعجّب إلاّ أنّ الأداء يخرجه مخرج التّعجّب [5]، وهذا إشارة منه إلى التّلوين الصّوتي الذي يُجلّى الدّلالة، فقد « لحظ الزّمخشري مافي طريقة التّعجّب من غير لفظه من قوّة في الأداء ونفاذٍ إلى أدقّ مواطن الإدراك في النّفس حين تواجهها بنقائصها ورذائلها»[6].

---

1 – ينظر: مُحَّد الأمين الشّنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، إشراف بكر بن عبد الله بوزيد، دار علم الفوائد، مكّة المكرّمة (السّعودية)، ط01، (1426هـ)، ج04، ص: 17.

2 – سورة غافر، الآية: 35.

3 – ينظر: مُحَّد مُحَّد أبو موسى، آل حم غافر – فصّلت (دراسة في أسرار البيان)، مكتبة وهبة، القاهرة (مصر)، ط 01، (1420هـ-2009م)، ص: 137.

4 – سورة الصّفّ، الآية: 03.

5 – ينظر: الزّمخشري، الكشّاف، ج06، ص: 103.

6 – مُحَّد حسنين أبو موسى، البلاغة القرآنية في تفسير الزّمخشري، وأثرها في الدّراسات البلاغية، دار الفكر العربي، القاهرة (مصر)، (دط)، ص: 316.

د/رفع اللّبس عن الألفاظ: يعمل التّنغيم على رفع اللّبس عن طريق التّلوين الصّوتي للكلمة التي يقع عليها اللّبس، فبعض الألفاظ تتشابه في بنيتها اللّفظية إمّا عن طريق الصّوامت نحو (فتثبّتوا)و(فتبيّنوا) ، وقد تكون المشابهة بين لفظتين من حيث الصّوامت والصّوائت معا نحو قوله تعالى: ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ * قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾[1]، حيث لا يتسنّى لقارئ الآية الكريمة التّمييز بين اللّفظة (جَزَاؤُهُ) الواردة في نفس الآية دون تفعيل آلية التّنغيم وأداة أخرى من التّلوينات الصّوتية تتمثّل في الوقف، إذ يمكن فهم فحوى الآية والتّوصّل إلى مقصودها على تقديرين هما: [2]

التّقدير الأوّل : أن تكون (جَزَاؤُهُ) الأولى استفهاما كجواب عن السّؤال السّابق لعقوبة السّارق في شريعة المدّعين، إضافة إلى ملمح بلاغي آخر يتمثّل في الحذف للمضاف، تقديره: ماجزاء سرقته؟! فتصير(جَزَاؤُهُ)؟ الأولى هذه تخضع لنغمٍ موسيقي يتعانق مع الوقف والتّعجّب من هذا الجزاء، فيجتمع في هذه الحالة الاستفهام والإثبات.

التّقدير الثّاني : تصير الآية: ﴿جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ إثبات للسّؤال السّالف عن جزاء السّرقة والكذب دون اعتبار الاستفهام في (جَزَاؤُهُ) الأولى ، مع الاستسلام والتّقرير للجزاء، ففي هذه الآية وإن كانت« الأداة محذوفة، إلا أنّ المتلقّي يدرك أسلوب الاستفهام عن طريق هذه الظاهرة الصوتية» [3] المتمثّلة في التّنغيم.

وعليه فإنّ الأدوات اللّغوية في القرآن الكريم قد لا ترتهن إلى دلالة واحدة معيّنة، ولا تتبدّى دلالاتها المقصودة إلا بالتّنغيم، وفي القرآن الكريم لفظة (ما) تتغيّر دلالتها من آية إلى أخرى وكذلك

[1] - سورة يوسف، الآية: 74، 75.

[2] - ينظر: الألوسي، روح المعاني، ج13، ص: 27، ومُحَمَّد حماسة عبد اللطيف، النحو والدلالة مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي، ص: 122، 123.

[3] - عبد القادر بن فطة، أصالة التنغيم في القرآن الكريم، مجلّة حوليات التّراث، جامعة مستغانم، (الجزائر)، العدد18، السنة (2018م)، ص:77.

هو الشّأن في الهمزة عموما، ويمكن التّكشّف أيضا عن الهمزة في قوله تعالى: ﴿أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾[1]، لنستشفّ التّغيّر في المعاني رغم الثّبوت في المباني؛ فقد ذهب "فخر الدّين الرّازي" إلى الوقوف على استكناه لفظة (أَمْ مَنْ) في الآية السّالفة، حيث أشار إلى قول الفرّاء الذي أثبت الإدغام بين الميمين، أمّا قراءة نافع وابن كثير وحمزة فذهبت مذهب تخفيف الميم، باعتبار وجهة بعضهم أنّ الألف ألف استفهام داخلة على من، أو باعتبارها ياء النّداء بتقدير (يا من هو قانت) [2].

تأسيسا على هذا الاستدلال من أقوال المفسّرين والقرّاء، نستخلص«أنّ غياب النّطاق التّنغيمي أو عدم التّنبّه إليه أدّى إلى الخلط وتضارب التّأويل في دلالة الأدوات» [3]، ممّا يبيّن أثر التّلوينات الصّوتية وعموم فائدتها في استكشاف مرامي الآيات القرآنية والوقوف على دلالاتها.

ه/**التّوبيخ والتّهديد:** قد لا تتحدّد دلالة بعض الآيات القرآنية الحاملة لمعاني التّوبيخ والتّهديد، ولا تظهر معانيها الباطنية إلا بالتّنغيم نحو قوله تعالى :﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾[4].

إنّ الوقوف على معنى قوله نعالى (فَاسْتَفْتِهِمْ) يحمل أمر الاستفهام بغرض «التّقريع والتّوبيخ في جعلهم البنات لله » [5]، إذ يجب قرائتها على شكل الاستفهام والتّعجّب للإشارة إلى جرم قولهم وشناعته، كما أن لفظة (أَصْطَفَى) تتمحّل أثناء نطقها صيغة الاستفهام ارتكازا على

[1] – سورة الزّمر، الآية: 09.
[2] – ينظر: الرّزي، فخر الدّين، التّفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج26، ص: 250.
[3] – أحمد البايبي، القضايا التّطريزية في القراءات القرآنية(دراسة لسانية في الصّواتة الإيقاعية)، ج01، ص: 379.
[4] – سورة الصّافات، الآية: 149-153.
[5] – الثّعالبي، الجواهر الحسان، ج05، ص: 50.

همزة الاستفهام ونبرها لإخراج الآية مخرج التّقريع والتّوبيخ والإنكار [(1)]، فالقرآن لا تتجلّى فيه علامات الاستفهام والتّعجّب، إلا أنّ سياق الآيات يفرض على القارئ نمطا معيّنا في القراءة لإخراجها وفق المعنى الذي تقتضيه هذه الآيات تحت غطاء التّنغيم.

وفي ضوء هذه الأمثلة والنّماذج، فالتّنغيم بهذا المعنى هو العنصر الموسيقي في نظام اللّغة وهو موجود في جل اللغات، بما فيها اللّغة العربية، وحفل به أسلوب القرآن الكريم وأقرّه، إذ به يمكن التّحكّم في دلالة السياق العام للآيات القرآنية، لأنه «يستخدم التنوعات الموسيقية في الكلام بطريقة تمييزية تفرق بين المعاني» [(2)].

وجملة القول وعمومه أن التّنغيم ملمح جمالي إيقاعي، يعمل على استبطان الدّلالة العميقة وكشف البنية العميقة للدّوال الصّوتية ومن ثمّ الوقوف على بؤرة المعاني والمدلولات الخفيّة، أي: البنية العميقة للنّصوص القرآنية وغيرها، وخلاصة القول وصفوته أنّ التّنغيم أداة إجرائية بها«يمكننا أن نعبّر عن كل مشاعرنا وحالاتنا الذهنية من كل نوع، ويمكن في معظم اللّغات أن نغيّر الجملة من خبر إلى استفهام إلى توكيدٍ إلى انفعالٍ إلى تعجّبٍ، دون تغيير في شكل الكلمات المكوّنة» [(3)] للسّلسلة الكلامية، ممّا جعل هذا الظّاهرة الصّوتية تتبدّى عند القدامى، وتنال حظوة الدّراسة المستفيضة لدى المتأخّرين أيضا.

الظاهرة الثّالثة: الوقف في القرآن الكريم

1- مفهوم الوقف الوقف لغة: مشتق من مادة "وقف" قال الخليل الوقف مصدر قولك «وقفت الدابة ووقفت الكلمة وقفا وهذا مجاوز، فإذا كان لازما قلت: وقفت وقوفا» [(4)]، كما يرد

[1] - ينظر: الثّعالبي، المصدر نفسه، ج05، ص: 50.، وأحمد بن يوسف، الدّر المصون في علوم الكتاب المكنون، ج 09، ص: 333.

[2] - أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، ص: 229.

[3] - المرجع نفسه، ص: 330.

[4] - الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، ج5، ص:223

بمعنى «الكف، ويراد بذلك الكف عن القول والفعل» [1] ، وعليه فالوقف يعني الكف عن فعل الشيء.

اصطلاحا: يتباين مفهوم الوقف بين النّحاة وعلماء التّجويد وعلماء الصّوت، وتتمايز وجهة نظرهم فيه، ويمكن الوقوف على هذه المفاهيم على النّحو التّالي:

أ/الوقف في اصطلاح القرّاء: يرى القرّاء بأنّ الوقف هو: «قطع الصوت على الكلمة زمنا يتنفس فيه عادة بنيّة استئناف القراءة، إما بما يلي الحرف الموقوف عليه، أو بما قبله» [2]، ولعلّ قطع الصّوت بنيّة أخذ النّفس لاستكمال القراءة هو ماعناه "ابن الجزري" وسمّاه السّكتة سواء كانت هذه السّكتة متّسمة بالطّويل أو القِصر في تعريفه للوقف، إذ يقول: الوقف هو«هو قطع الكلمة عما بعدها بسكتة طويلة»[3]، وقوله أيضا: بأنّه «عبارة عن سكتة خفيفة بين الكلمات أو المقاطع في حدث كلامي، بقصد الدلالة على مكان انتهاء لفظ ما أو مقطع ما وبداية آخر» [4] ممّا يجعل مفهوم الوقف عند ابن الجزري ومعناه يتمثّل في السكت الذي يظهر في نهاية الآية القرآنية.

كما أشار بعضهم إلى الوقف وسمّاه القطع بقوله: الوقف هو «قطع الصوت عن آخر الكلمة زمنا يتنفس فيه القارئ عادة، بنية استئناف القراءة، فلا بد فيه من الوقت الكافي لكي يتنفس القارئ وإلا صار سكتا لا وقفا، كما لا بدّ فيه من نية استئناف القراءة وإلا خرج عن المقصود، ذلك أنّه إن لم يكن له شيء، أو لم يقصد القارئ بذلك استئناف القراءة بل قصد تركها

---

1 – المصباح المفيد في علم القراءات والتجويد، علي بلعاليه دومة أبو عمر المجاجي، ص:262

2- أبو عبد الله مُحَّد بن طيفور السجاوندي ، عِلل الوقوف، تح: مُحَّد بن عبد الله بن مُحَّد العيدي، مكتبة الرشد، الرياض، ط3، (2006م)، ج1، ص:09.

3 – ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، تح علي مُحَّد الضباع، القاهرة، المطابع التجارية الكبرى، (دط)، (د.ت)، ج1،ص:90.

4- المصدر نفسه، ج1، ص: 224.

والانتقال منها إلى أمر آخر سمي حينئذ قطعا لا وقفا» [1]، وفي هذا توسّع في معنى الوقف وتعدّد لدلالاته، كما أشار...إلى عامل الزّمن وأثره في الوقف بقوله: «والوقف: قطع الصّوت آخر الكلمة زمانا» [2]، ثمّ يشرع في الكلام مجدّدا.

ب/الوقف في اصطلاح النّحاة: عرّف النّحاة الوقف بأنّه: «قطع النطق عند آخر كلمة والوقوف عليها بصورة معينة»[3].

بناء على هذه التّعريفات يصبح الوقف بمعنى السكت الذي يُلمح في نهاية الكلمة عندما يكتمل المعنى، بغية أخذ النَّفَس لاستئناف القراءة.

ج/ الوقف في علم الأصوات: يعتبر الوقف عند علماء الأصوات من أهمّ الدّراسات التي حظيت بالمنابعة والاهتمام، وسمّاه بعضهم بالمفصل، لفصله الوحدات الصّوتية عن بعضها البعض، فهو عندهم « ينخرط في عملية الاشتغال اللغوي على مستوى ما قبل الإنتاج وعلى مستوى الإنتاج والإدراك في التنظيم الزمني للغة» [4]، كما عرّفه "حسام البهنساوي" مبيّنا ماهيته النّطقية وأثره على سياق الكلام بأنّه «فونيم تطريزي يمكن عنده قطع السّلسلة النّطقية، فيؤدّي ذلك إلى انقسام السّياق إلى دفعات كلامية، تعدّ كلّ دفعة منها شريطة اكتمال معناها واقعة تكميلية منعزلة» [5]، يتأتّى منها اكتمال المعنى ووضوحه.

---

1 – علي بلعاليه دومة أبو عمر المجاجي ، المصباح المفيد في علم القراءات والتجويد، دار الأمل، تيزي وزّو (الجزائر، (1998م)، ص:162

2 – النّويري (أبو القاسم مُحَّد بن مُحَّد)، شرح طيبة النّشر في القراءات العشر، تح مجدي مُحَّد سرور، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان)، ط01، 1424هـ-2003م)، ج02، ص: 44.

3- أبو عبد الله مُحَّد بن طيفور السجاوندي، علل الوقوف، ص: 9.

4 – مبارك حنون، في الصواتة الزمنية، الوقف في اللسانيات الكلاسيكية، دار الأمان، الرّباط (المغرب)، ط 01،(1424هـ-2003م)، ص: 76.

5 – حسام البهنساوي، الدّراسات الصّوتية عند العلماء العرب والدّرس الصّوتي الحديث، مكتبة زهراء الشّرق، القاهرة (مصر)، ط01،(2005م)، ص: 247.

2- أهميّة الوقف في القرآن الكريم وأبعاده الصّوتية: لظاهرة الوقف أهميّة جليلة في حقل الدّراسات اللّغوية والصّوتية على وجه الخصوص، و بتسليط الضوء عليها باعتبارها تشكلا صوتيا يمكن الوقوف على أهميّتها من خلال الآيات القرآنية كالآتي:

أ/ توجيه الدّلالة: يعمل الوقف كظاهرة صوتية على تحديد الدّلالة وتوجيهها، أي يعمل على تبيان مرامي الآية القرآنية والوقوف على معناها الصّحيح ، إذ به يزول اللّبس وينجلي الغموض عن مراد الآية، ويمكن الوقوف على فاعليّة الوقوف في تحديد دلالة الآيات من خلال قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[1].

إذا تأملنا في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ وتقفّينا أثر الوقف في الآية، فإنّنا نلحظ أنّ ظاهرة الفصل والوصل البلاغية تتجلّى في الوحدات الصوتية للآية، ممّا يفضي إلى دلالتين متباينتين تماما، فالوصل في الآية يوهم بنيّة الاشتراك في الفعل، بينما الوقف عند قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ مثلما هو مُثبت برواية ورش، فإنّ المعنى يختلف والدّلالة تنأى عن الاشتراك في الفعل بكثير، ممّا يبيّن أنّ الوقف هنا عمل على تحصين الدّلالة الأصلية للآية وصانها عن سوء الفهم والتّقدير من القارئ.

ومن هذا المنظور فإنّ الوقف أرسى دعائم التّواشج لتأمين التّركيب السّليم للآية القرآنية والوقوف على معانيها الصّحيحة، فذهب بعض المفسّرين أنّ الهمّ في الآية ليس همّا مشتركا بين الطّرفين، إذ إنّ الوقف والابتداء على همّ امرأة العزيز واستئناف همّ يوسف عليه السّلام متغايرانلمكانة الأنبياء المترفّعة عن دناءات النّفس وغواياتها، إذ إنّ الأسلوب القرآني جنح إلى ذكر

[1] - سورة يوسف، الأية: 24.

مادّة (همّ) في شأن يوسف عليه السّلام «لمجرّد وقوعه في صحبة همّها في الذّكر بطريقة المشاكلة لا لشبهه به كما قيل، وقد أشير إلى تغايرهما كما قال غير واحد» [1] من المفسّرين.

كما ذهب "الطّاهر بن عاشور " إلى الوقوف على أسرار الآية من خلال مكوّناتها الصّوتية، فبيّن أن لا علاقة بين الجملتين بسبب جملة شرط (لولا) بعد هذه الآية، ممّا يُستحسن في القراءة الوقوف والفصل بين الآيتين ، وممّا يعضّد هذه الوجهة التّفسيرية التّأويلية أنّ الله تعالى سبق أن أعلن في الآية السابقة موقف امرأة العزيز حين قالت ﴿هيت لك﴾ وموقف يوسف عليه السلام المناقض لموقفها بقوله: ﴿معاذ الله﴾[2].

ومن هذا المنظور نستخلص أثر الوقف في اشتغاله الزّمني كيف يعمل على تحديد دلالة معيّنة للآيات القرآنية، بخلاف ما يقع في النّفس ويتهيّأ في الذّهن من معنى مخالف لمقتضى الآية حين إحلال الوصل محل الفصل؛ كما أنّ العوامل النحوية أيضا تقوّي دلالة الوقف الذي تتأتى منه المفارقة مابين الموقفين المتباينين من سيّدنا **يوسف** عليه السلام **وامرأة العزيز** ، وذلك أنّ القرآن الكريم بيّن موقفها الذي أفضى بها إلى طلب الفاحشة في غمرات العاطفة والانفراد بيوسف عليه السّلام تحت وطأة الطّبيعة البشريّة والخلقة الجِبلّيّة بقوله تعالى : ﴿ولقد همت به﴾ تأكيدا و إظهارا لموقفها الذي لا لُبس عليه.

كما بيّن وأكّد همّها باللّفظتين (قد) و(لام القسم) ليفيد أنها عزمت عزما محققا لا شكّ فيه بخلاف ذكر همّ يوسف عليه السّلام، فقد ذكَر قبل ذلك امتعاضه من هذا الفعل بقوله: ﴿مَعَاذَ اللهِ﴾ كما أنّ هذه الآية مستأنفة استأنفا ابتدائيا بعد فعل المراودة قبلها، والمقصود أنها كانت جادة فيما راودته لا مختبرة له [3] ، وهذا التّواشج بين الوقف والعوامل النّحوية الذي يعمل

1 – الألوسي، روح المعاني وتفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، ج12، ص: 213.

2 – ينظر: طاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج13، ص: 252.

3 – ينظر: طاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج13، ص: 252، والشّوكاني، فتح القدير الجامع بين فنّي الرّواية والدّراية من علم التّفسير، تح يوسف الغوش، دار المعرفة، بيروت (لبنان)، ط04، (1428هـ-2007م)، ص: 690.

على إبراز الدّلالة يزيد من ماهية الإعجاز القرآني، إذ إنّ «الإعجاز في القرآن هو حصيلة لمجموعة معانٍ تتضافر لتشكّل الإعجاز» [1]في القرآن الكريم.

ب/تمييز الأقوال عن بعضها البعض: يشتغل الوقف على تمييز الأقوال المتوالية في الخطاب القرآني في حكم غياب علامات الوقف المعهودة، إذ إنّه يفصل بين أقوال الله تعالى وأقوال غيره، وإلاّ وقع اللّبس عند المتلقّي، حيث كان للعلماء قديما دراية كافية بهذه الأهميّة للوقف في كتاب الله، فقد«اختار العلماء وأئمّة القرآن تبيّن معاني كلام الله عزّ وجلّ وتكميل معانيه، وجعلوا الوقف منبّها على المعنى، ومفصّلا بعضه عن بعض، وبذلك تلذّ التّلاوة ويحصل الفهم والدّراية، ويتّضح منهاج الهداية» [2].

بناء على هذه النّظرة نستنتج أنّ لظاهرة الوقف أثرا كبيرا في الفصل بين الأقوال أو الآيات القرآنية الواردة في نسق متتالي، وأنّ غيابه يؤدّي إلى الإيهام من الدّلالة المقصودة للآية، ومن نماذج هذا الطّرح قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾[3]، حيث إنه ينبغي الوقف على لفظة (قال) التي هي من قول يعقوب عليه السّلام لبنيه، ليتأتّى من ذلك استقامة معنى الآية، ففي غياب الوقف عليها يقع القارئ في الإبهام الدلالي حيث يتبادر إلى ذهنه أن جملة ﴿اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ هي جملة مقول القول للفعل قال متعلّق بلفظ الجلالة وهذا بونٌ بعيد وتأويل باطل يخالف مقصود الآية[4].

لهذه الآية معان كثيرة كامنة وتأويلات متعدّدة وقف عندها **"الألوسي"** في تفسيره مُزيلا للّبس الذي قد يطرأ عليها بسبب التّجاذب بين يعقوب وبنيه، حيث إنّه ذكر في دلالة لفظة

---

[1] – سعيد حوى، الأساس في التّفسير، دار السّلام، بيروت (لبنان)، ط01، (1405هـ-1985م)، ج05، ص:2578.

[2] – السّخاوي، جمال القرّاء وكمال الإقراء، تح عبد الكريم الزّبيدي، دار البلاغة، بيروت (لبنان)، ط 01، (1993م)، ج02، ص:388..

[3] – سورة يوسف، الآية: 66.

[4] – ينظر: ابن عطيّة الأندلسي، المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح عبد السّلام عبد الشّافي محمّد، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان)، ط01، (1422هـ-2001م) ، ج03، ص:261..

(قال) وما بعدها ومبيّنا ماهية كلّ من ألفاظ الآية أنّها تذكير لهم بأيمانهم وعهودهم المقطوعة في ذمّتهم، كما أنّ مقول القول ﴿اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ دعوة منهم للتّثبّت وحفظ العهد [1]، ممّا يمكّننا من القول بأنّ الوقوف على لفظة (قال) أداة إجرائية لاستقصاء المعنى والتكشف عن دلالته الحقيقية لرفع التوهم، لأن الوجه الأصلي للآية هو ضمير مستتر بعد اللفظ (قال) وهو يعقوب عليه السلام، ولا سيما أن هذه الآية وردت في سياق الحوار بينه وبين أولاده.

ومن ملابسات التّداخل بين الآيات التي تحتاج بحقّ إلى فصم الآيات عن بعضها البعض قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[2]،إذ إنّ الوقف على قوله ﴿قَوْلُهُمْ﴾ آكد وذو أهميّة لما له من أثر في تبيان المعنى ودفع الإيهام، وإلا صار مقول القول ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ من كلام الكفّار [3]، لأنّ الأصل في توجيه الكلام كما ذكر الشّنقيطي في تفسيره أن بداية الآية ينتهي بالوقوف على ﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ الذي هو نهي من الله لنبيّه عن الحزن من تكذيبهم، وهذا لتسليته عليه السّلام والتّرويح عنه، لتتجلّى بعد ذلك أهميّة ظاهرة الوقف وأثرها مع الجملة الاستئنافية﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

ومن الآيات الأكثر طلبا لظاهرة الوقف قوله تعالى:﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾[4]، إذ إنّ عدم تفعيل الفاصل الزّمني نهاية الآية الأولى يودي بمعنى الآية ومرادها إلى مكانٍ سحيق، ولذلك نبّه "الصّاوي" في تفسيره إلى أنّ الآية الثّانية جملة استئنافية مشيرا إلى إعرابها بأنّها مبتدأ، ولعلّ هذا من باب التّنبيه عن حمل دلالة الآية على غير محملها[5].

---

[1] – ينظر: الألوسي، روح المعاني وتفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، ج12، ص: 15.

[2] – سورة يونس، الآية: 65.

[3] – ينظر: أحمد مختار عمر، لغة القرآن، ص: 130.

[4] – سورة غافر، الآية: 06، 07.

[5] – ينظر: الصّاوي، تفسير الجلالين، ج04، ص: 03، وأحمد بن يوسف، الدّر المصون في علوم الكتاب المكنون، تح أحمد محمّد الخرّاط، دار القلم، دمشق (سوريا)، (دط)، ج09، ص: 459.

كما أنّ من دواعي الوقف على الآية الأولى وقطعها عن الثّانية التّباين الشّديد بين الآيتين، فقد شرعت الأولى في الحديث عن جزء من أهل الأرض تشير إلى تكذيبهم وكفرهم، فإذا بالآية الثّانية تتوثّب نحو العالم العلوي تنبئ عن تسبيحه وإيمانه، إذ إنّ الوقوف يستجدي فاصلا ومنيا وتريّثا للانتقال من العالم الأرضي نحو السّماوي للوقوف على عبادة الملائكة اللاّمتناهية، فقطع القراءة ثمّ استئنافها «فائدته إظهار شرف الإيمان وفضله، والتّرغيب فيه» [1].

كما ذهب "محمّد أبو موسى" إلى الإشارة أنّ الآية الأولى تتضمّن حالة المكذّبين المشينة يوم القيامة بسبب جدالهم بالباطل وتعنّتهم، حيث رأى بأنّ هذه الآية والوقوف عليها قبل استئناف التي بعدها بمثابة غلق لصفحة هؤلاء المكذّبين، ليعرّج بعد ذلك على الآية التي بعدها ويبيّن أنّها مُستأنفة بيانيا عن الأولى منفصلة عنها لا ينبغي الوقوف بينهما، مبرزا صورة بلاغية ولونا بديعيا يتمثّل في المقابلة بين فريق الكفر وفريق الإيمان [2]؛ إذ إنّ الوقوف والاستئناف يصوّر للقارئ«جوّ السّورة مشحونا بطابع العنف والشّدّة، وكأنّه جوّ معركة رهيبة تسفر عن مصارع الطّغاة فإذا بهم حطام وركام» [3]، جزاء استكبارهم ومعاندتهم.

بناء على هذه النّماذج التي امتاح لنا الوقوف عليها نستخلص أنّ الوقف ظاهرة صوتية أدائية تصاحب الخطاب المنطوق «شاع إطلاقه على وجه التحديد مرتبطا بقراءة القرآن الكريم»[4]، وإغفال هذه الظّاهرة الصّوتية ينأى بمعنى الآية ودلالتها إلى غير أصل دلالتها الحقيقية، ممّا جعل القرّاء يُفردون كلّ وقف بوسم يليق به على غرار الوقف الحسن أو الجائز أو القبيح وغيرها من أنواع الوقوفات، وعند التّدقيق والتّمعّن في ظاهرة الوقف «نستنتج من خلال وظائفه أنّه

---

1 – زكريا الأنصاري، فتح الرّحمان بشرح مايلتبس في القرآن، تح محمّد علي الصّابوني، دار القرآن الكريم، بيروت (لبنان)، ط01، (1403هـ-1983م)، ص: 500.

2 – ينظر: محمّد محمّد أبو موسى، آل حم غافر – فصّلت (دراسة في أسرار البيان)، ص23، 24.

3 – محمّد حسين سلامة، الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، ص: 281.

4– محمّد يوسف حبلّص، أثر الوقف على الدلالة التركيبية، دار الثقافة العربية، القاهرة(مصر)، (دط)، (1414هـ-1993م)، ص: 15.

استبانة للمعنى، ونأي بالسّياق عن التّداخل، وإزالة اللّبس عن كلّ ماهو صرفي ونحوي من خلال ضبط مستويات اللّغة، وحتّى البلاغة في القرآن الكريم» [1].

[1] – هارون مجيد، جماليات الوقف والتّنغيم في قراءات القرآن الكريم سورة الرّحمان أنموذجا، أطروحة دكتوراه، إشراف: العربي عمّيش، جامعة السّانيا، وهران (الجزائر)، السّنة: (2013-2014م)، ص: 108.

المبحث الثّاني: ظاهرة الحذف في القرآن الكريم

حظيت هذه الظّاهرة الصّوتية التي احتضنها القرآن الكريم بعناية فائقة من البلاغيين، لما لها من أثر بلاغي وإعجازي يزيد الأسلوب القرآني جمالا وألفاظه أكثر فصاحة، وقد تناول البلاغيون المتقدّمون هذه الظّاهرة في باب الإيجاز ووقفوا على سبر أغوارها واستكناه أبعادها البلاغية والإعجازية، كما كان للمتأخّرين على غرار فاضل السّامرائي والطّاهر بن عاشور وغيرهم من المفسّرين جهود وإضافات لايُستهان بها.

1- مفهوم الحذف:

لغة: عرّفه **"الخليل"** بقوله: «الحذف: قطف الشيء من الطرف، كما يُحذف طرف ذنب الشّاة، والمحذوف: الزِّقّ» [(1)]، وعرّفه **"ابن دريد"** (321هـ) بقوله: «حذفت رأسه بالسيف حذفا إذا ضربته به فقطعت منه قطعة ...وحذفت الفرس أحذفه حذفا إذا قطعت بعض عسيب ذنبه» [(2)].

أمّا "الجوهري" (393هـ)فحمل الحذف على مفهوم الإسقاط بقوله: «حذف الشّئ إسقاطه، يقال: حذفت من شعري ومن ذنب الدابة أي: أخذت» [(3)].

وجاء في لسان العرب: حَذفَ الشيء يحذفه حذفا: قطعه من طرفِه، والحجّام يحذف الشّعر من ذلك، والحذافة: ماحُذف من شئ فطُرح، وخصّ اللّحياني به حُذافة الأديم، وعرّفه الأزهري بقوله: تحذيف الشَّعر تطريه وتسويته [(4)].

[1] - الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، ج01، ص: 297.

[2] - ابن دريد الأزدي بتصرّف، جمهرة اللغة، تح رمزي منير بعلبكّي، دار العلم للملايين، بيروت (لبنان)، ط01،(1987م)، ج01، ص:508.

[3] - الجوهري، الصحاح، تح أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، بيروت (لبنان)، ط04، (1990م)، ج04، ص:1341.

[4] - ينظر: لسان العرب، المجلّد: 02، ج10، ص: 810.

وعرّفه "الزمخشري" بقوله: «حذَفَ ذنب فرسه إذا قطع طرفه، وفرسٌ محذوف الذنب وزفٌ محذوف: مقطوع القوائم، وحذف رأسه بالسيف: ضربه فقطع منه قطعة، وحذف الأرنب بالعصا: رماه بها، ويقال : الحذف بالعصا، والخذف بالحصى» [1].

بناء على هذه التّعاريف نستخلص أنّ معنى الحذف في اللغة يدور حول ثلاثة معان هي: القطف والقطع والإسقاط.

اصطلاحا:

أ/عند البلاغيين القدامى : كان للبلاغيين القدامى عدّة تعريفات لظاهرة الحذف، فقد عرّفها **"الرماني"** بأنّها «إسقاط كلمة للاجتزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام»[2] ، وعرّف مفهومه "ابن سنان الخفّاجي "بقوله: الحذف هو «إسقاط كلمة لدلالة فحوى الكلام عليه»[3].

ب/عند المحدثين: فقد عُرِّف بمفاهيم منها:

الحذف: «إسقاط كلمة بخلف منها يقوم مقامها» [4]، وهذا التعريف يوحي بأنّ هنالك متعلّقا بالحذف يدلّ عليه وهو القرينة التي تصاغ من النصّ .

ولعلّ التّعريف الأدقّ للحذف هو: «أن نحذف صوتا أو مقطعا أو كلمة أو عبارة من تركيب ما وذلك وفقا لما يسمح به نظام اللغة، كحذف الفعل أو الفاعل أو المفعول به إذا دلت عليه قرينة ما» [5]، وهذا التّعريف يقف عند حدود ما يمكن أن يتناوله الحذف عموما.

---

1 – الزمخشري، أساس البلاغة، تح محمّد باسل عيون السّود، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان)، ط 01، (1419هـ-1998م)، ج01، ص: 177...

2 – الرماني، النّكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص:76.

3 – ابن سنان الخفّاجي، سر الفصاحة، ص: 211

4- حيدر حسين عبيد، الحذف بين النّحويين والبلاغيين دراسة تطبيقية، دار الكتب العلمية، ط1، (2013م)،ص: 29.

5 – تمام حمد عيد المنيزل، الحذف في النحو العربي، دروب ثقافية للنّشر والتّوزيع، الأردن، ط01، (2012م)، ص: 16

2- شروط الحذف عند البلاغيين: للحذف عدّة أغراض تنبئ عن أهميّته البلاغية، وقد ذكرها "ابن هشام الأنصاري "(761هـ)وبيّن بأنّ المفسّرين والبلاغيين أكثر الدّائرين في فلكها مقارنة مع النّحاة، وقد جعل هذه الشّروط ثمانية نوجزها كالآتي: [1]

2-1- الشّرط الأوّل : وجود دليلٍ حالي أو مقالي، فالدّليل الحالي نحو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا ﴾[2]، أي: سلّمنا سلاما، أو أن يكون الدّليل مقالا نحو قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا ﴾[3]، فالحذف يمكن تأويله أنزل خيرا.

2-2- الشّرط الثّاني : ألاّ يكون المحذوف كالجزء، فلا يُحذف الفاعل ولا نائبه ولا مشبهه، وقد نبّه ابن هشام على هذا في قوله تعالى: ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾[4]، حيث أشار إلى مذهب سيبويه في هذه المسألة على أنّ فاعل نعم وبئس لا يُحذف، إذ رأى من الصّواب أنّ الفاعل هو ﴿مَثَلُ الْقَوْمِ﴾، بدلا من جعله مضمرا مقدّرا.

2-3- الشّرط الثّالث : ألاّ يكون المحذوف مؤكّدا: لأنّ الهدف من الحذف الإيجاز والاختصار، ولذلك فإنّ التّأويل في قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾[5]، تأويله (لَما سَاحِرَانِ)، لأنّ الحذف والتّوكيد باللاّم متنافيان، ويخالفان الغرض من الحذف الذي يجنح إلى الاختصار والخفّة.

2-4- الشّرط الرّابع: ألاّ يؤدّي الحذف إلى اختصار المختصر، وذلك نحو قول سيبويه : (زيدا فاقتله)، فالمحذوف مقدّر مؤوّل، أي: (عليك زيدا فاقتله).

[1] - ينظر: ابن هشام الأنصاري، مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب، تح مازن المبارك وآخرون، دار الفكر، دمشق (سوريا)، ط01، (1384هـ-1964م)، ج02،.ص:668-675.

[2] - سورة هود، الآية: 69.

[3] - سورة النّحل، الآية: 30.

[4] - سورة الجمعة، الآية: 05.

[5] - سورة طه، الآية: 63.

2-5- **الشّرطان الخامس والسّادس** : ألاّ يكون العامل ضعيفا لا يقدر على الحذف، فلا تحذف أدوات الجرّ والجزم إلا في المواطن ذات الدّلالة القوية؛ كما لا يكون المحذوف عوضا عن شئ آخر، فلا تحذف لفظة(لا)من الجمل، وإلاّ اختلّ المعنى، ولا تُحذف التّاء نهاية الكلمات نحو صلاة، عدة، إقامة.

2-6- **الشّرطان السّابع والثّامن**: ألاّ يؤدّي الحذف إلى تهيئة العامل للعمل، ولا لإعمال العامل الضّعيف مكان العامل القويّ.

3 – أنْــــــــواعُ الحَذْفِ

تحتوي ظاهرة الحذف في اللّسان العربي عدّة أنواع، يمكن الوقوف عليها كالآتي: [1]

أ/**حذف حرف من الكلمة**: وهذا ورد في أشعار العرب وكلامهم نحو: (لم أبَلْ) ، كما تضمّن القرآن الكريم الكثير من هذا النّوع، نحوَ (لمْ تكُ) في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾[2]، وقوله تعالى أيضا: ﴿قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾[3]، حيث إنّ أصل هذه الأفعال المبتورة هو (لم تكن)، وإنّما وقع الحذف لدلالات معيّنة ، وكذلك هو الشّأن في الفعلين (تَنَزَّلُ/ تَتَنَزَّلُ) في قوله تعالى:﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا ﴾[4]، وقوله أيضا: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾[5]، حيث إنّ دلالة الفعلين وإن كانت تظهر متقاربة، إلاّ أنّ الحذف ينأى بكلّ لفظ إلى دلالة معيّنة، وعليه، فإنّ«القرآن يحذف من الكلمة لغرض، ولا يفعل ذلك إلا لغرض»[6] معيّن ومقصدٍ منشود.

---

1 – ينظر: ابن الأثير، المثل السائر، ج02، ص: 232.

2 – سورة مريم، الآية: 09.

3 – سورة غافر، الآية: 50.

4 – سورة القدر، الآية: 04.

5 – سورة فصّلت، الآية: 30.

6 – فاضل صالح السّامرائي، بلاغة الكلمة في التّعبير القرآني، شركة العاتك لصناعة الكتب، القاهرة (مصر)، ط 02، (1427هـ- 2006م)، ص: 09.

ب/حذف الكلمة من الجملة: وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾[1]؛أي: اسأل أهل القرية؛ وممّا أشار إليه الشّوكاني في تفسيره وهو ممّا يدلّ على أهميّة الحذف، هو أنّ اللّطيفة التي تُسئتنتج من خلال الحذف هي الإشارة لمقام نبوّة يعقوب عليه السّلام، إذ إنّ المعنى المتوخّى من الآية أن يسأل يعقوب القرية وهي من الجمادات فتجيبه عن مبتغاه، فقامت ظاهرة الحذف الصّوتي للّفظة مقام استحضار مقام النّبوّة وشرفها [2]، كما ذهب "رشيد رضا"في تفسيره إلى الإشارة لجلالة قدر أثر الحذف في سياق الآية، حيث بيّن بأنّ الغاية من ورود الآية على هذا النّسق، هو الإشارة إلى أمر السّرقة التي كانت القرية معروفة بها [3]، ممّا يثبت أنّ الخطف أداة إجرائية تستعمل للإشارة إلى عظيم.

ج/حذف جملة أو أكثر : والمقصود بهذا هو حذف الجمل المكتفية بذاتها التي تستقل بنفسها كلامًا؛ وهذا أحسنُ المحذوفاتِ جميعها وأدلُّها على الاختصارِ [4]، ومن أمثلة هذا القبيل قوله عليه السّلام: «التمس ولو خاتمًا من حديد» [5] ، فالمحذوف جملة كاملة مقدّرة ب: التمس (ولو كان الملتمس خاتمًا).

يرِد هذا النّوع في القرآن كثيرا لما يتضمنّه من أسرار تتأتّى عن الحذف، ومن نماذج هذا الحذف قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ ﴾[6]، حيث إنّ المحذوف لعظمته استغني عنه بلاغيا، للدّلالة على شدّة العذاب وقوّته، فالمحذوف مقدّر نحو: لرأيت أمرا عظيما أو عذابا مهولا

1 – سورة يوسف، الآية: 82.
2 – ينظر: الشّوكاني، ص: 709.
3 – ينظر: مُحَمَّد رشيد رضا، تفسير المنار، مطبعة المنار، مصر، ط01، (1355هـ-1936م)، ج12، ص: 120.
4 – ينظر: ضياء الدّين ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشّاعر، ج02، ص:269.
5 – البخاري، صحيح البخاري (كتاب النّكاح)، تح أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدّولية للنّشر، الرّياض (المملكة العربية السّعودية)، ط01، 1419هـ-1998م)، ص: 1009.
6 – سورة الأنعام، الآية: 27.

أو لأبصرت سوء منقلبهم[1]، وكذلك حذف جواب لو في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى ﴾[2]، إذ يمكن تقدير المحذوف ب: لكان هذا الذي تُسيّر به الجبال وتقطّع به الأرض ويكلّم به الموتى هو هذا القرآن العظيم، والسّر في أثر الحذف في هذه الآيات هو التّخفيف من طول الجمل، والتّنبيه على قدر المحذوف وفخامته، وتنشيط العمليّة الذّهنية للمتلقّي حتّى يذهب كلّ مذهب في الوقوف على تأويل المحذوف [3].

وممّا تناوله المفسّرون في هذا اللّون من الحذف نجد حذف خبر المبتدأ نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[4]، حيث ذهب "الشّوكاني" إلى ردّ قول الزّجاج أن يكون خبر مبتدأ الآية:(نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) وإنّما خبرها محذوف[5]، بينما ذهب "الألوسي" إلى تأويلات وأقوال مغايرة تماما في مسألة الحذف في هذه الآية، إذ رأى أنّه يمكن أن تكون هذه الآية خبرا لمبتدأٍ محذوف، أو تكون حالا لجملة محذوفة مقدّرة، وكذلك يمكن أن يكون خبر إنّ محذوفا، واعترض على هذه التّأويلات المتعدّدة من "أبي حيّان" و"الزّمخشري" و"ابن عطيّة" [6].

.[6]

وممّن وقف على محذوفات هذه الآية "القاسمي" في تفسيره، حيث رأى بأنّ مفعول (يُرِدْ) طاله الحذف أيضا، وهو مقدّر (بنحو يُرِدْ شيئا ما) [7]، ممّا يجعل هذه الآية تحمل في ثناياها الكثير

---

1 – ينظر: الزّركشي، البرهان في علوم القرآن، ج03، ص: 183.

2 – سورة الرّعد، الآية: 31.

3 – ينظر: الزّركشي، المصدر نفسه، ج03، ص: 183، 184.

4 – سورة الحج، الآية: 25.

5 – ينظر: الشّوكاني، فتح القدير، ج17، ص: 960.

6 – ينظر: الألوسي، روح المعاني، ج17، ص: 138.

7 – محمّد جمال الدّين القاسمي، محاسن التّأويل، تح محمّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربيّة، مصر، ط01، (1376هـ-1987م)، ج10، ص: 4333.

الكثير من المحذوفات، وقد وصف "سيّد قطب" حذف خبر (إنّ الذين كفروا) بأنّه من دقائق التّعبير الدّالّ على عِظم فعل الكفر والتّصدّي لمن يلوذ بحرم الله [1]، ممّا ينبئ عن أهميّة الحذف كملمح صوتي يؤدّي معنى البلاغة ومراميها المتمثّلة في الإيجاز وقصر الكلام.

أمّا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾[2]، فقد وقف عنده المفسّرون ونبّهوا لأهميّة الحذف ودلالته، إذ تقتضي أسرار البلاغة ونواميسها حذف خبر إنّ للدّلالة على شنيع صنع المكذّبين، و«لذلك يترك النص خبر إنَّ لا يأتي به ويمضي في وصف الذكر الذي كفروا به لتفظيع الفعلة» [3] التي ارتكبوها، وقد ذكر سعيد حوّى هذا في تفسيره وجعل الخبر مقدّرا نحو (يعذّبون أو هالكون) [4].

ومن المحدثين ممّن كانت له وقفات جليلة عند هذه الآية "محمّد أبو موسى"، حين أشار إلى تجانس هذه الآية تركيبا وبناءً مع التي قبلها وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[5]، وأشار أنّهما يصبّان في مشكاة واحدة هي المحادّة لله، والمعاندة لدينه، والتّكذيب لرسله، كما احتمل أن يكون خبر الآية الآنفة قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾[6] إلاّ أنّه رجّح قول جمهور المفسّرين بأنّ خبر إنّ محذوف وتقديره نحو: خاسرون[7].

و ممّا يلفت الانتباه أيضا إشارته إلى أهميّة الحذف، إذ ذكر بعض أقوال المفسّرين أنّ السّر في

---

1 - سيّد قطب، في ظلال القرآن، ج04، ص: 2419.

2 - سورة فصّلت، الآية: 41.

3 - سيّد قطب، المصدر نفسه، ج05، ص:3126.

4 - سعيد حوّى، الأساس في التّفسير، دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة (مصر)، ط01، (1425هـ-1985م)، ج09، ص: 5029.

5 - سورة فصّلت، الآية: 40.

6 - سورة فصّلت، الآية: 44.

7 - ينظر: محمّد محمّد أبو موسى، آل حم غافر- فصّلت- دراسة في أسرار البيان، مكتبة وهبة، القاهرة (مصر)، ط01، (1420هـ-2009م)، ص: 447.

حذف الخبر يكمن في دلالة الآية السّابقة ومعانيها العميقة، ممّا جعل البلاغة القرآنية تستنكف عن التّكرار، كما أنّ أشار إلى التّرابط النّصّي ونسيج الآية المحكم، إذ إنّ مؤدّى الحذف مردّه للإلحاد الصّادر من المكذّبين، ولذلك جاء في عجز هذه الآيات المتشابهة لفظا ومعنى التّوكيد بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾، حتّى يتسنّى للقارئ عِظم الجرم النّاجم عنهم[1].

4- فوائد الحذف : أشار "الزّركشي" في البرهان إلى فوائد الحذف البلاغية، وسنقف عليها باختصار وهي: [2]

أ - **الاختصار**: فهنالك مواطن يحتاج فيها المتكلم إلى الاختصار والإيجاز.

ب- تنشيط العمليّة الذّهنية: لأنّ غياب المذكور وبقاء أثره في الكلام يدع في النّفس عامل الاستشراف لهذا المذكور، ومحاولة التّطلّع لمعرفته نحو قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾[3]، إذ إنّ حذف ذكر ماوراء الأبواب من النّعيم المقيم، أشدّ وقعا في النّفوس من ذكر وتفصيل نعيم أهل الجنّة.

ج- التفخيم والتعظيم للمحذوف: نحو قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾[4]، إذ إذ إنّ حذف لفظة العذاب والإشارة إليه خير دليل على فظاعة ماحلّ بهم ونزل بساحتهم.

د- الإيجاز والتخفيف من كثرة الكلام : وهذا مذهب العرب في كلامهم، إذ إنّ البلاغة تقتضي قلّة الألفاظ وكثرة المعاني وجودتها، ومن ملامح التّخفيف في ألفاظ القرآن بالحذف قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾[5] ، إذ إنّ تقدير الكلام يا يُوسُفُ، إلاّ أنّ أداة النّداء حُذفت حُذفت توخّيا للخفّة وتجنّبا لثِقل الكلام.

---

1 - ينظر: محمّد محمّد أبو موسى، آل حم غافر- فصّلت، دراسة في أسرار البيان، ص:449.

2 - ينظر: الزّركشي، البرهان في علوم القرآن، ج03، ص: 102-108، والسّيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج03، ص: 170- 174.

3 - سورة الزّمر، الآية: 73.

4 - سورة طه، الآية: 78.

5 ، سورة يوسف، الآية: 29.

هـ- رعاية الفاصلة والوزن: وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ [1]، لأنّ أصل الفعل هو يسري، إلاّ أنّ الياء حذفت لرعاية الفاصلة القرآنية ومسايرة وزن الآيات الأخرى.

و- تقاصر الزّمن عن الإتيان بالمحذوف: وهذا ملمح جليل من ملامح البلاغة القرآنية، ويتضمّن الإشارة إلى مواقف عظيمٌ أمرها جسيم طول ذكرها، إي: إنّ ذكر نتائج الصّورة أو المشهد لا يقتضي الإطناب في الكلام ولا الثّرثرة، ومن هذه المشاهد المؤلمة قوله تعالى إخبارا عن قوم صالح عليه السّلام: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾[2]، فالخطاب القرآني هنا يصوّر تلك التّراكمات العقابية القابعة خلف أسوار مخالفة الأوامر النّبوية، إذ إنّ مجرّد العبث بالنّاقة وسقياها سيكون سببا لنزول العقاب الإلهي، ممّا يبيّن دلالة أهميّة الحذف وملائمته للتّعبير عن مقتضيات الأحوال، إي: إنّ الحذف هنا وإيجاز القول محاكاة لسرعة نزول العذاب.

5- ظاهرة الحذف في الدّرس البلاغي القديم :

لم يرد الحذف في كلام العرب عبثا، وإنّما هو من أسرار لغتهم ولسانهم التّليد، الذي كان يرتهن إلى الخفّة والسّرعة مع عدم الإخلال بالمعنى، ويمكن الوقوف على أغراض الحذف البلاغية والصّوتية في التّراث البلاغي القديم وتجليّاته في سياق كلامهم عند "عبد القاهر الجرجاني" و" ابن رشيق" (463هـ)كالآتي:

أ/ ظاهرة الحذف عند "عبد القاهر الجرجاني ": أشاد "عبد القاهر الجرجاني " بظاهرة الحذف وأشار إلى جمالها الأسلوبي بقوله: «الحذف هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسّحر، فإنّك ترى به ترك الذّكر أفصح من الذّكر، والصّمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتمّ ما تكون بيانا إذا لم تبن»[3].

1 - سورة الفجر: الآية: 04.
2 - سورة الشّمس، الآية: 13.
3- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الاعجاز، ص:146.

من تعريف "الجرجاني" نستخلص مدى أهميّة هذه الظّاهرة في البلاغة العربية، وتتبّع البلاغيين لها في تراثهم وفي بلاغة القرآن الكريم، إذ عرّض بقول الشّاعر: [1]

وَعِلْمِتُ أَنِّي يومَ ذا ... كَ مُنازِلٌ كَعْباً ونَهْدَا

قَوْمٌ إذا لَبِسُوا الحَدِي ... دَ تَنَمَّرُوا حَلَقاً وقِدَّا

من خلال هذا البيت ذكر "عبد القاهر الجرجاني " أنّ الحذف يتقاطع مع ظاهرة نحوية تتمثّل في القطع والاستئناف، حيث يُحذف المبتدأ ويبقى الخبر، وهذا من باب إيجاز الكلام عندهم؛ ومن الآيات التي استشهد بها الجرجاني في باب حذف المفعول قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾[2]، أي: إنّ الفاعليّة الصّوتية للحذف تجلّت في حذف المفعول، وذلك للدّلالة على عظمة أفعال الله تعالى[3].

ب/ ظاهرة الحذف عند "ابن رشيق "(456ﻫ): تحدّث "ابن رشيق" عن ظاهرة الحذف وبيّن بأنّها لون من ألوان البلاغة بقوله: «وإنّما كان هذا (الحذف) معدودا من أنواع البلاغة لأنّ نفس السّامع تتّسع في الظّنّ والحساب، ، وكلُّ معلومٍ فهو هَيِّنٌ لكونه محصورا »[4]، حيث وقف ابن رشيق على ظاهرة الحذف في باب الإيجاز.

تمثّل "ابن رشيق" بأقوال الرّمّاني واستأنس بها، وبيّن بأنّ الحذف يأتي على نوعين هما: الحذف المطابق لفظه لمعناه، حيث لا يزيد عليه ولا ينقص عنه، نحو قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾[5]، إذ المقصود من الآية على حسب تأويلها ﴿وَاسْأَلِ أهل الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾، أمّا الضّرب الثّاني فيسمونه: «الاكتفاء»، وفيه يحذفون بعض الكلام لدلالة الباقي على الذاهب،

[1] – ديوان عمرو بن معد يكرب الزّبيدي، تح مطاع الطّرابيشي، مطعة مجمّع اللّغة العربية بدمشق، دمشق (سوريا)، ط02، (1405ﻫ-1985م)، ص: 80.

[2] – سورة الزّمر، الآية: 09.

[3] – ينظر: دلائل الاعجاز، ص: 154، 155.

[4] – ابن رَشيق القيروانيّ، العُمدة في محاسن الشّعر وآدابه، مكتبة الخانجي، القاهرة(مصر) ، ط01، (2000م)، ج01، ص: 221، 222.

[5] – سورة يوسف، الآية: 82.

كقولهم: (لو رأيت عليا بين الصفين)، أي:(لرأيت أمرا عظيما)، وهذا الحذف يؤدّي إلى تنشيط الذّاكرة لمعرفة جلالة قدر المحذوف.

6- ظاهرة الحذف لدى المحدثين: اعتنى البلاغيون المحدثون وكذلك جلّ الباحثين في إعجاز القرآن وبلاغته بهذه الظّاهرة الصّوتية ومنحوها عناية كبيرة لما تتركه من آثار بلاغية في النّصّ القرآني، وكانت لهم لمسات وإضافات جديدة سنتعرّض لها في بحثنا هذا على النّحو التّالي:

أوّلا: ظاهرة الحذف عند "صالح فاضل السّامرائي":

اعتبر "السّامرائي" الحذف موطنا من مواطن القوّة والفنّ والجمال في النّصّ القرآني، وتعرّض لهذه الظّاهرة الصّوتية في كثير من الآيات القرآنية، معلّلا تأثير السّياق في عملية الحذف بقوله: «وقد يحذف في التعبير القرآني لفظ أو أكثر حسبما يقتضيه السّياق، فقد يحذف حرفا أو يجتزئ بالحركة للدلالة على المحذوف كما فعل لغرض بلاغي نلحظ فيه غاية الجمال والفن»[1].

ارتكازا على هذا التّعريف فإنّ الحذف والذكر عند "السّامرائي" يقعان في القرآن الكريم بحسب ما يقتضيه السياق، أو المقام، وضرب أمثلة كثيرة على ذلك، واعتمد في شرحه لهذه الظاهرة على نوعين من الحذف:

1-حذف الحروف: تناول السّامرائي ظاهرة الحذف وفق نظرة حديثة ومحايثة للطّرح الذي تناوله المفسّرون من قبل ، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[2]، وقوله تعالى﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[3].

1- فاضل صالح السّامرائي، التعبير القرآني، دار عمّار، عمّان (الأردن)، ط04، (1427هـ-2006م)، ص: 72.
2 - سورة البقرة: 17، 18.
3 - سورة الأنعام: 38، 39.

تحدّث "السّامرائي" في هاتين الآيتين عن الدّلالة المتأتّية عن إسقاط حرف الواو في سورة البقرة في قوله تعالى: (صمّ بكم عميّ) وذكرها في سورة الأنعام، في قوله: (صمّ وبكم في الظّلمات)، إذ إنّ الفرق بينهما على حسب قول السّامرائي أنّ قولنا: هؤلاء صمّ و بكم بالواو يحتمل معنيين، أنّ بعضهم صمّ وبعضهم بكم؛ ويحتمل أنّهم صنف واحد يجمع الصّمم والبكم كسمة واحدة في هؤلاء ، أما قولنا: (هؤلاء صمّ بكم)من دون واو، فلا يحتمل إلا معنى واحدا؛ وهو أنّهم جمعوا الوصفين فهم صمّ بكم؛ فهم صنف واحد.

إضافة إلى ذلك يردّ "السامرائي" سبب هذا الحذف، إلى أن سورة البقرة نزلت في قوم أشدّ كفرا وضلالا من القوم الذين في سورة الأنعام، كما أضاف قائلا: إنّه قال في الأنعام صمّ وبكم في الظّلمات، ولم يقل عُميٌّ، أمّا في البقرة فقد ذكر أنهم عُميٌّ، وهو أشد من وصفهم أنهم في الظلمات ذلك لأن الذي في الظلام إذا خرج منه فإنه قد يبصر، أما الأعمى فهو لا يبصر على كل حال سواء كان في ظلام أم في ضياء[1].

كما أشار في حذف الحروف إلى الاقتطاع من الفعل، مبيّنا أنّ هذا الاقتطاع ليس اعتباطا وإنّما ماهية الحذف في هذه الحالة تقتضي دلالة معيّنة بإسقاط حرف من حروف الفعل المحذوف وذلك في قوله: «قد يحذف في التعبير القرآني من الكلمة نحو(استطاعوا) (واسطاعوا)، (وتتنزّل) و(تنزل)،(وتتوفّاهم) و(توفّاهم)،و(لم يكن)و(لم يكُ) وما إلى ذلك، وكل ذلك لغرض وليس اعتباطا فالتعبير القرآني تعبير فنيّ مقصود، كل كلمة، بل كل حرف إنّما وضع لقصد»[2].

من النّماذج التي وقف عندها "السّامرائي" وأشار إلى دلالة حذف الحروف فيها قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾[3]، حيث يعمل حذف التّاء من الفعل الأوّل لتنشيط الذّهن في تقفّي دلالة الحذف، ولا سيما أنّ الآية وردت في سياق الإخبار عن السّد

1- ينظر: فاضل صالح السّامرائي، التعبير القرآني ، ص: 90.
2- فاضل صالح السّامرائي، بلاغة الكلمة في القرآن الكريم، ص:09.
3 – سورة الكهف، الآية: 97.

الذي صنعه ذو القرنين من زبر الحديد والنحاس المذاب، فدلالة حذف التّاء في الفعل (استطاعوا) وبقائها في الفعل الثّاني يومئ لشئ خفيّ، وقد علّل السّامرائي سبب الحذف أنّه الأنسب في التّعبير على دلالة المقام والفعل والتّعامل مع هذا البناء.

تشير ظاهرة الحذف في هذا المقام إلى أنّ الصّعود على هذا السدّ أيسر من إحداث ثقب فيه لمرور الجيش فحذف من الحدث الخفيف، فقال: فما (اسطاعوا أن يظهروه) بخلاف الفعل الشاقّ الطويل، فإنّه لم يحذف، بل أعطاه أطول صيغة له، فقال: (وما استطاعوا له نقبا)، فخفف بالحذف من الفعل بخلاف الفعل الشاق الطّويل، ثم إنه لما كان الصعود على السّد يتطلب زمنا أقصر من إحداث النقب فيه حذف من الفعل وقصر منه ليجانس النطق الزمن الذي يتطلبه كل حدث، وهذا مايتجلّى به المفارقة بين الفعلين[1].

وما ذهب إليه "السّامرائي" في الفرق بين الفعلين (استطاعوا) (واسطاعوا)، كان محلّ اهتمام كبير بين المفسّرين، ممّا ينشد ضالّة السّامرائي في التّكشّف عن الخبايا البلاغية المتأتّية عن الضّرورات الصّوتية، فقد ذهب "الشّوكاني" في تفسيره إلى أنّ مادّة الفعل (استطاع) تأتي على ثلاث لغات: (أستطيع/أسطيع/أستيع)، ووافقه "الألوسي" في إظهار وتبيين ماهية حذف التّاء من الفعل (اسطاعوا) أنّ علّة الحذف تكمن في التّخلّص من تاء الافتعال والعدول عن تجاور المتقاربين التّاء والطّاء ، ولذلك قرأها **الأعشى عن أبي بكر** (اصطاعوا) بالصّاد بدل السّين، لتقارب صفات الصّاد مع الطّاء وانسجامهما نطقا[2].

وعلى هذا الأساس لجأ الخطاب القرآني إلى التّخفيف بحذف الطّاء من الفعل؛ والحذف في هذا الموضع ضرورة صوتية، تهدف إلى تخليص الفعل من ثقله البنوي، وتحقيق السّرعة في أدائه النّطقي بغية التّيسير، كما أنّ العدول عن تكرير الفعل (استطاعوا) هو من باب التّفنّن في

1- ينظر: فاضل صالح السّامرائي، بلاغة الكلمة في القرآن الكريم، ص: 10.

2 – ينظر: الشّوكاني، فتح القدير، ص: 876.

الأساليب البلاغية للقرآن الكريم، كما أنّ الآية تضمّنت ملمحا بلاغيا آخر تمثّل في حسن الجمع بين الفعلين في آية واحدةٍ، وهذا من تمام فصاحة القران وبلاغته.

ومن النّماذج القرآنية التي ارتهن إليها "السّامرائي" في دلالة حذف الحروف قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾[1]، حيث أشار إلى السّبب الذي أدّى لهذا الحذف والذي يكمن في محاكاة السّياق الذي وردت فيه الآية الكريمة، فقد حذفت النّون هنا للدّلالة على ما أراده النّبيّ عليه السّلام وهمّ به من الثّأر ضدّ المشركين بعد مقتل عمّه "حمزة" رضي الله عنه، فماهية حذف النّون في هذه الآية «إشارة إلى ضرورة حذف الضّيق من النّفس أصلا وهذا تطييب مناسب لضخامة الأمر وبالغ الحزن، وتخفيف لأمر الحدث وتهوينه على المخاطب فخفّف الفعل بالحذف إشارة إلى تخفيف الأمر وتهوينه على النّفس»[2].

ومن اللّطائف التي تعضّد ماذهب إليه "السّامرائي" في تفسيره لهذه الآية ما ذهب إليه "البقاعي" (885هـ) في تفسيره، من أنّ سرّ حذف هذه النّون من الفعل(تكن) هي محاكاة للمنزلة العليّة والمقامات السّنيّة التي سيشاهدها النّبيّ عليه السّلام، بعد تلك الشّدائد والأهوال التي كابدها بسبب الدّعوة إلى الله، أي: إنّ الخطاب القرآني حذف النّون من الفعل من أجل تحقيق الخفّة في النّطق، التي تحاكي سرعة تغيّر أحوال النّبيّ عليه السّلام، فمن مقام الضّعف إلى مقام القوّة، ومن النّكد من انتكاس أهل الأرض، إلى الرّقيّ إلى أهل السّماء، حيث الملكوت الأعلى، والمقام الأسنى، والوصول إلى الملإ الأعلى، فكلّ هذه التّغيّرات السّريعة أنبأ عنها حذف النّون[3]، وهذه الخاصّية الأسلوبية هي من باب تقاصر الزّمن عن الإتيان بالمحذوف.

وممّا يجب الوقوف عنده في هذه اللّطائف الصّوتية ما ذهب إليه "الزّركشي" أيضا، فقد وقف عند هذه الأفعال التي وردت على هذا النّحو(تك/يك) وبيّن بأنّ الحذف في هذه الأفعال

---

1 - سورة النّحل، الآية: 127.

2 - التّعبير القرآني، ص: 77.

3 - ينظر: البقاعي(برهان الدّين)، نظم الدّرر في تناسب الآي والسّور، تح محمّد عمران الأعظمي الأنصاري العمري، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة (مصر)، (دط)، ج11، ص: 284.

من باب محاكاة المعاني، وأنّها تنبّه على صغر الشّئ وحقارته، ومثّل لذلك بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى﴾[1]، حيث بيّن أنّ ماهية حذف النّون من الفعل للدّلالة على مبدإ الإنسان وصغر قدره مقارنة بالأجرام الأخرى، كما وقف على قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[2]، حيث بيّن أنّ سبب حذف نون الفعل غايتها الدّلالة على صغر حجمها وقلّة شأنها، وهذا من أعظم أبواب البلاغة في القرآن[3].

ومن الأفعال التي أشار إليها "السّامرائي" وبيّن أنّ حذف الحروف الواقع فيها يتضمّن دلالات كثيرة نجد الفعلين (تنزّل/تتنزّل)، حيث ورد الفعل (تتنزّل)، في قوله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾[4]، بينما ورد الفعل(تنزّل) في قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾[5]، وقوله أيضا: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾[6]، حيث ذهب السّامرائي إلى التّفريق بين دلالتي الفعلين من منطلق بنائهما الصّوتي، إذ إنّ لكلّ فعل دلالة معيّنة وليس الفرق اعتباطا، «وهكذا تدرك رهافة حسّ الكلمة بالكلمة، وأنّ أقلّ قدر من الاهتزاز في هذه المماسّة بين الكلمتين يؤدّي إلى تغيير جوهري في المعنى» [7] بين الأفعال.

من الأسرار البلاغية التي وقف عندها "السّامرائي" في تقفّيه للمفارقة بين الفعلين، أنّ لكلّ فعل سياق ومقام يناسبه، فذهب إلى أنّ الزّيادة في المبنى تتضمّن الزّيادة في المعنى، فالفعل (تتنزّل) يتضمّن إشارة إلى العدد المنزّل من الملائكة على المؤمن المحتضر، إذ إنّ مقام الاحتضار يستجدي كثرة نزول الملائكة بهدف التّبشير، مع إشارته لزمن الفعل(تتنزّل) الذي يحاكي عدم توقّف التّنزّل لعدم توقّف أعداد المبشّرين بالجنّة.

---

[1] – سورة القيامة، الآية: 37.
[2] – سورة النّساء، الآية: 40.
[3] – ينظر: الزّركشي، البرهان، ج01، ص: 407، 408.
[4] – سورة فصّلت، الآية: 30.
[5] – سورة القدر، الآية: 04.
[6] – سورة الشّعراء، الآية: 221، 222.
[7] – مُحَمَّد مُحَمَّد أبو موسى، دلالة التّراكيب دراسة بلاغية، مكتبة وهبة، مصر، ط02، (1408هـ-1987م)، ص: 23.

بينما الفعل (تنزّل) فقد حذفت منه التّاء الثّانية الواردة في الفعل الأوّل، وذلك للدّلالة على أنّ تنزّل الشّياطين ليس دائما، كما أنّ تنزّل الشّياطين في آية الشّعراء ليس متعلّقا بكلّ الكافرين، وإنّما على الكهنة فقط، وكذلك هو الشّأن في سورة القدر، فتنزّل الملائكة مقترن بليلة واحدة من ليالي السّنة، فوافق اختزال الفعل اقتطاع الحدث[1].

ممّا يعضّد رأي "السّامرائي" في الإشارة إلى الفرق بين الفعلين (تنزّل/تتنزّل)، ماذهب إليه "محمّد أبو موسى" في تفسيره لمدلولات الفعلين، حين أشار أنّ الفعل (تتنزّل) يتواشج مع ما قبله وبعده، فقد ذكر هذا الفعل بعد ذكر الاستقامة من المؤمنين، لتهيئة ذكر هذا الإكرام العظيم للمؤمنين حالة النّزع من الله عزّ وجلّ، كما أشار إلى لطيفة أخرى هي محاكاة الفعل(تتنزّل) للفعل(استقاموا)، فإذا كانت أقوال المفسّرين تباينت في تأويل فعل الاستقامة، فقد تضاربت تأويلاتهم أيضا في فعل التّنزّل ووقته وكيفيته[2].

كما أشار "السّيوطي" إلى لطيفة من لطائف حذف الحروف في قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾[3]، أنّ لفظة (يَا مَالِكُ) في بعض القراءات ترد على نحو:(يَا مَالِ)، وأشار إلى التّأويلات في حذف الكاف من اللّفظة، حيث ذهب بعض السّلف إلى أنّ نوع الحذف هو التّرخيم، غايته مراودة مالكٍ خازن النّار لاستعطافه واسترحامه في تخفيف العذاب، أو أنّ هذا الحذف مردّه العجز عن إتمام الكلمة لشدّة العذاب المهين[4].

ووقوفا عند ماهية الحذف البلاغي وتجلّياته لدى المفسّرين، ومن خلال لمسات "السّامرائي" البيانية في هذه الآيات نستخلص أنّه «قد يحذف في التّعبير القرآني لفظ أو أكثر حسبما يقتضيه السّياق، فقد يحذف حرفا أو يذكره أو يجتزئ بالحركة للدّلالة على المحذوف، كلّ

1- فاضل صالح السّامرائي، بلاغة الكلمة في القرآن الكريم، ص: 10،11.

2 - ينظر: محمّد محمّد أبو موسى، آل حم غافر- فصّلت، دراسة في أسرار البيان، ص: 413، 414.

3 - سورة الزّخرف، الآية: 77.

4 - ينظر: السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج03، ص: 181.

ذلك لغرض بلاغي تلحظ فيه غاية الفنّ والجمال » [1]، الذي يزيد الأسلوب القرآني تأنّقا وبراعة.

2- حذف الكلمة: لم يتوقف الحذف عند "السّامرائي" عند الحروف فحسب، بل تجاوزت هذه الظّاهرة الصّوتية إلى الجملة أيضا، ولا شكّ أنّ في كلٍّ من حذف الحروف أو الكلمات في القرآن الكريم مظنّة للإعجاز البلاغي والصّوتي فيه، ويمكن الحديث عن بعض مواطن حذف أركان الجملة التي تطرق إليه السامرائي في كتبه ومنها:

أ/حذف الفعل: يعتبر الفعل أحد أركان الجملة وأسسها يصعب التخليّ عنه، إلّا أنّه في بعض الأحيان يحذف لضرورة بلاغية اقتضاها المعنى واكتنفها الإعجاز، فمن قبيل هذا الباب تطرق "السّامرائي" غلى حذف الفعل في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾[2]، فحذف الفعل من جواب شرط (الهداية) ظاهرا، فذكر (لنفسه)، دون أن تسبق بفعل في حين ذكر الفعل (يضلّ) في الثانية ويردّ "السّامرائي" ذلك الحذف الى السّياق الذي وردت فيه الآيات، وهو أنّها ذكرت في الضّالين دون سواهم فلم يقل (فإنّما يهتدي لنفسه)، ذلك أنّ السّياق في الضّالين[3].

ومن الأفعال التي طالها الحذف أيضا حذف جملة القول نحو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[4]، حيث ذهب المفسّرون إلى الإشارة إلى الأفعال المحذوفة والمقدّرة في الآية، فذكر "الزّمخشري" أنّ بداية هذه الآية تتضمّن فاعلا مقدّرا نحو(واذكر يوم تبيضّ)، وكذلك يوجد فعل مقدّر قبل (أكفرتم) نحو: يقال لهم: أكفرتم بأسلوب التّقريع والتّوبيخ والاستفهام[5].

---

1 - فاضل صالح السّامرائي، التعبير القرآني، ص: 75.

2 - سورة الزمر، الآية:41.

3- فاضل صالح السّامرائي، من أسرار البيان القرآني، دار الفكر، عمّان (الأردن، ط 01، (1430هـ-2009م)، ،ص111.

4 - سورة آل عمران، الآية: 106.

5 - ينظر: الزّمخشري، الكشّاف، ج01، ص: 607.

ب/حذف المضاف إليه: وهو من الظّواهر الكثيرة في القرآن، إذ ذكر "السّيوطي" أنّه يتجاوز ألف موضع[1]، من الآيات التي وقف عندها "السّامرائي" في هذا الضرب من الحذف قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[2]، فسياق الآية يكشف عن حذف المضاف في الآية: (ولكن البر من آمن بالله، لأنّ الإيمان بالله واليوم الآخر، لا يكون من البرّ، بل من صاحبه ويرى السّامرائي أنّ الغرض من هذا الحذف هو التجوّز في الكلام والاتساع فيه[3].

نبّه "السّيوطي" على ظاهرة حذف المضاف إليه وأنّها تكثر في ياء المتكلّم والغايات، ومن المواضع التي ذكرها في حرذف ياء المتكلّم قوله تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾[4]، حيث حذفت الياء من لفظة (رَبِّ)، أمّا بالنّسبة للغايات فقد تضمّن القرآن الكريم هذه الظّاهرة في مواضع كثيرة نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾[5]، أي: كلّنا فيها[6]، فماهية الحذف وأهميّته تكمن في الإشارة إلى الاستسلام واعتراف بالذّنب، ولذلك فإنّ

---

1 - ينظر: السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج03، ص: 178.

2 - سورة البقرة، الآية:177..

3- ينظر: فاضل صالح السّامرائي، معاني النّحو، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، عمّان (الأردن)، ط 01، ج01، (1420هـ-2000م)، ص: 142.

4 - سورة نوح، الآية: 28.

5 - سورة غافر، الآية: 48.

6 - مصطفى أبو عبد السّلام أبو شادي، الحذف البلاغي في القرآن الكريم، مكتبة القرآن، القاهرة (مصر)، (1992م)، ص: 82.

«التّنوين الذي في قولهن(كُلٌّ) عوض عن المضاف، والأصل إنّا كلّنا فيها » [1]، فسدّ حذف المضاف إليه مسدّ الإخبار عن الكينونة المشتركة بينهم جميعا في النّار.

ومن الآيات القرآنية التي يظهر فيها حذف المضاف إليه جليا في أدائه البلاغي قوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾[2]، حيث إنّ تقدير لفظ الآية هو «قلوبٌ أهلها يومئذٍ واجفة، أي: مضطربة، فزعة من هول القيامة، وحذف المضاف إليه لتتوفّر العناية إلى مابعده ممّا يبرز الخوف والفزع الذي يكون عليه النّاس في هذا اليوم »[3]؛ ولذلك ذهب "القاسمي" في تأويله للمضاف إليه المحذوف وتقديره للآية بقوله: «قلوب يومئذٍ واجفة، أي: شديدة الاضطراب خوفا من عظيم الهول النّازل، أبصارها خاشعة، أي: أبصار أهلها ذليلة، ممّا قد علاها من الكآبة والحزن» [4]، فحذفُ المضاف إليه أبلغ من ذكره في الآية، لأنّ أثر حذفه أوقع في الرّوع وأبلغ في الإشارة إلى خطورة المشهد المراد تصويره وتبليغه.

ثانيا: ظاهرة الحذف عند "بنت الشّاطئ":

تعرّضت "بنت الشّاطئ" لظاهرة الحذف في كتابيها الإعجاز البياني للقرآن الكريم والتّفسير البياني للقرآن الكريم، وذكرت عدّة آيات قرآنية تضمّنت ظاهرة الحذف وأشارت إلى أثرها البلاغي والإعجازي في البيان القرآني، وقد أشارت إلى اللّمسة التي تروم إضافتها إلى إعجاز القرآن وبلاغته بقولها: «قد نكون عرفنا البلاغة علما وثقفناها صناعة ومنطقا، غير أنّنا ما نزال في أشدّ الحاجة إلى أن نجتليها ذوقا أصيلا وحسّا مرهفا في آيات الفصاحة العليا والبيان المعجز »[5]، ممّا دفعها إلى البحث عن رؤى محايثة في أساليب القرآن الكريم، بغية استكشاف البعض من جواهره

[1] – مُحَمَّد مُحَمَّد أبو موسى، آل حم غافر– فصّلت، دراسة في أسرار البيان، ص: 177.
[2] – سورة النّازعات، الآية: 08، 09.
[3] – مصطفى أبو عبد السّلام أبو شادي، الحذف البلاغي في القرآن الكريم، ص:84.
[4] – مُحَمَّد جمال الدّين القاسمي، محاسن التّأويل، ج17، ص: 6046.
[5] – بنت الشّاطئ، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، ص: 239.

المكنونة ولآلئه المخزونة، فكان لظاهرة الحذف نصيب من هذا البحث والتّقفّي من قِبلها في باب حذف الفاعل.

تحدّثت "بنت الشّاطئ" عن حذف الفاعل أو ما أسمته (الاستغناء عن الفاعل) وذكرت بأنّه من القضايا الأسلوبية التي امتاز بها القرآن الكريم، وبيّنت أنّ الفاعل قد حظي بعناية لدى كلّ من علماء النّحو والصّرف، حيث وقفوا عند كيفية بناء الفعل للمجهول وطريقة صياغة أحكام نائب الفاعل؛ بينما عدلت البلاغة تماما في كيفية التّعامل مع الفاعل بخلاف ما تناوله النّحاة وعلماء الصّرف، حيث تبدّت ثمرة الخلاف في بزوع التّعامل مع الفاعل بلاغيا وأسلوبيا في باب المسند والمسند إليه[1].

استنادا على هذه الفكرة نستخلص أنّ "بنت الشّاطئ" لم تولِ البحث النّحوي أهميّة كبرى في مؤلّفيها مقارنة بتتبّع الملامح الصّوتية ذات الأثر البلاغي والإعجازي، وقد وقفت على ثلاث صور في حذف الفاعل، من حيث إنّه يرد مع الفعل الماضي المبني للمجهول، كما يرد مع الفعل المضارع المبني للمجهول، ويأتي في مواقف أخرى محذوفا، ومسندا إلى غيره، حيث سنشير إلى بعض النّماذج من الآيات القرآنية التي وقفت عليها على النّحو التّالي:

أ/ الاستغناء عن الفاعل مع الفعل الماضي المبني للمجهول: من الآيات القرآنية التي أثارت حفيظة "بنت الشّاطئ" في مسألة حذف الفاعل مع الفعل المبني للمجهول، وروده في الآيات المتعلّقة بيوم البعث والحساب نحو قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾[2].

ورد في هذه الآيات الثّلاث فعلان ماضيان مبنيان للمجهول هما (دُكَّتِ/ جِيءَ)، ولا شكّ أنّ إضمار الفاعل هنا غرضه بلاغي وأسلوبي محظ، بل إنّ حذفه أبلغ في الدّلالة على مرامي

[1] – ينظر: بنت الشّاطئ، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، ص: 240.

[2] – سورة الفجر، الآية: 21-23.

الآيات والوقوف على أسرارها، «فبناء الفعل للمجهول فيه تركيز الاهتمام على الحدث، بصرف النّظر عن محدثه» [1]، فقد ذكرت في تفسيرها البياني مادّة (دكّ) وأنّها ترد في عظائم الأمور وأهوال الأحوال وعسير الأمور.

ولتوضيح فكرتها أشارت إلى دكّ الجبل جرّاء تجلّيات الله عزّ وجلّ لموسى عليه السّلام وكذلك هو الشّأن في نفخة الصّور وحمل الجبال في سورة الحاقّة، ممّا يستجدي الضّرورة الصّوتية لحذف الفاعل للإشارة إلى عظمة فعل الدّكّ وتكرّره ممّا يجعل حذف الفاعل ظاهرة أسلوبية أنسب في وصف الفعل وحذف الفاعل [2]، ولعلّ ما يتأتّى من هذا الحذف حمل المكذّبين على استشعار جرم من كذّبوا جنابه، فتكون الأفعال أبلغ في التّأثير دون رؤية الفاعل.

ولعلّ حذف الفاعل واستبداله بالفعل الماضي المبني للمجهول (جِيءَ)، أيضا في الآية الموالية أبلغ في النّفس من ذكر الفاعل، فكما وقفتْ عند مادّة (دكّ) وأشارت إلى حسّها البياني وأثرها الأسلوبي، فقد وقفت أيضا عند الفعل (جاء) وتمثّلاته في القرآن الكريم، حين أشارت إلى حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مكانه في قوله تعالى: (وَجَاءَ رَبُّكَ) فذكرت أنّ الفاعليّة الصّوتية آتت أكلها من خلال حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مكانه، أي: إنّ تأويل الآية: (جاء أمر ربّك) أو نحو(جاء قهر ربّك) [3]، ليتسنّى لنا من خلال ذلك أنّ «بناء الفعل للمجهول فيه تركيز على الحدث، بصرف النّظر عن محدثه » [4]، حتّى يكون الحدث أبلغ في الإشارة إلى محدثه ودالاّ على قدرته سبحانه وتعالى.

أمّا في الفعل الماضي المبني للمجهول (جِيءَ) فقد أشارت إلى أثره الصّوتي وحسّه الإعجازي البلاغي في الآية، إذ إنّ الفائدة البلاغية المتوخّاة من بناء هذا الفعل للمجهول هو

1 – بنت الشّاطئ، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، ص: 242.
2 – ينظر: بنت الشّاطئ، التّفسير البياني للقرآن الكريم، ج02، ص: 154.
3 – ينظر: المرجع نفسه، ج02، ص:156.
4 – بنت الشّاطئ، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، ص:242.

تجسيم للهول الأكبر الذي يتجلّى في مقام العرض على الله؛ فهذه الأفعال المبنية للمجهول التي تقوم مقام الإخبار عن الفاعل وحيثيات اليوم الأكبر.

وعليه يمكننا القول بأنّ ظاهرة حذف الفاعل أثبتت كضرورة صوتية تمام تصوير المشاهد العسيرة يوم القيامة، إذ استطاعت هذه الآيات أن ترسم وتصوّر «من خلال موسيقاها الحادة التقسيم، الشديدة الأسر، مشهدا ترجف له القلوب، وتخشع له الأبصار والأرض تدك دكا دكا والجبار المتكبر يتجلى ويتولى الحكم والفصل، ويقف الملائكة صفا صفا، ثم يُجاء بجهنم فتقف متأهبة هي الأخرى» [1] لانتظار فصل الخطاب بين العباد.

بناء على هذه الرّؤية من "بنت الشّاطئ" نستخلص أنّ ثمّة علاقة وطيدة بين النّحو والبلاغة، فهو يعمل ويساعد على استكشاف البنى الجوهرية للخطاب القرآني، أي: تجاوز الدّوال الصّوتية أو البنى السّطحية، إلى الوقوف على البنية العميقة لهذه النّصوص القرآنية، وقد أشار لخصيصة التّداخل والتّكامل بين النحو والبلاغة"سعد مصلوح"بقوله: «الصّلة الواشجة بين البلاغة والنّحو معقودة منذ عرف العقل الإنساني طريقه إلى تأمّل اللّغة واستكناه ظاهراتها واستنباط قوانينها» [2]التي بنيت عليها.

ومن هذا المبدأ يمكن القول بأنّ حذف الفاعل كملمح نحوي وضرورة صوتية أبلغ في التّأثير من الذّكر، لأنّ الذّكر هو تصوير محدّد لمشهد معيّن، أمّا حذف المضاف في هذه الآية فغرضه «للتّهويل، أي: وجاء أمر ربّك وقضاؤه سبحانه » [3]؛ ومن اللّطائف التي ذكرها "فاضل صالح السّامرائي" في لمساته البلاغية في سورة الإنسان، والتي تعزّز من دلالة الفعل (جاء)، أنّ هذا الفعل

[1] – سيدّ قطب، في ظلال القرآن، ج06، ص: 3906

[2] – سعد عبد العزيز مصلوح، في البلاغة العربية والأسلوبيات الحديثة آفاق جديدة، مطبعة لجنة التّأليف والتّعريب والنّشر، الكويت، ط01، (2003م)، ص:95.

[3] – الألوسي، روح المعاني، ج30، ص: 128.

رغم أنّ له أفعالا تقاربه وتحاكيه نحو أتى، إلاّ أنّه يمتاز عنها بأنّه يُوظّف في ما فيه صعوبة ومشقّة، بخلاف المواطن التي يرد فيها الفعل أتى [1].

وارتكازا على هذه اللّمسات البيانية التي تضمّنها القرآن الكريم، نستنتج أنّ هذه الآية اشتملت على أركان البلاغة والإعجاز لتضمّنها على ملامح بلاغية عدّة ناتجة عن حذف الفاعل من سياق الآية، فقد احتوت فعلين ماضيين مبنيين للمجهول (دُكّتِ/جِيءَ)، واقتنصت فعل المجئ (جاء/جئ) بدل مرادفاته نحو: أقبل، أتى، قدِم، وذلك لدلالته الخاصّة، وهذا مادفع ب "بنت الشّاطئ" إلى الإشارة لإعجاز الآية بقولها: «وفيما أشتغل به على المدى الطويل من تخصص في الدراسات القرآنية، شهد التّتبع الاستقرائي لألفاظ القرآن في سياقها، أنه يستعمل اللفظ بدلالة معيّنة لا يؤدّيها لفظ آخر، في المعنى الذي تحشد له المعاجم وكتب التفسير عددا قل أو كثر من الألفاظ»[2]المشابهة له.

ب/الاستغناء عن الفاعل مع الفعل المضارع المبني للمجهول: من الآيات القرآنية التي حُذف فيها الفاعل ويبنى للمجهول بواسطة فعل مضارع عند"بنت الشّاطئ" ماورد في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾[3]، حيث إنّ الغاية المرجوّة من حذف الفاعل تتضمّن دلالات معتبرة، فكما أنّ حذف الفاعل مع الفعل الماضي المبني للمجهول تبيّنت غايته مثلما أسلفنا، فإنّه حتما هناك أسرارا بلاغية ولمسات إعجازية في تفسير هذه الآية، التي حُذف فيها الفاعل وعُوّض بالفعل المضارع المبني للمجهول.

من دلالات غياب الفاعل وتعويضه بالفعل المضارع المبني للمجهول الإشارة إلى عِظم الخطب يوم القيامة، ولذلك ذهب "الألوسي" في تفسيره إلى أنّ الفعل المضارع المبني للمجهول،

---

1 – ينظر: فاضل السّامرائي، على طريق التفسير البياني، مطبوعات جامعة الشّارقة (الإمارات العربية المتّحدة)، ط 01، (1423هـ-2003م)، ج01، ص: 153، 154.

2 – بنت الشّاطئ، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، ص: 214، 215.

3 – سورة النّبأ، الآية: 18.

المقترن بالبدل أو عطف البيان(يوم) هو بغرض التّنبيه على فخامة يوم الفصل وشدّة هوله [1]، حتّى يتسنّى للقارئ أهمية حذف الفاعل، إذ بحذفه يتماهى الذّهن في التّكشّف عن صاحب النّفخة وعظمته وقوّته، فأسلوب القرآن الكريم يزداد تماسكا وانسجاما إذا «حذف شئ من أصوله وأركانه، التي لا يتمّ الكلام في العادة بدونها، ولا يستقيم المعنى إلاّ بها »[2]، على غرار حذف الفاعل من هذه الآية الكريمة.

وبناء على هذه النّزعة الأسلوبية –حذف الفاعل– فإنّ إعجاز القرآن الكريم يبلغ أعلى درجاته، فرغم أنّ حذف الفاعل يؤدّي بالمتلقّي إلى شرود ذهنه في تقفّي صاحب الفعل، إلاّ أنّ قوانين البلاغة وأسسها نجدها تعترف بأنّ إيجاز الحذف من أسمى السّمات الأسلوبية والبلاغية التي تزيد المعنى اتّساعا وأكثر استيعابا، فرغم أنّ الفاعل مضمر في هذه الآية، إلاّ أنّ غيابه يجعل الأسلوب البلاغي «يستثمر تلك البقيّة الباقية من اللّفظ في تأدية المعنى كلّه بجلاء ووضوح، وفي طلاوة وعذوبة، حتّى يخيّل إليك من سهولة مسلك المعنى في لفظة أنّ لفظه أوسع منه قليلا» [3].

إنّ البصمة التي يتركها الأثر الصّوتي المتمثّل في حذف الفاعل وبناء الفعل المضارع للمجهول، هو ممّا يجعل باب الخيال مفتوحا على مصراعيه لدى المتلقّي، إذ إنّ غياب الفاعل وبناء الفعل للمجهول مع تصوير مشهد الورود على الله عزّ وجلّ، واضطراب قوانين الكون وتغيّر نواميسه التي تنبئ عنها الأفعال الماضية المبنية للمجهول في نفس سياق الآية (فُتّحت السّماء/سُيّرت الجبال)، يجعل المتلقّي شارد الذّهن من هذه المواقف العصيبة التي تتملّك لبّه بأسلوبٍ بياني رائع، دون أن «تشعر النّفس بما كان فيه من حذف وطيٍّ، ولا بما صار إليه من

1 – ينظر: الألوسي، روح المعاني، ج30، ص: 12، والبقاعي، نظم الدّرر، ج21، ص: 200.

2 – مُحَمَّد عبد الله درّاز، النّبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، دار القلم، الكويت، ط01، (1376هـ–1957م)، ص: 136.

3 – المرجع نفسه، ص: 137.

استغناءٍ واكتفاءٍ إلاّ بعد تأمّلٍ وفحص دقيق» [1]، ممّا يجعل ظاهرة الحذف من أهمّ العوامل البلاغية التي تزيد الأسلوب القرآني انسجاما واتّساقا.

ج/الاستغناء عن الفاعل الحقيقي مع إسناد الفعل لفاعل مجازي: تناولت"بنت الشّاطئ" أيضا ظاهرة حذف الفاعل الحقيقي، وبيّنت بأنّ لحذفه غرضا بلاغيا وتخريجا إعجازيا ومستندا بلاغيا، أي: إنّ حذفه يغني عن ذكره، وينبئ عن عظمة المحذوف، ومن نماذج الاستغناء عن الفاعل الحقيقي مع الارتهان إلى الإسناد المجازي قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾[2]، حيث استغني عن ذكر الفاعل الحقيقي (الإنسان الكفور الجحود)[*]، وأبقي على صفاته الذّميمة الدّالّة عليه، فقد ذكر بعض المفسّرين أنّ الفاعل المحذوف هو ذلك الإنسان المغترّ النّاسي لقاء ربّه وعاقبة مآله، رغم نور فطرته وقوّة عقله التي حباه الله بها[3].

وتماشيا مع ما تمّ ذكره نستنتج أنّ القرآن الكريم يتّكئ على الحذف للدّلالة على الفاعل وعظمة الفعل، أي إنّ «الإسناد المجازي يعطي المسند إليه فاعليّة محقّقة يُستغنى بها عن ذكر الفاعل الأصل» [4]، وهو(الإنسان الجحود)، من أجل إبلاغ الرّسالة لمنكري البعث والنّشور، إذ إنّ منطلق المخاطبين بهذه السّورة عموما لا يؤمنون بمرتكزات الإسلام وأسسه، ولذلك كانت هذه السّورة من القرآن المكّي الذي يعتمد كثيرا على أسلوب الحذف للتّنبيه على خطورة ما كذّبوا به

---

1 – مُحَمَّد عبد الله درّاز، النّبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، ص: 137.

2 –. سورة العاديات، الآية:10،09.

*) نبّهت بنت الشّاطئ في كتابها الإعجاز البياني في القرآن الكريم على مسألة حذف الفاعل، واستدركت على البلاغيين في قولهم بأنّ حذف الفاعل يكون دائما بغرض التّفخيم والتّعظيم، أو يكون خوفا على المحذوف أو جهلا به، ففي نظرها هذا الحكم ليس على الإطلاق، بل قد يعتري الفاعل الحذف دون أن يتّسم بهذه السّمات، ينظر: الإعجاز البياني في القرآن الكريم، ص: 242.

3 – ينظر: ابن عطيّة، المحرّر الوجيز، ج 05، ص: 515.، ومُحَمَّد جمال الدّين القاسمي، محاسن التّأويل، ج 17، ص: 100.ومصطفى العدوي، تفسير الرّبانيّين لعموم المؤمنين، دار الخلفاء، المنصورة (مصر)، ط 01، (1420هـ-1999م)، ج09.، ص: 251.

4 – بنت الشّاطئ، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، ص: 243.

والتّنويه على قدر من كذّبوه، ولذلك نرى «اطّراد هذه الظّاهرة في مواقف البعث يوم القيامة، ينبّه إلى أسرار بيانية وراء ضوابط الصّنعة البلاغية وإجراءات الإعراب الشّكلية» [1].

من خلال التّمعّن في حذف الفاعل الحقيقي، وبالوقوف على آثاره البلاغية المترتّبة عليه، نلمح في الحذف «سرّه البياني الباهر في ما قصد إليه القرآن من إحضار مشهد ليوم البعث شاخصا مجسّما، وتأكيد وقوعه، والإنذار بما ينتظر الإنسان فيه من حساب دقيق عسير» [2] وهذا الاستحضار لهذه المشاهد العظيمة كانت تحت وطأة التّأثير الصّوتي لظاهرة الحذف للفاعل فالخطاب كان لأهل البلاغة والفصاحة، الذين لا تتحقّق معهم الغاية التّأثيرية لآيات القرآن الكريم، إلاّ بما يحرّك غلظة قلوبهم، بالتّأثيرات الصّوتية على غرار الحذف، ولا سيما أنّهم أمّة منطقهم البلاغة والإيجاز، وقوّة اللفظ مع الإيقاع، وهذا ماتميّزت به هذه السّورة.

وبالعودة إلى ظاهرة الحذف والتّنقيب عن أهميّتها في القرآن الكريم نلاحظ أنّ الحذف ورد متجاورا في نفس الآية مع فعلين ماضيين مبنيين للمجهول (بُعْثِرَ/حُصِّلَ)، ممّا يجعلنا نحسّ بأهميّة هذه الظّاهرة في القرآن الكريم، بل إنّها تزيد القلب اطمئنانا على أنّها مستند صوتي يعمل على تكثيف الدّلالة بتغييب الفاعل وعدم ذكره، فإذا كان الملمح الإعجازي من تغييب الفاعل الحقيقي(الإنسان الجحود) مع الفعل (يعلم)، فإنّ عدم ذكره دليل على جرمه بتكذيب الخالق سبحانه وتعالى، الذي هو عالم بأرضه «بما فيها من نذير صادع وزجر رادع» [3] لا جدال فيه فالفعلين الآخرين يشيران إلى مغبّة الكفر والتّكذيب، والوقوف على مظاهر نهاية المكابرة والمعاندة من قِبل المكذّبين بالبعث والنّشور.

[1] – المرجع نفسه، ص:242.
[2] – بنت الشّاطئ، التّفسير البياني للقرآن الكريم، ج01، ص: 103.
[3] – المرجع نفسه، ج01، ص: 116.

إنّ الفاعليّة الصّوتية المتمثّلة في الحذف، وحسن توظيف ألفاظ معيّنة دون غيرها كفيل في تحقيق الإبلاغية للشّواهد القرآنية لدى المتلقّي المثالي، فقد نبّهت "بنت الشّاطئ" أنّ الفعل (بُعْثِرَ) لم يرد في القرآن الكريم إلاّ مرّتين، الأولى التي تناولناها آنفا، والثّانية وردت في سورة الانفطار في قوله: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾[1]، «وكلتاهما في بعثرة القبور يوم القيامة، وفيهما جاء الفعل مبنيا للمجهول، صرفا للذّهن إلى الحدث نفسه»[2] الذي هو يوم القيامة.

ومن باب دلالة الألفاظ على المعاني، ربطت"بنت الشّاطئ" بين الصّوت والمعنى، فزاوجت بين الفعل (بعثر) ذي المخارج الصّوتية المتباينة من الباء الشّفوية، إلى العين الحلقيّة، فالثّاء اللّثوية ثمّ الرّاء التي تخرج من طرف اللسان مع ما يحاذيه من لثّة الأسنان العليا، وبين الصّفات المتمايزة لأصوات الفعل(بُعْثِرَ)، فالباء مجهور شديد مستفل ومقلقل منفتح، أمّا العين فمجهورة مستفلة ومنفتحة متوسّطة، بينما تتقاطع صفات هذين الحرفين مع صفات الثّاء المتمثّلة في الرّخاوة والهمس والاستفال والانفتاح، وكلّها صفات ضعيفة تُميّز حرف الثّاء، ليختم هذا الفعل بصوت الرّاء الذي يجمع عدّة صفات منها القويّة نحو: الجهر والانحراف والتفخيم والتّكرير، والمتوسّطة كالإذلاق والضّعيفة نحو: الاستفال والتّرقيق.

بناء على التّحليل والتّوصيف لمخارج اللّفظة المتباينة وصفاتها المتمايزة، نشعر وكأنّها توحي بدلالة معيّنة، وهذا باب صوتي صِرف عالجه "ابن جنّي" في باب مقابلة الألفاظ بما يُشاكل الأصوات ووصفه بأنه «باب عظيم واسع ونهج متلئب عند عارفيه مأموم، وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر عنها، فيعدلونها بها ويحتذونها عليها وذلك أكثر مما نقدِّره وأضعاف ما نستشعره» [3]، إذ إنّ «المتبادر من مفهوم(بُعْثِرَ) في آيتي العاديات والانفطار، هو التّشتّت والتّفرّق والانتشار وما يكون عنها من حيرة وضلال، واختلاطٍ وارتباك، يوم

[1] – سورة الانفطار، الآية: 04.
[2] – بنت الشّاطئ، التّفسير البياني للقرآن الكريم، ص: ج01، ص: 116
[3] – ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص،ج02 ، ص:.157.

يكون النّاس كالفراش المبثوث »[1]، فقامت الحروف غير المنسجمة مقام الإخبار عن المواقف المخزية يوم القيامة للكافرين والجاحدين.

كما ذكرت "بنت الشّاطئ" أنّ الفعل(حُصِّلَ) لم يرد في القرآن الكريم إلاّ في هذا الموضع من سورة العاديات، رغم أنّه يمكن إيجاد مرادفات له تصبّ في نفس المعنى، نحو اطّلع، أو أُظهر إلاّ أنّ «الدلالة اللّغوية الأصيلة، أثرها في معنى (حصّل) هنا، فكلّ مايعمله الإنسان مستقرٌّ في أعماقه مجموع في صدره، حتّى يحين أوان كشفه بعد بعثرة ما في القبور للبعث والقيامة »[2]، ولهذا كان هذا الفعل أبلغ من غيره في هذه الآية.

أمّا عن أهميّة الحذف في هذه الآية فزيادة على ماذكرناه، فإنّ ثمرته تظهر بوضوح في خاتمة السّورة بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ ﴾[3]، فبعد حذف الفاعل الحقيقي (الإنسان الجحود) والإشارة إليه بالأفعال الثّلاثة السّابقة(يَعْلَمُ/بُعْثِرَ/حُصِّلَ)، فإنّ ختام السّورة يومئ إلى غطرسة هذا الصّنف من البشر، فإذا كان ربّهم «محيطا بهم من جميع الجهات، عالما غاية العلم بواطن أمورهم، فكيف بظواهرها جواهر وأعراضا، أقوالا وأفعالا، خفيّة كانت أو ظاهرة، سرّا كانت أو علانية »[4]، وهذا ما يتأتّى منه أهميّة الحذف وأثره البلاغي وصداه الصّوتي في النّصوص القرآنية الكريمة على غرار هذه الآية.

تأسيسا على ماسلف من أثر الحذف في سورة العاديات، نجد عوامل أخرى تتعانق مع هذه الظّاهرة، حيث تصنع مع الأفعال المبنية للمجهول ملمحا بلاغيا، ومشهدا تصويريا يستكنه بواطن الإنسان العميقة المتمثّلة في الجحود الظّاهري والاستيقان الباطني لهذه النّعم الرّبانية، فزيادة على الحذف نجد الإيقاع الموسيقي العام للسّورة، إذ نلحظ «فيه خشونة ودمدمة وفرقعة تناسب

---

[1] – بنت الشّاطئ، التّفسير البياني للقرآن الكريم،ج01، ص: 116
[2] – المرجع نفسه، ج01، ص: 117.
[3] – سورة العاديات، الآية: 11.
[4] – البقاعي، نظم الدّرر في تناسب الآي والسّور، ج22، ص: 219.

الجو الصّاخب المعفّر الذي تنشئه القبور المبعثرة، والصدور المحصل ما فيها بشدة وقوة، كما تناسب جو الجحود والكنود، والأثرة والشحّ الشّديد»[1]، الذي تنبئ عنه السّورة رغم قصرها، عن طريق العوامل النّحوية واللّمسات البلاغية.

[1] - سيّد قطب، في ظلال القرآن، ج06، ص: 3957.

المبحث الثّالث: ظاهرة الإيقاع في القرآن الكريم

نالت ظاهرة الإيقاع الصّوتي في القرآن الكريم عند المحدثين أهميّة كبيرة لما ينجم عنها من جماليات، تزيد النّصّ القرآني انسجاما واتّساقا، وتضفي على أسلوبه صبغة موسيقيّة تأخذ بالألباب، عن طريق التّناسق الفنّي النّاجم بين الدّالّ والمدلول، وقد تناول البلاغيون والمحدثون هذه الظّاهرة في القرآن الكريم ودندنوا حولها كثيرا، ووقفوا على أسبابها وعواملها التي تعدّ ملمحا جماليا تميّز به النّصّ القرآني.

1- مفهوم الإيقاع: لغة: عرّفه "ابن منظور" في مادّة وقع بقوله: «وقَع على الشيء ومنه يَقَعُ وَقْعا ووُقُوعا سقَطَ، ووَقَعَ الشيءُ من يدي كذلك، وأَوْقَعَه غيرُه ووَقَعْتُ من كذا وعن كذا وَقْعا، ووَقَعَ المطرُ بالأَرض ولا يقال سَقَط» [1].

وعرّفه"الفيروزآبادي"بقوله: «الإيقاع:إيقاع ألحان الغناء، وهو أن يوقع الألحان ويبنيها» [2].

من هذين التّعريفين نستنتج أنّ الإيقاع عند "ابن منظور" عامّ تضمّن معنى السّقوط أمّا "الفيروزآبادي" فكان تعريفه أدقّ وأقرب وأسلس وأعذب، لأنّه ربطه بالألحان والغناء والموسيقى. كما نبّه على نقطة مهمّة وهي الإشارة إلى بناء الألحان، وهذا ممّا له علاقة بوجدان النّفس وميولاتها، واختلاف الألحان وتنوّعها.

اصطلاحا: تنوّعت تعاريف العلماء للإيقاع قديما وحديثا، وتمايزت في تحديد مفهومه الاصطلاحي، وذلك حسب نظرة كلّ عالم للإيقاع من زاوية معيّنة، ومن هذه التّعاريف نجد مايلي:

---

[1] - ابن منظور، لسان العرب، المجلّد: 06، ج54، ص: 4894.

[2] - الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تح: مكتب تحقيق التّراث في مؤسّسة الرّسالة، مؤسسة الرسالة، بيروت (لبنان)، ط08، (1426هـ-2005م)، ص:773.

1-1- مفهوم الإيقاع عند القدامى:

أ/تعريف "ابن سينا": الإيقاع« تقدير ما لزمان النقرات، فإن اتفق أن كانت النقرات منتظمة كان الإيقاع لحنيا، واذا اتفق أن كانت النقرات محدثة للحروف المنتظم منها كلام كان الإيقاع شعريا، وهو بنفسه إيقاع مطلقا» (1).

ب/تعريف "الفارابي"(339هـ): عرّف "الفارابي" الإيقاع من منظوره بقوله : « النُّقلة على النّغم في أزمنة محدودة المقادير والنّسب» (2).

من هذين التّعريفين نستخلص أنّ الإيقاع متعلّق بالنّقرات التي تحدث بطريقة منتظمة خالية من العشوائية، يتخلّلها فواصل زمنية معتبرة، وهذا ماينتج عنه حسب "ابن سينا" الألحان أي: نغم موسيقي معيّن، أمّا حين تقترن بالصّوت اللّغوي فهذا ماينتج عنه الكلام الموزون المصطبغ باللّحن وهو ما يعرف بالشّعر؛ وقد كان "الفارابي" أكثر وضوحا في ربط الإيقاع بالنّغم والفواصل الزّمنية، الخاضعة لمقادير ونسبٍ زمنية معيّنة.

1-2- مفهوم الإيقاع عند المحدثين:

يعرّف "سوربو" الإيقاع بقوله :«الإيقاع تنظيم متوال لعناصر متغيرة كيفيا في خط واحد بصرف النظر عن اختلافها الصوتي» (3).

من خلال هذا التّعريف نلمح أنّ "سوربو" رأى أنّ الإيقاع لا يمكن أن يحدث اعتباطا بل إنّ هناك أسسا تنظّمه وتساعد على حدوثه، حيث تعمل هذه العناصر على السّير متوازية في خطّ

---

1 - ابن سينا، الشّفاء(جوامع علم الموسيقى)، تح زكريا يوسف، المطبعة الأميرية، القاهرة (مصر)، ط 01، (1376هـ-1956م)، ص: 81.

2 - الفارابي، كتاب الموسيقى الكبير، تح عبد الملك غطّاس خشبة، دار الكتاب للطّباعة والنّشر، القاهرة (مصر)، (1967م)، ص: 436.

3 - عز الدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي(عرض وتفسير ومقارنة)، دار الفكر العربي، القاهرة، ط 03، (1974م)، ص: 124.

واحد، وهذه العناصر السّبعة التي ينهض عليها الإيقاع هي: النّظام، التّغيّر، التّساوي، التّوازي، التّوازن، التّلازم، التّكرار[1].

بالتّمعّن في هذه العناصر التي ذكرها "سوربو"، ومن باب المقاربة، نلاحظ أنّها تحاكي باب ألوان البديع في العربية [2]، أي: إنّ كلاًّ من التّساوي والتّوازي والتّوازن، يقابله الجمل المسجوعة الموزونة، وقد يكون التّغيّر على مستوى أنواع الصّور البديعية المتعدّدة من طباقٍ وجناسٍ ومقابلة، وسجع وغيرها، كما لا يخفى الأثر الإيقاعي الذي يتركه التّكرار في النّسق.

وعرّف"عبد الرّحمان تيبرماسين" الإيقاع بأنّه: «انسجام الصورة مع الصوت الذي يحدث في النفس اهتزازا وشعورا بالمتعة، هذا الانسجام تحدثه العلاقة المتعدية بين الصوت والصورة، فالجذب من قبل النظر للصورة يقابله الوقع في السمع من قبل الكلمة، ونقطة التقاطع بينهما هي إحداث الأثر في النفس والإحساس بحركة الجمال التي يحدثها الإيقاع، فتحدث المتعة التي تمزج بين الصورة والسمع ويصيران كلاً واحدا» [3].

توثّب"تيبرماسين" في تعريفه هذا إلى بؤرة الإيقاع الصّوتي ووقف على عمقه الاصطلاحي إذ جمع في تعريفه هذا عدّة مفاهيم تتواشج مع الإيقاع وتتعاضد معه وتؤزّره في تبيان الدّلالة القابعة خلف أسوار الدّوال الصّوتية، فقد أثبت أنّ الإيقاع يتحقّق وجوده بتحقّق انسجام الصّوت والصّورة معا، أي: أن يكون الصّوت معبّرا عن المشهد ومترجما عنه، حتّى يترك أثره التّأثيري في نفس المتلقّي ومخيّلته.

ولعلّ هذه الوجهة كان لها بصمة في ماذهب إليه "ابن جنّي" حين ذكر دلالة الأصوات على الأفعال في باب مقابلة الألفاظ بما يُشاكل الأصوات ووصفه بأنه«باب عظيم واسع ونهج

---

1 – ينظر: عز الدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي، ص: 122، 123.

2 – المرجع نفسه، ص: 122.

3 – عبد الرحمان تيبرماسين، البنية الإيقاعية للقصيدة المعاصرة في الجزائر، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة(مصر)، ط 01، (2003م)، ص: 94.

متلئب عند عارفيه مأموم، وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر عنها، فيعدلونها بها ويحتذونها عليها وذلك أكثر مما نقدِّره وأضعاف ما نستشعره» (1)، وذلك عند تعرُّضه لمادة خَضَمَ وقَضَمَ.

استشرف"ابن جنّي" في بحثه الصّوتي في التّنقيب عن المادّة الصّوتية للّفظتين خَضَمَ وقَضَمَ، وتوصّل إلى أن العرب يستعملون الخضم لأكل الرّطب، ويستعملون القضم لأكل الصّلب، فاتّكأ على جرس الحروف وأصدائها السّمعية وبيّن أنّ العرب يستعملون الحرف الشّديد في مقابل الشّدّة، بينما يستعملون الحرف الرّخو مقابل الأعمال اللّينة، وقد علّل "ابن جني" هذا الاستعمال عند العرب على أنّه «حذواً لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث» (2)، ممّا يثبت للعرب اهتمامهم اللاّمتناهي للجانب الصّوتي في لغتهم.

وأوغل "محمّد العياشي" في تحديده لمفهوم الإيقاع بقوله: «الإيقاع هو ما توحي به حركة الفَرس في سيرِه وعدوِه، وخطوة الناقة، وما شاكل ذلك، لخضوع تلك الحركة في سيرها إلى مبادئ لا تفريط فيها هي: النسبية في الكميات، والتناسب في الكيفيات والنظام، والمعاودة الدورية، وتلك هي لوازم الإيقاع » (3).

كما كان "لمحمّد شادي" بصمة في الوقوف على ماهية الإيقاع، إذ عرّفه بقوله: «الإيقاع من أسباب الانسجام، فهو صفة صوتية تخلع على التّركيب توازنا وانسجاما، وعلى جُملِه تعادلا وتوازيا» (4)

ارتكازا على هذه التّعاريف نلاحظ بصمة جديدة في مفهوم الإيقاع لدى المحدثين تمثّلت في التّوظيف المباشر للمصطلحات الفيزيائية والنّفسية للوقوف على ماهية الإيقاع، حيث ذكر "تبرماسين"و"محمّد شادي " المصطلحات التّالية: الانسجام، الاهتزاز، الشّعور، المتعة،

1- ابن جني، الخصائص، ج02، ص: 157.

2- المصدر نفسه، ج02، ص: 158.

3 – مُحَمَّد العياشي، نظرية إيقاع الشعر العربي، المطبعة العصرية، تونس، السّنة(1967م)، (دط)، ص: 42.

4 – محمّد إبراهيم شادي، البلاغة الصّوتية في القرآن الكريم، ص: 55.

الإحساس، التّوازي، التّوازن، أمّا "محمّد العياشي" فقد وظّف: الحركة، النسبية، التناسب، النظام، وهذه المصطلحات توحي بنظرة جديدة وعميقة للإيقاع عند المحدثين، إذ تحمل هذه المصطلحات في ثناياها الإشارة إلى الحركة المنظمة للإيقاع وفاعليّته التّأثيرية في المتلقّي.

2- ظاهرة الإيقاع في التّراث العربي القديم

عُرفت لغة العرب بالموسيقى والإيقاع يهيمن عليها من جوانبها، فقد كان شعرهم مزيجا من الأسس الموسيقية على غرار الأوزان الشّعرية الخليلية، واتّسم كلّ وزن بإيقاع معيّن عن وزنٍ آخر فضلا عن ما هو معروف من البناء الإيقاعي للقصيدة العربية، المتمثّل في الضّرب والعروض والقافية والرّويّ، زيادة على ما يتخلّل القصيدة من ألوان بديعية كالجناس والطّباق، والمقابلة والتّصريع ممّا يجعل القصيدة مزيجا من الرّوافد البلاغية التي تكسبها جمالا لفظيا وتأثيرا موسيقيا يخاطب القلوب ويبعث الوجدان[*]، ف «لقد كانت آذان الجماعة تستجيب لرنين الأصوات ونغماتها في وضع ألفاظ اللّغة وتكوين بنيتها الصّوتية، ولهذا كانت عنايتها بالألفاظ أكثر من عنايتها بالمعاني، كما كان اهتمامها بموسيقية وإيقاع الكلام أكثر من عنايتها بمضمونه» [1].

تعمل التّأثيرات الصّوتية المتعدّدة الموجودة في فن البديع على تيسير الفهم وتسهيل التّلقي لدى المستمع، إذ إنّ سرد الكلام دون نظمه لا يكون أكثر تأثيرا من الكلام المزوّق، فالألفاظ المتجانسة وجرس الحروف وتناغم بناء الجمل، كلّها عوامل تعضّد ساعد البلاغة وتقوّي بنيانها كما أنّ موسيقى الشّعر تعمل على تغطية العجز -ربّما - الذي يعتري الشّاعر في نظمه، فيكون السّند البديعي نعم المعين لمطابقة اللّفظ للمعنى ، ف «البلاغيون حينما رأوا أنّ البديع وسيلة تحسين وزخرفة وتزويق، إذ الأمر عكس ذلك فما عجز عنه الشّاعر مثلا في توصيله للأفكار يكمّله هذا

*) أشرت في مدخل هذا البحث إلى بعض القصائد من الشّعر الجاهلي التي اتّسمت ببلاغتها وجمال إيقاعهاالصّوتي.

1 - كريم زكي حسام الدّين، الدّلالة الصّوتية (دراسة لغوية لدلالة الصّوت ودوره في التّواصل)مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، ط01، (1412هـ-1992م)، ص: 149.

المثير الأسلوبي (البديع) فيتوافق المعنى، بحيث يفهم المتلقّي معنى الشّاعر »[1]من قصيدته، ويدرك مرامي نظمه وفحوى كلماته في قصيدته.

وبناء على هذه الرّؤية، نستنتج أنّ المحدثين عدلوا في رؤيتهم لعلم البديع بخلاف الرّؤية التّقليدية المهيمنة، من الاقتصار على الصّنعة اللّفظية، إذ يمكن القول «بإن للبديع جانبا تداوليا تجاوز الجانب الجمالي، فالغاية لا توجد في الرّونق الذي يثيره البديعي في النّصّ الشّعري، بقدر ما يُنظر إلى المهمّة التي أدّاها هذا البديع في استمالة المتلقّي ولفت انتباهه »[2]، أي: إنّ الغاية من علم البديع عند الامحدثين لا تقتصر على إصدار النّصّ في حلّة بلاغية مزركشة فحسب، بل إنّ هذه الرّؤية تطمح إلى احتواء المتلقّي وإقحامه داخل حيثيات النّصّ البديعي.

كما لم يكن النّثر العربي بعيدا عن هذه الجمالية الموسيقية، فكما «اقترن مفهوم الإيقاع بالظّاهرة الشّعرية، بوصفها بنية نظمية وخطابا موزونا، فقد عرف المفهوم انفتاحا مشهودا على الخطابات النّثرية التي تمتاح من جماليات الأسلوب وفردوس البلاغة »[3]، وقد تجلّت هذه الموسيقى في خطب العرب ورسائلهم، بل حتّى في كلامهم المعتاد الذي يتداولونه بينهم، فقد كانوا إذا أرادوا التّلفّظ ترنّموا، وجعلوا السّجع بنقرات أواخر لفظه مطيّة للإيقاع الصّوتي في كلامهم، حتّى يُخيّل للمتلقّي في ذهنه المشاهد التي تصوّروها والرّسائل التي أرادوا إبلاغها.

ومن النّماذج النّثرية التي تجلّى فيها الإيقاع الصّوتي ماذكره أبو زيد الطّائي لمشهد هجوم الأسد بقوله: «فضرب بيديه فأرهج وكشّر، فأفرج عن أنياب كالمعاول مصقولة غير مفلولة، وفم أشدق كالغار الأخوق... ثم أقعى فاقشعرّ، ثمّ مثل فاكفهرّ، ثمّ تجهّم فازبأرّ ... ثم همهم فقرقر، ثم

---

[1] – تركي المحمّد، الحجاج وأثره القرائي على النّصّ الشّعري بحث في جدليّة التّلقّي وآليات التّأويل، أطروحة دكتوراه، إشراف: أ د زرّوقي عبد القادر، جامعة ابن خلدون، تيارت (الجزائر)، السّنة: (1437هـ-2016م)، ص: 356، 357.

[2] – المرجع نفسه، ص: 348.

[3] – بوداود براهيمي، فيزياء الحركات العربية بين تقديرات القدامى وقياسات المحدثين، أطروحة دكتوراه، إشراف:أ د مكّي درّار، جامعة السّانيا، وهران (الجزائر)، السّنة: (2011م-2012م)، ص: 157.

زفر فبربر، ثم زأر فجرجر... فأرعشت الأيدي، واصطكت الأرجل، وأطت الأضلاع، وارتجت الأسماع، وشخصت العيون، وتحققت الظنون، وانخزلت المتون»[1].

إنّ هذا التّوصيف لهجوم الأسد ارتكازا على المقوّمات الصّوتية المتمثّلة في موسيقى السّجع وإيقاعه، وجرس الحروف ووقعها، أدّت إلى تصوير المشهد كأنّه رأي العين، ولا سيما اعتماد الواصف في بدء الكلام على رويّ حرف الرّاء الذي من صفاته الاضطراب آخر الجمل، إذ إنّه يومئ إلى«التّكرير، لارتعاد طرف اللّسان عند النّطق بها »[2]، محاكاة للجوّ المضطرب الذي هيمن على موقف هجوم الأسد، ومقاربة لعملية الكرّ والفرّ أثناء هجومه الشّرس عليهم

كما نلمس شدّة الموقف من خلال الحروف المجهورة والشّديدة المهيمنة على النّصّ، فقد أكثر النّاصّ منها على غرار: الباء، الجيم، التّاء، الهمزة، و القاف، واشتمال هذه الحروف على ثلاثة منها تتّصف بالقلقلة (الباء، الجيم، والقاف) ذات النّبرة القويّة التي تنبئ عن الجلبة في ذاك الموقف العسير، ممّا يمكّننا من القول بأنّ «لتذوّق الحروف عند نطقها أهميّة كبيرة »[3] في الوقوف على استكشاف ماوراء جرسها وقوّة أدائها.

لقد كان لجرس الحروف إيقاعا مميّزا موحيا لتلك الهجمة الشّرسة من الأسد تجاه البشر حيث ساهم في هذا المنحى الإيقاعي ملمح صوتي آخر، تمثّل في الجمل المسجوعة المتساوية، ممّا استطاع صناعة نغم موسيقي متوازنٍ معينّ، ناجمٍ عن الجمل المسجوعة القصيرة وكأنّها تحاكي قِصر نَفَسِ المهجوم عليهم، إذ يمكن القول بأنّ «الطّائيَ توخّى جملة من الاختيارات الصّوتية عمد إلى تكرارها وتطريزها، ساهمت في التّجاوب الخفيّ لموسيقى النّسق »[4] حتّى يحمل المتلقّي من مقام السّماع إلى مقام المشاهدة والإحساس بلحظات الذّعر والخوف وحبس الأنفاس، وهذا ما دفع

---

1 – جرجي زيدان بتصرّف، تاريخ آداب اللّغة العربيّة، مؤسّسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، مصر، (2013م)، (دط)، ج01، ص: 61.

2 – أحمد زرقة، أسرار الحروف، ص: 95.

3 – المرجع نفسه، ص: 95

4 – بوداود براهيمي، فيزياء الحركات العربية بين تقديرات القدامى وقياسات المحدثين، ص: 160.

بالمتلقّي سيدنا "عثمان بن عفّان " إلى القول : «اسكت قطع الله لسانك فقد أرعبت قلوب المسلمين» [1]بقوّة أسلوبك وشدّة ألفاظك.

بناء على هذه الرّؤية نستخلص تجذّر الإيقاع في خطب العرب وكلامهم عموما، فالمظاهر البديعية من جناس وسجع ومقابلة وغيرها، وما يتخلّلها من جرس في حروفها كفيل بتيسير توصيل الرّسالة إلى القلوب، وتحريك الوجدان، وهذا ما لمسناه في وصف "الطّائي"لهجمة الأسد، حيث«إنّ الجمالية الأسلوبية التي يؤدّيها الإيقاع في النّصّ، يكرّسها الانسجام والتّجانس الذي يجمع بين الوزن المقطعي في تراكيبه، والتّزمين المنظّم في الوقفات الفاصلة » [2]، ممّا يثير حفيظة المتلقّي ويحمله دون شعور على معايشة هذه اللّحظات المقصوصة.

3- ظاهرة الإيقاع في القرآن الكريم عند المحدثين

اهتمّ المحدثون بظاهرة الإيقاع ولا سيما في القرآن الكريم اهتماما بالغا، وأسهبوا في فضّ مغاليقه واستكشاف أسراره في النّصّ القرآني الكريم، إذ انصبّت جهودهم حول قضية الإعجاز في القرآن الكريم، التي يعدّ الصّوت المحور الأساس فيها، باعتباره «من بين المحسوسات يختصّ بحلاوة، من حيث هو صوتٌ، عن نوعٍ تستلذّه الحاسّة » [3] المتمثّلة في السّمع، ومن بين المحدثين الذين أوْلوا للإيقاع الصّوتي في القرآن الكريم أهميّة كبرى نجد:

أوّلا: ظاهرة الإيقاع عند "مصطفى صادق الرّافعي": [*]

بما أنّ "الرافعي" ألّف في إعجاز القرآن وبلاغته فلا ضير أنّه استشرف في البحث عن سرّ إيقاع النّصّ القرآني وموسيقيته العجيبة التي لايقوم أمامها نضير؛ فبعد أن أشار إلى رؤية القدامى

1 – جرجي زيدان بتصرّف، تاريخ آداب اللّغة العربيّة، ص: 61.

2 – بوداود براهيمي، فيزياء الحركات العربية بين تقديرات القدامى وقياسات المحدثين، ص: 160.

3 – الفارابي، كتاب الموسيقى الكبير، ص: 04.

(*) –الرّافعي هو مصطفى صادق بن الشّيخ عبد الرّزاق كبير القضاة الشّرعيين بمصر، من مواليد 1881م، أتمّ حفظ القرآن وهو دون العاشرة من عمره، وكان شاعرا له ديوان فيه، من مؤلّفاه: حديث القمر، رسائل الأحزانن السّحاب الأحمر، أوراق الورد، وسطع نجمه في كتاب تاريخ آداب العرب في ثلاثة أجزاء، وإعجاز القرآن والبلاغة العربيّة، وافته المنيّة عام1937م

من المتكلّمة والمفسّرين للإعجاز القرآني، أبان عن رأيه ووجهته المحايثة بقوله: «إنّ القرآن معجزة بالمعنى الذي يفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه ...فهو أمر لا تبلغ الفطرة الإنسانية منه مبلغا ... وإنّما هو أثر كغيره من الآثار الإلهية يشاركها في إعجاز الصّنعة وهيئة الوضع، وينفرد عنها بأنّ له مادّة من الألفاظ كأنّه مفرغة من ذوب تلك الموادّ كلّها وما نظنّه إلا الصّورة الرّوحية للإنسان ...فالقرآن معجز في تاريخه دون سائر الكتب، ومعجز في أثره الإنساني، ومعجز كذلك في حقائقه ... وإنما مذهبنا بيان إعجازه في نفسه، من حيث هو كلام عربي، لأننا إنما نكتب في هذه الجهة من تاريخ الأدب دون جهة التأويل والتفسير» [1].

من تعريف"الرافعي"نستخلص ما يلي:

أ/الإشارة إلى الأسلوب القرآني المتميّز الذي بهر العرب أثناء نزوله، رغم ما كانوا عليه من سبك الكلام، وتنوّع الإيقاع، وجزالة الألفاظ.

ب/ البحث عن فكّ شفرة هذا الأسلوب التّأثيري الذي نزل وفقا لقوانينهم الصّوتية واللّفظية والتّركيبية ، إلاّ «أنّهم ورد عليهم من طرق نظمه ووجوه تركيبه ونسق حروفه في كلماته وكلماته في جملها، ونسق هذه الجمل في جملته ما أذهلهم عن أنفسهم من هيبة رائعة وروعة مخوفة وخوف تقشعر منه الجلود» [2].

ج/ محاكاته للنّظم عند "عبد القاهر الجرجاني"، فقد أشار إلى النّظم الذي دندن حوله "عبد القاهر الجرجاني" كثيرا، فقد أشار "الرافعي" إلى عمليّة التّواشج والبناء اللّغوي الذي لا يقبل الانفصام ولا الانفصال التي ذكرها "الجرجاني"، حيث رأى أنّ صناعة الكلام وبناؤه توازي صنعة الذّهب والفضّة، من صهرها وإخراجها عبر سبائك منسجمة، ممّا دفع "الرافعي" إلى محاكاة النّظم عند الجرجاني، ولكن من منظوره، فوقف عند العربية، واستكنه حروفها وأصواتها وجمالها وروعة إيحائها ودقة تصويرها، ما يتطابق مع نظرة المحدثين والمعاصرين له.

[1] – مصطفى صادق الرّافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، ص: 156، 157.

[2] – المرجع نفسه، ص: 189.

1- الإيقاع عند "الرّافعي" وتجلياته في القرآن الكريم: من خلال تقفّي بعض نصوص كتاب "إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة " نرى تعرّض "الرافعي" لمسألة الإيقاع الصّوتي في القرآن الكريم، وقد قامت دراسته لفكرة الإيقاع على أساس المستويات اللّسانية الثّلاثة وهي:

أ- الحروف وأصواتها.

ب- الكلمات وحروفها.

ج- الجمل وكلماتها.

بناء على هذا التّأصيل من "الرّافعي" يمكن الوقوف على نظرته للإيقاع كالآتي:

1-1- الإيقاع الصّوتي على مستوى الحروف: اهتمّ المؤلِّف بالإيقاع على الحروف، وبيّن أهميّة جرس الحروف ووقف على أسرار إيقاعها، كما بيّن أنّ القرآن الكريم كان الرّافد المرجعي للتّأسيس والتّأصيل الصّوتي عند العرب، إذ إنّ «هذه المخارج والصّفات إنّما أُخذ أكثرها من القرآن الكريم لا من كلام العرب وفصاحتهم» [(1)]، ومن هنا يمكننا الوقوف على أهمّ اللّمسات التي ارتهن إليها في دراسته الصّوتية للقرآن الكريم كالآتي:

أ/ التّلوينات الصّوتية في القرآن الكريم: رأى "الرّافعي" أنّ المادّة الصوتيه للقرآن الكريم تعدّ «ضربا خالصا من الموسيقى اللغوية ، في انسجامه واطّراد نسقه ، واتّزانه على أجزاء النّفس مقطعا مقطعا، ونبرة نبرة، كأنّها توقّعه توقيعا ولا تتلوه تلاوة»[(2)].

من خلال هذا القول نلاحظ أن "الرّافعي" يشير إلى أهميّة التّلوينات الصّوتية في القرآن الكريم (النّبر والتّنغيم والوقف)، فقد رأى أنّ العرب كانت تجنح أحيانا إلى التّغيّرات الصّوتية وفق ما يقتضيه المقام الذي قام فيه الشّاعر من فخر أو حماسة أو غزل؛ وبما أنّ القرآن الكريم نزل بلسانهم، فإنّه اشتمل على النّغم عموما وما يتسبّب في حدوثه عموما، و لذلك رأى "الرافعي" أنّ الأصوات

---

[1] - مصطفى صادق الرّافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، ص:212

[2] - المرجع نفسه، ص:212

في القرآن الكريم تُنزّل منزلة النّبرات الموسيقية المنتظمة، حتّى تتوافق مع اللّحن الموسيقي العام الذي تتكوّن منه الآية القرآنية، مع مراعاة مخارج الحروف وصفاتها.

نفس الفكرة التي عالجها "الرافعي"ذهب إليها "عبد الله درّاز " أيضا، فقد وصف موسيقى القرآن بالجمال بقوله: «هذا الجمال التّوقيعي في لغة القرآن لا يخفى على أحد ممّن يسمع القرآن»[1]، فيتملّكه جمال الأنساق الصّوتية وتموّجاتها النّاشئة عن النّبر والتّنغيم، إذ بهما يتحقّق الجمال الصّوتي وكمال البلاغة والإعجاز القرآني.

ب/التّكامل بين المخارج والصّفات والدّلالة: [*] لا شكّ أنّ النّظم الموسيقي العجيب الذي تميّز به القرآن الكريم ناجم عند "الرّافعي" من التّكامل بين المخارج والصّفات من جهة وبين أداء هذه الصّفات من جهة أخرى، كالجهر والهمس، والشّدّة والرّخاوة، والتّفخيم والتّرقيق، وكذلك التّفشّي والتّكرير، ولعلّ "الرّافعي" من هذا المنظور يشير إلى باب الأصوات و تذوّق الحروف وأثرها الدّلالي بقوله: «ولقد كان هذا النّظم عينه هو الذي صفّى طباع البلغاء بعد الإسلام، وتولّى تربيّة الذّوق الموسيقي فيهم»[2]، ممّا انعكس في خُطبهم وبلاغتهم.

[1] – عبد الله درّاز، النّبأ العظيم ، دار القلم، الكويت، ط01، (1386هـ-1957م)، ج01، ص: 102.

*)- إذا كان البلاغيون دندنوا كثيرا حول مخارج الحروف وصفاتها وأثرها في حسن بناء نسق اللّفظة، وجعلوا للمخارج والصّفات شروطا أهمّها: تباعد المخارج وتمايز الصّفات، إلاّ أنّ النّصّ القرآني نجده ينقض هذه المعيارية في بعض آياته على عرار قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، سورة هود: الآية: 69، فقد اخترقت هذه الآية بمخارجها المتقاربة لحرف الميم وصفاته أسس البلاغيين ومرتكزاتهم الصّوتية، لاحتوائها على سبع ميمات في جزء من الآية(وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ) فضلا عن الميمات الأخرى في الآية نفسها، ممّا يجعل أسلوب القرآن الكريم فوق الدّراسة الأسلوبية عموما، إنّ من أسرار هذه الآية في أسلوبها أنّها تعمل على جذب المتلقّي ولفت انتباهه عن طريق هذه الميمات المتراصّة المتلاحمة، إلى محاكاة ذلك التّراصّ والتّلاحم من المؤمنين بنوح عليه السّلام وسط المجتمع المائج بالكفر والطغيان.(ينظر البلاغة الصّوتية، ص: 53.

[2] – مصطفى صادق الرّافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، ص:212.

إنّ إعطاء الحروف حقّها ومستحقّها في تلاوة القرآن الكريم، هي ممّا يوطّد لمظاهر الإعجاز مكانه، فلا ريب أنّ مخارج حروف القرآن وصفاته إن صادفت القارئ الحذق كانت القراءة تصل إلى أعماق القلب وتخاطب الوجدان، فكلّما طرقت الآذان «جواهر حروفه خارجة من مخارجها الصّحيحة، فاجأتك منه لذّة أخرى في نظم تلك الحروف ورصفها وترتيب أوضاعها في ما بينها هذا ينقر وذاك يصفّر، وثالث يهمس ورابع يجهر، وآخر ينزلق عليه النّفَس، وآخر يحتبس عنده النّفَس، وهلمّ جرّا »[1]، ممّا يجعل أسلوب القرآن مميّزا عن غيره من الأساليب، لا تعتريه العيوب النّاشئة عن المخارج كالثّرثرة و الوحشية، أو الثّقل والتّوعّر[*].

ج/الصّوت والانفعالات النّفسية : ذهب "الرّافعي" إلى أنّ الصّوت يعدّ مصدر الانفعالات النّفسية لقارئ القرآن، فالغنن أو الشّدّة أو اللّين وغيرها من الصّفات، أرجعها "الرّافعي" إلى جرس الحروف والتّنوّعات الصّوتية المختلفة في القراءات القرآنية، إذ المعوّل عليه لديه أنّ تلاوة القرآن مع حسن الأداء من أهمّ العوامل التّأثيرية في النّفس البشري .ة، إذ بهذه الأصداء الصّوتية تهتـزّ المشاعر ويثار الوجدان، ولو كان المتلقّي من غير العرب، ممّا يبيّن أنّ فاعليّة الموسيقى القرآنية تتجاوز اللّغات والانتماءات[2].

د/الفواصل القرآنية وكمال الموسيقى القرآنية : عدّ "الرّافعي" الفواصل القرآنية من تمام الموسيقى القرآنية وكمالها وأنّها من أسرار الإيقاع الموسيقي في القرآن، وبيّن بأنّ جلّها ينتهي بالميم والنّون، باعتبارهما أساس الأصوات الموسيقية، والأنسب للمدود، وما عدل النّصّ القرآني عن فاصلتي الميم والنّون إلاّ إذا كان البناء الصّوتي العامّ للسّورة أو الآية القرآنية يرتكز على فضاء صوتي معيّن لا يتلائم مع ثنائية النّون والميم[3].

---

[1] – عبد الله درّاز، النّبأ العظيم، ص: 103، 104.

*) تطرّقنا إلى أهميّة المخارج والصّفات وأشرنا إليها في المبحث 01 من الفصل 02 أثناء الحديث عن أسباب الفصاحة.

[2] – ينظر: مصطفى صادق الرّافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، ص: 216.

[3] – المرجع نفسه، ص: 217.

ولو تأمّلنا قول "الرّافعي"في الفواصل لرأينا ماذهب إليه في القرآن جليا، فختام جلّ الآيات القرآنية ولا سيما الطّوال منها يرتهن إلى فاصلتي الميم والنّون، فسورة البقرة -مثلا-رغم أنّها أطول سورة في القرآن (286) آية، إلاّ أننا نلاحظ هيمنة هاتين الفاصلتين عليها باستثناء تخلّلها بثلاث فواصل أخرى هي: الدّال، الرّاء، الباء، فقد كان نصيب فاصلة النّون مائة واثنان وتسعون (192) آية، وفاصلة الميم في أربع وخمسين (54) آية[1].

وهذا بخلاف السّور القصار، فنلحظ فيها تنوّع الفواصل القرآنية من سورة لأخرى، ولا تكون هذه الفواصل الاستثنائية في غالبها إلا منتهية«بحرف قوي يستتبع القلقلة أو الصّفير أو نحوهما، ممّا هو ضروب أخرى من النّغم الموسيقي» [2]، على غرار سورة المسد المنتهية بفاصلتي الباء والدّال، وسورتي الطّارق والعلق المنتهية فاتحة أوائلهما بفاصلة القاف، وهي حروف القلقلة.

واعتمادا على هذه المرتكزات فلو وردت فواصل أخرى غيرها لزاحمتها هاتين الفاصلتين، مثلما هو الشّأن في سورة النّساء، فآياتها مائة وستة وسبعون (176) آية، نصيب فاصلة الميم ستّ وخمسون(56) آية، وفاصلة النّون سبعة عشر(17) آية، إلاّ أنّ ما يشدّ الانتباه أنّ هذه الفواصل في سورة النّساء وإن كانت تنته ي بالمقطع الصّوتي المفتوح (ص ع ع)، إلاّ أنّ الخاصيّة الموسيقية لم تغادرها، ممّا يجعل هذه الثّنائية الصّوتية (فاصلتي الميم والنّون) تمثّل «طريقة الاستهواء الصّوتي في اللّغة»[3]، وهذا من بعض أسرار تملّك القرآن للسّامعين بنغمه وجرس حروفه، لأنّه «راعاها تحقيقا لجمال النّظم، ورعاية للجرس الصّوتي والمشاكلة اللّفظية »[4]، التي دأب عليها العرب في نثرهم ونظمهم معا.

[1] - ينظر: أحمد مختار عمر، لغة القرآن، ص: 133.

[2] - ينظر: مصطفى صادق الرّافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، ص:217

[3] - المرجع نفسه، ص: 217

[4] - أحمد مختار عمر، المرجع السّابق، ص: 133.

هـ/اختلاف موسيقى القرآ ن الكريم عن موسيقى الشّعر : وقف "الرافعي" عند المفارقة بين اللّونين الموسيقيين، موسيقى القرآن وموسيقى الشّعر العربي، فرغم أنّ إيقاع الشّعر العربي لا يُستهان به لاشتماله على بحور متباينة في أوزانها، ومتمايزة في أذواقها، إلاّ أنّ إيقاع القرآن الكريم وموسيقاه لاتمتّ إلى الشّعر بِصلة، وقد نفى الله عزّ وجلّ الشّعر عن نبيّه عليه السّلام في عدّة آيات منها قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾[1]، فلو انبرى من يريد مضاهاة التأليف القرآني بموسيقيّته المتميّزة ما استطاع لذلك سبيلا.

وقد ذهب "عبد الله درّاز" إلى تعضيد هذه الوجهة المتميّزة لموسيقى القرآن، فرأى لو أنّ مجوّدا «انتبذ منه مكانا قصيّا لا تسمع فيه جرس حروفه، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها، ثمّ ألق سمعك إلى هذه المجموعة الصّوتية ...فستجد نفسك منها بإزاء لحنٍ عجيبٍ غريبٍ، لا تجده في كلام آخر لو جُرّد هذا التّجريد، وجُوّد هذا التّجويد »[2]، ممّا يجعلنا نستنتج أنّ إيقاع القرآن له ميزات خاصّة هيّأته للتّبوّء على عرش التّميّز الموسيقي.

وبناء على هذه الوجهة ذكر "الرافعي" أنّ موسيقى القرآن الكريم لا تخضع لحركات الأوزان الشّعرية وسكناته، بل إنّ وزنه بخلاف الأوزان الشّعرية التي تهيمن على الميزان الشّعري العربي، رغم أنّه لا يخرج عن طريقة البناء اللّغوي عند العرب سواء من المقاطع الصّوتية، أو الألفاظ والجمل، إلاّ أنّ الإيقاع الشّعري يتميّز بالثّبوت في عمومه، فالقصيدة إن بدئت ببحر معيّن، فإنّ إيقاع هذا البحر سيسري على جميعها «فلا يلبث سمعك أن يمجّها، وطبعك أن يملّها، إذا أعيدت وكرّرت عليك بتوقيع واحد، بينما، بينما أنت من القرآن أبدا في لحنٍ متنوّعٍ متجدّد »[3]، لا يدع للملل والنّفور مكانا.

---

[1] - سورة يس، الآية: 69.

[2] - عبد الله درّاز بتصرّف، النّبأ العظيم، ص: 102.

[3] - المرجع نفسه، ص: 102

1-2- الإيقاع الصّوتي على مستوى ألفاظ القرآن: بما أن المستوى الصّوتي في القرآن – مثلما أسلفنا- تفرّد بخصائص تميّيزه عن غيره من الكلام، فلا شكّ أنّ المستوى اللّساني الثّاني (الصّرفي) يكون متميّزا عن غيره أيضا، وقد ارتكز الرّافعي في باب الألفاظ والمفردات القرآنية على ثلاث أسس هي: (1)

أ/صوت النّفس: وسمّاه بالصّوت الموسيقي، المقصود به عنده تلك المكوّنات المتميّزة التي تتألّف منها اللّفظة، وهي: الحركات والسّكنات، المخارج والصّفات، أي: تلك الدّوال الصّوتية المكوّنات للّفظة التي تجعلها ذات دلالة عميقة إيحائية، كفيلة بالإخبار عن الأمور الكثيرة ، أي: إنّ صوت النّفس هو«الصّوت الموسيقي الحاصل من تنظيم الحروف والكلمات ومخارجها، بحيث تُظهر ارتباط المعاني بشكل متناسب »(2)، حيث تعمل هذه الحروف بانسجامها على ترابط المعاني ووضوحها، من خلال تناسبها وانسجامها، وهذا ملمح من ملامح الفصاحة العربيّة.

ب/صوت العقل: عرّفه "الرّافعي" بقوله: «صوت العقل هو: الصّوت المعنوي الذي يكون من لطائف التّركيب في جملة الكلام، ومن الوجوه البيانية التي يُداور بها المعنى، لا يخطئ طريق النّفس من أيّ الجهات انتحى إليها »(3)، حيث نلاحظ أنّ "الرّافعي" سمّى صوت العقل بالصّوت المعنوي، ولعلّ المقصود به عنده حسن الانتقاء للّفظة اعتمادا على الجانب العقلي، الذي يقتنص من الألفاظ ما يتوائم وحسن التّركيب مع اللّمسة البيانية التي يتأتّى عنها اللّفظة الموحية في ذاتها.

من خلال هذا التّعريف نلمس بصمة المقاربة بين "الرّافعي" و"عبد القاهر الجرجاني"، في حديثهما عن الفصاحة والبلاغة في القرآن الكريم، فقد أشار هذا الأخير عند حديثه عن النّظم أنّه

1 - مصطفى صادق الرّافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، ص: 220.

2 - السّيّد رضا مؤدّب، إعجاز القرآن، تعريب قاسم البيضاني، دار المصطفى صلّى الله عليه وسلّم، المملكة العربيّة السّعودية، ط01، (1386هـ- 1967م)، ص: 109.

3 - مصطفى صادق الرّافعي، المرجع السّابق، ص: 221.

راجع إلى أثر العملية الذّهنية وحسن ترتيب المعاني في النّفس، حتّى ينتج اللّفظ المناسب للمعنى الملائم لدلالته، فقال: «النظم ليس شيئا غير توخي معان النحو بين الكلم، وأنك ترتب المعاني أولا في نفسك، ثم تحذوا على ترتيبها الألفاظ في نطقك» [1]، حتّى تضمن مواءمة الألفاظ لآثار المعاني، فالعمليّة الذّهنية هي صدى العقل والقوّة الفاعلة على حسن بناء النّسيج اللّغوي.

ج/صوت الحسّ: وعرّفه"الرّافعي" بعد الإشارة إليه بأنّه الأعظم شأنا من سابقيه بقوله : صوت الحسّ «لا يكون إلاّ من دقة التصور المعنوي، والإبداع في تلوين الخطاب، ومجاذبة النفس مرة وموادعتها مرة، واستيلائه على محضها بما يورد عليها من وجوه البيان، أو يسوق إليها من طرائف المعاني، يدعها من موافقته والإيثار له كأنها هي التي تريده وكأنها هي التي تحاول أن يتصل أثرها بالكلام، إذ يكون قد استحوذ عليها وانفرد منها بالهوى والاستجابة» [2].

من خلال هذا التّعريف نستخلص أنّ صوت الحسّ يتأتّى من العوامل الآتية:

أ/ دقة التصور المعنوي.

ب/ الإبداع في تلوين الخطاب.

ج/ مجاذبة النفس مرة وموادعتها مرة.

د/ التّفنّن في تلوين وتعديد وجوه البيان.

إنّ أهميّة صوت الحسّ التي وقف عندها "الرّافعي" تعدّ من أهمّ العوامل البلاغية والمناحي الإعجازية، «فكلّما روعي هذا الجانب في الكلام ترتفع بلاغة الكلام، وتتقوّى بناء التّحتية، وهو بمنزلة روح الكلام وأساس إعجازه» [3]، فإذا كان العرب استطاعوا انتقاء الأصوات وتفعيل جرسها

---

1 – عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 454.

2 – مصطفى صادق الرّافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، ص: 221.

3 – السّيّد رضا مؤدّب، إعجاز القرآن، ص: 109.

وتوصّلوا إلى حسن التّوظيف اللّفظي والتّركيبي، فإنّهم نأوْا عن مقارعة صوت الحسّ وجانبوه، «فقد خلت لغتهم من صريحه، وانفرد به القرآن» [1].

إنّ القدرة على وصف أيّ شئ ليس بالهيّن، لأنّ هذا الوصف يحتاج إلى دقّة عالية في البيان حتّى يتناسب أسلوب الوصف مع الموصوف، وتصير الألفاظ بجرسها دالّة على المعاني، ولا يخفى أنّ العرب تأمّلوا القرآن «آية آية، وعشرا عشرا، وسورة سورة، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة يُنكر شأنها أو يُرى غيرها أصلح » [2] يمكن وضعها مكانها، وقد جرّب بعضهم التّأليف على نحوه فارتدّوا خائبين.

إنّ محاكاة هذه المرتبة تحتاج إلى درجة لا متناهية من الفصاحة والبلاغة، حتّى يتسنّى مطابقة المباني للمعاني وفق الذّوق العربي المهيمن آنذاك، ولذلك «انصبّت عناية القرآن العظيم بالاهتمام في إذكاء حرارة الكلمة عند العرب، وتوهّج العبارة في منظار حياتهم »[3]، وعليه، فأيّ كلام لا يكون جديرا بهذه الخصيصة «إلاّ أن يكون خلقا روحيا، وكأنّه تمثيل بألفاظٍ لخلقة النّفس في دقّة التّركيب وإعجاز الصّنعة، ومؤاتاة الطّبعة المعنوية »[4]، وهذه الميزة لا توجد إلاّ في أسلوب القرآن الكريم لقدرته اللاّمتناهية في توظيف الأساليب البلاغية التي تناسب المخاطبين كلّ زمان.

استنادا على هذه الأسس الثّلاثة المكوّنة للّفظة القرآنية، يمكننا القول بإنّ "الرّافعي" أشار إلى التركيب الحرفي للكلمة، ومنه نفذ إلى الإيقاع الصوتي للحروف وما قد يوحي به من معان ودلالات كامنة في النفس والعقل والحس معا، ممّا يجعل ألفاظ القرآن ذات تأثير عظيم، مثلما نبّه على ذلك من قبله ابن جنّي بقوله: «إنّ كثيرا من هذه اللّغة وجدته مضاهيا بأجراس حروفه

[1] – مصطفى صادق الرّافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، ص: 221.

[2] – مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ص: 142

[3] – محمّد حسين علي الصّغيّر، الصّوت اللّغوي في القرآن الكريم، ص: 169.

[4] – مصطفى صادق الرّافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، ص: 221

أصوات الأفعال التي عبّر بها عنها » [1]، وهذا من تمام الإشارة إلى أهميّة الصّوت التي وقف عندها "الرّافعي" مبيّنا بذلك أهمية اللّفظة القرآنية وتموقعها في موضعها اللائق بها، بعد أن بين الدقة في وضع الحروف فيها بما يتناسب والمعنى المراد، زيادة على تخليصها من شوائب النّقص التي يمقتها اللّسان العربي.

ومن هذه الألفاظ التي تندرج تحت هذا القالب عند "الرّافعي"، لفظة (النُّذر) في سورة القمر، وما ينضوي تحتها من الدّلالات الصّوتية والإيحاءات المعنوية، التي لا تترشّح أيّ لفظة أخرى لأخذ مكانها، فرغم مايعتري هذه اللّفظة من الثّقل النّاجم عن تتابع الضّمّات على حرفي النّون والذّال، إلاّ أنّنا نجدها رغم ثقلها البنوي متّسقة مع ألفاظ الآية الأخرى، منسجمة مع الأصداء الصّوتية للحروف الأخرى، ومساوقة لهم في النّظم الموسيقي والبناء الصّرفي واللّغوي[2].

لقد توالت هذه اللّفظة في هذه السّورة عدّة مرّات لتوحي بجرسها على دلالة معيّنة، حيث يتجلّى للصّوائت دورها الفعّال في استكشاف البنية الجوهرية للبلاغة القرآنية، وعليه «فإن الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معا فضلا عن جسأة هذا الحرف ونبوِّه في اللسان وخاصة إذا جاء فاصلة الكلام» [3] لصفاته الخاصّة، فالرّاء حرف ذلقي سهل المخرج يتميّز بالاضطراب أثناء النّطق، ويتساوق مع فاصلة الرّاء في الآيات الأخرى للسّورة، ممّا يشكّل جرسا خاصّا يميّز فضاء السّورة عموما.

ممّا يبيّن دلالة فاصلة حرف الرّاء التي تجري مجرى لفظة (النُذُر)من حيث التّشابه في الفاصلة القرآنية لفظة (مُنْقَعِرٍ) في قوله تعالى: ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾[4]، حيث يتبدّى من خلال مادّتها الصّوتية المتمثّلة في هيمنة الحروف المجهورة على اللّفظة كلّها، فضلا عن

---

1 – ابن جنّي، الخصائص، ج01، ص: 65.

2 – ينظر: مصطفى صادق الرّافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، ص: 227.

3 – المرجع نفسه، ص:227.

4 – سورة القمر، الآية: 20.

الحرف الشّديد (القاف) المتبوع بالحرف المتوسّط(العين)، محاكاة هذه المادّة الصّوتية للّفظة الواردة على وزن (منفعل) «الأفعال الظّاهرة للعيون، كالكسر والقطع والجذب »[1]، وهذا من باب التّنبيه على شدّة العذاب المرسل على قوم عاد.

وبما أنّ الدّقة الأسلوبية في التّعبير هي ميزة من مزايا القرآن الكريم، فإنّ ورود هذه اللّفظة على هذا النّسق أبلغ في الدّلالة من غيرها، فرغم وجود نظائرها في القرآن الكريم على غرار قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[2]، وأنّها وردت في نفس السّياق أي: أثناء الإخبار عن قوم عاد، إلاّ أنّ مادّة (قعر) أبلغ لأنّها تستعمل في الدّلالة على المبالغة في الحفر حتّى بلوغ الأعماق، وهنا تتضمّن الآية «الإشارة إلى أنّ الرّيح صرعتهم صرعا تفلقت منه بطونهم، وتطايرت أمعاؤهم، وأفئدتهم فصاروا جثثا فُرغا، وهذا تفظيع لحالهم ومثلة لهم لتخويف من يراهم »[3]، وهكذا يتأتّى تصوير المشاهد والوقوف على الحقائق من خلال قوّة الصّوت.

1- 3 الإيقاع الصّوتي على مستوى الجمل: تناول "الرّافعي" أيضا تركيب الجمل وبيّن أثر العوامل النّفسية في تأليفها، وأثر الحسّ البلاغي في تحويل المشاهد الطّبيعية إلى مشاهد مرئية فالجملة عنده هي«مظهر الكلام، وهي الصورة النفسية للتأليف الطبيعي، إذ يحيل بها الإنسان هذه المادة المخلوقة في الطبيعة إلى معاني تصورها في نفسه، أو تصفها حتى ترى النفس هذه المادة المصورة وتحسها »[4]، حتّى كأنّها رأي العين ممّا لم يستطع العرب المخاطبون به آنذاك محاكاته

[1] - بلقاسم بلّعرج، لغة القرآن الكريم دراسة لسانية للمشتقّات في الرّبع الأوّل، دار العلوم للنّشر والتّوزيع، عنّابة (الجزائر)، ط01، (1426هـ-2005م)، ص:103.

[2] - سورة الحاقّة، الآية: 07.

[3] - طاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، ج27، ص: 194.

[4] - مصطفى صادق الرّافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، ص:236..

التّأليف على نسقه، إذ يمكن القول بأنّ «النّظم القرآني البديع بهر العرب بحسن مبادئ الآيات والمقاطع وتماسك الكلمات واتّساقها في التّراكيب» [1] ممّا لم يستطيعوا مجاراته أو محاكاته.

ممّا لا يختلف عليه اثنان أنّه لا يوجد أبلغ من الجودة في التّركيب مع قوّة التّصوير من القرآن الكريم، ولذا انكبّ جهد "الرّافعي" على سبر أغوار التّركيب وبناء الجمل في القرآن الكريم، والوقوف على مدى التّناسق بين آياته، فالظّاهرة البلاغية عنده لا تتحقّق في الكلام حتّى تتوافق المعاني مع المباني، وتصير الألفاظ المكوّنة للجمل دالّة عليها، حتّى يكون أثر الكلام في النّفس بليغا يحاكي درجة النّظم في رصفه وصفائه، ولا يتدنّى عن هذه السّمة الإعجازية عند البلاغيّين «على اختلاف عصورهم وأسبابهم المتلاحقة، كأنهم معه طبقة واحدة وفي طوق واحد من العجز يعنيهم طلبه، ويعنتهم إدراكه، ويعرفون تركيبه، ثم لا يجدون له مأتى من النفس ولا وجها من القدرة، فذلك هو الكلام المعجز» [2].

ومن الأمور المهمّة التي دندن حولها "الرّافعي" مسألة القوّة التّأثيرية للنّظم القرآني من خلال بناء ألفاظه ونسيجها حتّى تتوافق مع معانيه، وقد كان القرآن الكريم يستهوي القلوب ويستميلها بقوّته الصّوتية التّأثيرية، فلا يكاد سامع يسمعه إلاّ وأُعجب بموسيقاه النّاجمة عن جرس حروفه وكلماته، وذلك لأنّ كلمات آياته تتملّك «الحواس في أنواع إدراكها وبين النّفس، فلا يخطئ التّأثير ولا ينافر جهة من جهاته ولا يعدو أن يبلغ من الفؤاد مبلغه » [3]، فتنحني النّفس بإجلالٍ لقوّة أسلوبه الضّاغط حرفا ولفظا وتركيبا.

من النّماذج القرآنية التي استوقفت "الرّافعي" وسمقت نحو معاني الإعجاز الصّوتي والبلاغي عموما قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ

[1] – مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ص: 142.
[2] – مصطفى صادق الرّافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، ص: 237.
[3] – المرجع نفسه، ص:237.

أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا * رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا * وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾[1]، فقد أشار إلى نظم هذه الآية وإعجازها البلاغي الفريد الذي ينشد كيفية بناء المجتمعات الرّاقية.

لا ريب أنّ من تمعّن في هذه الآيات العظيمة ينتابه الثّقل الذي اصطبغت به ألفاظها رغم سهولتها، ممّا يوحي بأنّ هذا الخطاب القرآني يحمل في طيّاته أسس البناء الحضاري الرّاقي يستنتجه القارئ بحسّه عن طريق إيحاءات ألفاظ الآيات القرآنية، حيث إنّ من «قرأ هذه الآيات البيّنات ثمّ تدبّرها وأحسن حملها وتأويلها ولم يكن كدِر الحسّ ولا مريض الذّوق، فإنّ أحرفها تسطع من نور الأخلاق بما يرى فيه أمّة تضجّ في الحضارة وتختبط، ومدنيّة تضطرب في أهلها وتختلط»[2]، حيث توالت الآيات متتابعة ومتقاربة في جرس فواصلها تدفع ظلام الجاهليّة وتبيّن سماحة الإسلام.

ومن الأساليب القرآنية المبهرة نجد حسن التّنسيق بين الآيات حتّى تغدو منسجمة متلاحمة كأنّها بنية واحدة ، فبعد التّذكير والتّنبيه بصرف الأنداد عن الخالق عدل الخطاب القرآني إلى الوقوف على حقوق المخلوقين، «فعطف على الكلام السّابق عطف غرض على غرض تخلّصا إلى أعمدة من شريعة الإسلام بمناسبة الفذلكة المتقدّمة تنبيها على أنّ إصلاح الأعمال متفرّع على نبذ الشّرك »[3] واستهلّ ذلك العطف بالوالدين بأسلوب سلس رائق.

ينكننا القول: «إن طريقة نظم القرآن تجري على استواء واحد في تركيب الحروف باعتبار من أصواتها ومخارجها، وفي التّمكين للمعنى بحسّ الكلمة وصفتها، ثم الافتنان فيه بوضعها من

---

1 - سورة الإسراء، الآية: 23-27.

2 - مصطفى صادق الرّافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، ص: 77.

3 - طاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، ج15، ص: 65.

الكلام» [1]، حتّى تغدو الآية الواحدة كالكلمة المفردة من شدّة تناسق الأسلوب وانسجامه، وهذه ميزة من ميزات «الأسلوب القرآني، فيلاحظ فيه الانتقال في شتّى الاتّجاهات في لحظات متقاربة متتالية، وأحيانا تكون مترادفة » [2]، يكاد القارئ لا يحسّ بهذا الانتقال لانسيابية الآيات وسلاستها.

إنّ ممّا يشدّ الانتباه كملمح صوتي إعجازي تلك الآلية الصّوتية المتمثّلة في الفواصل القرآنية لهذه الآيات، حيث إنّها وردت مختومة بالمقطع الصّوتي (ص ع ع) الذي يعتبر محسّنا موسيقيا مراعاة للسّورة ككلّ، ومن هذا المنظور نقل "حسين نصّار" قول "الزّركشي" أثناء حديثه عن هاء السّكت في قوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ﴾[3]، مبيّنا ماهيتها المتمثّلة في التّعديل الصّوتي للفواصل القرآنية ومراعاة إيقاعها، وأنّ هذه الأداة الإجرائية المتمثّلة في إلحاق الهاء للفظة (مالي) لها تأثير عظيم في زيادة الفصاحة[4].

ولذلك فأسلوب القرآن الكريم ارتفع ببلاغته عن غيره من الأساليب المعهودة، فحين توغّل الباحثون في أعماقه «وجدوا اتّساقا بهر العقول وأعجز أهل الحِكم والبلاغات، ونظاما والتئاما وإتقانا وإحكاما لم يدع في نفس واحدٍ منهم موضع طمعٍ حتّى خرست الألسن أن تدّعي وتتقوّل» [5] كلاما على شاكلته.

ثانيا: ظاهرة الإيقاع عند "سيّد قطب" وتجلياتها في القرآن الكريم

يعتبر "سيّد قطب" ممّن أفاض في مسألة الإيقاع الصّوتي في القرآن الكريم وتناولها تناولا فريدا من نوعه، فرغم أنّه لم يؤلّف في الإعجاز ك" الرّافعي" بصفة مباشرة، إلاّ أنّه لامس الإعجاز الصّوتي والبلاغي معا، من خلال كتابيه الشّهيرين في "ظلال القرآن" و"التّصوير الفنّي في القرآن"

---

[1] – -مصطفى صادق الرّافعي،، إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، ص: 242.

[2] – مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ص:157.

[3] – سورة الحاقّة، الآية: 28.

[4] – ينظر: حسين نصّار، الفواصل، مكتبة مصر، مصر، ط01، (1999م)، ص: 20،21.

[5] – مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ص: 142

و"مشاهد القيامة في القرآن"، حيث تجلّى من خلال كتبه هذه اهتمامه الشّديد بظاهرة الإيقاع في القرآن الكريم، وأثرها الصّوتي وحسّها البلاغي الذي جعل أسلوب القرآن الكريم يتميّز بالفرادة والجماليّة التي لا نظير لها.

2-1- أسس الدّراسة الصّوتية عند "سيّد قطب": ارتهن "سيّد قطب" في طرحه الصّوتي على عدّة مرتكزات، دفعت إلى استخراج عدّة جواهر بلاغية من النّصوص القرآنية، ويمكن الوقوف على هذه الأسس أو المستويات التي ارتآها في تعضيد الظّاهرة الإيقاعية في القرآن كالآتي:

أ/ **المستوى الصّوتي**: رأى "سيّد قطب" أنّ بعض الحروف بإيقاعها المتميّز تتأتّى منه الدّلالة، إذ يعمل جرس بعض الحروف على الإيحاء أنّ هذا الإيقاع ليس اعتباطا، وإنّما هو من باب ملامسة حقيقة معيّنة، ممّا يساعد على تحقيق التناسق الفنّي بين جرس اللّفظة عموما ودلالتها، أي: إنّ جرس الحرف في اللّفظة كفيلٌ بتوضيح معالم الآية القرآنية واستكناه بواطنها وتبيان مراميها، ولا سيما أنّ القرآن الكريم نزل بإيقاع مميّز على أمّة يستهويها إيقاع الألفاظ وموسيقى الكلام، إذ إنّ «الجماعات العربيّة قد اهتمّت بتحقيق ثلاث سمات في عمليّة الأداء الكلامي: الجهارة والفصاحة والإيقاع»[1].

من الآيات القرآنية التي يتجلّى فيها أثر الصّدى الصّوتي قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾[2]، حيث نلمس من خلال لفظة (يَصْطَرِخُونَ) شدّة العذاب وقوّته، إذ إنّ هذه اللّفظة أبلغ من لفظة (يَصْرُخُونَ) لما اشتملت عليه من صفات الحروف المكوّنة لها، فالصاد حرف مستعل مطبق والطاء مجهور شديد، ومستعل مطبق، وكذلك حرف الرّاء أيضا مجهور متوسط بين الشدة و الرخاوة، بينما يتّسم حرف الخاء بالاستعلاء، وصفات لجهر و الشدّة و الاستعلاء و الإطباق صفات دالة على القوّة و الغلظة،

1 - كريم زكي حسام الدّين، الدّلالة الصّوتية (دراسة لغوية لدلالة الصّوت ودوره في التّواصل)، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، ط01، (1412هـ-1992م)، ص: 129.

2 - سورة فاطر، الآية: 37.

أي: إنّ لفظة (يَصْطَرِخُونَ) تتضمّن صيغة المبالغة في فعل الصّراخ الشّديد النّاجم عن العذاب الشّديد المطبق غليهم في غمرات جهنّم[1].

إنّ إيقاع اللّفظة (يَصْطَرِخُونَ) أبلغ في دلالته على الفعل، فالفعل«اصْطَرَخ على وزن افتعل، وفي الافتعال تكلّف يدلّ على جهد أكبر وتعب أشدّ من طول الصّراخ »[2]، فالثّقل البنوي للّفظة النّاجم عن صفاتها المذكورة آنفا، يقذف في روع المتلقّي غِلظ جوّ العذاب والنّكال بالكافرين، فهم في حضيضٍ لا يُقضى عليهم فيموتوا ويستريحوا، ولا يُرحمون بشئ من تخفيف العذاب، وهذه الشّدّة والغلظة يمكن الإحساس بها عن طريق «جرس اللفظ نفسه، فهو يلقي في الحس هذه المعاني جميعاً» [3]، حتّى يجعل المشهد المعبّر عنه كأنّه رأي العين.

يهدف " سيّد قطب" من خلال ارتكازه على موسيقى الحروف وجرسها، على التّوثّب من الوقوف على البنية السّطحية للحرف كونه مقطعا صوتيا، إلى التّوغّل في استكشاف جوهر الأصداء الصّوتية للحروف ودلالتها العميقة وكأنّها عمليّة استنطاق للحروف، فلفظة (يَصْطَرِخُونَ) تصوّر عن طريق «جرسها الغليظ غلظ الصراخ المختلط المتجاوب من كل مكان، المنبعث من حناجر مكتظة بالأصوات الخشنة، كما تلقي إليك ظلّ الإهمال لهذا الاصطراخ الذي لا يجد من يهتم به أو يلبّيه» [4].

وإلى أهميّة اللّفظة صوتيا أشار "البقاعي" في تفسيره إلى أنّ الأصداء الصّوتية للفظة (يَصْطَرِخُونَ) هي للتّنبيه على الجهد العظيم المبذول من قِبل المعذّبين صياحا وبكاء وعويلا، من أجل إبلاغ مدى صوتهم الحزين ابتغاء الفرج والتّخفيف من العذاب [5]، وهذه الدّقّة في التّعبير

---

1 – ينظر: طاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، ج22، ص: 318.

2 – مُحَمَّد إبراهيم شادي، البلاغة الصّوتية في القرآن الكريم، ص: 30.

3 – سيّد قطب، في ظلال القرآن، ج 05، ص: 2945.

4 – سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص: 92.

5 – ينظر: البقاعي، نظم الدّرر، ج16، ص: 62.

والتّصوير من خلال توظيف الحروف هو من تمام الانتصار للظّاهرة الصّوتية وتقوية آثارها، إذ«الفضيلة البيانية إنّما تعتمد دقة التّصوير وإجادة التّعبير عن المعنى كما هو »[1]، أي أن يستطيع الدّالّ الصّوتي تجسيد المشهد حتّى كأنّه ظاهر للعيان.

ب/ المستوى الصّرفي: اهتمّ "سيّد قطب" بالألفاظ في القرآن وأوْلاها أهميّة كبرى، وبيّن أنّ إيقاعها من تمام البلاغة القرآنية، كما أنّ الألفاظ لا يقوم بعضها مقام بعض، ولذلك نجد في القرآن الكريم التّنوّع اللّفظي بين الآيات المتشابهة، فقد استأنس "عبد الله درّاز " إلى قول "ابن عطيّة" في تفسيره بقوله: إنّ القرآن لو نزعت منه لفظة ثمّ أدير لسان العرب على أن يأتي بلفظة أحسن منها ما استطاع إلى ذلك سبيلا، في إشارة إلى الإحكام والإتقان وحسن انتقاء الألفاظ[2].

ذهب "سيّد قطب" أثناء حديثه عن التّناسق الفنّي في القرآن الكريم، أنّ هذا التّناسق تعدّ فيه الألفاظ ركيزة من الرّكائز المهمّة فيه، فاللّفظة بإيقاعها المتميّز النّاجم عن انتقاء حروفها المكوّنة لها تعمل على تحقيق الفصاحة في السّياق العامّ للآية، ولذلك أثناء إمعان النّظر في ألفاظ القرآن نلحظ «ذلك التّنسيق في تأليف العبارات، بتخيّر الألفاظ، ثمّ نظمها في نسق خاصّ، يبلغ في الفصاحة أعلى درجاتها»[3]، حتّى يكون التّركيب العام للآية في أعلى درجاته من حيث الانسجام الفنّي والتّصوير الحسّي.

من الألفاظ القرآنية التي وقف عندها "سيّد قطب " لفظة (اثَّاقَلْتُمْ) في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ﴾[4]، فالظّاهر أنّ هذه اللّفظة بجرس حروفها المتثاقل أبلغ دلالة في وصف التّأخّر والعجز، إذ إنّ هذه اللّفظة منفردة كفيلة «برسم صورة شاخصة»[5]لموقف الخلود إلى الدّعة وإدارة الظّهر لنداء الله ورسوله، فاللّفظة

[1] – عبد الله درّاز، النّبأ العظيم، ص: 107.
[2] – ينظر: المرجع نفسه، ص: 112.
[3] – سيد قطب، التّصوير الفنّي في القرآن، ص: 87.
[4] – سورة التّوبة، الآية: 38.
[5] – سيد قطب، المرجع السّابق، ص: 91.

في القرآن الكريم تجد فيها من «الشّفوف والملامسة والإحكام والخلوّ من كلّ غريب عن الغرض ما يتسابق به مغزاها إلى نفسك دون كدّ خاطرٍ ولا استعادة حديث، كأنّك لا تسمع كلاما ولغاتٍ، بل ترى صورا وحقائق ماثلة» [1] للعيان، وهذا لا يجاريه أيّ أسلوب سوى أسلوب القرآن الكريم.

من بديع ألفاظ القرآن الكريم الدّالّة على إعجازه ما أشار إليه المفسّرون والباحثون في إعجاز القرآن، فقد ذهب "السّيّد رضا مؤدّب" إلى القول بأنّ: «كلّ كلمة، وكلّ عبارة في القرآن قد أخذت موقعها الحقيقي هناك، بحيث إنّ أيّ تغيير أو تحريف في القرآن يؤدّي إلى اختلاف الفصاحة والبلاغة» [2] على غرار هذه اللّفظة، فرغم أنّه يمكن استبدالها بمرادف لها نحو: عجزتم أو تكاسلتم عن طريق تخفيف اللّفظة من بعض صوائتها حتّى تصبح تثاقلتم، إلاّ أنّ هذا يؤدّي بفقدان اللّفظة لحسّها اللّغوي وإعجازها البياني، فالقرآن الكريم«ما من لفظ فيه يمكن أن يقوم غيره مقامه وذلك ما أدركه العرب الخلّص الفصحاء الذين نزل فيهم القرآن» [3].

نلمس في هذه اللّفظة اهتمام القرآن بخاصية الإيقاع في ألفاظه ، حيث إنّها انمازت بموسيقيها الخاصّة، حيث عملت على تحقيق التّناسق والتّرابط بين الفعل وأفعال المتثاقلين، الرّامية إلى الخلود في مطامع الأرض وملذّاتها الفانية، والرّكون للظّلال الوارفة والنّعم الزّائلة، وغيرها من النّعم الدّنيوية المتعدّدة، التي اختصرتها كلّها لفظة (اثَّاقَلْتُمْ) بجرسها الصّوتي المتثاقل الذي يحاكي الجسم المسترخي الثّقيل الذي أظهره الإدغام، فعرّى هذا الفعل الثّقيل بواطن قلوبهم وجلّى إخلادهم وميلهم لطيب الهواء ونضج الثّمار، وكشف سخيمة قلوبهم التي آثرت أن تكون أرضية في سفول الهمم، لا سمائية بطهارة الشّيم [4].

ج/ **المستوى التّركيبي:** تتبّع "سيّد قطب "الظّاهرة الإيقاعيّة على مستوى التّركيب أيضا مثلما تقفّاها على المستوى الصّوتي والصّرفي، وقد كانت الآيات القرآنية والسّور غير الطّوال محلّ

[1] – عبد الله درّاز، النّبأ العظيم، ص: 117.
[2] – السّيّد رضا مؤدّب، إعجاز القرآن، ص: 120.
[3] – بنت الشّاطئ، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق دراسة قرآنية لغوية وبيانية، ص:210.
[4] – ينظر: سيّد قطب، في ظلال القرآن، ج03، ص: 1655.والبقاعي، نظم الدّرر، ج08، ص: 223.

اهتمامه، حيث كان يبحث عن مقوّمات الإيقاع من خلال استحضاره للنصوص القرآنية، محاولا الربط بين جو الآية القرآنية وإيقاعها؛ ليتوصّل في ما بعد ذلك بعد إمعان الفكر أنّ إيقاع الآية أو السّورة القرآنية ما هو إلا انعكاس للجو العام الذي وردت فيه هذه النّصوص القرآنية.

لا تكاد تخلو الآيات القرآنية من ظاهرة الإيقاع عند "سيّد قطب"، وبتتبّع تفسيره نلاحظ تقفّيه لمواطن الإيقاع الصّوتي أينما حلّت، فقد ارتأى أنّ تلاؤم الآيات القرآنية وانسجامها يرتهن إلى «طبيعة المواقف والأغراض وبين التّعبير عنها، فحيث الوعيد والتّهديد-مثلا- نجد البناء التّعبيري قويّا بجملته وتفصيله، بحيث نجد الأصوات زاجرة زجر ما تحمله من معاني، فالشّكل والمضمون وحدة متّفقة السّمات والخصائص »[1].

بناء على هذه الوجهة سار " سيّد قطب" في طرحه البلاغي، فرأى أنّ الآيات القرآنية في تلاوتها لا تكون على وتيرة واحدة، وإنّما يكون إيقاع الآيات متعلّق بسياق الآية الذي وردت فيه، وذلك ما عبّر عنه بقوله: «ومنها ذلك التّسلسل المعنوي بين الأغراض في سياق الآيات، والتّناسب في الانتقال من غرضٍ إلى غرضٍ »[2]، وهذا من الأنماط الصّوتية التي تقوم عليها المقامات الموسيقية في قراءة القرآن الكريم، أي: إنّ آيات الوعد والرّجاء ليست كآيات التّخويف والوعيد والتّهديد، فقد يهيمن على آيات الوعد والتّبشير الحروف المهموسة واللّيّنة، بينما قد نجد في آيات الوعيد كثرة الحروف الشّديدة والمطبقة والمستعلية، وهذا من باب محاكاة الحروف لدلالتها مثلما نبّه على ذلك "ابن جنّي" في كتابه "الخصائص" في باب إمساس الألفاظ لأشباه المعاني، وتصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني[3].

من معالم النّظم القرآني في رأي "سيّد قطب" أن تكون الآيات القرآنية متعادلة متساوية ولا تتحقّق هذه الخاصّية – التّوازي- إلا عن طريق الإيقاع الصّوتي، الذي يميّز الآيات القرآنية

[1] – محمّد إبراهيم شادي، البلاغة الصّوتية في القرآن الكريم، ص: 65.
[2] – سيّد قطب، التّصوير الفنّي في القرآن، ص: 88
[3] – ينظر: ابن جنّي، الخصائص، ج02، ص:145- 162.

ويمايزها عن بعض، فالتّوازي في الآيات ينجم عن طريق جرس الحروف المتأتّي عن الظّواهر البديعية المختلفة كالمقابلة، والطّباق، والجناس والسّجع وغيرها، ممّا يشكّل تركيبا متوازيا لهذه الآيات القرآنية، ولذلك ذهب " مُحَمّد إبراهيم شادي" لتوضيح إيقاع النّظم بقوله: «إذا كان الباعث على الإيقاع خصائص في التّعبير أو مذهبا خاصّا في التّأليف يؤدّي إلى السّلاسة والسّهولة، أو كان الباعث على الإيقاع ظواهر تعبيريّة تتّصل ببعض الألوان البلاغية والبديعية كالطّباق والمقابلة والجناس، ومراعاة النّظير فإنّها وجوه وألوان تؤدّي إلى توازي الجمل وتعادلها في التّأليف» [1].

يمكن تمثيل توازي الآيات القرآنية مثلما أشرنا من خلال قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾[3]، حيث نلاحظ المقابلة بين الآيات، ممّا ينجم عنه حسن التّنسيق بين الآيات المتقابلة، عن طريق الجمع بين الأضداد في مشهد واحد، يزيّن ذلك جرس الفواصل القرآنية، ممّا ينقل القارئ لهذه الآيات إلى معايشة مشاهد يوم القيامة، عن طريق ظاهرة المقابلة بين جو النعيم و جو العذاب في سورة الغاشية في آن واحد، باعتبار المقابلة لونا بديعيا «يرسل في أعطاف الأساليب فتتبيّن أوصافها في غير عناء» [4].

بما أنّ الآيات تحتوي مجموعة من المتضادّات فإنّ هذه السّمة البديعية تضفي ظلالا من الموسيقى الموحية بتماهيات هذه التّقابلات الضّدّيّة، ممّا يمنح السّورة عموما بصمة خاصّة من «الإيقاعات العميقة الهادئة، الباعثة إلى التأمل والتدبر، وإلى الرجاء والتطلع، وإلى المخافة

1 – مُحَمّد إبراهيم شادي، البلاغة الصّوتية في القرآن الكريم، ص: 60.

2 – سورة الغاشية، الآية: 02-03

3 – سورة الغاشية، الآية: 08-10.

4 – محمّد حسنين أبو موسى، البلاغة القرآنية في تفسير الزّمخشري وأثرها في الدّراسات البلاغية، دار الفكر العربي، القاهرة (مصر)، (دط)، ص: 180.

والتوجس، وإلى عمل الحساب ليوم الحساب» [1]، ممّا يبيّن لنا فاعليّة الأداء الموسيقي في استنباط مفهوم الآيات والوقوف على دلالاتها العميقة.

ومن الآيات التي يتجلّى فيها الإيقاع الموسيقي بقوّة قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ*وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[2].

أكثرَ المفسّرون والبلاغيّون من تناول هذه الآيات لما اشتملت عليه من البلاغة الصّوتية، وما يتركه جرس الحروف وجزالة الألفاظ من الأثر في النّفوس، حتّى يصير قارؤها كأنّه جزء منها، وهذا الاستحواذ للمتلقّي وحمله على معايشة هذه اللّحظات الرّهيبة التي تفرّقت بين أليم العذاب والرّحمة التي كان سيّدنا نوح يتوخّاها لابنه راجع إلى «مفردات أحرف هذه الآية، ما أسلسها وأرقّها، وألطفها، ثمّ في تأليفها ما أسهله على اللّسان، ثمّ انظر إلى مفردات ألفاظه، ما أعذبها وأجراها على الألسنة من غير صعوبة ولا عسرة، ثمّ انظر إلى تأليف مفرداتها، كيف طابقت الغرض المقصود منها ، وسيقت على أتمّ سياق وأعجبه » [3]، ممّا يجعل منطوق الآيات ينبئ عن مفهومها عن طريق هذا النّغم البديع والمتميّز لهذه الآيات[*].

إنّ البلاغة في ثوبها الجديد ترمي إلى تجاوز الملفوظات إلى إدراك المحسوسات، أي: إنّها حسب -محمّد العمري – التّوثّب إلى استكناه «المفهوم من أنفس الألفاظ» [4]، حيث إنّ حروف الآيات وألفاظها تنبئ عن تسارع الأحداث من هيجان الماء وسير السّفينة وسط أمواج كالجبال ممّا

---

1 – سيّد قطب، في ظلال القرآن، ج06، ص: 3895.

2 – سورة هود، الآية: 42-44.

3 – يحي بن حمزة العلوي، الطّراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، ج03، ص: 126.

*) تناولنا هذه الآية وأشرنا إلى بلاغتها الصّوتية وفصاحتها في المبحث الأوّل من الفصل الثّاني

4 – مُحَمَّد العمري، البلاغة الجديدة بين التّخييل والتّداول، مكتبة الأدب المغربي، المعرب، ط02، (2008م)، ص: 207.

يجعل«التّكوين الموسيقي للجملة ليذهب طولا وعرضا في عمق وارتفاع، ليشترك في رسم الهول العريض العميق، والمدّات المتوالية المتنوّعة في التّكوين اللّفظي للآية تساعد في إكمال الإيقاع وتكوينه واتّساقه مع جوّ المشهد الرّهيب العميق »[1]، حتّى كأنّها رأي العين نتيجة لقوّة السّبك وحسن التّناسق وجمال التّأليف.

4- عوامل الإيقاع الصّوتي في القرآن الكريم وأهمّ أسبابه

تتظافر عدّة عوامل تعمل على حدوث الإيقاع في القرآن الكريم، ممّا يجعل لألفاظه وتراكيبه نمطا موسيقيا معيّنا يميّزه عن موسيقى الشّعر والنّثر كما هو معروف في تراثنا العربي الأصيل، وقد اهتمّ المحدثون بهذه الظّاهرة في القرآن الكريم، ووجدوا أنّها ترتكز على عدّة عوامل تعمل منسجمة في إبراز إيقاعية النّصّ القرآني، حيث سنتعرّض إلى ظاهرتين تعدّان قطب الرّحى في تفعيل إيقاع القرآن الكريم هما ظاهرتي التّكرار والفواصل القرآنية على النّحو االتّالي:

4-1- التّكرار

يعدّ التّكرار في سور القرآن الكريم من الملامح الجمالية التي تجعل أسلوبه أكثر رونقا، ودلالة آياته أكثر وضوحا، ويمكننا تقفّي هذه الظّاهرة الصّوتية على مستوى الألفاظ وكذلك مستوى التّراكيب كالتّالي:

4-1- 1ظاهرة التّكرار على مستوى الألفاظ المفردة: نجد في القرآن الكريم الكثير من الألفاظ التي اشتملت على تكرار حروف معيّنة في اللّفظة الواحدة نحو الفعل (زَلْزلَ)، فقد ورد هذا الفعل في القرآن مرّتين، الأولى في قوله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[2]، والثّانية في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾[3]، فقد ذكر المفسّرون أنّ لهذا الفعل دلالة خاصّة توحي بتكرار فعل الزّلزال ومعاودته المرّة بعد المرّة مع الاضطراب الشّديد، حتّى

[1] - سيّد قطب، التّصوير الفنّي في القرآن، ص: 113.

[2] - سورة الأحزاب، الآية: 11.

[3] - سورة الزّلزلة، الآية: 01.

تُحرّك الأرض بعنف من أصلها نتيجة لهذا الزّلزال [1]، الذي سينجم عنه أنّ «الأرض تخرج أثقالها من جثث مدفونة، ومعادن مطمورة، وكنوز مكنوزة»[2]

أشار" ابن جنّي" إلى هذه الأفعال الرّباعيّة ونبّه على دلالتها الكامنة في أصدائها الصّوتية في باب إمساس الألفاظ لأشباه المعاني، وبيّن أنّ الأفعال المتأتّية من المصادر الرّباعية على وزن:فعلل: تأتي للإشارة إلى الاضطراب والحركة نحو: الزّعزعة، القلقلة، الصّلصلة، القعقعة، الصّعصعة، الجرجرة، القرقرة، حيث إنّ الغاية عند العرب في تكرير الحروف الدّلالة على تكرار الأفعال[3]؛ وقد اشتمل القرآن الكريم على هذا النّوع من الأفعال نحو (كَبْكَب) في قوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾[4]، ونحو الفعل (دَمْدَمَ) في قوله تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾[5].

عند تأمّل هذه الأفعال التي هي على هذه الشّاكلة، نلاحظ أنّ الفعل (زَلْزَلَ) بأصدائه الصّوتية النّاجمة عن تكرار الحرفين الزّاي واللاّم يحمل دلالات عميقة تنبئ عن شدّة فعل التّحريك في سورة الزّلزلة[*]، أمّا في سورة الأحزاب فإنّ فعل التّحريك والهزّ داخلي نفسي بعكسه في سورة الزّلزلة فالتّحريك فيها مادّي ملموس، كما نلمح في سورة الأحزاب الأثر الصّوتي لحرف الزّاي المجهور الصّفيري الاحتكاكي الذي يحاكي«ويناسب الأصوات العديدة التي تعالت آنذاك من

[1] – ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج22، ص: 416، والشّوكاني، فتح القدير، ص: 1645، والثّعالبي، الجواهر الحسان، ج04، ص: 339.

[2] – سيّد قطب، مشاهد القيامة في القرآن، دار الشّروق، مصر، ط16، (1437هـ-2006م)، ص: 242، 243.

[3] – ينظر: ابن جنّي، الخصائص، ج02، ص: 152.

[4] – سورة الشّعراء، الآية: 94.

[5] – سورة الشّمس، الآية: 14.

*) نبّهت بنت الشّاطئ أنّ سورة الزلزلة توالت فيها ظاهرة التّكرار وتعاقبت ثماني مرّات، رغم أنّ السّورة من السّور القصار المختصرة، مبيّنة أنّ هذا التّكرار المتوالي من الظّواهر الأسلوبية التي انماز بها القرآن الكريم، من أجل التّنبيه والتّقرير والإقناع، كما أنّ الغاية من أسلوب التّكرار الإيحاء بالحسم وشدّة الموقف.(ينظر: بنت الشّاطئ، التّفسير البياني للقرآن الكريم، ج01، ص: 79).

صيحات المنافقين، وإرجافات المرجفين، وغير ذلك من الأصوات «النّاعقة المثبّطة للهمم، والمشكّكة في وعد الله بنصرة دينه.»[1]

تتبدّى الجوانب الصّوتية للفعل (زَلْزَلَ) في أثره البلاغي ودلالته العميقة عن طريق تكراره مرّتين، المرّة الأولى وروده كفعل، أمّا المرّة الثّانية فمصدر (زلزال) ممّا يصنع فضاء صوتيا عن طريق تكرار حرفي الزّاي واللاّم، حيث إنّ «ظاهرة التّكرار، والتّكرار مألوف في مواقع الإطناب والإطالة لكنّه حين يأتي في مواقف الإيجاز الحاسمة يكون لافتا ومثيرا»[2] للحدث المشار إليه وهو زلزلة الأرض يوم القيامة لتنبيه المخاطبين بهول هذا اليوم، حتّى يُخيّل لهم عن طريق جرس الحروف ومعاودتها أنّ «الأرض من تحتهم تهتزّ وتمور، وهو مشهد يخلع القلوب من كل ما تتشبث به من هذه الأرض، وتحسبه ثابتا باقيا؛ وهو الإيحاء الأول لمثل هذه المشاهد التي يصورها القرآن، ويودع فيها حركة تكاد تنتقل إلى أعصاب السامع بمجرد سماع العبارة القرآنية الفريدة»[3].

4-1-2 ظاهرة التّكرار على مستوى السّورة القرآنية: تضمّنت بعض السّور القرآنية ظاهرة تكرار آية أو بعض الآيات القرآنية، ممّا يجعل لهذه الآية أو الآيات المتكرّرة وقعا إيقاعيا متميّزا، يحسّ به قارئ هذه الآيات وسامعها، ويبعث في النّفس شعورا متميّزا، ومن بين هذه الآيات المتكرّرة على مستوى السّورة الواحدة نلفى الآية (فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) في سورة الرّحمان، و(وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) في سورة الإنسان، ومن الآيات المتكرّرة نجد: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) في سورة الشّعراء.

لو تناولنا على سبيل المثال سورة الشّعراء لوجدنا الآيتين الآتيتين ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ تتخلّلان السّورة بأكملها ثماني مرّات، ممّا يجعل لهما إيقاعا معيّنا يلفت الانتباه عن طريق قرع السّمع لتوالي نفس الحروف والألفاظ

[1] – ماجد النّجّار، الدّلالة الصّوتية في القرآن الكريم، ص: 474.
[2] – بنت الشّاطئ، التّفسير البياني للقرآن الكريم، ج01، ص: 79.
[3] – سيّد قطب، في ظلال القرآن، ج06، ص: 3954.

والفواصل، ممّا يومئ أنّ هناك أسرارً إعجازية ومناح بلاغية تقبع خلف هذا التّكرار، يمكن الوقوف عليها كالآتي:

أ/ الفصل بين قصص الأنبياء: تعمل هذه المقاطع الإيقاعية في سورة الشّعراء على الفصل بين قصص الأنبياء، «ففي تكريره سبحانه هذه الآية آخر كلّ قصّة على وجه التّأكيد وإتباعها مادلّت عليه من كفر من أتى بعد أصحابها من غير اتّعاظ بحالهم ولا نكوب عن مثل ضلالهم، خوفا من نظير نكالهم، أعظم تسلية لهذا النّبيّ الكريم، وتخويفا لكلّ عليم حليم، واستعطافا لكلّ قلب سليم»[1]، أي إنّ قرع الأذن بهذه المقطوعة الموسيقية المميّزة يعمل كمحفّز ذهني للقارئ على أنّ تلك القصة انتهت وآذنت ببداية قصة نبيّ آخر، فجرس الحروف المتكرّرة للآية المتكرّرة يعمل منبّها وإشعارا لتغيّر سياق الآيات القرآنية وعدولها تجاه قصّة نبيّ آخر.

ب/ تسلية النّبيّ عليه السّلام: في التّكرار على النّمط المعيّن تسلية للنّبيّ عليه السّلام، أي: إنّ التّكرار بما تضمّنته هاتين الآيتين المكرّرتين تدفع عن النّبيّ ما بخعت به نفسه وضاق به صدره من أقوالهم، فقد وردت سورة الشّعراء عموما «إثر طلب المشركين أن يأتيهم الرّسول بخوارق، فافتتحت بتسلية النّبيّ وتثبيتا له وربطا لجأشه، بأنّ ما يلاقيه من قومه هو سنّة الرّسل من قبله مع أقوامهم،...، لذلك ختم كلّ استدلال جئ به على المشركين المكذّبين بتذييل واحد »[2]هو الآية المكرّرة مرارا.

ج/ ترسيخ قصص الأنبياء في النّفوس وتثبيته: من الآثار الصّوتية لأصداء الحروف المتكرّرة ترسيخ القصص في النّفوس وتثبيته، وتقريبه من الأفهام، فالتّكرار يحمل المتلقّي على محاولة استنباط الغاية من هذا التّكرار ، إذ «إنّ في التّكرار تقريرا للمعاني في الأنفس، وتثبيتا لها في

1 – البقاعي، نظم الدّرر، ج14، ص: 79

2 – طاهر بن عاشور بتصرّف، التّحرير والتّنوير، ج19، ص: 91.

الصّدور» [1]، حتّى تستيقن القلوب وتتهيّب منازعة الله في وحدانيته وسلطانه، ممّا كان عليه المشركون إزاء نزول الوحي على النّبيّ.

وعليه فالتّكرار بأدائه الإيقاعي «كلّما زاد ترديده كان أمكن له في القلب وأرسخ في الفهم وأثبت للذّكر وأبعد من النّسيان، ولأنّ هذه القصص طرقت بها آذان وقر عن الإنصات بالحقّ، وقلوب غلف عن تدبّره، فكوثرت بالوعظ والتّذكير، وروجعت بالتّرديد والتّكرير، لعلّ ذلك يفتح أذنا، أو يفتق ذهنا، أو يصقل عهدا طال عهده بالصّقل، أو يجلو فهما قد غطّى عليه تراكم الصّدأ» [2]لدى المستمع لهذه الآيات المتكرّرة بعد نهاية قصّة كلّ نبيّ.

د/ التّنبيه على شدّة الكفر والعناد: تعمل العوامل الإيقاعية الموجودة في هذه القطعة الموسيقية عن طريق أجراس الحروف المتكرّرة على الدّلالة على عظيم عتوّ الكافرين، فتكرار لفظة (إنّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) «هو الأنسب بمقام بيان عتوّهم وغلوّهم في المكابرة والعناد»[3]، كما أنّ ورود لفظة (إِنَّ) (*) يضفي بظلال جرسه الخشن على السّمع، عن طريق ثقله البنوي النّاجم عن الهمزة الحلقيّة، ذات الصّفة المجهورة الشّديدة والمطبقة، المقترنة بالنّون المجهورة الثّقيلة المشدّدة، إذ اشتملت هذه الآية بإيقاعها المميّز بهذه اللّفظة مرّتين، الأولى تصدّرت بها للتّنبيه على ثبوت الوحدانية لله التي نفوها عنه تعالى، أمّا الثّانية فأتت في تذييل الآية الإيقاعية منوّهة بعزّة الله وحكمته وحلمه الذي يمهلهم ويُنظرهم لعلهم يشكرون ويرجعون[4].

ه/ دفع المتلقّي وزجره عن مقارفة المنهيات: ترمي هذه الآلية الإيقاعية المتمثّلة في التّكرار على التّنبيه من سوء المورد الذي أورد الأمم الهالكة، ولذلك من السّمات التي تتجلّى من

---

[1] – الزّمخشري، الكشّاف، ج04، ص: 414.

[2] – المصدر نفسه، ج04، ص: 414

[3] – الألوسي، روح المعاني، ج19، ص: 62.

*) تحدّث سعيد حوّى عن مطلع هذه الآية (إنّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً) في تفسيره وبيّن بأنّ هذه الآية من النّوع الذي يدلّ على الله، وصدق رسله، حيث إنّ هذا النّوع من الآيات يتكرّر ويتعاضد ويتكاثر في القرآن، سواء تقع الكثرة في الأسلوب، أو الألفاظ أو في المعاني، مثلما هو الشّأن في هذه الآية وإيقاعها، ينظر: الأساس في التّفسير ج07، ص: 3938

[4] – ينظر: طاهر بن عاشور بتصرّف، التّحرير والتّنوير، ج19، ص:102.

خلال الأداء الموسيقي للآيات المتكرّرة التّحذير من اقتداء آثار المعذّبين وتتبّع خطاهم، وعليه فإنّ ل«هذا التّكرير لهذه الكلمات في آخر هذه القصص من التّهديد، والزّجر، والتّقرير والتّأكيد، ما لايخفى على من يفهم مواقع الكلام ويعرف أساليبه »[1] التي كان العرب يتقنونها ويحسنون توظيفها، ولعلّ من أهمّ الدّلائل على حسن فهم العرب لأساليب الخطاب القرآني ما وقع بين النّبيّ عليه السّلام وعتبة بن ربيعة في تناظرهما، حيث كانت القوّة الإيقاعية لسورة فصّلت المتضمّنة لعذاب الأقوام السّالفة، يدفع به لوضع يده على فم النّبليّ عليه السّلام، ويناشده الرّحم مخافة حلول النّقمة التي أهلكت من قبلهم[2].

4-2- الفواصل القرآنية:

تعتبر الفواصل القرآنية من أهمّ عوامل الإيقاع في القرآن الكريم، وقد أوْلاها المحدثون أيضا عناية كبرى للأثر الصّوتي الذي تتركه في أذن المتلقّي، وهي -الفاصلة- كالقافية في المنظوم وحرف السّجع في المنثور، وقد تعرّض لجمالياتها الأسلوبية المشتغلون في حقل البلاغة القرآنية، وكذلك المفسّرون المتأخّرون، لأهمّيّتها العظمى في إحداث التّناسق بين الآيات القرآنية، مع ما تشكّله من توازن صوتي وتناغم إيقاعي، يجعل الآيات القرآنية في أعلى درجات البناء الأسلوبي، ممّا جعلها تتبوّأ ركنا من أركان الإعجاز القرآني.

4-2-1- أهمّيّة الفاصلة القرآنية لدى البلاغيين والمفسّرين المحدثين:

استشرف الباحثون المعاصرون في استكناه أغوار الإيقاع الصّوتي في القرآن الكريم، وتوصّلوا إلى أنّ الفاصلة القرآنية هي من أهمّ المرتكزات الفاعلة في تهيئة هذا الجوّ الإيقاعي لآياته، ورأوا بأنّ الفاصلة القرآنية تتضمّن ركنين أساسيين هما: الوظيفة الصّوتية للفاصلة والوظيفة الدّلالية أيضا، أي: إنّ مكان أيّ فاصلة قرآنية ليس اعتباطا، وإنّما هو متعلّق بدلالة معيّنة [3]، ويمكن الوقوف على أهمّ لمسات

---

[1] - الشّوكاني، فتح القدير، ج19، ص: 1066.

[2] - ينظر: المبحث الأوّل من الفصل الأوّل.

[3] - ينظر: ماجد النّجّار، الدّلالة الصّوتية في القرآن الكريم، ص: 600.

المحدثين في تناولهم للفواصل القرآنية ووقوفهم على أبعادها الصّوتية والدّلالية وبصماتها الجمالية والأسلوبية كالآتي:

أ/المحسّن الجمالي: يرى المحدثون أنّ الفاصلة القرآنية تعتبر كمحسّن جمالي يعمل على تحقيق التّوافق بين الآيات ومعانيها، «فالتناسب الشكلي بين الفواصل يُراعى في النص القرآني متوخياً المعنى» [1]المراد الوقوف عليه، وذلك عن طريق نوع الفواصل التي تنتهي بها الآية القرآنية، فالفواصل المجهورة قد تكون بخلاف الفواصل المهموسة، ولكلّ نوع منها دلالة معيّنة، كما أنّ الفاصلة توحي عموما «باكتمال المعنى غالبا أو مقاربته الكمال، والذّوق السّليم يشهد بضرورة هذه الوقفة ويدرك تماما قيمته الجمالية» [2]المتأتّية عن هذه الفواصل القرآنية.

من الآيات القرآنية التي نرى فيها الأثر الجمالي للفاصلة القرآنية تقديم ذكر هارون على موسى في قوله تعالى: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾[3]، بخلاف الآيات الأخرى، فقد ورد ذكر موسى عليه السّلام قبل أخيه هارون، والملمح الجمالي في أسبقية التّقديم هنا لهارون على موسى راجع لموافقة الفاصلة القرآنية التي عليها عموم فواصل السّورة ككلّ [4] في مقام أسلوبي يقتضي من التّناسق أشدّه، ومن السّبك أدقّه.

إنّ مقام السّورة عموما «تخشع له القلوب، وتسكن له النفوس، وتعنو له الجباه»[5]، إنّه مقام المناظرة لفرعون وطغيانه، تحاكيه فواصل الآيات التنتهية بالمقطع المفتوح (ص ع ع) ما جعل «الإيقاع الموسيقي للسورة كلها يستطرد في مثل هذا الجو من مطلعها إلى ختامها رخيا شجيا نديا

---

1 – هدى صيهود زرزور العمري، المظاهر البديعية وأثرها الأسلوبي في التّعبير القرآني، ص:162.

2 – ينظر: ماجد النّجّار، الدّلالة الصّوتية في القرآن الكريم، ص:600.

3 – سورة طه، الآية: 70.

4 – ينظر: أحمد مختار عمر، لغة القران، ص:133.

5 – سيّد قطب، في ظلال القرآن، ج04، ص: 2326.

بذلك المد الذاهب مع الألف المقصورة في القافية كلها تقريبا»[1]، ما يجعل السّورة تكتسب ذوقا وحسّا جماليا يخاطب الوجدان.

ب/ التّمييز بين الآيات: تعمل الفواصل القرآنية على التّمييز بين معاني الآيات المتمايزة، إذ إنّ تغيّر الفاصلة القرآنية يقذف في روْع القارئ تغيّر وقع الفاصلة وإيقاعها، ممّا ينبئ عن التّغيّر السّياقي والعدول عن معنى الآية السّابقة واللاّحقة، أي: إنّها «تؤذن بانتهاء آية وتمهّد للآية التّالية، فهي تميّز بين الآيات من جهة» [2] وتحافظ على إيقاعها العام من جهة أخرى.

وقد نبّهت "بنت الشّاطئ" بعد أن ذكرت أقوال المتقدّمين في ثنائية السّجع والفاصلة، وذكرت سجالاتهم أنّه ينبغي النّظر إلى هذه الفواصل نظرة محايثة عن ما ذهبوا إليه، والوقوف على ماهية الفاصلة من منطلق اعتبارها «مجرّد رعاية شكلية للرّونق اللّفظي، أو أنّ فواصله تأتي لمقتضيات معنوية مع نسق الإيقاع بهذه الفواصل، وائتلاف الجرس لألفاظها التي اقتضت المعاني»[3].

وعلى هذه الرّؤية، حريّ بنا أن نقف على بعض آيات القرآن الكريم أو سوره، حتّى نرى أثر الفواصل القرآنية في التّمييز بين الآيات القرآنية، على نحو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَب * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾[4]، حيث يُلاحظ أنّ وتيرة قراءة السّورة لا تأتي على نسق إيقاعي واحد لتباين الأغراض البلاغية في السّورة، حيث إنّها تنقسم إلى ثلاثة أقسام متمايزة هي[5]:

---

1 – سيّد قطب، في ظلال القرآن ، ج04، ص: 2327.

2 – ماجد النّجّار، الدّلالة الصّوتية في القرآن الكريم، ص:601..

3 – بنت الشّاطئ، الإعجاز البياني في القرآن الكريم ومسائل ابن الأزرق، ص: 268.

4 – سورة الشّرح، الآيات: 01- 08.

5 – ينظر: ماجد النّجّار، الدّلالة الصّوتية في القرآن الكريم، ص:564.

أ/القسم الأوّل : يشتمل أربع آيات الأولى المتضمّنة معنى الطّلب، خرج الاستفهام فيها مخرج الاستفهام الإنكاري، وذلك أدعى لإيقاع يحاكي نشوة وطرب فرح النّبيّ عليه السّلام بما منحه إيّاه الله من المنح والكرائم، فتساوقت الفواصل المنتهية بكاف الخطاب مع المعاني المتضمّنة في الآيات المتمثّلة في تجليّات الله على نبيّه [1]، ثمّ نلاحظ تغيّر الفاصلة القرآنية بعد هذه الآيات الأربع ممّا يشعر بتغيّر السّياق نحو وجهة أخرى، ممّا يبيّن أهميّة الفاصلة في الدّلالة على المعاني التي «تجلوها الفواصل القرآنية بدلالتها المعنوية المرهفة ونسقها الفريد في إيقاعها الباهر» [2]الجميل.

أشار "السّيوطي" إلى ملمح جمالي تميّز به مطلع سورة الشّرح، تمثّل في الإيقاع الصّوتي المقترن بفاصلة بداية الآيات، وهو ما يسمّى عند البلاغيين بالالتزام، أو لزوم ما لا يلزم، وعرّفه بقوله: «الالتزام: وهو أن يلتزم في الشّعر أو النّثر حرف أو حرفان فصاعدا قبل الرّويّ بشرط عدم الكلفة»[3]، وهذه الظّاهرة –الالتزام– تزيد من صدى الإيقاع المتأتّي عن توالي جرس حرف الرّاء المقترن بكاف الخطاب، ممّا يجعل الصّدى الصّوتي العام للآيات يسير على نسق موسيقي موحّد، يزيد الآيات حلاوة والألفاظ عذوبة.

القسم الثّاني: اشتمل على آية مكرّرة مرّتين﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ منتهية بفاصلة الرّاء المقرونة بألف الإطلاق، فصار لدينا المقطع الصّوتي (ص ع ع) الذي يختلف عن المقطع الصّوتي الأوّل المغلق(ص ع ص) الذي ينجم عن نهاية الآيات الأربع الأولى المنتهية بحرفي الرّاء والكاف السّاكنة نطقا، ممّا يجعل القارئ يحسّ بتثاقل القراءة أثناء الانتقال إلى هاتين الآيتين المكرّرتين، ف«الإيقاع هنا لا يمتّ إلى سابقه بصلة، وإنّنا لنحسّ ونحن نتلو أو نسمع هذه السّورة بالإيقاع يبدأ حثيثا متسارعا في آياتها الأربع الأولى، ثمّ ما يلبث أن يصطدم بهاتين الآيتين

1 – ماجد النّجّار، الدّلالة الصّوتية في القرآن الكريم، ص:564.
2 – بنت الشّاطئ، المرجع نفسه، ص: 278.
3 – السّيوطي، الإتقان، ج03، ص:312.

فيبدو بطيئا متثاقلا »[1]، ليوحي بتغيّر السّياق نحو وجهة أخرى، هي وجهة التّبشير باليسر بعد العسر الذي عاشه النّبيّ عليه السّلام.

يتعانق في هاتين الآيتين عدّة عوامل إيقاعية وبلاغية، ففضلا عن الإيقاع الموسيقي المتأتّي عن الفواصل وظاهرة الالتزام المقترنة بها، نجد التّكرار أيضا يضفي على الآيتين وقعا خاصّا لوروده «مرّتين نفيا للشّكّ وتقوية للإيناس »[2] للنّبيّ عليه السّلام، ولا سيما أنّ سورة الشّرح أنزلت بعد سورة الضّحى حين فتر الوحي عن النّبيّ عليه السّلام مدّة من الزّمن فصار باخعا على نفسه ثمّ عاد إليه، ليزداد يقينا أنّ معيّة الله معه في اليسر والعسر، ممّا جعل هذه الآية تقترن بالمؤكّد (إنّ) مرّتين، وبذكر اليسر الوارد نكرة مرّتين «والتّنكير في اليسر للتّفخيم والتّعظيم »[3]، كما أنّه يتضمّن التوكيد لوعد الله لرسوله بالمعيّة والنّصرة [4]، «فتحصّل من التّكرير وتنكير ما نكّر توسعة طرف الرّجاء والتّأنيس، وذلك المناسب لما بنيت عليه السّورة»[5]القرآنية ككلّ.

القسم الثّالث: ويشمل الآيتين الأخيرتين ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ حيث نتذوّق في هاتين الآيتين لونا موسيقيا مغايرا للآيات السّابقة يصنعه المقطع الصّوتي المغلق(ص ع ص)، فبعد أن استُهلّت السّورة في رباعيّتها الأولى بإيقاع الاستفهام التّقريري، ثمّ عدلت بعدها إلى أسلوب التّكرار وأثره الموسيقي، نحت الآية منحى آخر نحو الأمر بالانتقال من عمل إلى عمل مع الرّغبة في السّير إلى الله عزّ وجلّ، وهذه الأوامر الإلهية وردت ك «تفريع على ما تقرّر من التّذكير باللّطف والعناية، ووعده بتيسير ما هو عسير عليه »[6]في الدّعوة إلى الله عزّ وجلّ.

---

[1] – ماجد النّجّار، الدّلالة الصّوتية في القرآن الكريم، ص: 565.

[2] – بنت الشّاطئ، التّفسير البياني للقرآن الكريم، ج01، ص: 68.

[3] – الشّوكاني، فتح القدير، ص: 1635.

[4] – ينظر: طاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، ج30، ص:393 و414، 415 .

[5] – الغرناطي، ملاك التّأويل، ص: 508.

[6] – طاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، ج30، ص: 416.

استنادا على ما تناولناه يمكن رصد الملامح الإيقاعية في سورة الشّرح كالآتي:

أ/**التّساوي في الآيات والتّنوّع في الفواصل:** تستلذّ الأذن وقعا خاصا ناجما عن التّوازي في آيات السّورة ووقع فواصلها، فنلاحظ أنّ ألفاظ آياتها يتراوح مابين الثّلاث إلى الأربع فقط، وهذا مايعرف بتوحّد الإيقاع وتعدّد المعنى[1]، حيث يكون الإيقاع على شكل نغمة واحدة متتابعة من بداية السّورة لنهايتها، وهذا من خصائص الأسلوب القرآني وجمالياته، ممّا يمكّننا من القول بأنّ هذه السّورة رغم قصرها تميّزت بإيقاع فريد، حيث «أضفى عليها الملحظ الصّوتي موسيقاه الخاصّة فعاد القول بصوتيتها من جملة أسرارها الجمالية ، والتّأكيد على تناغمها الإيقاعي من أبرز ملامحها الفنّية» [2] التي تأسر القلوب.

ب/ عامل التّكرار: حشدت سورة الشّرح -رغم قصرها- العديد من الحروف والألفاظ المكرّرة ، حيث تجلّى التّكرار على مستوى الحروف في الفواصل القرآنية، فقد كان لجرسها رنينا ووقعا في الآذان، وذلك لورودها بصفة منتظمة، حيث هيمن حرف الكاف اللّهوي بجرسه المهموس الشّديد على الآيات الأربع الأولى، لتتغيّر الفاصلة إلى حرف الرّاء المجهور المتميّز أيضا بالتّكرار والانحراف، لتُختم الآيات بفاصلة تنتهي بحرف الباء الشّفوي المجهور، الشّديد المقلقل وهذا ما ساعد على وضوح المعنى وسلاسة الأسلوب، إذ «لا تحسن المحافظة على الفواصل لمجرّدها إلاّ مع بقاء المعاني على سردها، على المنهج الذي يقتضيه حسن النّظم والتئامه» [3]دون خلل يرى على البنية السّطحية للسّورة القرآنية.

بما انّ «الإيقاع إحساس بالتّكرّر المنتظم لمجموعات، كلّ منها يشتمل على أحداث متشابهة ومتعاقبة » [4]، فقد أشرنا إلى أهمّ الصّفات المهيمنة على الحروف الظّاهرة على أواخر

1 - ينظر: ماجد النّجّار، الدّلالة الصّوتية في القرآن الكريم، ص: 566.
2 - مُحَمَّد حسين علي الصّغيّر، الصّوت اللّغوي في القرآن، ص: 160.
3 - السّيوطي، الإتقان، ج03، ص: 313.
4 - عبد العزيز أحمد علاّم وعبد الله ربيع محمود، علم الصّوتيات، مكتبة الرّشد، بيروت (لبنان)، ط 02، (1430هـ- 2009م)، ص: 355.

الفواصل القرآنية المتسبّبة في هذا الإيقاع، فألفيناها تشترك في عدّة صفات منها: الجهر، الشّدّة، وهذا ما يوحي بجوّ الآية العامّ الذي يحاكي تلك الشّدّة التي كان يمرّ بها النّبيّ عليه السّلام بعد فتور الوحي وشدّة هذه الجفوة السّماوية تجاهه، إذ «إنّ كثيرا من الحروف يرتبط صوتها بما تؤدّيه من معنى، فتصبح بذلك أداة تصويرية» (1) للمعاني المراد التّعبير عنها.

ومن الحروف التي تكاثر دورانها في سورة الانشراح حرف الرّاء الذّلقي، المتميّز أيضا بصفات القوّة، فهو مجهور منحرف، ومكرّر مفخّم في بعض صوره، وهو يحاكي بمخرجه اللّساني وانقلابه نحو اللّثة ذلك الاضطراب الذي كان النّبيّ عليه السّلام يعانيه بسبب انقطاع الوحي عنه وصوارم ألسنة المشركين القائلة بأنّ ربّه تركه وقلاه (2)، إذ نلاحظ توالي حرف الرّاء في كلّ آيات السّورة مرّة أو مرّتين، ممّا جعل لجرسه معنى إيحائيا وبعدا دلاليا لذلك التّردّد والشّطط النّفسي الذي كان النّبيّ عليه السّلام يعانيه، ممّا يمكّنا من القول بأنّ «كلّ الأصوات في القرآن ذات إيحاء دلالي، تساهم بائتلافها مع باقي الأصوات في رسم معالم المعنى» (3) المراد الوقوف عليه.

5- بصمات "طاهر بن عاشور" و" بنت الشّاطئ" الصّوتية في سورة الانشراح

من الحروف والألفاظ التي تفيّأت بظلالها الصّوتية وأجراسها الإيقاعية ما أشار إليه "طاهر بن عاشور" في تفسيره، فقد وقف على جرس حرفي الضّاد والظّاء في قوله تعالى: (أَنْقَضَ ظَهْرَكَ)، وبيّن أنّ ورود هذين اللّفظين من خصائص البلاغة الصّوتية في القرآن الكريم، ورغم الثّقل في النّطق بهما إلاّ أنّ ذلك لا يقدح في فصاحة القرآن الكريم وأسلوبه، وأشار إلى الإجرائية الصّوتية للمجوّدين، التي تقتضي إظهار الصّوت أثناء النّطق بهذين الحرفين عند تجاورهما، كما نبّه على جرس حرف الفاء في اللّفظتين (فَانْصَب/فَارْغَبْ) وتوسّط الرّابط (الواو) بينهما، وبيّن بأنّ الجمع

1 - بوغاري فاطمة، القيمة التّعبيرية للائتلاف الصّوتي في القرآن الكريم، مجلّة دراسات معاصرة، السّنة04، المجلّد04، العدد، 01، (2019م)، ص: 150.

2 - ينظر: طاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، ج30، ص:407..

3 - بوغاري فاطمة، المرجع نفسه، ص: 151.

بين الفاء والواو عن طريق العوامل الصّوتية في النّسيج اللّغوي من منتهى بلاغة العرب في رصف الكلام[1].

أشارت " بنت الشّاطئ" أيضا إلى أهميّة التّقديم والتّأخير وأثرهما الصّوتي في الآيتين، وبيّنت أنّ هذه الظّاهرة الأسلوبية أنسب في موافقة الفواصل القرآنية وانسجامها، إذ لو عُدل عن التّقديم والتّأخير لغاب الجرس الصّوتي النّاجم عن توافق هذه الفواصل القرآنية، كما بيّنت أهميّة حرف الواو كعاطف بين هذه الآية والتي قبلها، إذ إنّ الوصل بينهما يطّرد به النّسق، ويتلئبّ به المعنى ويستقيم، وهو الأنسب في كشف الدّلالة وتبيانها[2].

كما أشار "طاهر بن عاشور " أيضا إلى الإيقاع المتأتّي عن اللّفظتين (وَوَضَعْنَا/وَرَفَعْنَا) المنتهيتين بالمقطع الصّوتي المفتوح (ص ع ع)، والتي ميّزت أيضا لفظة (يُسْرًا)، وهي مقاطع صوتية مفتوحة تحاكي عناية الله بنبيّه واهتمامه به؛ وهنا نلاحظ إيقاعا موازيا لإيقاع فاتحة سورة الضّحى المنتهية أيضا بنفس المقطع الصّوتي، كما نلحظ أيضا أنّ نفس المقطع الصّوتي الذي ختمت به سورة الانشراح (ص ع ص) هو نفسه المقطع الصّوتي الذي ختمت به نهاية سورة الضّحى، ويمكن التّمثيل لهذه التّقابلات الصّوتية بين السّورتين بالجدول الآتي:

سورة الضّحى	سورة الانشراح	نوع المقطع الصّوتي
وَالضُّحَى سَجَى قَلَى الْأُولَى فَتَرْضَى فَآَوَى فَهَدَى	وَوَضَعْنَا وَرَفَعْنَا يُسْرًا	ص ع ع
تَقْهَرْ تَنْهَرْ فَحَدِّثْ	فَانْصَبْ فَارْغَبْ	ص ع ص

[1] - ينظر: طاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، ج30، ص:417.

[2] - ينظر: بنت الشّاطئ، التّفسير البياني للقرآن الكريم، ج01، ص:76.

من خلال هذا الجدول نستخلص ذلك الفضاء الصّوتي المتواشج بين سورتي الشّرح والضّحى، وهو فضاء إيقاعي مشترك يحاكي «ذلك الحنان، وتلك الرحمة، وذاك الرضى، وهذا الشجى: تنسرب كلها من خلال النظم اللطيف العبارة، الرقيق اللفظ، ومن هذه الموسيقى السارية في التعبير الموسيقى الرتيبة الحركات، الوئيدة الخطوات، الرقيقة الأصداء، الشجية الإيقاع»[1] المنبثقة من بلاغة السّورتين، ما يعضّد«بديع مناسبة الألفاظ لمعانيها» [2].

خلاصة الفصل الثّالث

من خلال ماسبق في هذا الفصل الذي تقفّينا فيه جهود المحدثين وبصمالتهم البلاغية والصّوتية في القرآن الكريم نستخلص ما يلي:

وقفنا في **المبحث الأوّل** على **التّلوينات الصّوتية وأثرها البلاغي في النّص القرآني** ، إذ تعدّ هذه الظّاهرة من أهمّ الظّواهر التي اهتمّ بها البلاغيون والمفسّرون في القرآن الكريم، كما أولاها علماء الأصوات المحدثون قسطا معتبرا من بحوثهم، ولا تزال هذه الظّاهرة بأبعادها الثّلاثة (الوقف النّبر، التّنغيم) غضّة طرية، ومادّة مستساغة في البحث العلمي لدى المحدثين؛ إذ بواسطتها يمكن الوقوف على المعاني الحقيقية للدّوال الصّوتية، ومن ثمّ الوقوف على البنية العميقة للآيات القرآنية.

وقد مثّلنا ببعض الآيات التي لا تتأتّى معانيها عن طريق مبانيها، إلاّ من خلال ولوج باب هذه التّلوينات الصّوتية، فقد تكون البنية السّطحية للآيات تقتضي تلاوتها نسقا معيّنا، وأسلوبا خاصّا حتّى تتجلّى البنية العميقة للآية القرآنية، فأسلوب التّهكّم أو التّعجّب أو الوقف أو النّبر، كلّها آليات صوتية تعمل على تفعيل إفراز الدّلالة واستنطاقها من بين ثنايا الآيات القرآنية.

أمّا المبحث الثّاني فقد تناولنا فيه ظاهرة الحذف في القرآن الكريم ، ووقفنا عند أهمّيّتها عند القدامى، ثمّ عرّجنا على جهود المحدثين عند أهمّية هذه الظّاهرة ودلالتها الصّوتية والبلاغية في

[1] - سيّد قطب، في ظلال القرآن، ج06، ص: 3926.

[2] - بوغاري فاطمة، القيمة التّعبيرية للائتلاف الصّوتي في القرآن الكريم، ص:148.

القرآن الكريم مطعّما ذلك ببعض الآيات القرآنية، ولمسات البلاغيين والمحدثين في ذلك، على غرار ر"شيد رضا"، "الشّوكاني"، "الألوسي"، "مُحَمَّد أبو موسى"، "فاضل صالح السّامرائي"، "بنت الشّاطئ"، "سعد مصلوح"، " مُحَمَّد العمري" وغيرهم، حيث ذهب هؤلاء المتأخّرون إلى إضافات جديدة في تكشّفهم عن ظاهرة الحذف في القرآن.

ممّا ارتهن إليه الباحثون في الأسرار الصّوتية والإعجازية والبلاغية في القرآن الكريم أنّهم خالفوا بعض ما قرّره القدامى في أسباب الحذف ودواعيه، على غرار ما ذكرته بنت الشّاطئ من أنّ الفعل المبني للمجهول، لا يأتي دوما للدّلالة على عظيم، كما بيّنت أنّ ثمّة علاقة وطيدة بين النّحو والبلاغة ، فهو يعمل ويساعد على استكشاف البنى الجوهرية للخطاب القرآني، وهذا من باب الوقوف على التّداخل والتّكامل بين النحو والبلاغة.

أمّا **المبحث الثّالث** فتناولنا فيه **ظاهرة الإيقاع في القرآن الكريم** ، حيث كان للمحدثين جهودا جبّارة في اكتناه هذه الظّاهرة الصّوتية في القرآن الكريم، والوقوف على أسبابها ومن ثمّ جماليتها، إذ إنّ القدامى تناولوها في باب البلاغة تحت فرع البديع، وما ينتج عنه من جرس للحروف، وإيقاع متوازي توازي المقاطع الصّوتية والألفاظ والجمل، وبدأت تجليّات الإيقاع تظهر مع كلّ من "السّيوطي"، "الزّركشي"،"الزّمخشري"، "الألوسي"، "البقاعي"، ولا سيما في باب البديع والفواصل القرآنية.

بناء على ماسبق من التّوضيح، نرى أنّ المحدثين كانت لهم بصمة خاصّة في الوقوف على عتبة هذه الظّاهرة الصّوتية في القرآن الكريم، واستكشاف أسبابها، وممّن كان لهم قدم صدق في الحديث عن هذه الظّاهرة: "مصطفى صادق الرّافعي "، "سيّد قطب"، "محمّد عبد الله درّاز " "طاهر بن عاشور"، "بنت الشّاطئ"، "فاضل السّامرائي"، فأضافوا على ما نوّه إليه من سبقهم، أثر التّلوينات الصّوتية ولا سيما التّنغيم كملمح إيقاعي جليّ في القرآن الكريم، كما أفاضوا في جرس الحروف وأثره الإيقاعي في النّصّ القرآني.

خاتمة

عالجنا بالدّراسة والتّحليل في بحثنا هذا قضيّة جوهرية تعدّ اللّبنة الأساس في الدّراسة اللّغوية عموما والصّوتية خصوصا، وهي الظّاهرة الصّوتية عند البلاغيين في القرآن الكريم، و من خلال التّقفّي في ثنايا المصادر والمراجع خلص البحث إلى عدّة نتائج أهمها ما يلي:

- بلوغ الوعي اللغوي ونضجه لدى العرب حيث تمثّل ذلك في الاقتصاد اللغوي والخفّة والسّرعة واجتناب وحشي الكلام وغريبه.
- استخدام الشعراء والخطباء في العصر الجاهلي للملامح الصّوتية المختلفة كالترصيع والتصريع والتجنيس والطّباق والسّجع وغيرها من الجماليات الصّوتية، فكانت قطب الرّحى في هيمنة المنطلق الموسيقي على اللّسان العربي القديم.
- إمكانيّة القول بتملّك اللغة العربيّة لنظام لغوي شامل عن طريق تحقّق المستويات اللغوية في كيانها صوتا وصرفا وتركيبا.
- علاقة الأصوات ودلالتها ظاهرة متجذرة عند العرب على غرار ما أسلفناه عند ابن جني.
- الثراء الزاخر للقرآن الكريم من التراكمات الصوتية، التي بوأته مكانة الرافد المرجعي للدراسات الصوتية قديما وحديثا.
- توخّي النّصّ القرآني تفعيل بعض القوانين الصّوتية من أجل تحقيق الانسجام والتناسق، سواء في اللّفظة المفردة، أو في الآية، وحتّى في السّورة ككلّ أحيانا، عن طريق الظّواهر الصّوتية كالإدغام والإقلاب.
- أهمية المستوى الصوتي في القرآن الكريم، والذي أسال الكثير من الحبر عند علماء الإعجاز في أبحاثهم وتكشفاتهم قديما وحديثا.
- جمال الأسلوب القرآني لامتلاكه العديد من الظواهر الصوتية التي تتلاءم جميعاً وتتناغم وفق نظام صوتي وإيقاعي عجيب، له قدرة التصوير والتخييل في رسم صور القرآن الكريم وتشكيل معانيه.

- اشتمال القرآن على الكثير من الظواهر الصوتية وما ينجم عنها من ظواهر متعددة أثناء التجاور والتواشج، والتي توثب ابن جني في الوقوف على كنهها.
- المفارقة القراءاتية بين القدامى والمحدثين في التعامل مع الظواهر الصوتية، حيث انصب عمل النحويين على تبيان المعالم الصوتية من مخارج وصفات، واستثمار البلاغيين لهذه النتائج في تشييد صرح البلاغة القرآنية، والمحدثين في تصوير المشاهد.
- تفعيل مستجدات حديثة من قِبل المعاصرين قي الإعجاز اللغوي كالإيقاع والجرس، النغم الموسيقي، وربط السّياق اللّغوي والموسيقي بجو الآية أو السورة ككل.
- الثّراء الزّاخر للتّراث العربي الذي يمكّنه من مطاولة غيره من تراث الحضارات الأخرى.
- تظافر جهود كلّ من النّحاة والبلاغيين والقرّاء والمجوّدين في الكشف عن الدراسة الصوتية في القرآن الكريم.
- ولوج باب الفونولوجيا من قِبل ابن جني اعتمادا على صفات الحروف وكيفية ملائمتها للمعاني المقصودة، وكذلك الوقوف على أسرار التّجاور الصّوتي .
- تعتبر مخارج الحروف وصفاتها النّواة الأساسية التي جمعت الدّراسة بين النّحاة والبلاغيين.
- تعدّ حروف الذّلاقة (فر من لب) والحروف المستحسنة من أهمّ ما تعرّض له البلاغيون القدامى في دراستهم، ورأوا بأنّ هذه الحروف تعتبر أساس الفصاحة والبلاغة لسهولة نطقها وخفّتها على اللّسان.
- إخراج البلاغيين الدّراسة الصّوتية من الجانب الفيزيولوجي المحض إلى الجانب الفيزيائي.
- وقوف البلاغيين المفسّرين على العديد من الظّواهر الصّوتية في القرآن الكريم التي لم يتعرّض لها النّحاة من قبلهم على غرار: التّلاؤم الصّوتي، التّجانس، فواتح السّور، الحروف المقطّعة.

- اهتمام البلاغيين القدامى بالظّواهر البديعية في القرآن الكريم على غرار: الطّباق والمقابلة، السّجع والجناس، مراعاة النّظير والتّعديد، ومن ثمّ رصد الجمالية الصّوتية، والأثر الإيقاعي لهذه الظّواهر البديعية.
- توثّب البلاغيين في دراستهم الصّوتية إلى استعمال الصّور والرّسومات للجهاز الصّوتي على غرار الجهاز النّطقي للسّكاكي، وتشريح الحنجرة لابن سينا.
- تعتبر التّلوينات الصّوتية (النّبر والتّنغيم والوقف) من أهمّ الأطروحات الصّوتية لدى المحدثين بها تفكّ شفرات النّصّ القرآني عن طريق التّعجّب أو الاستفهام أو المدح أو الذّمّ والتّهكّم.
- اهتمام المحدثين في تفاسيرهم ومراجعهم بظاهرة التّكرار في القرآن الكريم كأساس في الإيقاع الصّوتي، فهو يضفي على النص القرآني إيقاعا متميزا كما يعمل على تأكيد المعاني وتقويتها عن طريق جرس الحروف وتكريرها.
- الجمالية الصّوتية والقوّة التّأثيرية النّاجمة عن تداخل التّلوينات الصّوتية (النّبر والتّنغيم)، وهذا ما يعدّ من أساسيات التّلاوة عند القرّاء والمجوّدين.
- أهميّة الوقف لدى المحدثين في تحديد دلالة الآيات والوقوف على معانيها الحقيقية.
- الإيقاع ظاهرة صوتية تميّز القرآن الكريم بنغم موسيقي لا نظير له، تتواشج فيه عوامل مختلفة منها ما تجلّى في جهود البلاغيين القدامى على غرار الظّواهر البديعية كالجناس والسّجع والطّباق وغيرها، ومنها ما وقف عنده المحدثون كالتّنغيم والنّبر والجرس والإيقاع.

وفي الأخير نسعى أن يكون هذا العمل زادا في السير إلى الله، وعتادا يوم الوقوف بين يديه، ونأمل أن نكون قد طرقنا باب الإسفار في تبيان وتوطيد الطريق للوقوف على بعض الظّواهر الصّوتية في القرآن الكريم لدى البلاغيّين القدامى منهم والمحدثين.

الفهارس

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الآيات القرآنية

ملاحظة: تمّ ترتيب الآيات القرآنية بحسب ترتيب الصّفحات في البحث

الآية الكريمة	رقم الآية	السّورة	الصّفحة
﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾	211،210.	الشّعراء	06
﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾	58	الزّخرف	29
﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾	13	هود	30
﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾	38	يونس	30
﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾	88	الإسراء	31
﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾	17-01	النّجم	34
﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى* وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ ﴾	22-19	النّجم	35
﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾	22	النّجم	37
﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾	17-15	فصّلت	41
﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ ﴾	16	فصّلت	43
﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ﴾	03	التّوبة	45
﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾	66	الرحمن	54
﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ ﴾	78	النّساء	57
﴿وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ﴾	61	المائدة	57
﴿أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾	60	النّمل	58
﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ﴾	01	المجادلة	58
﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾	34	الرّعد	58

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾	23	القمر	58
﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾	17	القمر	60
﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ * هَمَّازٍ مَشَّاءٍ ﴾	13-10	القلم	60
﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾	125-124	آل عمران	61
﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾	65	يونس	62
﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾	04	المزمّل	63
﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾	19	النّور	64
﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾	07-06	غافر	64
﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾	02	الفاتحة	65
﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ ﴾	09	الزّمر	67
﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾	09-08	البقرة	68
﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ﴾	34	القصص	75
﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾	37	فاطر	84
﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾	34	القصص	91
﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ* طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾	65، 64	الصّافّات	105
﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾	69	النّحل	105
﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾	74	الحجر	105

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾	28	الشّورى	105
﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾	51	النّساء	107
﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ ﴾	32	النّور	110
﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ ﴾	04	يوسف	110
﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي ﴾	38	القصص	110
﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾	137	البقرة	112
﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾	05	يوسف	112
﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾	17	الطّارق	113
﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا ﴾	61	النّحل	114
﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ ﴾	45	فاطر	114
﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾	121	آل عمران	116
﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾	55	القمر	116
﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ ﴾	27	المائدة	123
﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾	48	هود	124
﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾	28	فاطر	127
﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ﴾	44	هود	129
﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾	17	القمر	135
﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾	132	طه	137
﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾	45	يوسف	137
﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ﴾	28-30	الأحزاب	139

﴿مَاجَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾	04	الأحزاب	140
﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾	35	آل عمران	140
﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾	197	البقرة	141
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾	38	التّوبة	141
﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾	194	البقرة	143
﴿يَخَافُونَ يَوْمًا يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾	37	النّور	144
﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾	51	آل عمران	144
﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ ﴾	44	هود	145
﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾	11	آل عمران	145
﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ﴾	06-01	النّاس	146
﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَانَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾	132	طه	147
﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ"﴾	45	يوسف	147
﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾	285	البقرة	150
﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ*الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ ﴾	5-4	الماعون	153
﴿وَالْفَجْرِ*وَلَيَالٍ عَشْرٍ*وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ* ﴾	4-1	الفجر	153
﴿﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾	17-1	النّجم	154
﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى *وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾	22-19	النّجم	155
﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾	5	ص	166

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾	7	آل عمران	168
﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾	24	محمّد	170
﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ *عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾	194-192	الشّعراء	170
﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾	83	النّساء	170
﴿فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾	2	البقرة	170
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾	4	إبراهيم	171
﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾	26	فصّلت	172
﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾	2-1	البقرة	173
﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾	117	البقرة	175
﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾	55	الرّوم	177
﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾	29، 30.	القيامة	178
﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾	26	الأنعام	178
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾	72، 73	الصّافات	179
﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾	79، 80	الشّعراء	180
﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾	104	الكهف	180
﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾	22	النّمل	180
﴿إِنِّي وجهتُ وجهي للذي فطرَ السماوَاتِ والأرضَ حنيفًا﴾	79	الأنعام	184
﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾	168	الشّعراء	181
﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾	109	الكهف	181

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾	18	الكهف	183
﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾	03	الحديد	183
﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا﴾	13	الأعلى	183
﴿لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾	228	البقرة	184
﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾	33	الرّعد	184
﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾.	122	الأنعام	184
﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾	26	آل عمران	184
﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾	108	النّساء	184
﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾	21-19	فاطر	185
﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾	13	الملك	185
﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾	01	الإسراء	186
﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى*وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا*وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾	45-43	النّجم	186
﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾	47	الحجر	187
﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾	82	التّوبة	188
﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾	157	الأعراف	188
﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى *فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى*وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى﴾	10-5	اللّيل	188
﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾	04	الحديد	190
﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى*فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾	10-5	اللّيل	190
﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾	03-01	الكوثر	191

﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾	13، 14	نوح	193
﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾	13 ،14	الغاشية	193
﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾	25، 26.	الغاشية	194
﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾	01-04	المسد	194
﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ*لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾	05-08	التّكاثر	195
﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى*وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾	19-22.	النّجم	197
﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾	01-07	البروج	198
﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾	05	الرّحمان	198
﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾	85	يوسف	199
وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾	37	فاطر	200
﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾	5-6	الرّحمان	200
﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾	103	الأنعام	201
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾	12-14	المؤمنون	201
﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾	23	الحشر	203
﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾	112	التّوبة	203
﴿مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ﴾	5	التّحريم	203

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾	23	الحشر	204
﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾	16-15	الغاشية	205
﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾	7-6	الكهف	206
﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾	84-81	مريم	208
﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ﴾	40	هود	219
﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾	24	القصص	220
﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾	1	النجم	220
﴿وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾	81	طه	220
﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾	16	الحديد	221
﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾	5	الزّلزلة	221
﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾	24	ق	228
﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾	28	البقرة	229
﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾	47	الدّخان	229
﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾	5	الكهف	230
﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾	35	غافر	231
﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾	3	الصّف	231
﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴾	75-74	يوسف	232
﴿أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾	9	الزّمر	233

﴿فاستَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾	153-149	الصّافات	233
﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾	24	يوسف	237
﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾	66	يوسف	239
﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ﴾	65	يونس	240
﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾	7-6	غافر	240
﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا﴾	69	هود	245
﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾	30	النّحل	245
﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾	05	الجمعة	245
﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾	63	طه	245
﴿وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾	09	مريم	246
﴿قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾	50	غافر	246
﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾	04	القدر	246
﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾	30	فصّلت	246
﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾	82	يوسف	247
﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾	27	الأنعام	247
﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾	31	الرّعد	248
﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾	25	الحج	248

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ﴾	41	فصّلت	249
﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾	40	فصّلت	249
﴿أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾	44	فصّلت	249
﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾	73	الزّمر	250
﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾	78	طه	250
﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾	29	يوسف	250
﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾	04	الفجر	251
﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾	13	الشّمس	251
﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾	9	الزّمر	252
﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾	82	يوسف	252
﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ﴾	18-17	البقرة	253
﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾	39-38	الأنعام	253
اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾	97	الكهف	254
﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾	127	النّحل	256
﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى﴾	37	القيامة	257
﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾	40	النّساء	257
﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾	30	فصّلت	257
﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾	04	القدر	257
﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾	222-221	الشّعراء	257
﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾	77	الزّخرف	258

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ﴾	41	الزمر	259
﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ﴾	106	آل عمران	259
﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾	177	البقرة	260
﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾	28	نوح	260
﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾	48	غافر	260
﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾	9-8	النّازعات	261
﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾	23-21	الفجر	262
﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾	18	النّبأ	265
﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ* وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾	10-9	العاديات	267
﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾	4	الانفطار	269
﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾	11	العاديات	270
﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾	69	يس	285
﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾	07	الحاقّة	290
﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾	27-23	الإسراء	292
﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ﴾	28	الحاقّة	293
﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾	37	فاطر	294
﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾	38	التّوبة	295

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾	08-02	الغاشية	299
﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ	44-42	هود	300
﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾	11	الأحزاب	301
﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾	01	الزّلزلة	301
﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾	94	الشّعراء	302
﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾	14	الشّمس	302
﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾	70	طه	307
﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾	08-01	الشّرح	308

قائمة المصادر والمراجع

*** القرآن الكريم برواية حفص**

1 –المصادر

1 - أحمد بن يوسف، الدّر المصون في علوم الكتاب المكنون، تح أحمد محمّد الخرّاط، دار القلم، دمشق (سوريا)، (دط)، (دتا).

2 - الأشموني (أحمد بن محمّد)، منار الهدى في بيان الوقف والابتدا، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط02،(1393هـ-1973م).

3 - الأصفهاني، الأغاني، تح إحسان عبّاس وآخرون، دار صادر، بيروت (لبنان)، ط03 (2008).

4 - الأعلم الشّنتمري، أشعر الشّعراء السّتّة الجاهليّين، تح محمّد عبد المنعم خفّاجي، مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي، مصر، ط03،(1382هـ-1963م).

5 - الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، تح إدارة الطّباعة المنيرية، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، لبنان. (1267هـ)، (دط).

6 - ابن الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء في كلام الله عزّ وجل، تح: محي الدّين عبد الرحمان رمضان، طبعة مجمع اللغة العربية، دمشق، سوريا، (1391هـ-1971م).

7 - الأندلسي، أبو حيّان، البحر المحيط، تح الشّيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، (لبنان)، ط01، (1413هـ-1993م).

8 - الأندلسي ابن عطيّة، المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح عبد السّلام عبد الشّافي محمّد، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان)، ط01، (1422هـ-2001م).

9 - الأنصاري ابن هشام، مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب، تح مازن المبارك وآخرون، دار الفكر، دمشق(سوريا)، ط01، (1384هـ-1964م)، ج02.

10 - الأنصاري زكريا، فتح الرّحمان بشرح مايلتبس في القرآن، تح محمّد علي الصّابوني، دار القرآن الكريم، بيروت (لبنان)، ط01، (1403هـ-1983م).

11 - الباقلاني، إعجاز القرآن، تح السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، (دط).

12 - البغدادي أبو طاهر ، قانون البلاغة، بيروت، (لبنان)، السنة (1981م)،(دط)، (دتح).

13 - البقاعي (برهان الدّين)، نظم الدّرر في تناسب الآي والسّور، تح مُحَمَّد عمران الأعظمي الأنصاري العمري، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة (مصر)، (دط)، ج11.

14 - البيضاوي، تفسير البيضاوي، تح مُحَمَّد عبد القادر شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت ،(لبنان)، ط01، (1419هـ-1999م).

15 - البيهقي، دلائل النّبوّة، تح عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلميّة، بيروت (لبنان) ط01.

16 - الثّعالبي(أبو منصور عبد الملك بن محمّد بن إسماعيل)، فقه اللّغة وأسرار العربية، تح ياسين الأيّوبي، المكتبة العصرية، بيروت (لبنان)، ط02، (1420هـ-2000م).

17 - الثّعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تح الشّيخ علي محمّد معوّض وآخرون، دار إحياء التّراث العربي، بيروت(لبنان)، ط01، (1418هـ-1997م).

18 - ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، تح مُحَمَّد علي الضّبّاع، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان)، (دط)، (دتا).

19 - ابن جني، سر صناعة الاعراب، تح حسن هنداوي، (دط).

20 - ابن جنّي، الخصائص، تح مُحَمَّد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت (لبنان) (2007م).

21 - ابن جنّي، المنصف، تح إبراهيم مصطفى، عبد الله أمين، إدارة إحياء التّراث القديم-وزارة المعارف، الإسكندرية، مصر، ط1،(1373هـ-1954م).

22 - الجاحظ، أبو عثمان بن بحر، البيان والتّبيين، تح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي مصر، ط07، (1998م).

23 - الجاحظ، أبو عثمان بن بحر، الحيوان، تح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي ، مصر ط02، (1485هـ-1965م).

24 - الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، تح محمود محمّد شاكر، مطبعة دار المدني، القاهرة (مصر)، ط01،(1412هـ-1991م).

25 - الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تح وتع محمود مُحَّد شاكر، مكتبة الخانجي القاهرة (مصر)، ط05، (2004م).

26 - حوى سعيد، الأساس في التّفسير، دار السّلام، بيروت (لبنان)، ط 01، (1405هـ-1985م).

27 - ابن خالويه، الحجّة في القراءات السّبع، تح عبد العال سالم مكرّم، دار الشّروق ط03، (1399هـ-1979م)، القاهرة(مصر).

28 - الخطّابي، إعجاز القرآن، من كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، تحقيق مُحَّد خلف الله و مُحَّد زغلول سلام ، دار المعارف ،مصر(القاهرة)، الطبعة03.

29 - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة(المعاني والبيان والبديع)، دار الكتب العلمية بيروت (لبنان)، (دط).

30 - الخفّاجي ابن سنان، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، (لبنان)، ط01، (1982م)

31 - الرّازي، فخر الدّين، التّفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع بيروت (لبنان)، ط01، (1401هـ-1981م)، (دتح).

32 - الرّاغب الأصفهاني(أبو القاسم الحسين بن محمّد)، المفردات في غريب القرآن، تح دار الإعداد بمركز الدّراسات والبحوث، مكتبة نزّار مصطفى الباز،(د ط).

33 - الرُّماني، النّكت في إعجاز القرآن، من كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح مُحَمَّد خلف الله ومُحَمَّد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة(مصر)، ط03.

34 - الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، مكتبة العبيكان، الرياض، ط 01، (1418هـ-1998م).

35 - السّبكي بهاء الدّين، عروس الأفراح شرح تلخيص المفتاح ، تح عبد الحميد هنداوي المكتبة العصرية، بيروت (لبنان)، ط01، (1423هـ-2003م).

36 - السجاوندي، أبو عبد الله مُحَمَّد بن طيفور ، علل الوقوف، تح: مُحَمَّد بن عبد الله بن مُحَمَّد العيدي، مكتبة الرشد، الرياض، ط3، (2006م)، ج1.

37 - السّخاوي، جمال القرّاء وكمال الإقراء، تح عبد الكريم الزّبيدي، دار البلاغة، بيروت (لبنان)، ط01، (1993م) ج02.

38 - السكاكي (أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر مُحَمَّد بن علي) ، مفتاح العلوم، تح نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان)، ط01،(1403هـ-1983م).

39 - سلامة مُحَمَّد حسين، الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم ، دار الآفاق العربيّة القاهرة (مصر)، ط01، (1423هـ-2002م).

40 - سيبويه، الكتاب، تح عبد السلام هارون، دار الرّفاعي، الرياض، ط02، (1982م).

41 - السّيرفي، أخبار النّحويين البصريين، تح طه مُحَمَّد الزيتي ومُحَمَّد عبد المنعم خفاجي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط01، (1374هـ-1955م).

42 - ابن سينا،كتاب المجموع أو الحكمة العروضية في كتاب معاني الشعر، تح مُحَمَّد سليم سالم، تح مركز تحقيق التراث ونشره، القاهرة،(1969م).

43 - ابن سينا، أسباب حدوث الحروف، تح: محمّد حسن الطّيان ويحي مير علم، مطبوعات مجمّع اللغة العربية، دمشق،(د ت)، (دط).

44 - ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم في اللّغة، تح عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت(لبنان)، ط01،(1421هـ- 2000م).

45 - السّيوطي(عبد الرحمان جلال الدين)، الإتقان في علوم القرآن، تح محمّد أبو الفضل إبراهيم، وزارة الشّؤون الإسلامية والأوقاف والدّعوة والإرشاد، السّعودية، (دط).

46 - السّيوطي (عبد الرحمان جلال الدين)، الدّر المنثور في التّفسير بالمأثور، تح عبد الله بن محسن التّركي، مكتبة ترعة الزّمر-المهندسين، القاهرة، مصر، ط 01،(1424هـ-2003م)،

47 - السيوطي(عبد الرحمان جلال الدين)، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تح جاد المولى بك وآخرون، مكتبة دار التراث، القاهرة (مصر)، ط03، (2008م).

48 - الشّوكاني، فتح القدير الجامع بين فنّي الرّواية والدّراية من علم التّفسير ، تح يوسف الغوش، دار المعرفة، لبنان(بيروت). ط04، (1428هـ-2007م).

49 - الصّاوي، تفسير الجلالين، دار الفكر، بيروت (لبنان)، ط01، (1397هـ-1977م).

50 - طاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، (دط)، (1984م).

51 - الطبريّ، تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، دار الكتب العلمية بيروت (لبنان)، (دط)، (1412هـ -1992م) .

52 - العسكري أبو هلال، الصّناعتين الكتابة والشعر ، تح علي محمّد البجادي ومحمّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العلمية، ط01، (1371هـ-1952م).

53 - العلوي يحي بن حمزة ، الطّراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تح عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت(لان)، ط01،(1423هـ-2002م).

54 - الغزالي، مشكاة الأنوار، تح أبو العلا عفيفي، الدار القومية،(1964م)، (د ط).

55 - الفراهيدي (الخليل بن أحمد) ، كتاب العين، تح عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان)، ط01.

56 - القرطاجنّي، حازم (أبو الحسن)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح محمّد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت (لبنان)، ط03،(1986م).

57 - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تح عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة ط01، (2006).

58 - القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة(المعاني والبيان والبديع)، دار الكتب العلمية بيروت (لبنان).

59 - القسطلاني، لطائف الإشارات لفنون القراءات، تح مركز الدّراسات القرآنية، المملكة العربية السّعودية، (دط). ج01.

60 - المبرّد، المقتضب، تح عبد الخالق عظيمة، مطبعة دار التحرير، القاهرة،ط 03، (1415هـ-1994م).

61 - المرزوقي (أبو علي أحمد بن محمّد بن الحسن) ، شرح ديوان الحماسة لأبي تمّام، تح غريد الشّيخ، دار المتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01،(1424هـ-2003م)، ج01،

62 - المصري (ابن أبي الأصبع)، الخواطر السّوانح في أسرار الفواتح، تح حنفي محمّد شرف ، دار اللّؤلؤة، المنصورة، مصر.

63 - النّحاس أبو جعفر، القطع والائتناف، تح عبد الرحمان بن إبراهيم المطرودي، دار عالم الكتب، الرّياض، ط01، (1413هـ-1992م).

64 - الزّوزني، أبو عبد الله الحسين بن أحمد، شرح المعلّقات السّبع، تحقيق الدّار العالميّة، (دط)،

65 - ابن المعتزّ، البديع، تح: عرفان مطرجي، مؤسسة الكتب الثّقافية، بيروت(لبنان)، ط 01، (1433هـ-2012م).

66 - ابن رشيق، العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، تح محمّد محي الدّين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت (لبنان)، ط05، (1401هـ-1981م).

67 - ابن فارس(أحمد بن فارس بن زكرياء)، معجم مقاييس اللغة، تح عبد السلام مُحَّد هارون، دار الفكر للطباعة والنّشر، ط(1979).

68 - ابن قتيبة، الشّعر والشّعراء، تح أحمد محمّد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ط 02 (1982م)

69 - ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، شرح سيد أحمد صقر، دار التّراث، القاهرة، ط 02 (1973)

70 - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تح مصطفى السّيد أحمد وآخرون، مؤسّسة قرطبة الجيزة، مصر، ط01.

71 - ابن منظور، لسان العرب، تح علي عبد الله الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، مصر، (دط).

72 - الرّافعي مصطفى صادق ، إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة ، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط09، (1393هـ- 1973م).

73 - مُحَّد بن عبد الله بن مالك الأندلسي، متن الألفية، المكتبة الشعبية، بيروت(لبنان).

74 - ابن فارس، مقاييس اللغة، تح عبد السلام هارون، دار الفكر، (دط)، (1399هـ- 1989م).

75 - الجمحي ابن سلام ، طبقات الشعراء، دراسة وتحقيق طه أحمد إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط(2001).

76 - الزمخشري، أساس البلاغة، تح محمّد باسل عيون السّود، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان)، ط01، (1419هـ-1998م)، ج01...

77 - الشّنقيطي، مُحَّد الأمين ، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، إشراف بكر بن عبد الله بوزيد، دار علم الفوائد، مكّة المكرّمة (السّعودية)، ط01، (1426هـ)، ج04.

78 - العدوي مصطفى، تفسير الرّبانيّين لعموم المؤمنين، دار الخلفاء، المنصورة (مصر)، ط01 (1420هـ-1999م)، ج09.

79 - الفارابي، كتاب الموسيقى الكبير، تح عبد الملك غطّاس خشبة، دار الكتاب للطّباعة والنّشر، القاهرة (مصر)، (1967م).

80 - القاسمي مُحَمَّد جمال الدّين، محاسن التّأويل، تح مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربيّة، مصر، ط01، (1376هـ-1987م)، ج10.

81 - مُحَمَّد رشيد رضا، تفسير المنار، مطبعة المنار، مصر، ط 01، (1355هـ- 1936م) ج12.

82 - النّويري (أبو القاسم مُحَمَّد بن مُحَمَّد)، شرح طيبة النّشر في القراءات العشر، تح مجدي مُحَمَّد سرور، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان)، ط 01، (1424هـ-2003م)، ج02.

2- المراجع

1 - أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربيّة المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة(مصر)، ط 01، (1429هـ-2008م).

2 - أنيس إبراهيم، الأصوات اللّغوية، مكتبة الأنجلو مصرية(مصر)، ط05،(1975م).

3 - إبراهيم خليل، مدخل إلى علم اللغة، دار المسيرة للنشر والطباعة والتوزيع، عمان (الأردن) ط02، (2014م).

4 - إبراهيم مصطفى و شعبان عبد العالي عطية وآخرون، المعجم الوسيط،(دت)، مكتبة الشّروق الدّولية، مصر، ط04،(1425هـ- 2004م).

5 - أحمد بدوي أحمد، من بلاغة القرآن، نهضة مصر، القاهرة، مصر، دط، (2005م).

6 - أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، دار المعارف ،ط01، (1976 م) مصر.

7 - أحمد مختار عمر، دراسة الصّوت اللغوي، دار عالم الكتب، القاهرة، مصر، (1418هـ-1997م)، (دط).

8 - أحمد مختار عمر، لغة القرآن، دراسة توثيقية فنّية، مؤسّسة الكويت للتّقدّم العلمي الكويت، ط02، (1418هـ-1997م).

9 - الأنصاري زكريا، فتح الرّحمان بشرح مايلتبس في القرآن، تح محمّد علي الصّابوني، دار القرآن الكريم، بيروت (لبنان)، ط01، (1403هـ-1983م).

10 - الأنطاكي محمّد، المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها،دار الشّروق العربي، بيروت (لبنان)، ط03، (1391هـ-1971م).

11 - البهنساوي حسام ، الدّراسات الصّوتية عند العلماء العرب والدّرس الصّوتي الحديث، مكتبة زهراء الشّرق، القاهرة (مصر)، ط01،(2005م).

12 - بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط 4، (1980م).

13 - بلعاليه علي دومة أبو عمر المجاجي، المصباح المفيد في علم القراءات والتجويد، دار الأمل، تيزي وزو-الجزائر-، (دط).

14 - بلقاسم بلّعرج، لغة القرآن الكريم دراسة لسانية للمشتقّات في الرّبع الأوّل، دار العلوم للنّشر والتّوزيع، عنّابة (الجزائر)، ط01، (1426هـ-2005م).

15 - تيبرماسين عبد الرحمان، البنية الإيقاعية للقصيدة المعاصرة في الجزائر، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة(مصر)، ط01، (2003م).

16 - الجارم علي و مصطفى أمين، البلاغة الواضحة(البيان، المعاني، البديع)، دار المعارف مصر،(دط).

17 - الجمزوري، سليمان بن حسين الشّافعي، تح سمير القاضي، دار الجنان، بيروت، لبنان، ط01، (1407هـ-1987م)،

18 - الجندي أنور، اللغة العربية بين حماتها وخصومها، مطبعة الرّسالة، بيروت (لبنان).

19 - الجويني، مصطفى الصّاوي، البلاغة العربية تأصيل وتجديد، مطبعة المعارف بالإسكندرية، مصر، (دط)، (1958م).

20 - جابر أبو بكر الجزائري، هذا الحبيب يامحبّ، دار الشّروق للنّشر والتّوزيع، الرياض(المملكة العربية السّعودية)، ط03، (1409هـ-1989م).
21 - جرجي زيدان، تاريخ آداب اللّغة العربيّة، مؤسّسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، مصر (2013م)، (دط)، ج01.
22 - الحسناوي مُحَّد، الفاصلة في القرآن، دار عمّار للنّشر والتّوزيع، عمّان(الأردن)، ط 02 (1421هـ-2000م).
23 - الحمصي نعيم، فكرة إعجاز القرآن من البعثة النّبوية إلى عصرنا الحاضر، مؤسسة الرّسالة بيروت (لبنان)، ط02،(1400هـ-1980م).
24 - حجازي محمود فهمي ، مدخل إلى علم اللّغة، دار قباء للطّباعة و النّشر والتّوزيع القاهرة(مصر).
25 - حسام البهنساوي، الدّراسات الصّوتية عند العلماء العرب والدّرس الصّوتي الحديث مكتبة زهراء الشّرق، القاهرة (مصر)، ط01،(2005م).
26 - حسين نصّار، الفواصل، مكتبة مصر، مصر، ط01، (1999م).
27 - حمادي صمّود، التّفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوّره إلى القرن السّادس، المطبعة الرّسمية للجمهورية التّونسية، تونس، (1981م).
28 - حموده طاهر سليمان، ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، الدار الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، (1998).
29 - حنون مبارك، في الصواتة الزمنية، الوقف في اللسانيات الكلاسيكية، دار الأمان، الرّباط (المغرب)، ط01،(1424هـ-2003م).
30 - حيدر حسين عبيد، الحذف بين النّحويين والبلاغيين دراسة تطبيقية، دار الكتب العلمية ط1، (2013م).
31 - خليل إبراهيم، مدخل إلى علم اللغة، دار المسيرة للنشر والطباعة والتوزيع، عمان (الأردن) ط02، (2014م).
32 - درّاز، مُحَّد عبد الله، النّبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، دار الثّقافة، الدّوحة (دط)، (دتا).

33 - الرّافعي مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة ، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط09، (1393هـ- 1973م).

34 - الرافعي مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، تح عبد الله المنشاوي والمهدي البحيري مكتبة الإيمان، المنصورة، د ط، مصر.

35 - زرزور عدنان مُحَمَّد، علوم القرآن وإعجازه وتاريخ توثيقه، دار الأعلام، عمان(الأردن) ط(01)، (1426هـ-2005م.

36 - زرقة أحمد، أسرار الحروف، دار الحصاد للنّشر والتّوزيع، دمشق، ط01، (1993م).

37 - السّامرائي فاضل صالح، التعبير القرآني، دار عمّار، عمّان (الأردن)، ط 04، (1427هـ-2006م)..

38 - السّامرائي فاضل صالح، بلاغة الكلمة في التّعبير القرآني، شركة العاتك لصناعة الكتب القاهرة (مصر)، ط02، (1427هـ- 2006م).

39 - السّامرائي فاضل صالح، معاني النّحو، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، عمّان (الأردن)، ط01، ج01، (1420هـ-2000م).

40 - السّامرائي فاضل صالح، من أسرار البيان القرآني، دار الفكر، عمّان (الأردن، ط 01 (1430هـ-2009م).

41 - السّامرائي فاضل، على طريق التفسير البياني، مطبوعات جامعة الشّارقة (الإمارات العربية المتّحدة)، ط01، (1423هـ-2003م)، ج01.

42 - السّيّد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في أدبيات وإنشاء لغة العرب، مطبعة المكتبة التّجارية الكبرى، مصر، ط27،(1389هـ-1969م).

43 - السّيّد رضا مؤدّب، إعجاز القرآن، تعريب قاسم البيضاني، دار المصطفى صلّى الله عليه وسلّم، المملكة العربيّة السّعودية، ط01، (1386هـ- 1967م).

44 - سعد عبد العزيز مصلوح، في البلاغة العربية والأسلوبيات الحديثة آفاق جديدة، مطبعة لجنة التّأليف والتّعريب والنّشر، (الكويت)، ط01، (2003م).

45 - سعيد بن كرّاد، سياق الجملة وسياقات النّصّ، الفهم والتّأويل، مجلّة علامات، مكناس (المغرب)، العدد33، (2010م)،

46 - سلوم ثامر، نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، دار الحوار للنّشر والتّوزيع، اللاذقية (سوريا)، ط01، (1983م) .
47 - سهام خضر، الإعجاز اللغوي في فواتح السّور، دار الكتب العلمية، بيروت، (لبنان)، ط01، (2008م).
48 - سمك مُحَمَّد صالح، أمير الشعراء في العصر القديم، امرؤ القيس، دت، دارنهضة مصر للطبع والنشر،القاهرة، (دط).
49 - بنت الشّاطئ، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، دار المعارف القاهرة(مصر). ط03، (1404هـ-1984م)
50 - بنت الشّاطئ، التّفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف، ط 07، (مصر)، ط07 (1990م).
51 - الصّعيدي عبد المتعال، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبه الآداب القاهرة (مصر)، (دط)، (1420هـ-1999م).
52 - الصّغير محمّد حسين علي، الصّوت اللغوي في القرآن، دار المؤرّخ العربي، (بيروت) لبنان ط01، (1420هـ-2000م).
53 - صلاح الدّين عبد التّواب، الصّورة الأدبية في القرآن الكريم، الشّركة المصرية العالمية للنّشر القاهرة (مصر)، ط01،(1995م).
54 - ضيف شوقي، تاريخ الأدب العربي(العصر الجاهلي)، دار المعارف، (مصر)، ط11.
55 - الطوني، سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم ، الإكسير في علم التّفسير في أصول وقواعد التّفسير الكريم، تح مُحَمَّد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان).
56 - العقيدي جنان محمّد مهدي ، النّقد اللّغوي عند الطّبري إمام المفسّرين، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان)، (2012م)
57 - العزاوي سمير ابراهيم، التنغيم في القرأن الكريم، دار الضياء للنشر والتوزيع ، عمان (الأردن) ط1، (2009م).
58 - العزاوي سمير ابراهيم، التنغيم في القرأن الكريم، دار الضياء للنشر والتوزيع ، عمان (الأردن) ط1، (2009م).

59 - العمري مُحَّد، البلاغة الجديدة بين التّخييل والتّداول، مكتبة الأدب المغربي، (المغرب) ط02، (2008م).

60 - العياشي مُحَّد، نظرية إيقاع الشعر العربي، المطبعة العصرية، (تونس)، السّنة(1967م) (دط).

61 - - العيّاشي منذر، الأسلوبيّة وتحليل الخطاب، طبعة مركز الإنماء الحضاري، حلب (سوريا) ط01، (2002).

62 - عبد العزيز أحمد علاّم وعبد الله ربيع محمود، علم الصّوتيات، مكتبة الرّشد، بيروت (لبنان)، ط02، (1430هـ-2009م).

63 - عبد العزيز عتيق، علم البديع، دار النّهضة العربية، بيروت (لبنان)، (دط).

64 - عبد الفتاح عبد الغني القاضي، الوافي في شرح الشاطبية، مطبعة دار السلام، (مصر) ط05،(1429هـ-2008م).

65 - عبد القادر حسين، أثر النّحاة في البحث البلاغي، دار غريب للطّباعة والنّشر والتّوزيع القاهرة (مصر)، (1998م).

66 - عز الدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي(عرض وتفسير ومقارنة)، دار الفكر العربي، القاهرة، ط03، (1974م).

67 - عشتار داود محمّد، الإشارة الجمالية في المثل القرآني، منشورات إتّحاد الكتّاب العرب دمشق (سوريا)، (2005م).

68 - عصام نور الدّين، علم الأصوات اللّغوية -الفونيتيكا-، دار الفكر اللّبناني، بيروت (لبنان) ط01، (1992م).

69 - علال نوريم، جديد الثّلاثة الفنون في شرح الجوهر المكنون، دار الكتاب العربي، الدار البيضاء (المغرب)، ط01، (1429هـ-2008م).

70 - علي محمّد الضّباع، الإضاءة في بيان أصول القراءة، تح مُحَّد خلف الحسيني، المكتبة الأزهرية للتّراث، مصر، ط01، (1420هـ-1999م).

71 - فاتن خليل محجازي، اللهجات العربية في القراءات القرآنية، دار النشر الدولي، الرياض ط2، (1434هـ،2013م).

72 - غانم قدوري، الشرح الوجيز على المقدمة الجزرية، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية ط01.

73 - قطب سيّد، مشاهد القيامة في القرآن، دار الشّروق، مصر، ط 16، (1437هـ-2006م).

74 - قطب سيّد، التّصوير الفنّي للقرآن، دار الشروق القاهرة، مصر ، ط 17،(1425هـ-2004م).

75 - قطب سيّد، في ظلال القرآن، الشّروق، القاهرة (مصر)، ط 07، (1398هـ-1978م) ج05.

76 - كريم زكي حسام الدّين، الدّلالة الصّوتية (دراسة لغوية لدلالة الصّوت ودوره في التّواصل) مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، ط01، (1412هـ-1992م).

77 - لويس شيخو اليسوعي، علم الأدب -مقالات لمشاهير العرب، مطبعة الآباء اليسوعيين بيروت(1887م).

78 - المباركفوري صفيّ الرحمان، الرّحيق المختوم، وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلامية، قطر ، ط3 (1428هـ-2007م).

79 - المراغي أحمد مصطفى، علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع، دارالكتب العلمية، بيروت (لبنان)، ط03،(1414هـ-1993م).

80 - المكودي، شرح المكودي على ألفية بن مالك، تح: فاطمة راشد الراجحي، جامعة الكويت (الكويت)، ط01، (1993م).

81 - المنيزل تمام حمد عيد، الحذف في النحو العربي، دروب ثقافية للنّشر والتّوزيع، الأردن ط01، (2012م).

82 - الميموني، علي عبد الله، فضل علم الوقف والابتداء، دار القاسم، الرّياض، (السّعودية) ط01، (1424هـ-2003م).

83 - مبارك حنون، في الصواتة الزمنية، الوقف في اللسانيات الكلاسيكية، دار الأمان، الرّباط (المغرب)، ط01،(1424هـ-2003م).

84 - محمّد إبراهيم شادي، إعجاز القرآن ومنهج البحث عن التّميّز، مكتبة جزيرة الورد أصبهان.
85 - محمّد إبراهيم شادي، البلاغة الصّوتية في القرآن الكريم، مطبعة الشّركة الإسلاميّة للتّوزيع والإنتاج والإعلان(الرّسالة)، القاهرة (مصر)، ط01، (1409هـ-1988م).
86 - محمّد النّويهي، الشّعر الجاهلي، منهج في دراسته وتقويمه، الدّار القوميّة للطّباعة والنّشر القاهرة (مصر).
87 - محمّد جواد النّوري، علم أصوات العربية، منشورات جامعة القدس المفتوحة، عمّان (الأردن)، ط01، (1996م).
88 - مُحَمَّد حسن الطيان، كيف تغدو فصيحا، وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلامية، الكويت ط01، الإصدار (1433هـ-2012م).
89 - محمّد حسن شرشر، البناء الصّوتي في البيان القرآني، دار الطّباعة المحمّدية، القاهرة (مصر) ط01،(1408هـ-1988م).
90 - محمّد حسنين أبو موسى، البلاغة القرآنية في تفسير الزّمخشري وأثرها في الدّراسات البلاغية، دار الفكر العربي، القاهرة (مصر)، (دط).
91 - مُحَمَّد حماسة عبد اللطيف، النحو والدلالة -مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي-، دار الشّروق (مصر) ط01، (1420هـ-2000م).
92 - مُحَمَّد سالم محيسن، روائع البيان في إعجاز القرآن، دار محيسن للطّباعة والنّشر والتّوزيع القاهرة (مصر) ط01،(1423هـ-2002م)
93 - مُحَمَّد عبد القادر شاهين، حاشية محي الدّين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي تح مُحَمَّد عبد القادر شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان)، ط01، (1419هـ-1999م).
94 - مُحَمَّد مُحَمَّد أبو موسى، آل حم غافر - فصّلت (دراسة في أسرار البيان)، مكتبة وهبة القاهرة (مصر)، ط01، (1420هـ-2009م).
95 - مُحَمَّد مُحَمَّد أبو موسى، الإعجاز البلاغي لتراث أهل العلم، مكتبة وهبة، القاهرة (مصر) ط02، (1418هـ-1997م).

96 - مُحَمَّد مُحَمَّد أبو موسى، دلالة التّراكيب دراسة بلاغية، مكتبة وهبة، مصر، ط 02 (1408هـ-1987م).
97 - مُحَمَّد مُحَمَّد داود، العربية وعلم اللغة الحديث، دار غريب، (2001م)، (د ط).
98 - مُحَمَّد يوسف حبلّص، أثر الوقف على الدلالة التركيبية، دار الثقافة العربية القاهرة(مصر) (دط)، (1414هـ-1993م).
99 - مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، دار المسلم، الرّياض (السّعودية)، ط02 (1416هـ-1996م).
100 - مطلوب أحمد، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، الدّار العربية للموسوعات، ط01 (1426هـ-2006م).
101 - منّاع القطّان، مباحث في علوم القرآن، مكتبة وهبة، القاهرة (مصر)، ط 11 (2000م).
102 - النّويري (أبو القاسم مُحَمَّد بن مُحَمَّد)، شرح طيبة النّشر في القراءات العشر، تح مجدي مُحَمَّد سرور، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان).
103 - نبيل بن عبد الحميد بن علي، الجامع الكبير في علم التّجويد، مطبعة الفاروق الحديثة القاهرة (مصر)، ط01، (1426هـ-2005م).

3- المراجع المترجمة

1- فرديناند دي سوسير ،علم اللغة العام، تر يوئيل يوسف عزيز، أفاق عربية ،بغداد، العراق ط01 (1985م).
2- ماريو باي، أسس علم اللّغة، تر أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة (مصر)، ط 08 (1419هـ-1998م).

4- المعاجم

1- الجوهري، الصحاح، تح أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، بيروت (لبنان)، ط04 (1990م)، ج04.

2- ابن دريد الأزدي، جمهرة اللغة، تح رمزي منير بعلبكّي، دار العلم للملايين، بيروت (لبنان) ط01،(1987م)، ج01.

3- ابن فارس (أحمد بن فارس) ، معجم مقاييس اللّغة، تح عبد السلام هارون دار الفكر للنّشر والطّباعة والتّوزيع، دمشق (سوريا)،(دط)، (1399هـ-1979م)، ج05.

4- الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تح: مكتب تحقيق التّراث في مؤسّسة الرّسالة، مؤسسة الرسالة بيروت (لبنان)، ط08، (1426هـ-2005م).

5- مُحَمَّد الأنطاكي، المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها،دار الشّروق العربي، بيروت (لبنان) ط03، (1391هـ-1971م)، ج01 .

6- مطلوب أحمد، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، الدّار العربية للموسوعات، ط 01 (1426هـ-2006م)، ج01.

5 – الدّواوين الشّعرية

1- ديوان الشّريف الرّضي، تح محمود مصطفى حلاوي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت (لبنان)، ط01، (1419هـ-1999م).

2- ديوان عمرو بن معد يكرب الزّبيدي، تح مطاع الطّرابيشي، مطب عة مجمّع اللّغة العربية بدمشق دمشق (سوريا)، ط02، (1405هـ-1985م).

3- ديوان أبي الشّيص الخزاعي وأخباره، تح عبد الله الجبوري، مطبعة المكتب الإسلامي، بيروت (لبنان)، ط01، (1404هـ-1784م).

4- ديوان أبي النّجم العجلي، تح مُحَمَّد أديب عبد الواحد، مطبوعات مجمّع اللغة العربية، دمشق (سوريا)، (1427هـ -2006م).

5- ديوان أبي تمام الطائي، تح محي الدين خياط ومحمّد جمال، مطبعة نظارة المعارف العمومية الجليلة بيروت (لبنان)، (دط)، (دتا).

6- ديوان الشّاب الظّريف، تح شاكر هادي شكر، مطبعة النّجف، العراق، (1387هـ-1967م).

7- ديوان الشّنفرى، تح إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت (لبنان)، ط 02 (1417هـ- 1996م).

8- ديوان العبّاس بن الأحنف، تح عاتكة الخزرجي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، (مصر) (1373هـ-1954م).
9- ديوان المتنبّي، مطبعة دار بيروت، بيروت (لبنان)، (1403هـ-1983م)،
10- ديوان النّابغة الذّبياني، تح عبّاس عبد السّاتر، دار الكتب العلميّة، بيروت (لبنان)، ط03 (1996م).
11- ديوان امرؤ القيس (حُندُج بن حُجر)، ديوان امرئ القيس، ضبط وتصحيح مصطفى عبد الشافي دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان)، ط05، (دتا).
12- ديوان تأبّط شرا، تح علي ذو الفقار شاكر، دار الغرب الإسلامي، بيروت (لبنان)، ط01 (1404هـ- 1984م).
13- ديوان ديك الجنّ الحمصي، جمع وشرح عبد المعين الملّوحي ومحي الدّين الدّرويش، مطابع الفجر الحديثة، حمص (سوريا)، (دط)، (1960م).
14- ديوان زهير بن أبي سلمى، نح علي امهنّا، دار الكتب العلميّة، بيروت (لبنان)، ط 03 (1441هـ-1994م).
15- ديوان طرفة بن العبد، شرح وتقديم مهدي مُحَمَّد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت ط03 (2002م).
16- ديوان عبد الله بن أبي رواحة، تح وليد قصّاب، دار العلوم للطّبتعة والنّشر، بيروت (لبنان) ط01 (1401هـ-1981م).
17- ديوان عمر بن أبي ربيعة، تح فايز مُحَمَّد، دار الكتاب العربي، بيروت (لبنان)، ط 02 (1416هـ-1996م).
18- ديوان عنترة بن شدّاد العبسي ، مطبعة الآداب، بيروت (لبنان)، ط04.
19- ديوان ديك الجنّ الحمصي، جمع وشرح عبد المعين الملّوحي ومحي الدّين الدّرويش، مطابع الفجر الجديد حمص (سوريا)، (دط)، (1960م).
20- ديوان أبي تمّام(حبيب بن أوس)، تفسير الألفاظ لمحي الدّين الخيّاط، (دط).
21- ديوان عبد الله بن أبي رواحة، تح وليد قصّاب دار العلوم للطّباعة والنّشر، بيروت (لبنان) ط01 (1401هـ-1981م).

22- ديوان عمر بن أبي ربيعة، تح فايز محمّد، دار الكتاب العربي، بيروت (لبنان)، ط 02 (1416هـ-1996م).

6- الدّوريات والمجلاّت

1- براهيمي طاهر، التّنغيم ظاهرة أصيلة في التّراث العربي الإسلامي، مجلّة دراسات أدبية، دار الخلدونية للنشر والتّوزيع، (الجزائر)، العدد: 13، السنة (1433هـ-2012م).

2- بوغاري فاطمة، القيمة التّعبيرية للائتلاف الصّوتي في القرآن الكريم، مجلّة دراسات معاصرة، جامعة أحمد بن يحي الونشريسي، تيسمسيلت (الجزائر)، السّنة04، المجلّد 04، العدد، 01 ديسمبر2019.

3- جاد الرّب محمّد يوسف أحمد، القطع في تراكيب العربية بين النّحو والدّلالة، مجلّة كلية الآداب، جامعة المنصورة، العدد:45، أغسطس(2001م)،

4- حسين حسين أسود، ملامح من التّفكير البلاغي عند العرب في العصر الجاهلي، مجلّة التّراث العربي، مجلة فصلية محكّمة تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق (سوريا)، العدد:116 (1430هـ-2009م).

5- زاهيد عبد الحميد وحسين كتّانة، قراءة في مفهوم فصاحة الكلمة في ضوء علم الأصوات الحديث مجلّة العلوم الإنسانية، جامعة محمّد خيضر، بسكرة، العدد:25، (ماي2012م).

6- الصالح آيات إسماعيل، الوقف وأثره في التأويل النحويّ عند أبي حيّان في البحر المحيط، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق (سوريا)، المجلّد87، ج03.

7- عبد القادر بن فطة، أصالة التنغيم في القرآن الكريم، مجلّة حوليات التّراث، جامعة مستغانم (الجزائر)، العدد18، السنة (2018م).

8- عيسى متّقي زاده وكاوي خضرى، دلالة الأصوات في القرآن -سورة النّجم والقمر نموذجا - أكاديميّة العلوم الإنسانيّة والدّراسات الثّقافية، آفاق الحضارة الإسلاميّة، (إيران)، العدد: 02 (1434هـ).

9- ماهر خضير هاشم، المشاكلة في اللغة العربية (صوتيا وصرفيا)، مجلة جامعة بابل، (العراق)، المجلد 18، العدد: 03، السّنة: (2010).

10- محمّد قطب عبد العال، من جماليات التّصوير في القرآن، مطبعة رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرّمة، العدد:147، السّنة 13، (1415هـ).

11- محمّد فتوح احمد، ظاهرة الإيقاع في الخطاب الشعري، مجلة البيان-(الكويت)، العدد: 288، السّنة: (1990م).

12- مدحت حسيني حسيني ليمونة، البلاغة الصّوتية في الأحاديث النّبويّة، مجلّة كلية اللّغة العربية بإتاي البارود، جامعة الأزهر(مصر)، المجلّد: 25، العدد: 02، (دتا).

13- مشتاق عبّاس معن، أساسيات الفكر الصّوتي عند البلاغيين قراءة في وظيفة التّداخل المعرفي حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، بغداد (العراق)، العدد: 27، الرسالة: 250، السّنة (1427هـ-2006م)،

14- ناصر اسطنبول، الأجناس البلاغية(الإوالية الأجناسية في الفكر العربي القديم)، طبعة دار الخلدونية مستغانم، مجلة مطارحات، العدد(02)، السنة (2010).

15- يونس علي يونس، مقدّمة في الوقف والابتداء -مصطلحاته وعلاقته بالنّحو، مجلّة دراسات في اللغة العربية وآدابها، جامعة سمنان، إيران، العدد:04، السنة:(2011م).

7- الرّسائل الجامعيّة

1- إبري أمينة، دلالة الظواهر الصوتية عند القراء-دراسة وصفية وظيفية لكتاب معاني القرآن للكسائي-، أطروحة دكتوراه، إشراف أد: سميرة رفاس، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعبّاس (الجزائر)، السنة الجامعيّ: (2016م-2017م).

2- بن شيحة نصيرة، أسلوبية البناء الصّوتي في الخطاب الشّعري المعاصر -محمود درويش أنموذجا- أطروحة دكتوراه، إشراف: أ د عقاق قادة، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعبّاس (الجزائر) السّنة: (1434هـ-2013م).

3- بن عربية راضية، الظواهر الصوتية في قراءة الإمام نافع-سورة التوبة أنموذجا-دراسة صوتية ووظيفية وتطبيقية، أطروحة دكتوراه، إشراف:أد خير الدّين سيب، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان (الجزائر)، السنة: (1432هـ-2011م).

4- بن فريحة الجيلالي، التّواصُل اللّغَوي في ظِلّ التّنوّعَات الصّوتِية، أطروحة دكتوراه، إشراف أد: عرابي أحمد، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم (الجزائر)، السّنة(1432هـ-2011م).

5- بن يحي محمّد، خصائص الأسلوب في شعر النّابغة الذّبياني، أطروحة دكتوراه، إشراف د: مُحَّد خان، جامعة مُحَّد خيضر، بسكرة(الجزائر)، السّنة: (1436هـ-2015م).

6- بوداود براهيمي، فيزياء الحركات العربية بين تقديرات القدامى وقياسات المحدثين، أطروحة دكتوراه إشراف:أ د مكّي درّار، جامعة السّانيا، وهران (الجزائر)، السّنة: (2011م-2012م).

7- بوعنّاني سعاد آمنة، الدّرس الصّوتي عند علماء القرن الخامس الهجري، أطروحة دكتوراه ، إشراف أد: أحمد عزّوز، جامعة وهران (الجزائر)، السّنة: (2010م-2011م).

8- بولعشار مرسلي، الإعجاز البياني في الطّراز، رسالة ماجستير، إشراف: أد عشراتي سليمان، جامعة وهران، السّنة: (2006م-2007م).

9- تركي امحمّد، الحجاج وأثره القرائي على النّصّ الشّعري بحث في جدليّة التّلقّي وآليات التّأويل أطروحة دكتوراه، إشراف أد: زرّوقي عبد القادر، جامعة ابن خلدون، تيارت (الجزائر)، السّنة: (1437هـ-2016م).

10- حابش العلياني محمّد صالح محمّد، سورة فصّلت -دراسة بيانية-، رسالة ماجستير، إشراف د: حسن بن محمّد باجودة، جامعة أم القرى، المملكة العربيّة السّعودية، السّنة:(1422هـ).

11- حسني نور الهدى، الدّرس اللغوي عند ابن سنان الخفّاجي، أطروحة دكتوراه، إشراف د: دليلة مزور، جامعة مُحَّد خيضر، بسكرة (الجزائر)، السّنة: (1437هـ-2016م).

12- دالي صباح، البنية اللغوية في سورة الكهف -دراسة لسانية تطبيقية-، أطروحة دكتوراه، إشراف أد: عبد الحليم بن عيسى، جامعة أحمد بن بلّة، وهران(الجزائر)، السّنة: (2013م-2014م).

13- ربّاع هيثم جميل ، التّوسّع بالقطع في كتاب سيبويه، مقتضياته وأحكامه، رسالة ماجستير، إشراف د: هاني البطّاط، جامعة الخليل (فلسطين)، السّنة: (2013م-2014م).

14- زرزور العمري هدى صيهود، المظاهر الأسلوبية وأثرها الأسلوبي في التّعبير القرآني، رسالة ماجستير إشراف: أ د إياد عبد الودود عثمان الحمداني، كلية التربية للعلوم الإنسانية، جمهورية مصر السنة: (1434هـ-2013م).

15- كلاع رشيدة، الخيال والتّخييل عند حازم القرطاجنّي بين النّظرية والتّطبيق، رسالة ماجستير، إشراف د: العلمي لراوي، جامعة منتوري، قسنطينة(الجزائر)، السنة: (2004م-2005م).

16- هارون مجيد، جماليات الوقف والتّنغيم في قراءات القرآن الكريم - سورة الرّحمان أنموذجا، أطروحة دكتوراه، إشراف: العربي عمّيش، جامعة السّانيا (وهران)، السّنة: (2013م-2014م).

17- الغامدي بندري، آراء الفرّاء النّحوية في كتاب القطع والائتناف وأثرها في أحكام الوقف والابتداء رسالة ماجستير، إشراف د: عبد الله بن محمّد المسملي، جامعة أم القرى، مكّة المكرّمة، (المملكة العربيّة السّعودية)، السنة: (1435هـ-1436هـ).

فهرس الموضوعات

العنوان: جهود البلاغيين في الوقوف على الظّواهر الصّوتية في القرآن الكريم	الصّفحة
إهداء	
شكر وتقدير	
مقدمة	أ - و
مدخل: مظاهر بلاغة اللّسان العربي قبل نزول القرآن الكريم	03
عوامل نبوغ اللّسان العربي	03
1-عامل التّخييل	05
2- عامل البيئة	07
3- التنقيح والتّهذيب	10
نماذج بلاغيّة وصوتية من التّراث العربي قبل نزول القرآن الكريم	13
1- خطبة قس بن ساعدة	14
2- عنترة بن شدّاد	16
3- امرؤ القيس بن حجر	17
4- النّابغة الذّبياني	21
5- الأعشى الكبير	23
الفصل الأوّل:الظّاهرة الصّوتية في القرآن الكريم من المعيار النّحوي إلى الانزياح البلاغي	29
المبحث الأول: ملامح إعجاز بلاغة القرآن الكريم في صدر الإسلام	27
1- تحدّي بلاغة القرآن لفصحاء العرب	27
2- نماذج من إعجاز بلاغة القرآن لأهل مكّة	32
أ/سورة النّجم	32
ب/ سورة فصّلت	37
المبحث الثّاني:جهود النّحاة في الوقوف على الظّواهر الصّوتية في القرآن الكريم	45
1- غائلة اللّحن وجهود أبي الأسود الدّؤلي	46

2- لمسات الخليل البلاغية في كتابه العين	47
3- لمسات سيبويه البلاغية في كتابه الكتاب	51
4- الدّراسة الصّوتيّة عند ابن جنّي	54
أهمّ الظّواهر الصّوتية عند النّحاة	56
1- ظاهرة الإدغام	56
1-1 مفهوم ظاهرة الإدغام	56
1 2 -أنواع الإدغام	58
أ/التماثل	58
ب/التجانس	58
ج/التقارب	59
1-3- أقسام الإدغام	61
الإدغام الكبير والصّغير	61
1-4- تجلّيات الإدغام في الدّرس البلاغي	60
2- ظاهرة القطع والاستئناف	62
2-1-مفهوم القطع والاستئناف	62
2-3-أهميّة القطع والاستئناف	63
2-3- أنواع القطع والاستئناف	66
2-4- تجلّيات ظاهرة القطع والاستئناف في الدّرس البلاغي	67
أ/الحذف	69
ب/الوصل والفصل	68
المبحث الثّالث: إرهاصات الدّرس الصّوتي عند البلاغيين	71
1-مفهوم الصّوت عند البلاغيين	72
2- التّفريق بين الصّوت والحرف	71
3-إنتاج الصّوت عند البلاغيين	72

أ/ الجهاز النّطقي	73
ب/ كيفية حدوث الصوت	75
ج-المصاكّة والاعتماد	77
4-المخارج والصّفات عند البلاغيين..	78
خلاصة الفصل الأول	87
الفصل الثّاني: الظّواهر الصّوتية عند البلاغيين القدامى	91
المبحث الأول: ظاهرة الفصاحة عند البلاغيين التراثيين	91
1- مفهوم الفصاحة	91
2- معايير الفصاحة	93
أولا: جهود الجاحظ (255هـ) في تقفّي ظاهرة الفصاحة	92
ثانيا: جهود ابن سنان الخفّاجي(466هـ) في تقفّي ظاهرة الفصاحة	107
ثالثا- الحروف العربية وكمال الفصاحة عند العرب	117
1- الحروف المستحسنة وأثرها في تحقيق الفصاحة	118
أ/ نظرة ابن الأثير للحروف المستحسنة	117
ب/ نظرة العلوي للحروف المستحسنة	119
2- الحروف الذّلقية وأثرها في تحقيق الفصاحة	121
أ/مفهوم الإذلاق والإصمات	122
ب/رأي ابن سنان في الحروف الذّلقية	123
رابعا: ظاهرة الفصاحة عند عبد القاهر الجرجاني	124
أ/ نظرة الجرجاني إلى جهود سابقيه في الفصاحة	125
ب/مفهوم النّظم عند الجرجاني وأهمّ أسسه	126
المبحث الثّاني: الظّواهر الصّوتية عند البلاغيين المفسّرين	132
الظّاهرة الأولى: ظاهرة التّلاؤم الصّوتي في القرآن الكريم	133
1- مفهوم الصّوت	134

2- عوامل التّلاؤم الصّوتي في القرآن وملامحه	137
الظّاهرة الثّانية: التّجانس الصّوتي في القرآن الكريم	142
1- مفهوم التّجانس الصّوتي	142
2- أنواع التّجانس الصّوتي	143
3- نماذج من التّجانس الصّوتي في القرآن الكريم	144
3-1 مظاهر التّجانس الصّوتي عند القرّاء والمجوّدين	144
3-2 مظاهر التّجانس الصّوتي في القرآن عند علماء النّحو والصّرف	147
الظّاهرة الثّالثة: الفواصل القرآنية	148
1- مفهوم الفواصل القرآنية	148
2- بين الفواصل القرآنية والسّجع	149
3- أثر الفواصل القرآنية في تحقيق الانسجام الصّوتي في القرآن الكريم	152
الظّاهرة الرّابعة: فواتح السّور القرآنية	156
1- أنواع الاستفتاحات في السّور القرآنية	157
2- الحروف المقطّعة وأقوال البلاغيين المفسّرين فيها	158
3- الأبعاد الدّلالية والصّوتية للحروف المقطّعة وآراء البلاغيين المفسّرين فيها	166
المبحث الثالث: الظّواهر البديعية عند البلاغيين القدامى	179
مفهوم علم البديع	179
الظّاهرة الأولى: الجناس الصّوتي	179
1- مفهوم الجناس الصّوتي	179
2- أقسام الجناس الصّوتي ونماذجه في القرآن الكريم	180
الظّاهرة الثّانية: الطّباق في القرآن الكريم	186
1- مفهوم الطباق	186
2- مظاهر الطّباق	187
3-أقسام الطّباق وأنواعه	188

4- الأبعاد والصّوتية الدّلالية للطّباق	188
الظّاهرة الثّالثة: المقابلة	187
1- مفهوم المقابلة	187
2-أنواع المقابلة في القرآن الكريم	191
3-الأبعاد الصّوتية والدّلالية للمقابلة	193
الظّاهرة الرّابعة: السّجع في القرآن الكريم	196
1- مفهوم السّجع	196
2- أنواع السّجع ونماذجه من القرآن الكريم	197
3- الأبعاد الصّوتية والدّلالية للسّجع في القرآن الكريم	198
الظّاهرة الخامسة: مراعاة النّظير	200
1- مفهوم مراعاة النّظير	201
2- الأبعاد الصّوتية والدّلالية لظاهرة مراعاة النّظير	205-202
الظّاهرة السّادسة: التّعديد	205
1- مفهوم ظاهرة التّعديد	205
2- الأبعاد الصّوتية والدّلالية لظاهرة التّعديد	206
الظّاهرة السّابعة: الموازنة	208
1- مفهوم ظاهرة الموازنة	209
2- بين السّجع والموازنة	209
3-الأبعاد الصّوتية والدّلالية لظاهرة الموازنة	210
خلاصة الفصل الثّاني	212
الفصل الثّالث: الظّواهر الصّوتية عند البلاغيين المحدثين	213
المبحث الأوّل: التّلوينات الصّوتية وأثرها البلاغي في النّص القرآني	215
الظاهرة الأولى: النّبر في القرآن الكريم	215
1-مفهوم النّبر	216

2 – مواطن ورود النّبر في اللّغات	219
3- الأبعاد الصّوتية والدّلالية لظاهرة النّبر في القرآن الكريم	221
الظاهرة الثّانية: التّنغيم في القرآن الكريم	221
1- مفهوم التّنغيم	222
2- أقسام التّنغيم	223
3- تجليّات التّنغيم في التّراث العربي	225
4- الأبعاد الصّوتية والدّلالية لظاهرة التّنغيم في التّراث	227
5- الأبعاد الصّوتية والدّلالية لظاهرة التّنغيم في القران الكريم	228
الظاهرة الثّالثة: الوقف في القرآن الكريم	234
1- مفهوم الوقف	235
2- أهميّة الوقف في القرآن الكريم وأبعاده الصّوتية	236
المبحث الثّاني: ظاهرة الحذف في القرآن الكريم	243
1- مفهوم الحذف	243
2- شروط الحذف عند البلاغيين	245
3 – أنْـــــوَاعُ الحَذْفِ	246
4- فوائد الحذف	250
5- ظاهرة الحذف في الدّرس البلاغي القديم	251
6- ظاهرة الحذف لدى المحدثين	253
أوّلا: ظاهرة الحذف عند صالح فاضل السّامرائي	253
ثانيا: ظاهرة الحذف عند بنت الشّاطئ	261
المبحث الثّالث: ظاهرة الإيقاع في القرآن الكريم	272
1- مفهوم الإيقاع	272
2- ظاهرة الإيقاع في التّراث العربي القديم	276
3- ظاهرة الإيقاع في القرآن الكريم عند المحدثين	279

أوّلا: ظاهرة الإيقاع عند مصطفى صادق الرّافعي	279
ثانيا: ظاهرة الإيقاع عند سيّد قطب وتجلياتها في القرآن الكريم	293
4- عوامل الإيقاع الصّوتي في القرآن الكريم وأهمّ أسبابه	301
5- بصمات طاهر بن عاشور وبنت الشّاطئ الصّوتية في سورة الانشراح	312
خلاصة الفصل الثّالث	314
خاتمة	317
قائمة المصادر والمراجع	335
فهرس الموضوعات	358

ملخص: تعدّ الظّواهر الصّوتية في القرآن الكريم من أهمّ المباحث التي اعتنى بها العلماء قديما وحديثا، ولقد كان للنّحاة قصب السّبق في التّنقيب عن هذه الظّواهر وهي: الإدغام، الإمالة، الإبدال، الوقف،...كما تقفّوا ما ينجرّ عن هذه الظّواهر من تغيّرات صوتية وصرفية بحتة، وكان هدفهم وضع حصن يحمي القرآن الكريم من اللّحن.

اقتحم البلاغيون القدامى معترك البحث في دراسة الظّواهر الصّوتية في القرآن الكريم، وكان ولوجهم منعرجا حاسما في هذه الدّراسة، فقد أضافوا العديد من الظّواهر الصّوتية على غرار: التّلاؤم الصّوتي، التّجانس، الفواصل القرآني ة، الحروف المقطّعة وأصداؤها الصّوتية، والظّواهر البديعية وأثرها الصّوتي في النّص القرآني؛ كما كان للباحثين المحدثين قدم صدق في تقفّي الإعجاز الصّوتي والبلاغي في القرآن الكريم، وكان عملهم بصمة لا يستهان بها، فقد أضافوا لجهود سابقيهم التّلوينات الصّوتية (النّبر، الوقف، التّنغيم)، وظاهرتي الحذف والإيقاع، وأفاضوا في تقفّي الأصداء الصّوتية لهذه الظّواهر الصّوتية في القرآن الكريم.

الكلمات المفتاحيّة: الصّوت اللّغوي، الظّاهرة الصّوتية، الإيقاع، التّجانس الصّوتي، الجرس.

Abstract: **The phonological phenomena in the Holy Qur'an are among the most important topics tha scholars have closely considered in the past and present. The grammarians were the first to explore these phenomena, namely: tipping, transposition, endowment, ... They also deliberated on those phenomena from purely phonological and morphological changes. Their objective was to keep the Holy Qur'an from any mispronunciation or meaning deviation. The early rhetoricians tackled the area of research in the study of phonemic phenomena in the Holy Qur'an. Their perception was a decisive turning point in this study. They added many phonemic occurrences, such as: phonemic harmony, homogeneity, Qur'anic breaks, broken letters and their phonemic echoes of the rhetoric phenomena and their phonological effect on the Qur'an text. The modern scholars also had an advance in investigating the phonetic and rhetorical miraculousness in the Holy Qur'an. Their work had an imprint that cannot be underestimated. They added to the accentuation, endowment, and) efforts of their predecessors the phonemic patterns intonation), the phenomena of deletion and rhythm, and they elaborated on the sound .echoes of these phonemic phenomena in the Holy Qur'an**

Keywords: **Phoneme, Phonemic Phenomena, Rhythm, Homogeneity**

Résumé: **Les phénomènes phonologiques dans le Noble Coran sont considérés comme l'un des sujets les plus importants dont les érudits se sont occupés dans le passé et le présent. Mélodie**

Les anciens rhéteurs sont entrés dans l'arène de la recherche dans l'étude des phénomènes phonémiques dans le Saint Coran, et leur pénétration a été un tournant décisif dans cette étude. Les chercheurs modernes avaient également une avance de sincérité dans l'identification des miracles phonologiques et rhétoriques dans le Noble Coran, et leur travail avait une empreinte qui ne peut être sous-estimée.

les mots clés: **son linguistique, phénomène phonémique, rythme, homogénéité phonémique, timbre.**